

مجلة شهرية . العدد الحادى والعشرون . السنة الثانية . أكتوبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 21 - October 2000

محمد حسنين هيكل

سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية

الطائرة المصرية رقم ٩٩٠

تقرير يحاول كشف الغموض

الغرب يعلن الحرب على أوبك

بعد الجينوم

ثورة فى صناعة الدواء

عصر الفساد

من فساد السفح إلى فساد القمة

الأموال والصوت اليهودى

فى معركة الرئاسة الأمريكية

شامبليون

الولع بمصر يتحول إلى علم

الإنجليزية

هل تقضى على اللغات الأخرى؟

من التطرف إلى التأمل

فن الشباب فى صالون الشباب

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية

العدد الحادي والعشرون

أكتوبر ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



«كل المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

محتويات العدد:

- كلمة.. «حديث الوثائق» ٣
- محمد حسنين هيكل ٤

«سياحة صيف في الوثائق الإسرائيلية»
- إيلين سكارى ١٦

«اللغز المحير لسقوط الطائرة المصرية»
- محمد حقى ٢٤

«معركة الرئاسة بين بوش وآل جور تحسمها الأموال الناعمة وأصوات اليهود»
١. *The Corruption of American Politics* تأليف: إليزابيث درو
٢. *Inside the American Jewish Establishment* تأليف: جي.جي كولدبيرى
- حسين عبد الله ٣٠

« الغرب يعلن الحرب على أوبك»
- يوسف القعيد ٣٤

«شامبليون ومصر وحجر رشيد»
١. شامبليون: رجل من نور، تأليف: جان لاكوتير
٢. شامبليون في مصر - الرسائل والمذكرات، ترجمة: عماد عدلى
- فاطمة على ٤٠

« فن الشباب في صالون الشباب»
- محمود المراغى ٤٤

« عصر الفساد.. من فساد السفح إلي فساد السلطة ومن الرشاوى الصغيرة إلي رشاوى الجنرالات»
- جوشوا أ. فيشمان ٥٠

«هل تقضى الإنجليزية على اللغات الأخرى؟»
- محمد رءوف حامد ٥٤

«ثورة في صناعة الدواء بعد اكتشاف الجينوم»
- نيقولا زيادة ٦٠

«زيارة إلى بخارى»
- ليلى الجبالى ٦٤

«من يقهر الآخر.. الإنسان أم الطبيعة»
The Future of Climate تأليف: أندرو جودى
- عاطف الغمرى ٦٦

«المسرح التجريبي في أمريكا»
Contemporary American Playwrights تأليف: كريستوفر بجستلى
The New Theatre تأليف: روبرت كويجان
- صلاح عبد الله ٧٠

«نظرة في التراث الجنسى عند العرب»
نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تأليف: شهاب الدين أحمد التيفاشى
- عروض موجزة ٧٢
- قراءات جديدة ٧٧
- سلامة أحمد سلامة ٨٢

«نون»: الدورة الأوليمبية وثقافة الرياضة

كتاب العدد:

- إيلين سكارى .. أستاذة علم الجمال والنظرية العامة للقيمة في جامعة هارفارد
- جوشوا أ. فيشمان .. أستاذ اللغويات وعلم اجتماع اللغة بجامعة ستانفورد
- حسين عبد الله .. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى
- صلاح عبد الله.. باحث في التراث الإسلامي
- عاطف الغمرى .. صحفى
- فاطمة على .. ناقدة فنية
- ليلى الجبالى .. صحفية
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد حقى .. صحفى مصرى مقيم في واشنطن
- محمد رءوف حامد .. أستاذ علم الأدوية في الهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية
- محمود المراغى .. صحفى
- نيقولا زيادة .. مؤرخ عربى
- يوسف القعيد .. صحفى وروائى

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجي - سعد الدين شحاتة**

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.

Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..



حديث الوثائق

«ليس كتابة فى السياسة ولا فى التاريخ، وإنما هو قراءة فى السياسة وفى التاريخ».. التعبير للأستاذ هيكل، والوصف هو لمقاله هذا الشهر الذى يبدأ به سلسلة «قراءات» فى الوثائق الإسرائيلية. متابعاً لمجرى الحوادث من «الضفة الأخرى» لصراع درامى استغرق نصف قرن كامل من الحياة والسياسة والحرب.. والتاريخ. وربما ـ يعتبره البعض على الأقل ـ قد وصل الآن إلى ذروته.

ألف وخمسمائة ورقة مصورة من ملفات وزارة الخارجية الإسرائيلية، ومن محاضر لاجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى، بالإضافة إلى مجموعة من ٥٢٠ صفحة مصورة من يوميات مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون» كانت هى «المادة» الرئيسة لتلك «القراءة» بالإضافة إلى تقرير الجنرال «ايلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية إبان حرب ١٩٧٣ والذى يتضمن معلومات ـ تظل مثيرة ـ عن الدور الذى قام به بعض الملوك العرب فى علاقاتهم الخفية بإسرائيل.

ولأن حقائق التاريخ تقول بأن «الأمس هو الأب الشرعى لليوم كما هو للغد»، تأتى أهمية «قراءة اليوم» لمحضر اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسته يوم ٢٩ مايو ١٩٤٩، والتى يعرض فيها بن جوريون مقترحاته لإستراتيجية إسرائيل حيال مصر ودول الجوار، والتى قد لايكون أكثرها إثارة، تأكيده على أهمية التعامل مع «الموزاييك» الإنسانى فى الشرق الأوسط، فيتحدث عن إقامة علاقات مميزة مع «الموارنة» فى لبنان، معتبراً أن «أقباط مصر حالة ميئوس منها لأن حرصهم على حياتهم المشتركة مع المسلمين طغى عندهم على أى اعتبار آخر..» .

ليس بأقل إثارة أيضا ماتذكره الوثائق الإسرائيلية من تفاصيل لمحاولة بن جوريون توسيط السير «دنيس هاملتون» (رئيس تحرير «الصانداى تايمز» وصديق هيكل) فى فتح قناة حوار مع جمال عبد الناصر «الذى لابد أنه يشعر بخيبة أمل فى كل العرب..» على حد قول بن جوريون فى يومياته، التى يعود إليها هيكل فى مقاله معلقاً على مافيها «بما يعرف.. وبما دوّن هو فى أوراقه». وبغض النظر عن أن القصة لم تنته أبداً كما كان يأمل الزعيم الصهيونى بأن تحط طائرته فى مطار القاهرة، فإن وقائعها التى تعود إلى ذلك اليوم البعيد من ربيع عام ١٩٦٣ تظل تفاصيلها التى جاءت فى يوميات بن جوريون وأوراق هيكل حافلة بالإثارة.



والإثارة «الخبرية» التى ترتبط عادة بقصص الساسة والسياسة، قد ترتبط أكثر ـ عند البعض ـ بقصص الفساد والمال. خاصة إذا اقتربت الحكاية من أسماء كبيرة، وإذا فاحت فى تفاصيلها ـ ربما لأسباب قصصية بحتة ـ رائحة النساء. الأمر الذى يدفع عادة بالمدققين المتريثين فى أحكامهم إلى التأنى أو بالأحرى إلى النأى بأنفسهم عن لغط «وخلط» يصاحب عادة مثل تلك القصص والروايات. هذا لاينفى أن الفساد موجود (وإن احتاجت الأحكام دائما إلى التوثيق). والجديد أنه لم يعد ـ وحسب ـ قضية أخلاقية، بل أصبحت له سياساته وعلمه واقتصادياته. وأصبح محلاً لاهتمام مراكز أبحاث محترمة ومؤسسات دولية لها شأنها ومصداقيتها.

بعيدا عن الشائعات وقصصها ـ وما أكثر صخبها وضبابها ـ تعرض «وجهات نظر» لتقرير صادر عن مؤسسة دولية هى «صندوق النقد الدولى». والتقرير الذى يصفه أصحابه بأنه «الأول من نوعه» وُزع فى فبراير ٢٠٠٠ تحت عنوان «الفساد والإنفاق العسكرى».

محمود المراغى الكاتب المتخصص فى الشئون الاقتصادية يقدم لنا قراءته الخاصة للتقرير فى ضوء أوراق أخرى صادرة عن «البنك الدولى» تتناول أيضا قضية الفساد وتخلص إلى حقيقة ملخصها أن «كل الطرق تؤدى إلى السرقة، والسرقة اسمها الآن «بيزنس». أبطال البيزنس قد يكونون هم الأهم فى بلادهم ومواقعهم..إنها لعبة الكبار، وليست لعبة الصغار».



ترتبط «وجهات نظر» باتفاقات نشر مع نظيرتها الأمريكية الرصينة «نيويورك ريفيو أوف بوكس». وفى العدد الحالى وبمناسبة مرور عام على سقوط طائرة مصر للطيران ٩٩٠ (٣١ أكتوبر ١٩٩٩)، تنشر المجلتان تحقيقا موسعاً ومفصلاً، ربما يجد البعض فيه اختلافاً عن لهجة سادت فى بعض وسائل الإعلام الأمريكية الأخرى التى تبعد بها أحياناً ضرورات التنافس التوزيعى والسبق الصحفى ـ وربما عوامل أخرى ـ عن الدقة والتمحيص والدراسة الوافية التى تحرص عليها مجلات مثل New York Review of Books.

ويبين التحقيق الصحفى ـ الأكثر من ممتاز ـ كيف اهتمت صاحبته بتحرى الحقائق بدقة، تصل إلى التمييز ليس بين الدقائق فقط، بل بين الثوانى ذاتها. وكيف كان عليها لكى تكتب هذا التحقيق أن تعود إلى العديد من الوثائق من قبيل السجلات اليومية لإدارة الطيران الفيدرالية، وكذلك السجلات العسكرية الواردة من مراقبة الأسطول فى «فيرجينيا كيبس».

العودة للوثائق ـ مع الاهتمام بتوثيقها والإشارة إلى مصادرها ـ غابت فى حقيقة الأمر عن العديد من الكتابات التى تناولت قضية الطائرة، سواء تلك التى روجت لنظرية المؤامرة ـ أو احتمالاتها ـ أو الأخرى التى تصدت لكتابات اعتمدت على مفاهيم ثقافية ودينية مغلوطة.

وكان مبدأ حرية الاطلاع على المعلومات، والذى دونه لايمكن أن تكون هناك صحافة قادرة وفعالة، قد أتاح لكاتبة التقرير الاطلاع على تقارير لها حساسية خاصة مثل بيانات هوائيات «رادار» القوات الجوية الأمريكية فى «ريفر هيد» بلونج أيلاند. وكذلك على خرائط الطيران العسكرية.

والتحقيق الصحفى «المدقق.. والمتعمق» يعتمد أيضا على العديد من الدراسات المتخصصة ذات الصلة. منها دراسة لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» عن التشويش الكهرومغناطيسى وعلاقته بانفصال أو تعطل الطيار الآلى (١٩٩٤)، ودراسة لمعهد فيينا لطب الطيران وبيولوجيا الفضاء، ودراسة لسلاح الجو الأمريكى (١٩٨٨) عن الموضوع ذاته. فضلاً عن دراسة مطولة لوزارة الدفاع الأمريكية استمرت ثلاث سنوات كاملة.

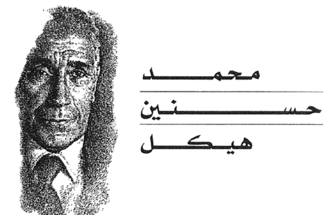
وينطلق التحقيق الصحفى ـ الأشبه فى دقته وشموله بالتحقيق القضائى ـ من الحقائق «المجردة» التى لاخلاف عليها ويحددها بأربع (ويبقى ماعدا ذلك فى إطار التخمينات) وهى: أن هبوط الطائرة كان حاداً ومفاجئاً، وأن الطيار الآلى كان معطلاً، وكذلك المحركات، بالإضافة إلى أن مجموعة الروافع كانت تعمل بصورة غير عادية..

وفى حين تحرص القصة الصحفية على الإشادة بالموقف «الرائع» للمجلس القومى لسلامة النقل، والذى «يحرص على ألا يدعى معرفة السبب قبل الوصول للأدلة»، تنتقد بعنف الإثارة الإعلامية «غير المتماسكة منطقياً» والتى تذهب إلى اتهام مساعد قائد طائرة مصر للطيران ٩٩٠ بتعمد الانتحار وقتل ٢١٦ راكبا. وفى هذا السياق يعود التحقيق الصحفى ـ كعادته ـ إلى دراسات اجتماعية توضح أن العبارة الشهيرة «يرددها كثير من المصريين حوالى مائتى مرة فى اليوم، وينطقها الأمريكيون المصريون ثلاثين مرة ..».

ولاتدعى كاتبة المقال ـ رغم كل مابذلته من جهد توثيقى ـ أنها قد وصلت للسبب «المؤكد» لسقوط الطائرة، ولكنها توضح أنها «فقط» تلفت الانتباه إلى عوامل ربما كان من المفيد أخذها فى الاعتبار. خاصة فى ظل حقيقة أن الساحل ذاته، فى المنطقة الجغرافية ذاتها، شهد كارثتى طيران سابقتين.

وجهات نظر

سياحة صيف فى



قضيت أسابيع من شهور هذا الصيف الذى يوشك على الانقضاء ـ تاركاً نفسى لسياحة واسعة وحُرَّة وسط الوثائق الإسرائيلية.

مكاناً: فقد ظللت على سواحل البحر الأبيض المتوسط ـ مرة على شاطئه المصرى الممتد والمفتوح إلى نهاية الأفق، ومرة أخرى على شاطئه الإيطالى فى جزيرة «سردينيا» وخلجانها المتلاصقة والمتعانقة فى منطقة «كوستا سميرالدا» (ساحل الزُمُرُّد).

وزماناً ـ بعد «مكاناً» ـ فقد قضيت كل الوقت ـ أو معظمه ـ على شواطئ البحر الأبيض المتوسط مُستَغرِقاً ـ أو غارقاً! ـ مع مجموعات وَفيرة ومُثيرة من الوثائق الإسرائيلية!



والوثائق الإسرائيلية مادة جديدة بالنسبة لى. فمن زمن طويل تعَرَّفتُ على الوثائق البريطانية، وتَعَوَّدتُ الاطلاع عليها قراءة ودرساً عند اللزوم. ونفس الشىء بالنسبة للوثائق الأمريكية والوثائق الفرنسية. أما الوثائق الإسرائيلية فقد بَدَت لى بعيدة المنال، أو هكذا خَطَرَ لى تحت انطباع (ثبَتَ خطؤه) ـ بأن الهَوَس الأمنى الذى تبديه إسرائيل (حقيقياً كان أو مُصطَنَعاً) يَضَع على الملفات الإسرائيلية قِفلاً ضاع مفتاحه!

وكنت أعرف أن «موشى شاريت» مسئول السياسة الخارجية فى الوكالة اليهودية قبل إعلان قيام الدولة ـ وأول وزير لخارجيتها بعد الإعلان ـ اعتمد ـ ضمن عملية «إنشاء وترتيب وزارة الخارجية لدولة إسرائيل» ـ نظاماً للتعامل مع الوثائق فى وزارته يُساير به «ما تجرى عليه الدول المتحضرة».

كذلك كنت أعرف أن واحداً من أبرز مساعدى ومستشارى «شاريت» وهو «روفين شيلواح» سبق غيره فى الاهتمام بمسالة الوثائق، وكانت مقترحاته التى وافق عليها «شاريت» ـ أن تفتح إسرائيل ملفاتها بعد ثلاثين سنة «حتى تستطيع الذاكرة الإسرائيلية أن تستكمل الحقائق اللازمة لاتصال فكرها العام، وأن تملأ فجوات أو تعيد تصحيح تصورات قد تكون الظروف أثرت بها على سطح وشكل الحوادث، وحتى يكون فى مقدور المهتمين فى العالم أن يطلعوا على عناصر وموجبات صنع القرار الإسرائيلى» (ربما من هنا أن واحداً من أهم مراكز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى إسرائيل اليوم يحمل اسم «شيلواح» تكريماً للرجل وتقديراً لجهده).

وأخيرا فقد كنت أعرف أن مقترحات التعامل مع الوثائق عُرِضَت على رئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت «دافيد بن جوريون»، وقد قبل «بن جوريون» بهذه المقترحات للدولة كلها وليس فقط لوزارة الخارجية ـ لكنه استثنى من «أجَل الثلاثين سنة» ملفات عدة جهات منها رئاسة الوزراء، والمخابرات العامة (هيئة «الموساد»)، والجيش بما فى ذلك المخابرات العسكرية (هيئة «أمان»)، ولجنة التوجيه العلمى والتكنولوجى لإسرائيل، ولجنة الأمن والدفاع فى الكنيست. وكان قرار «بن جوريون» بالنسبة لملفات هذه الجهات مَد الأجَل إلى خمسين سنة، مع إعطاء مكتب رئيس الوزراء (وجهازه) سلطة إطالته إلى خمسين سنة أو أكثر إذا تعلق الأمر بأسباب للأمن القومى «يكون لها تأثير باق ومستمر».

وبرغم ذلك كله ـ مما كنت أعرفه ـ فقد ظل لدىَ ما تلحقه «الانطباعات الخاطئة» بأصحابها حين يركنون إليها حتى تُقعِدهم عن المتابعة والمراجعة!



والذى حدث بعد ذلك هو أن الملفات بالفعل فُتِحَت ـ على الأقل جزئيا، بمعنى أن الاطلاع عليها قيد بتصريح خاص، ثم إن الاطلاع اقتصر على قلة مختارة، ولعل ذلك كان نوعاً من التجربة لثغرات النظام قبل اعتماد تطبيقه. وكان الدكتور «مايكل بريشر» صانع المراجع القَيِّمة والموثوقة عن صنع القرار فى إسرائيل (وهى حتى الآن أربعة أجزاء) أكثر من استفاد من رخصة الاطلاع المحدود لتجربة نظام التعامل مع الوثائق فى إسرائيل.

وكانت مؤلفات «بريشر» عوناً لا غِنى عنه لأى مشغول بعملية صنع القرار فى إسرائيل، لكنها لا توازى رؤية الصور الأصلية للوثائق الإسرائيلية، والإمساك فى اليد بها، والاطلاع عليها، ودراستها مباشرة ومن موقع نظر قد يختلف عن موقع نظر «بريشر».



وفى الثمانينات من القرن الأخير ـ القرن العشرين ـ بدأت بعض الملفات الإسرائيلية تُفتَح ـ لكن البداية لم تكن مشجعة. فقد كان الاستهلال أكواماً من تقارير للوكالة اليهودية ـ قبل قيام الدولة ـ فى موضوعات تتعلق بالهجرة، وشئون الجاليات اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، ومشاكل المؤسسات العاملة وسط هذه الجاليات خصوصاً فى علاقاتها مع حكومات البلاد التى تعمل فيها.

وكانت هذه البداية مُخَيِّبة للأمَل ومُؤَكِّدة لانطباع سبق، لكن حقائق الأشياء مع حركة تعامل دءوبة دَفَعَت خطوة بعد خطوة إلى مسار آخر، خصوصاً مع اطمئنان الدولة اليهودية لقوتها ـ مقابل ضعف خصومها ـ وهنا فإن القطرات الأولى المخَيِّبة للأمل تَحَوَّلَت إلى خيط ماء ينزل من صنبور، ثم إن هذا الخيط تَحَوَّل إلى مجرى ماء يمتلئ زيادة مع كل موسم، ثم إن هذا المجرى اتسع عند آخره ليصبح مُسَطَّح ماء قد لا يكون بحراً، ولعله أقرب إلى بحيرة، وبدا ذلك كافياً لإثارة الفضول، ثم الاهتمام. وذلك ما كان بالنسبة لى.

هكذا على شواطئ البحر الأبيض جنوباً وشمالاً كان معى ملء حقيبة كاملة من الوثائق الإسرائيلية ـ تحتوى أكثر من ألف وخمسمائة ورقة مُصَوَّرة من الوثائق الإسرائيلية، مُستَخرَجة من ملفات وزارة الخارجية الإسرائيلية المدرجة تحت عنوان «Foreign Ministry Record Groups» ـ أو من الملفات التى يرمز إليها بالحروف «I. S. A.» وهى اختصار «Israel State Archives» أى «أرشيف دولة إسرائيل»، ومن ضمنها محاضر لاجتماعات مجلس الوزراء فى الفترة ما بين سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٦٦. وكانت هذه الوثائق مجموعات مُنتقاة قام على نقلها من العبرية إلى الإنجليزية مكتب للترجمة فى إسرائيل يتعامل مع عدد من الجامعات ومعاهد ومراكز الأبحاث السياسية والإستراتيجية الكبرى فى العالم، مشغولة بالشرق الأوسط وما يجرى فيه!

بالإضافة إلى الوثائق اتسعت حقيبتى لأربعة مراجع كل منها وثيقة قَيِّمة فى حد ذاتها:

● الأولى مجموعة من ٥٢٠ صفحة مُصَوَّرة من يوميات مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون» ومحفوظة فى مكتبته بجامعة

الوثـــائق الإســـرائيليـــة



«بير سبع»، وقد تُرجِمَت هذه اليوميات إلى الإنجليزية، ولم تُتَرجَم بعد إلى اللغة العربية وتُنشَر كما حدث في الجزء الأول من يوميات «بن جوريون» الذى نشره مركز الدراسات الفلسطينية فى بيروت، وكانت نهاية هذا الجزء عند سنة ١٩٤٩ بعد إعلان دولة إسرائيل وقيامها، وحربها الأولى مع العرب، واتفاقياتها للهدنة مع بعضهم سنة ١٩٤٩.

● والمرجع الثانى هو آخر كتب المؤرخ الإسرائيلى القدير والمدَقّق «آفى شلايم» - الأستاذ الآن بجامعة «أوكسفورد» - والكتاب بعنوان «الحائط الحديدى»، وموضوعه مجرى الصراع العربى - الإسرائيلى طوال نصف قرن (١٩٤٨ - ١٩٩٨)، وقد صَدَرَ هذا العام (٢٠٠٠).

● وثالثها كتاب «أفنير كوهين» والصادر عن جامعة «كولومبيا» بعنوان «إسرائيل والقنبلة»، والكتاب موضوع تحقيق سياسى وجنائى فى إسرائيل الآن يسأل: كيف تَسَرَّبَت كل هذه الأسرار إلى «كوهين»؟ وكيف سَمَحَ لنفسه بـ«خيانة» الأمن الإسرائيلى حين نَشَرَها (سنة ٢٠٠٠)؟

● ورابعها هو ذلك التقرير المذهل فى معلوماته والذى قدمه الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية أيام حرب سنة ١٩٧٣، وكانت اللجنة الخاصة التى شُكِّلَت برئاسة كبير القضاة «أجرانات» للتحقيق فى أسباب مفاجأة إسرائيل بنشوب القتال يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ قد اتهمت الجنرال «زائيرا» بالتقصير، ورَدَّ الجنرال على ذلك بتقرير مُضاد تأخر ثلاثين سنة قبل أن يقدمه لأنه ارتأى انتظار مدة سريان قانون الوثائق حتى يكون دفاعه عن نفسه مؤصَّلاً. وكنت قد سمعت عن هذا التقرير الذى قدمه الجنرال «زائيرا» إلى الكنيست، وكنت شديد الرغبة فى الحصول عليه كاملاً أو أجزاء منه، خصوصاً ما



يتصل فيه بالدور الذى قام به بعض الملوك العرب فى علاقاتهم الخفية مع إسرائيل.

وقد وَصَلَت الرغبة بى حتى رَجَوت الصديق الكريم الدكتور «عزمى بشارة» - وهو أستاذ ومفكر قومى بارز، وفى نفس الوقت عضو فى الكنيست الإسرائيلى - أن يجد لى وسيلة إلى التقرير. وتَفَضَّلَ الدكتور «عزمى بشارة» وأرسَل لى صفحات منه طلبتها ومعها ترجمة عربية قام بها بنفسه عن الأصل العبرى.

ثم كان أن التقرير تُرجِم بشكل ما فى بيروت وطُبِع على الآلة الكاتبة فى نُسَخٍ محدودة، ولم يلتفت إليه أحد بالقدر الكافى على الأقل. ثم تمكن المؤرخ العسكرى المصرى القدير الدكتور «إبراهيم شكيب» من الحصول على صورة له، وحين عرف اهتمامى بالتقرير تَفَضَّلَ وأهدانى «صورة من الصورة» التى كانت فى حوزته، وهى فى قرابة أربعمائة صفحة.



وإذن فهى الآن فى هذا الحديث - وما بعده - سياحة واسعة وحُرَّة وسط الوثائق الإسرائيلية - شاغل صيف بأكمله على شواطئ البحر الأبيض جنوباً وشمالاً!

على أننى قبل التَّوَجُّه إلى الماء والخوض والسباحة فيه إذا توافر العمق - أستأذن فى لفت النظر إلى عدد من الملاحظات:

● الأولى - أن هذا الحديث كله يعتمد بالكامل على الوثائق الإسرائيلية، وسوف أشير إلى بعضها تحديداً خلال السياق إذا كانت الوقائع فيها أساسية، ثم اننى اخترت لهذا الحديث أن يكون «وقفات» سريعة عند بعض المواقع

كانت مصر - ولا زالت - هي الطرف المركزي في الصراع العربي - الإسرائيلي من بدايته وحتى الآن، وذلك بصرف النظر عن تباين التوجهات والسياسات والخيارات التي إعتمَدتها مصر على امتداد أربعة عهود: مرحلة النظام الملكي - ثم المراحل الثلاثة لثورة ٢٣ يوليو - وبعدها - من «جمال عبد الناصر» - إلى «أنور السادات» - وأخيراً «حسني مبارك»!

الفارقة، وحتى تتلاحم الصور وتتكامل، وتكون منها في النهاية «بانوراما» عريضة - أي مشهداً عاماً وكاملاً للواقع كما بان وتَبدّى من المنظور الإسرائيلي، ومن الموضع الذي تَصرَّف منه صانع القرار هناك.

● والثانية - أنني ركزت في هذا الحديث على ما يخص مصر بالتحديد لأسباب لا يحتاج شرحها تفصيلاً. فقد كانت مصر - ولا زالت - هي الطرف المركزي في الصراع العربي - الإسرائيلي من بدايته وحتى الآن، وذلك بصرف النظر عن تباين التوجهات والسياسات والخيارات التي اعتمدتها مصر على امتداد أربعة عهود: مرحلة النظام الملكي - ثم المراحل الثلاثة لثورة ٢٣ يوليو - وبعدها - من «جمال عبد الناصر» - إلى «أنور السادات» - وأخيراً «حسني مبارك»!

● والثالثة - أنه إذا خطر لي أن أتدخل في سياق هذا الحديث مُضيفاً أو مُعلّقاً - فإن ذلك سوف يكون (كما أفعل عادة) مسبوقاً بسطرين من النقط وملحوقاً بسطرين من النقط حَداً وفاصلاً - ثم إن أي تَدَخُّل من جانبي سوف يكون دائماً داخل قوسين واضحين حتى يتمايز حديث الوثائق عما قد يلحق به من عندي إضافة أو تعليقاً!

وهذه تقدمة طالت، لكني ظننتها ضرورية، فقد كان تقديري - وما زال - أن متابعة مجرى الحوادث من الضفة الأخرى لأي صراع - تجربة غنية، ثم هي تجربة كاشفة إذا جرت المضاهاة والمقارنة بين مواقع النظر من هنا - ومن هناك!

وبعد ذلك فقد أضيف: أن هذا الحديث ليس كتابة في السياسة ولا في التاريخ، وإنما هو قراءة في السياسة وفي التاريخ.






١ «مصراييم»

يبدو من مجمل الوثائق أن «دافيد بن جوريون» مؤسس الدولة في إسرائيل وأول رئيس للوزارة فيها بعد الإعلان عن قيامها - كان مسكوناً طول الوقت ببلد اسمه «مصر» («مصراييم» كما كان ينطق الاسم ويكتبه بالعبرية) - وشعوره نحو هذا البلد لا يتغير ولا يتبدل وإن تارجح بين القلق الشديد والكراهية العميقة، وهو يستذكر ويستعيد في إشاراته إليه ما وَرَدَ في التوراة المتداولة في إسرائيل من نعوت وأوصاف تمس مصر وشعبها، وهي نعوت وأوصاف متمادية في معظم الحالات إلى درجة الشتم المقذع والسَب!

وفي تجربته هو - وبعيداً عن «المأثورات» التوراتية - فإن إشاراته إلى مصر تَرِد من أول لحظة ضمن تعبيرات من نوع: «باشوية مصر» - أو «دولة الباشوات المصريين» (ولعله أثر باق من فترة دراسته وإقامته في إستنبول) - لكن التَحَيُّز يَبين حين يذهب إلى تعبيرات من نوع: «الباشوات وخَدَمهم من الفلاحين»، أو «الأمراء الألبان والشركس وعبيدهم من المصريين»، و«شعب مصر هذا المزيج من الذل والادعاء»!

ولم تكن مصر داخلة في حسابات «بن جوريون» أثناء تفكيره وتخطيطه لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين، فقد كان يراها مُلتَهية بأمورها ومشغولة بعلاقاتها مع بريطانيا، كما كان يرى في أحزابها السياسية مجرد هياكل طبقية تحمي مصالح كبار مُلاك الأرض الزراعية، ويرى أكبر رجالها لعباً في يد مُتَمَوِّلين أجانب ينهبون البلد وسوف يواصلون نهبه!

وحتى حين وضعت مصر توقيعها على ميثاق جامعة الدول العربية (سنة ١٩٤٤)، فقد كان رأى «بن جوريون» أن الجامعة العربية من أولها إلى آخرها «لعبة إنجليزية» - لكنه حين دعا الملك «فاروق» إلى أول مؤتمر قمة عربي في «أنشاص» بدأ «بن جوريون» يراجع حساباته، فهذا المؤتمر العربي الأول على مستوى الملوك تَوافقَ مع مجيء مفتي القدس الحاج «أمين الحسيني» لاجئاً إلى مصر ومُحتَمياً بالملك «فاروق». ثم كان - أيضاً - أن تَوافقَ ظهور مفتي القدس وضيوف «فاروق» من الملوك العرب في نفس الوقت وفي نفس القصر - لكن «بن جوريون» أراح نفسه بأن سَجَّلَ باستخفاف أن ملك مصر «يلهو باوهام أكبر من قدرته»، وسوف يعرف يوماً - وعما قريب - «أن كل هؤلاء الملوك والرؤساء الذين جمعهم في قصره لا يُمَثِّلون أكثر من حلف كراهية. يحقد أعضاؤه على بعضهم قبل حقدهم على أي طرَف خارجي».

لكن «بن جوريون» راح يعتبر «لهو» الملك «فاروق» خطراً مُحتَمَلاً عندما تَبَيَّن له أن مصر سوف تشارك - رغم ما نقله إليه أصدقاء له من الأجانب والعرب، ومن اليهود المصريين، عن معارضة قوية في مصر تُعارض اشتراكها في حرب محتملة في فلسطين إذا قامت فيها دولة يهودية.

كان «بن جوريون» مُطلعاً على رسائل كتبها الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية في مصر «حاييم ناحوم» أفندي. ولم يكن الحاخام الأكبر في مصر يكتب لـ«بن جوريون»، لكنه كان يكتب لصديقه الدكتور «ماجنس» رئيس الجامعة العبرية في القدس. لكن الحاخام كان يُقدِّر (وتقديره صحيح) أن «بن جوريون» سوف يطلع بوسيلة ما على ما يكتبه.

وكان «حاييم ناحوم» أفندي على صلة بالملك «فاروق»، وبكل رجال القصر الملكي، وبعَدد من الساسة المصريين من كل الأحزاب والاتجاهات، وكان مُقرَّباً من أغلبهم خصوصاً وقد كان معارضاً للصهيونية ومشروعها، لكن الرجل في النهاية كان مُنحازاً لأهله، فإذا كانت هناك دولة يهودية على وشك أن تقوم في فلسطين، فليس أمام الحاخام مفر من تأييدها حتى ولو جاءت خطواته بطيئة مُتثاقلة، على عكس وكيله في مقر «الحاخامية» الذي كان داعية مُندَفعاً إلى تأييد مشروع الدولة، ويَعتَبِر مناصرَة الحركة الصهيونية مُرادفة للصلوات في المعابد وموازية لها في مُمارسة العقيدة. ومن المفارقات أن نائب الحاخام الأكبر في مصر كان اسمه «أوفاديا يوسف».

....

....

[وهو الآن الراعي الروحي والسياسي لحزب «شاس» الذي يملك سبعة عشر مقعَداً في الكنيست الحالي، وكان يشارك في ائتلاف حكومة «باراك» حتى خرج احتجاجا على مجرد طرح موضوع القدس للمناقشة في محادثات «كامب دافيد» الثانية في اجتماع «كلينتون» و«باراك» و«عرفات» خلال شهر يوليو الأخير سنة ٢٠٠٠، ثم كان هو القائل في مؤتمر صحفي منذ أسابيع أن العرب كلهم «جَراد» و«بهائم» و«وحوش» لا يصح لإسرائيل أن تقترب منهم أو تتصل بهم أو تجتمع بأيٍ منهم في مكان واحد!]

....

....

٢ إستراتيجية

مع دخول مصر سنة ١٩٤٨ في حرب فلسطين واشتراك جيشها في المعارك التي دارت على أرضها - راح «بن جوريون» يفكر جدياً في سياسة يتعامل بها - حسب قوله - مع «جارنا الذي فَرَضَه التاريخ علينا منذ أقدم العصور - عند الجنوب»! - وهكذا كان «بن جوريون» (وحزبه) يصلون الماضي «التوراتي» البائد والذي أعيد بعثه - بل واختراعه في الحاضر والمستقبل - بعد أكثر من ثلاثين قرناً!

أي أن «مصر» ما زالت هي بالضبط «مصراييم» التي خرج منها اليهود هرَباً من «الفرعون»، وكل ما حدث عبر القرون هو أن الفرعون الآن لم يعد «رمسيس الثاني» وإنما «فاروق الأول»!

وكان ذلك خلطاً خطراً يمزج الأساطير بالتاريخ، لكن «بن جوريون» ما لبث أن حَوَّلَ هذا الخلط إلى إستراتيجية كاملة!

وربما أن أدق وثيقة في توصيف إستراتيجية إسرائيل إزاء مصر هي الوقائع الواردة في محضر اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي في جلسته يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٤٩.

في هذه الجلسة - وقد خصصها «بن جوريون» لمناقشة «سياسية عامة» حول

من المفارقات أن نائب الحاخام الأكبر في مصر كان إسمه «أوفاديا يوسف». وهو الآن الراعي الروحي والسياسي لحزب «شاس» الذي يملك سبعة عشر مقعداً في الكنيست الحالي، وكان يشارك في إئتلاف حكومة «باراك» حتى خرج إحتجاجاً على مجرد طرح موضوع القدس للمناقشة في محادثات «كامب دافيد» الثانية



الأوضاع على ضوء ما ظهر من فشل كل المحاولات التي سعت لاستكمال اتفاقيات الهدنة المعقودة في «رودس» (يناير وفبراير ١٩٤٨) وتَحويلها إلى اتفاقيات صلح ومعاهدات سلام كما كانت إسرائيل تأمل وكما كانت بعض القوى الدولية تريد!

ومن أول دقيقة في الجلسة شرع «بن جوريون» في الكلام لا يُضَيِّع وقتاً. وطبقاً لمحضر الجلسة (التي جرت في مقر الحكومة المؤقت في تل أبيب في الساعة الثامنة والنصف واستمرت إلى الساعة الواحدة إلا عشر دقائق بعد الظهر) - فقد بدأ «بن جوريون» كلامه قائلاً:

«الآن يلزمنا أن نضع سياسة للمدى الطويل مع العرب. فكلنا يعرف الآن انهم (العرب) مُصَمِّمون على عدائنا، ولذلك فإن السلام معهم بعيد. ولكني أريد أن أقول إن هذا ليس بالضرورة كارثة لنا، وبالعكس فقد يكون مفيداً ونافعاً..

لماذا؟

لأن جيش الدفاع (الجيش الإسرائيلي) وصل عندما توقفت المعارك إلى أبعد بكثير مما رسمه قرار الجمعية العامة لحدود الدولة اليهودية. فقوات جيش الدفاع احتلت كل ما كان مُخَصَّصاً للدولة الإسرائيلية وأكثر من ٧٠٪ مما كان مُخَصَّصاً للدولة الفلسطينية في مشروع الأمم المتحدة. وهذا شيء عظيم.

ولو اننا وصلنا إلى حل مع العرب الآن لكان علينا أن نسلمهم أراضي كثيرة هي الآن تحت سيطرتنا، وهُم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بها بالسلاح، ونحن لا يصح أن نتركها لهم بحِبْرٍ على وَرَق.

ليس هذا فَقط، بل إننا إذا كنا توصلنا إلى حَلٍّ (مع العرب) لكان علينا أن نقبل عودة بعض اللاجئين لأن القرارات الخاصة بعودتهم ما زالت حَيَّة في ذاكرة الدول، وقد يفرضون علينا أن نقبل منهم أعداداً نحتار ماذا نفعل بها. بالعكس نحن يهمنا الآن أن يُهاجر عَدَدٌ أكبر من الفلسطينيين خارج البلد حتى يفسحوا المجال لوافدين يهود وصلوا إلى هنا أو هم في طريقهم إلى الوصول.

هناك أيضاً مشكلة بالنسبة للقدس. في الوقت الحالي الأمم المتحدة مُتَمَسِّكة بقرار تدويلها، وهذا يَحرِم إسرائيل من مدينة لها وضع خاص في التاريخ اليهودي، وقد أصبحت الآن نقطة جذب لا تُقاوَم بالنسبة لليهود في الدياسبوراه (التيه).

ولهذا كله فإننا جميعاً مطالبون - وأظنكم توافقونني على أفضلية أن ننسى الآن موضوع السلام مع العرب - على الأقل لعشر سنوات قادمة، وخصوصاً أنه ليس هناك خطر حقيقي يُهَدِّد إسرائيل من جانب العرب، كما أنه ليس هناك ضغط دولي يرغم الدولة على أن تتصرف بعكس ما تراه لازماً لمصالحها!

وفي المحصلة كما أرى فإن الموقف في المنطقة عموماً ملائم لإسرائيل، فلدينا أقوى جيش، ومعنا انتصار كبير حققه هذا الجيش، وقد قامت الدولة بالفعل، وحدودها كلها تحت السيطرة. وفي الحقيقة فإننا في موقف شديد القوة في الإطار الذي يعنينا تأمينه حول إسرائيل ولصالحها.

الملك «عبد الله» في الأردن - نحن على اتفاق كَامل معه، وكان يحلم بأن نتقاسم معه الأرض الواقعة تحت الانتداب البريطاني، ولم يكن لديه شيء يعطيه لنا، ولقد حصل على بعض الأرض (في الضفة الغربية) وذلك مقبول لأننا لا نريد كل هذه الملايين من الفلسطينيين داخل حدود الدولة اليهودية. و«عبد الله» يستطيع أن يبقى في شرق الأردن إلى آخر عمره، والهاشميون يمكن أن يكونوا أصدقاء لنا تُوَفِّر لهم العلاقة معنا توازناً ضد كراهية السعوديين والمصريين لهم.

سوريا (الجار الآخر في الشمال) لا خَطَر منها. ليست لديها قوة تُذكَر، وقد انشغل جيشها في السياسة الداخلية للبلد ولن يخرج منها.

لبنان لم يُمَثِّل على الإطلاق ولن يُمَثِّل إلى الأبد تهديداً لنا يمكن أن نخشى منه - ثم إن لدينا أصدقاء في لبنان».

يواصل «بن جوريون» كلامه وفقاً للمحضر، فيَصِل إلى مصر ويقول:

- «مصر مسألة أعقد. في الوقت الحالي لا خطر منها - لكنها في المستقبل خطر مُحتَمَل. الحقيقة أن مصر هي ما يجب أن نَتَحَسَّب له. لماذا؟ لأن مصر هي الدولة الحقيقية الوحيدة في العالم العربي حتى الآن، وهذا يجعلها تهديداً كامناً. إن المصريين لا يفهمون أننا لا نريد شيئاً عندهم. كل ما نريده منهم أن يبقوا وراء حدودهم وأن يفعلوا هناك ما يشاءون - لكن الفرعون المصري (الملك «فاروق») تداعبه أحلام من أيام جده «إبراهيم» باشا (ابن «محمد على» والذي كان قائداً لجيوشه في الشام) - وهو لا يُدرك أنه ليس «إبراهيم» باشا، كما أن العصور العثمانية انقضت!

ولست أفهم لماذا لا يكتفي «فاروق» بما لديه ويبعد عنا؟ مصر بلد كبير. ونحن ليس لنا مَطالِب فيها. وبيننا وبينها حاجز حقيقي من صَحراء واسعة. وقد كانت هي الطرف الذي سعينا إلى اتفاق أكيد معه، ولو كنا فعلنا ذلك لكان هذا الاتفاق «غزوة عظيمة». (من المدهش أن «بن جوريون» استعمل في كلامه عن هذا الوضع تعبيراً عسكرياً كانت ترجمته إلى الإنجليزية بالنص: "a tremendous conquest" - وكان استعماله لهذا التعبير العسكري بما فيه كلمة «الغزو» لافتاً للنظر).

ويستكمل «بن جوريون» عرضه:

«كنا مُهتَمين بعقد اتفاق صلح مع مصر، ولبعض الوقت تَصَوَّرنا أن ذلك ممكن، ولكن عِناد «فاروق» أظهر لنا أن علينا أن ننتظر.

أي اتفاق صلح مع «عبد الله» (الملك «عبد الله» ملِك شرق الأردن) لا يشغلني كثيراً. «عبد الله» أعجز من أن يعقد صُلحاً وأعجز من أن يشِنَّ حرباً، ولذلك فالعلاقات معه مضبوطة.

مع مصر المسالة تختلف. نحن لا نريد بالتأكيد حرباً معها. ولا نريد حرباً في المنطقة كلها لا عندنا ولا على حدودنا، وإذا كان لا بد من حرب في المنطقة فالأفضل أن تكون هذه الحرب عربية عربية - وليس عربية إسرائيلية. هذا رأيي، وكذلك يَتَعَيَّن أن تكون سياسة دولة إسرائيل!

بعض رفاقنا (يقصد وزير خارجيته «موشي شاريت» في الغالب) يَتَصَوَّرون اننا لا يجب أن ننفض أيدينا من السعي للصلح مع مصر - لهم أن يحاولوا، وأما أنا فاعتقادي أن الاحتمال بعيد. مُؤَجَّل على الأقل. لماذا؟ لأن الملِك «فاروق» مجروح في كبريائه ("amour propre" حسب التعبير الذي استعمله) نتيجة لهزيمة جيشه في فلسطين. وشابٌّ في سِنِّه وملِك وأحمق سوف يضع كبرياءه قبل واجباته. هو يرغب في الاتفاق معنا، لكنه سوف يطلب من الدولة (إسرائيل) ثمناً لا تستطيع الدولة أن تعطيه له. لا نستطيع أن نعطيه دواء لكبريائه المجروحة - ليس هذا شأننا!

وإذن فإن السؤال الأهم الذي يواجه إسرائيل الآن وعلينا الإجابة عليه هو: «ماذا نفعل إزاء مصر؟ في الوقت الحالي لا خطر، ولكن مع وجود إمكانيات لدولة حقيقية هناك فإن علينا أن نَتَحَسَّب لأن إسرائيل دولة صغيرة ومحاطة بالأعداء من كل جانب، وإذا خرجت مصر من وراء حدودها وأقامت تحالفات في يوم من الأيام، وقد رأينا نموذجاً من ذلك في حربهِم الأخيرة معنا لمنع استقلال الدولة - فإن ذلك سوف يكون خطراً كبيراً علينا أن نكون مُستَعِدّينَ ليومه قبل أن يجيء. نمنع مجيء هذا اليَوم قدر ما نستطيع - ونكون مُتَأَهِّبين لهذا اليوم إذا جاء».

وكانت مقترحات «بن جوريون» في عرضه العام لإستراتيجية إسرائيل إذا جاء «ذلك اليوم» كما يلي:

١ - يلزم أن تظل مصر وراء حدودها - والإنجليز والأمريكان وأوروبا لا بد أن يعرفوا أن ذلك في صالحهم من الناحية الإستراتيجية ومن ناحية تأمين البترول.

٢ - يجب منع مصر من إقامة أي تحالفات مع بقية العالم العربي قفزاً فوق إسرائيل، خصوصاً مع سوريا بالذات، ثم مع السعودية والعراق. وهذه مسألة مُهِمَّة.

٣ - من الضروري توسيع العازل الصحراوي بين مصر وإسرائيل، وهذا العازل لا بد له أن يشمل سيناء المصرية، وأيضا منطقة النقب (الصحراوية جنوب فلسطين).

٤ - عندما تقبع مصر وراء حدودها وتترك إسرائيل وشأنها فإن إسرائيل يتحتم عليها أن تعطي نفسها كل المزايا المتوفرة إستراتيجياً لمصر (والتي دَفعَت «نابليون» لوصف مصر بأنها «أهم بلد في الدنيا») وهي:

● الموقع المتوسط بين القارات الثلاثة (أوروبا وأفريقيا وآسيا).

● البرزخ الواصل من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بحيث يمكن أن تُحفر فيه قناة تضاهي قناة السويس، أو تُمتد عليه خطوط سكك حديدية أو خطوط أنابيب لنقل البترول (وكان تحقيق ذلك الهدف هو الدافع الأول وراء مسارعة القوات الإسرائيلية حتى بعد عقد اتفاقية الهدنة إلى احتلال منطقة «أم الرشراش» وهي موضع ميناء «إيلات» اليوم).

ويواصل «بن جوريون» عَدَّ شروطه فيضيف:

٥ - إن إسرائيل عليها أن تحاول العثور على صداقات خاصة، أو حتى علاقة مصلحة متبادلة بينها وبين عدد من العناصر المكَوِّنة للـ«موزاييك» الإنساني في الشرق الأوسط.

ويتساءل «بن جوريون»: هل نستطيع إقامة علاقات مع الأكراد في العراق وإيران وتركيا؟ - هل نستطيع إقامة علاقات منظمة مع «الموارنة» في لبنان؟ - لا أتحدث عن علاقات مع أفراد هنا وهناك، ولكن مع كُتَلٍ دائمة وحاضرة باستمرار؟ - هل نستطيع معَ الدروز خصوصاً وهناك قسم كبير منهم تحت سُلطة الدولة الآن؟ - هل نستطيع مع العَلَوِيين في سوريا؟ - فكَّرتُ أيضاً في أقباط مصر لكنهم حالة ميئوس منها لأن حرصهم على حياتهم المشتركة مع المسلمين في مصر طغى عندهم على أي اعتبار آخر (!).

٦ - ثم يطرح «بن جوريون» قضية الجاليات اليهودية في العالم العربي خصوصاً في مصر متسائلاً: «هل حان وقت تجنيدهم لصالح الدولة أم أن الوقت ما زال مبكراً للمحاولة؟ - هُم هناك حيث هُم على أي حال رصيد احتياطي فيه عناصر مستعدة وراغبة أن تستجيب لما تطلبه الدولة منهم».

٧ - أن تحقق إسرائيل لنفسها قوة ردع تواجه بها «الكَم البشري الإنساني الضخم» في مصر إذا جاء «ذلك اليوم».

استفاض «بن جوريون» خلال الجلسة طويلاً في كلامه عن قوة الردع الإسرائيلي والشروط المطلوبة لها:

- جيش أقوى من كل الجيوش العربية مجتمعة «لأنهم قد يحاصروننا».

- وقادر على نقل المعركة من أول يوم إلى أرض العدو «لأن رقعة أرضنا ضيقة».

- ومُهَيَّأ لحسم أي معركة في عدة أيام «لأنه جيش شعبي، وهو مُطالَب فور انتهاء القتال أن يعود إلى مستعمراته ومصانعه ومكاتبه».

- يُدَعِّم هذا الجيش أن إسرائيل يجب أن تكون لها صداقة إستراتيجية مع قوة عظمى «لا تسندها سياسياً فقط وإنما تفتح لها مخازنها للسلاح والذخيرة عند الحاجة وإلى الحد الضروري».

ويشير محضر جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلي يوم ٢٩ مايو ١٩٤٩ أن «دافيد بن جوريون» خلص

بن جوريون: « .. مصر مسألة أعقد. فى الوقت الحالى لا خطر منها - لكنها فى المستقبل خطر محتمل. الحقيقة أن مصر هى ما يجب أن نتحسب له. لماذا ؟ لأن مصر هى الدولة الحقيقية الوحيدة فى العالم العربى حتى الآن ، وهذا يجعلها تهديداً كامناً. إن المصريين لا يفهمون أننا لا نريد شيئاً عندهم. كل ما نريده منهم أن يبقوا وراء حدودهم وأن يفعلوا هناك ما يشاءون ».



من ذلك إلى القول (وكأنه يلقى نبوءة !) بما نصه:

«محظور على دولة إسرائيل أن تقامر بأمنها، ولهذا فإن استباق أى تهديد محتمل بضربة وقائية هو عمل له مبرراته السياسية والأخلاقية حتى وإن ثبت فيما بعد عدم صحته»!!

وفى ذلك الاجتماع، وقبل ذلك فى يومياته سواء فى الجزء الأول الذى تُرجِمَ ونُشر باللغة العربية، أو فى الجزءين الثانى والثالث وكلاهما ما زال بعد (على حد علمى) محبوساً فى أصله العبرى وإن تُرجِمَت قرابة ألف صفحة منه إلى الإنجليزية والفرنسية ولم تُنشَر بعد - كان «بن جوريون» بادى القلق من احتمال أن «يَظهَر بين العرب رَجُلٌ له قدرات قيادية ولديه الجاذبية الإنسانية (charisma) التى تجعله قادراً على تحريك الحجم العربى ليصبح قوة فعل قادرٍ على نحوِ ما صَنَعَ «مصطفى أتاتورك» فى تركيا !» - كذلك قال وكتب، وأعاد وكرر !

وكان ذلك هاجسه الهائم فى خواطره طوال السنوات من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢. ■



٣ حكاية

■ ■ ومن اللافت للنظر أن قراءة الوثائق الإسرائيلية فى المرحلة الأولى لقيام الدولة تُظهِر بكل وضوح أن «القدس» لم تكن على قائمة الأولويات الكبيرة على جدول أعمال مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون».

كانت منطقة النقب على رأس الجدول، وأما مدينة القدس فقرب الذيل، والسبب أن «بن جوريون» كان يخاف من القدس على «روح الدولة» - كما تُسَجِّل المحاضر مِراراً، وكان رأيه أن روح الدولة الحديثة «علمانية بالضرورة»، وكانت خشيته أن القدس سوف تقلب حركة الموازين لصالح التَّدَيُّن والدين، وقد تؤثر على فكرة العِلم والتحديث وبناء قواعد القوة المادية لدولة إسرائيل.

كان ذلك رأيه مبكراً ومن قبل قيام الدولة، وفى ذلك الحين لم يكن يمانع فى تقسيم المدينة بين العرب واليهود، ولا فى وضعها كلها تحت سُلطة الأمم المتحدة، كما وَرَدَ فى القرار الصادر عن الجمعية العامة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ - لكن «بن جوريون» راح يُغَيِّر رأيه ويزيد حرصه على القدس مدفوعاً بضغوط اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان هؤلاء اليهود الأمريكيون بالنسبة له سَنَدَ المرحلة، بمعنى أن مشروع الدولة اعتمد على يهود أوروبا ليَنمو جَنيناً ويُوْلَد - والآن - وتحت موازين قوة جديدة - فعليه أن يَعتَمِد على يهود أمريكا ليعيش ويكبر.

ويهود أمريكا لا تحركهم إلى نصرة إسرائيل أن يذكرهم أحد بأبناء دينهم الذين هربوا من أوروبا إلى إسرائيل فى القرن التاسع عشر، ولا تثير خيالهم حياة المستعمرات ضمن حركة الـ«كيبوتز»، ولا يهمهم أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين مكشوفون أمام أغلبية عربية فى ذلك البلد تقاوم وجودهم - تلك كلها صُوَر عرفها اليهود حتى فى تجربتهم الأمريكية، وحين كان العالم الجديد (أمريكا) فى خيالهم (وليس فلسطين) هو «أرض الميعاد».

وفى مجتمع مُتَدَيِّن (ومُدَّعٍ بالمثالية التبشيرية) مثل المجتمع الأمريكى فى القرن التاسع عشر، ثم بعد ذلك فى عصر الظهور والخروج إلى العالم فى القرن العشرين - فإن يهود أمريكا استدعاهم إلى نصرة إسرائيل عامل رئيسى واحد هو الدين، وهنا يمكن أن تكون القدس استرجاعا للماضى «اليهودى» (رغم أنها لم تكن فى أى وقت على طول التاريخ عاصمة لأىٍّ من القبائل اليهودية وممالكها قصيرة العُمر فى فلسطين (كنعان القديمة). كانت فى القدس بقايا للهيكل، أو هكذا قيل. لكنه حول هذه البقايا كان لا بد من نحت صَنَم أسطورى مُستَجَد يَدعو ويُنادى يهود أمريكا ويستولى على مشاعرهم.)

وعندما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ فإن «دافيد بن جوريون» بحث فى كل سجلات الدولة الإسرائيلية عن معلومات يستنير بها فى التَنَبُّؤ بما عسى أن تكون عليه تصرفات الرجل الذى ظهر فى مقدمة الصفوف وهو اللواء «محمد نجيب». ولم يعثر «بن جوريون» على ما يفيده، لكن المعلومات الواردة من القاهرة كانت تشير إلى رغبة فى التركيز على الإصلاح الداخلى. ولوَهْلة تَصَوَّرَ «بن جوريون أن لديه فرصة للتعامل مع «محمد نجيب». وبتفكيره وبتشجيع من وزير خارجيته «موشى شاريت» بدأت محاولة تبدو ساذجة أو سطحية فى الوثائق الإسرائيلية - إذا قورِنَت بحقائق الأمور زمانها فى القاهرة، والذى حَدَثَ - كما تروى الوثائق الإسرائيلية - هو أن أحد مستشارى سفارة إسرائيل فى باريس سَلَّمَ للوزير المفوض المصرى «على شوقى» (وهو أحد أبناء الشاعر الكبير «أحمد شوقى») خطاباً من «بن جوريون» إلى اللواء «محمد نجيب» - وعندما وَصَلَ هذا الخطاب إلى القاهرة - وكانت وزارة «على ماهر» (باشا) هى القائمة بأمور الحكم فيها خلال الشهور الثلاثة الأولى - كان قرار «على ماهر» (باشا) بعد التشاور مع اللواء «محمد نجيب» وعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة (بينهم «جمال عبد الناصر») - هو أن هذه المحاولة الإسرائيلية لا ينبغى الرد عليها، ذلك أن الرد بأى جواب يعنى الدخول فى حوارٍ مع إسرائيل لا يريده النظام الجديد ولا يستطيع تَحَمُّل عواقبه، ثم إن الرفض الصريح قد يثير على الجانب الآخر ما لا لزوم لإثارته، خصوصاً فى هذا الوقت المبكر من عمر النظام الجديد، وهو فى كل الأحوال مشغول بفتح باب المفاوضات مع الإنجليز من أجل الجلاء، وليس فى صالحه أن تتقاطع الخطوط وتتداخل بأى شكل فى حوارٍ مهما تكن طبيعته مع إسرائيل.

لكن وجه الغرابة أن الوثائق الإسرائيلية تواصل الإشارة إلى اتصالات ورسائل يجرى تبادلها بين القاهرة وتل أبيب مروراً بباريس.

....

....

[ربما أضفت أننى أعرف عن تحقيقٍ جرى فى شأن هذا اللغز عندما بدأت بعضُ حكاياته تَتَسَرَّب وتصل إلى أسماع الحكومة الأمريكية فى الظروف التى كَثَّفَ فيها الرئيس «أيزنهاور» مساعيه النشيطة لتحقيق «سلام فى الأرض المقَدَّسة» (وهو نفس ما يحاوله «كلينتون» الآن سنة ٢٠٠٠!) - ثم حدث فى تلك الفترة (أواخر سنة ١٩٥٤) أن «روبرت ماكلوى» المبعوث الشخصى للرئيس «أيزنهاور» سأل فى القاهرة عن «نقطة معينة» قال إنها وَرَدَت فى سياق رسائل متبادلة بين القاهرة وتل أبيب عن طريق باريس. وبدا ذلك فى القاهرة مبعث دهشة - وحيرة، ثم تقرر إجراء بحث تَطَوَّرَ إلى تحقيق تبين منه أن بعض «الشُطَّار» من المصريين فى باريس قاموا بعملية لحسابهم الشخصى].

....

....

[ووفق تقرير مكتوب ومحفوظ فى ملفات رئاسة الجمهورية فى مصر (وفى هيئة المخابرات العامة أيضاً) - فقد ظهر أن هؤلاء «الشُطَّار» تطوعوا لعمل سياسى لا يدخل فى اختصاصهم، ثم أقنعوا بعض الجهات فى مصر وقتها بأنهم تمكنوا من تجنيد دبلوماسى مُهِم بالسفارة الإسرائيلية فى باريس، وأنهم يحصلون منه على معلومات سرِّية فى مقابل مبالغ يدفعونها له - وعلى الناحية المقابلة فإن ذلك الدبلوماسى الإسرائيلى جرى إيهامه بأنه فتح خط اتصال مع القاهرة. ودار كلام، وطارت مَبالغ حَوَّلتها المخابرات المصرية وقتها إلى باريس لصالح «عملية مُهِمَّة»، ثم تَبَيَّن فى النهاية أنها أحلام صغيرة على ناحية، وأوهام كبيرة على الناحية الأخرى !]

....

....

[ووجد «جمال عبد الناصر» نفسه مضطراً إلى إبلاغ «ماكلوى» بأن ما وصل إليهم عن اتصالات تجرى فى باريس «هَجص» (حسب تعبيره) لا أساس له - ثم يعترف بأن «بعضهم - لسوء الحظ - وجدها وسيلة لزيادة دخله والاستمتاع بمباهج الحياة أكثر فى باريس، وأن إجراءات مناسبة قد تم اتخاذها». ثم أوضح «جمال عبد الناصر» لـ«ماكلوى» «أنهم» (يقصد الأمريكان) كان يجب أن يَستَدِلوا بالمنطق العادى على أن نظاماً قام على حركة بدأت من القوات المسلحة، وبدأت كرَدِّ فعلٍ لتجربة حرب فلسطين التى شارك فيها عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة - كان مُستَحيلاً عليها استحالة كاملة أن تقترب - وفى بداية أيامها - من أى مغامرة مع إسرائيل وراء سيناء، وخصوصاً أن أمامها أزمة مع الإنجليز الذين يحتلون ضفاف قناة السويس. ولا أجد داعياً أن أقول الآن فى ذلك الموضوع أكثر، لكن التحقيق ونتائجه - كما أسلفت - موجودة ومحفوظة فى الرئاسة وفى المخابرات، وبعض التفاصيل ليست مُريحَة!]

....

....

[ثم كان أن محاولات «روبرت ماكلوى» وبعدها محاولات «روبرت أندرسون» وهو مبعوث آخر لـ«أيزنهاور» إلى مصر (سنة ١٩٥٥) - اصطدمت بمشكلة أساسية كبرى هى «النقب»، فقد أصَرَّت مصر - فى عهد الثورة كما كان فى العهد الملَكى من قبل - على أنه من المستحيل عليها قبول أى حل للصراع فى الشرق الأوسط لا يتضمن أن تكون منطقة «النقب» عربية (وضمن قرار التقسيم كما أعَدَّه الكونت «برنادوت» وسيط الأمم المتحدة فى هدنة فلسطين سنة ١٩٤٨) - وداعى الإصرار المصرى أن «النقب» عربياً يكفل استمرار الاتصال البرى بين مصر وبقية العالم العربى فى المشرق، وذلك هو المصدر التاريخى الأكبر فى حياتها بالدين (المسيحية والإسلام) - ثم باللغة (العربية).

وهنا طرأ على قائمة أولويات «بن جوريون» بند آخر سبق اهتمامه بـ«النقب» - بنفس مقدار ما أن «النقب» سبق «القدس»!

ذلك أنه هنا أصبحت الأولوية الأولى لـ«دافيد بن جوريون» هى: «القنبلة» !] ■



٤ القنبلة

■ ■ تمتلئ الوثائق الإسرائيلية بتقاريرها وشهاداتها ومعلوماتها بإشارات دائمة ومتكررة وملحة إلى ضرورة أن تكون لإسرائيل قنبلة نووية تكون «الحامى النهائى لها وسط جموع العرب المحيطين بها فى كل ناحية، والذين أضمروا لها العداء حتى من قبل قيامها، ثم رفضوا التعامل الطبيعى (التطبيع) معها بعد قيامها، وحتى بعد

كان «بن جوريون» بادى القلق من إحتمال أن «يظهر بين العرب رجل له قدرات قيادية ولديه الجاذبية الإنسانية (charisma) التى تجعله قادراً على تحريك الحجم العربى ليصبح قوة فعل قادر على نحو ما صنع «مصطفى أتاتورك» فى تركيا !»

انتصارها عليهم عسكرياً فى سنة ١٩٤٨.

وتبدأ أولى الإشارات فى الوثائق الإسرائيلية إلى القنبلة النووية حتى قبل قيام الدولة، وترِد الإشارة بغير تسمية فى محضر اجتماع للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية حضره «بن جوريون» سنة ١٩٤٧ - وقال فيه إنه «عندما تقوم الدولة اليهودية فى وسط هذا البحر من الحقد العربى عليها فإن ضمانها الوحيد هو الحصول على سلاح علمى مُتَطَوِّر من مستوى ذلك السلاح الذى حَسَمَت به الولايات المتحدة حربها مع اليابان (القنبلة الذرية)».

ثم يستطرد «بن جوريون» ليقول:

«الدولة اليهودية عندما تقوم لا ينبغى لها أن تكرر تجربة يهود أوروبا الذين لم ينتبهوا إلا بعد فوات الأوان إلى أن «هتلر» يريد إبادتهم فى غرف الغاز» !

وإذا لم نقف للعرب من قبل الدقيقة الأولى فإن «المحرقة» (الهولوكوست) التى جرت فى أوروبا سوف تتكرر هنا فى الوطن اليهودى، وذلك لا ينبغى أن نسمح به مهما كانت المخاطر ومهما بلغ الثمن»!

....

....

[وبعد اقتراب «جمال عبد الناصر» من قمة السلطة فى مصر سنة ١٩٥٤ راح «بن جوريون» يتحدث بصراحة أكثر عن «القنبلة».]

....

....

وفى اجتماع للجنة السياسة الخارجية للحزب الذى كان يرأسه وهو حزب «المابام»، وبتاريخ مايو سنة ١٩٥٤ فتح «بن جوريون» عقله وقلبه لأعضاء اللجنة قائلاً - طبق وقائع المحضر:

«إن العرب - كما نرى من حولنا - يظنون أنهم وجدوا زعيماً يُوَحِّد شملهم ويقود صفوفهم إلى حربِ إبادة ضد إسرائيل.

إن العرب لم ينسوا قط إهانة هزيمة جيوشهم بواسطة جيشنا وهُم الأكبر منا عدداً فى السكان، وفى مساحة الأرض، وفى حجم الموارد، وسوف يعودون مرة ومرة لقتالنا، وهُم يَقدِرون على تَحَمُّلِ هزائم يستوعبونها بحجم السكان والأرض والموارد، وأما إسرائيل فإنها لا تستطيع - بمعنى أن إسرائيل إذا خَسَرَت الحرب مرة - خَسَرَت الحياة إلى الأبد !

ذلك ما ينبغى أن تعرفوه جيداً، وأصارحكم أن الأرَق يتملكنى كل يوم ويحرمنى من النوم كل ليلة عندما أفكر فى المصير المظلم الذى يمكن أن يُرَتِّبه «ناصر» ومُشايِعوه فى العالم العربى لنا، ولا يمكن أن أستريح إلا إذا كان لدى إسرائيل سلاح للردع النهائى يكون هو الحماية الأخيرة للشعب اليهودى.

إننا فقراء فى موارد الجغرافيا إزاء العالم العربى، ولكننا أغنى منهم بموارد العقل والعِلم، وأنا أنتظر من رجال مثل «آينشتاين» (صَاحب نظرية «النسبية») - و«أوبنهَيْمر» (مدير المشروع النووى الأمريكى) - و«تيللر» (مهندس القنبلة الهيدروجينية) - والثلاثة يهود - أن يقوموا من أجل إسرائيل بما قاموا به من أجل الولايات المتحدة »!

وكان «بن جوريون» قد بدأ يتحرك فعلاً نحو خيار نووى إسرائيلى راح يتحدث عنه باستمرار باعتباره «الضمان النهائى» إذا «بدا أن كل شىء يمكن أن يضيع» !

وكانت أول خطوة لـ«بن جوريون» هى تعيين العالم الألمانى اليهودى الشهير «إرنست بيرجمَان» مستشاراً خاصاً له للشئون العلمية !

وكان قراره أن يكون المشروع النووى الإسرائيلى تحت الإشراف المباشر لرئاسة الوزراء - وليس لرئاسة الأركان كما اقترح بعضهم - وكان رَدُّ «بن جوريون» على اقتراحهم بقوله: «رؤساء الأركان يجيئون ويذهبون مرة كل سنتين أو أربع سنوات، ونحن الآن أمام مشروع يتعلق به عُمر إسرائيل إلى آخر الزمن» ! ■



٥ فرنسا

■■ مبكراً - وفق ما تقول به الوثائق الإسرائيلية - طرح «دافيد بن جوريون» سؤاله الكبير وهو «كيف يمكن لإسرائيل أن تقيم مشروعها النووى - ومن ثم تقوم ببناء قنبلتها النووية (أو «خيار اللحظة الأخيرة» كما كان يسميه).

وقد أحس «بن جوريون» - وفق ما تُظهِره الوثائق - أن هذا السؤال لا يمكن تأجيلُه، وخصوصاً أن خلافاً نَشَبَ فى التقديرات والرؤى بين مستشاره العلمى (الدكتور «إرنست بيرجمان») وهو الأستاذ الأشهر فى علوم الطبيعة، وبين مساعده السياسى الذى اختاره للتشهيل والمساعدة («شيمون بيريز»).

كان موضوع الخلاف أن الدكتور «بيرجمان» يريد أن يبدأ المشروع النووى الإسرائيلى من البداية حتى ينهض مُؤسَّساً على أرض صلبة قابلة لتَحَمُّل ثقله، وقادرة على دفع إمكانيات تطوره. وعلى الناحية الأخرى فإن «شيمون بيريز» يقول برأى مخالف مؤداه أن البدء من البداية مضيعة للوقت لا تستطيع إسرائيل تَحَمُّلها، وحسب قوله: «لماذا نعيد اختراع ما سَبَقَنا الغير إلى اختراعه، ولماذا لا نُوَفِّر الوقت ونأخذه جاهزاً؟» !

وهنا بَرَزَ سؤالٌ كبير عما إذا كان ذلك مُتاحاً لإسرائيل؟ - بمعنى: هل هناك طَرَف سبق إلى تحصيل قدرة نووية متطورة يرضى بأن يساعد إسرائيل فيها؟ وإلى أى مدى؟ وتحت أية شروط؟

وظل «بن جوريون» حائراً بعض الوقت بين مستشاره العلمى ومساعده السياسى. كان يرى وجهة نظر العالم («بيرجمان»)، ومن ناحية أخرى فقد بدَا أن رأى مساعده السياسى («بيريز») احتمال لا يصح إهماله - وهكذا طَرَحَ السؤال الكبير نفسه على مستوى لجنة الأمن فى مجلس الوزراء الإسرائيلى، وكانت النتيجة (فى وقتها) غير متوقعة لأن الإجابة على السؤال توصلت إلى أن:

«الدولة الوحيدة التى يُحتَمَل أن تساعد إسرائيل هى فرنسا؟»

والأسباب فى مجملها على النحو التالى:

«بين الدول النووية القادرة نظرياً على مساعدة إسرائيل فى أى مشروع نووى فإن:

١ - الولايات المتحدة لن تقبل (فى المستقبل القريب على الأقل) لأن مصالحها واسعة فى العالم العربى، كما أن شركات البترول الأمريكية تملك نفوذاً على القرار السياسى الأمريكى فى الشرق الأوسط.

٢ - بريطانيا حالة ميئوس منها، فقد قام نفور بينها وبين إسرائيل من قبل إعلان قيام الدولة اليهودية، مضافاً إلى ذلك أن بريطانيا الآن مشغولة بترتيب أوضاعها فى العالم العربى، وهى داخلة فى مفاوضات مع مصر ومع العراق للوصول إلى معاهدات جديدة تحل محل معاهدات قديمة مع البلدين (معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر - ومعاهدة سنة ١٩٣٠ مع العراق).

٣ - الاتحاد السوفيتى لا يمكن حتى مفاتحته فى الطلب الإسرائيلى، فهناك مشاكل معقدة مع الدولة السوفيتية، وهى مشاكل لها جذور تاريخية، كما أن لها امتدادات معاصرة أهمها الآن موجة اضطهاد عارمة ضد اليهود (بسبب قضية الأطباء الذين شارك بعضهم فى علاج زعيم الاتحاد السوفيتى ذلك الوقت «جوزيف ستالين» ثم اتهموا بأنهم حاولوا دَسَّ السم له بتحريض من المخابرات الأمريكية).

وإذن تبقى فرنسا؟

والمعضلة: هل ترضى فرنسا؟ وبأية شروط؟

وكان الرد الذى جرى التوصل إليه وصاغه «شيمون بيريز» فى مذكرة لم يظهر نصها الكامل فى الوثائق الإسرائيلية، وإنما ظهرت إحالات وإشارات لها، هو:

«١ - إن فرنسا تشعر بمرارة من الطريقة التى يعاملها بها حلفاؤها الإنجليز والأمريكان لأنهم لا يريدون - حتى الآن - اعتبارها طرفاً معهم على قدم المساواة فى القرار السياسى الأعلى للدول الغربية.

٢ - وترتيباً على ذلك فإن بريطانيا بالذات تتصرف فى أوروبا وخارجها بمنطق أنها مرتبطة مع الولايات المتحدة الأمريكية بعلاقات خاصة تَجمَع الناطقين باللغة الإنجليزية (تلك كانت إستراتيجية «ونستون تشرشل» فى الحرب العالمية الثانية وبعدها). ومن هنا فإن بريطانيا تتعامل مع فرنسا بنوع من التعالى يستفز الحكومة فى باريس !

٣ - إن استفزاز فرنسا بواسطة بريطانيا - والولايات المتحدة أيضاً - بلغ مداه فى الشرق الأوسط، إذ تآمرت بريطانيا مع بعض «الوطنيين المحليين» على «زحلقة» فرنسا من الشرق العربى (سوريا ولبنان).

٤ - إن الحركة الوطنية العربية أبدت مُعارَضة ومُقاوَمة لمصالح فرنسا رغم «جذور ثقافية فرنسية قديمة ولا تزال حية»، وهذه المعارضة والمقاومة واضحة ليس فقط فى التضامن العربى مع استقلال سوريا ولبنان، وإنما هذا التضامن العربى مستمر الآن وأكثر اندفاعا فى المغرب العربى تأييداً لاستقلال «تونس» و«المغرب» - وحتى «الجزائر»!

وفى وقت ما بين نهاية سنة ١٩٥٤ وبداية سنة ١٩٥٥ جرى تكليف «شيمون بيريز» بأن يبدأ فى استطلاع «الأفق الفرنسى».

وكان أول اتصال استطلاعى أجراه «شيمون بيريز» مع السفير الفرنسى (الجديد وقتها فى تل أبيب) وهو السفير «بيير جيلبرت».

ولم يقل «بيريز» للسفير الفرنسى - طبقاً للوثائق - كلمة واحدة عن «مشروع نووى إسرائيلى»، بل فى الغالب - وكما يبدو من الأوراق - فإنه لم يتحدث أصلاً عن السلاح. وإنما كان مجمل كلامه للسفير الفرنسى أن «فرنسا فى الظروف الراهنة تحتاج إلى صديق موثوق به فى الشرق الأوسط. وهناك صديق جاهز ومُخلِص أيضاً، لكن فرنسا «مشغولة بغيره» !»

وأضاف «بيريز» ما مؤداه: «إن الولايات المتحدة الأمريكية ما تزال تحاول مع «ناصر» وتأمل أن تجعله صديقها فى المنطقة. ثم إن بريطانيا تحاول مع الهاشميين فى العراق والأردن، وأيضاً فى سوريا. وذلك يضع إسرائيل وفرنسا فى نفس القارب معاً، وإذا تذكرت باريس، ومن مصلحتها أن تتذكر، أن تل أبيب تقع فى منتصف المسافة بين القاهرة ودمشق - إذن فإنها سوف تكتشف أنه لا بد للبلدين (إسرائيل وفرنسا) أن تكون لهما فى الشرق الأوسط سياسة متفق عليها بينهما وحدهما»!

ومما هو ظاهر فى الوثائق فإن السفير الفرنسى «بيير جيلبرت» كان على استعداد للفهم، وقد اقترح على «بيريز» أن يقصد إلى باريس ويستطلع الأفق هناك بنفسه. وزاد السفير الفرنسى على ذلك بنصيحة أثبتت التجربة أنها كانت صادقة ونافعة إلى أبعد حد. فقد كانت نصيحة السفير الفرنسى لـ«بيريز»: «اذهب إلى فرنسا ولا تُضَيِّع وقتاً كثيراً مع الساسة، وإنما حاول أن تتصل بوكلاء الوزارات الدائمين، فهُم القوة الحقيقية الآن فى باريس

يهود أمريكا استدعاهم إلى نصرة إسرائيل عامل رئيسى واحد هو الدين، وهنا يمكن أن تكون القدس استرجاعاً للماضى «اليهودى» (رغم أنها لم تكن فى أى وقت على طول التاريخ عاصمة لأى من القبائل اليهودية وممالكها قصيرة العمر فى فلسطين (كنعان القديمة)



لأن السياسة الفرنسية الحزبية تشهد حالة «هزلية» من عدم الاستقرار نتيجة لأزمات «الجمهورية الرابعة فى فرنسا»، وهى أزمات مُستَعصيَة جعلت كل الوزراء فى مَهَبِّ الريح. وبالتالى ركزت السلطة الفعلية فى يد البيروقراطية»!

ومن المدهش أن «شيمون بيريز» حمل تقريره عن لقائه بالسفير الفرنسى إلى «دافيد بن جوريون» رغم أنه لم يَعُد فى ذلك الوقت رئيساً للوزراء، بل كان «أباً» غاضباً من جميع «الأولاد» ومُعتَزِلاً فى مستعمرة «سد بوكر». لكن الوثائق تُظهِر أنه من هناك حيث «اعتزل» كان لا يزال يشير ويُوَجِّه ويُدير، وإليه وليس إلى رئيس الوزراء الذى خلفه («موشى شاريت») يعود كل المنفذين فى إسرائيل خصوصاً فى الجيش والمخابرات - وحتى وزارة الخارجية التى احتفظ بها رئيس الوزراء الجديد لنفسه!



٦ استفزاز

طوال سنة ١٩٥٤ كان «موشى شاريت» رئيساً لوزراء إسرائيل، لكن الوثائق الإسرائيلية تشير إلى أن «دافيد بن جوريون» كان الآمر الناهى من وراء ستار عن طريق الثلاثى الشهير من معاونيه «موشى ديان»، و«شيمون بيريز»، و«بيجال آللون».

وكان هؤلاء الثلاثة وغيرهم من رجال «بن جوريون» قد ساورهم القلق مما يجرى فى مصر، فقد بدا أن «رجلاً قوياً» يصعد إلى قمة السلطة بسرعة، وأن هذا الرَجُل بالفعل يقيم نظاماً وطنياً تظهر ملامحه أكثر كل يوم، ثم إن هذا الرَجُل يدير مفاوضات مع بريطانيا يبدو أنها على وشك الوصول إلى اتفاق يتحقق بموجبه جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس.

وكان رأى الثلاثة - ولم يخالفهم أحد - أن ذلك أمر ينبغى منعه بكل الوسائل لأنه لا بد قبل خروج الإنجليز من قواعد قناة السويس أن يتحقق صلح بين مصر وإسرائيل، لأن عودة قواعد قناة السويس إلى مصر، وما يصحبها بالضرورة من عودة مصرية حُرَّة إلى سيناء - يفتح الباب لاحتمالات مجهولة.

وجرى فى نفس الوقت أن مصر بدأت تخرج إلى العالم العربى وإلى العالم الأوسع، وكان ذلك مُثيراً للقلق تلك الفترة فى إسرائيل - وطبقاً للوثائق - فقد امتدت صلات متينة بين مصر من ناحية وبين كل من الهند ويوجوسلافيا من ناحية أخرى. ثم إن فكرة شديدة الأهمية طرحت نفسها فى ذلك الوقت، وهى إمكانية عقد مؤتمر تجتمع فيه الدول الآسيوية والأفريقية وحركات التحرير الوطنى - ثم تَبَدَّى أن مصر من أكثر العناصر النشطة فى الدعوة إلى هذا المؤتمر الذى تقرر أن يعقد فى «باندونج» - إندونيسيا.

وتحتوى وثائق الخارجية الإسرائيلية فى تلك الفترة على إشارات وتحذيرات من أن «ناصر يستعمل علاقات أقامها مع الزعيم الهندى «جواهر لال نهرو»، ومع الزعيم الإندونيسى «أحمد سوكارنو»، ومع الزعيم البورمى «أونو»، لمنع مشاركة إسرائيل فى التحضير أو المشاركة فى أعمال المؤتمر الكبير المقترح، فى الوقت الذى كانت هى (إسرائيل) راغبة فى اعتبار نفسها دولة آسيوية!

وكان من المزعج (لـ«بن جوريون») أن قادة آسيا وأفريقيا اقتنعوا بما قيل لهم فى القاهرة من أنه إذا التزمت إسرائيل بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩١ (قرار التقسيم - بالنقب عربياً، وهو مشروع «برنادوت» - وسيط الأمم المتحدة المكلف بتنفيذ قرار التقسيم) فإن إسرائيل تستطيع حضور مؤتمر «باندونج»، وإلا فإن اشتراكها مع عصيانها لقرارات الأمم المتحدة يصبح رُخصَة لاحتلال غير شرعى لأرض بقوة السلاح!

وتنجح مصر فعلاً فى استبعاد إسرائيل من «تجَمُّع باندونج»، وتَحول دونها ودون المشاركة فى المؤتمر الذى اعتبر فى زمنه «حدثاً تاريخياً ضخماً».

ويُصبِح المزاج فى إسرائيل حاداً فى كل ما يتعلق بمصر، ويَرِد ذكرها فى كل الوثائق الإسرائيلية - من تلك الفترة - ليس باعتبارها عَدُوّا مُحتملاً، وإنما باعتبارها عَدُوّا ماثلاً فى الحال وشديد الخطر فى المستقبل.

وتبدأ السياسة الإسرائيلية فى ممارسة العداء مُسلَّحاً ضد مصر.

● وهناك وثيقة من مكتب رئيس الوزراء «موشى شاريت» تشير إلى أن رئيس أركان الحرب «موشى ديان» اقترح عليه (فى ذلك الوقت من أواخر ١٩٥٤) خطة عمل مسلح هدفه عزل قطاع غزة عن مصر لإفقادها الاعتبار وسط العرب، والتأثير على هيبتها فى آسيا وأفريقيا.

وتشير الوثيقة إلى أن رئيس الوزراء سأل رئيس أركان الحرب: «أليس معنى ذلك أن مصر سوف تجد نفسها مُضطرة إلى حربٍ معنا؟» - ويَرُدُّ «ديان» قائلا: «ولِمَ لا»؟

● وضمن الوثائق الإسرائيلية مجموعات لا داعى للوقوف أمامها طويلاً لأن أمرها مشهور، وهى خاصة بما عُرِفَ باسم «فضيحة لافون»، ومؤداها أن تعليمات صَدَرَت منسوبة إلى مكتب وزير الدفاع فى ذلك الوقت (ربيع وصيف سنة ١٩٥٤) بتنفيذ عمليات تفجير قنابل وإشعال حرائق فى القاهرة والإسكندرية، ومهاجمة مكاتب تابعة لسفارات الدول الأجنبية وخصوصاً سفارات الولايات المتحدة وبريطانيا لإظهار قصور الحكومة المصرية فى السيطرة على الأمن وحماية أرواح الأجانب فى بلدها، ومن ثم تكون غير جديرة بالاستقلال، غير مستعدة لمسئوليته، غارقة فى تَعَصُّب أعمى ضد الغرب!

وقد نجحت محاولة تفجير القنابل وإشعال النار ثلاث مرات، ثم انكشف أمرها فى المرة الرابعة فى دار سينما «مترو» بالإسكندرية حين اشتعلت قنبلة فى جيب عميل يهودى كان يحاول وضعها فى رُكنٍ من ممرات دار السينما، ولم يكن الأمر أمر انكشاف مؤامرة، وإنما تَحَوَّلَ الموضوع كله إلى فضيحة لأنه ثَبَتَ أن «الموساد» (المخابرات العامة) قد قررت (دون توجيه سياسى من أعلى) أن تقوم بتنشيط عملها بين اليهود المصريين، فجَنَّدت عشرات منهم فى تنظيم سرى - مُسَلَّح وإرهابى.

....

....

[وكان ذلك فى الواقع فصل النهاية فى قصة جالية يهودية عاشت طويلاً وازدهرت كثيراً فى بلد عربى إسلامى. وفى الواقع فإنه بسبب هذه الفضيحة تضاءل عدد اليهود فى مصر من ٤٢٠٠٠ قبلها إلى ٣٠٠٠ بعدها، حتى جاءت حرب السويس ولم يَعُد باقياً فى مصر غير عَدَدٍ يقل عن ألف يهودى ويهودية!].

....

....

كذلك تتضمن الوثائق الإسرائيلية رُزَماً كاملة يمكن المرور عليها بسرعة، وهى تَخُص الغارة الشهيرة على غزة، وملابساتها أن مصر كانت تبدى معارضة لفكرة حلف عسكرى غربى (حلف بغداد) وتدعو الدول العربية إلى مقاطعته وإلى التمسك بميثاق الدفاع المشترك بينها، ومن هنا قررت قيادة الجيش الإسرائيلى رغبة منها فى إظهار عجز مصر - نفسها - أمام العالم العربى كله أن تقوم بغارة مسلحة على مواقع الجيش المصرى فى غزة.

وكانت هذه الغارة على غزة - قد جرت بأمر مباشر من «بن جوريون» - يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ - الذى عاد قبلها بيوم واحد من عزلته الاختيارية فى مستعمرة «سد بوكر» وتولى وزارة الدفاع، ثم رئاسة الوزارة.

كانت الغارة على غزة قد أدت إلى استشهاد سبعة وثلاثين من العسكريين المصريين ضباطاً وجنوداً، كما جرحت خمسة وأربعين، مُستهدِفة بالدرجة الأولى معسكراً للجيش المصرى.

وكانت الغارة على غزة إحراجاً شديداً للنظام الثورى فى القاهرة.

وكانت وقائعها وملابساتها هى ما دعا «جمال عبد الناصر» إلى إبلاغ الولايات المتحدة بأنه إذا لم يحصل على سلاح من الغرب يحمى به حدود الوطن وأمن الأمة و«سلامة القوات» فإنه سوف يشترى السلاح من أى مكان.

وكانت تلك بداية صفقات الأسلحة مع الاتحاد السوفيتى.

ويوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ - أعلن «جمال عبد الناصر» عن أول صفقة سلاح مع الاتحاد السوفيتى بواسطة تشيكوسلوفاكيا.



٧ الأرض

عَرَفَت الحكومة الإسرائيلية - كما يَظهَر من الوثائق - بأمر صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفيتى قبل الإعلان عنها رسمياً فى القاهرة يوم ٢٧ سبتمبر.

وراحت أجهزة إسرائيلية مُتَعَدِّدة تنصح بشن حرب وقائية "preventive war" ضد مصر.

ومن المفارقات أن وزارة الخارجية - كما يبين من الوثائق - كانت أول المطالبين، فقد كتب السفيران «أبا إيبان» و«جدعون رافائيل» مذكرة مشتركة يطلبان فيها «ضرورة قيام إسرائيل بعمل عسكرى بقصد إسقاط النظام العسكرى فى مصر الذى يتزعمه ناصر».

وتَظهَر على حافة هذه البرقية تاشيرة تقول: «الحرب الوقائية معناها منع طرف على وشك أن يشن حرباً من اختيار التوقيت الملائم واستباق محاولته بضربة أولى، وهذا ليس متوافراً فيما يحدث الآن من مصر».

لكن إشارة أخرى سريعة وعابرة فى إحدى الوثائق تشير إلى أن «إيسر هاريل» رئيس جهاز المخابرات (الموساد) مُصِرٌ على ضرورة «حرب وقائية».

ثم تجىء وثيقة إسرائيلية أخرى متأنية وواضحة، وهى مذكرة كتبها رئيس هيئة الأركان الجنرال «موشى ديان» إلى وزير الدفاع ورئيس الوزراء (بناء على طلب «بن جوريون» فيما يبدو).

وتقول مذكرة «موشى ديان» بالنص:

أ - إن الحل الكامل الضرورى لمشكلة إسرائيل الأمنية يتطلب إسقاط نظام ناصر فى مصر. وهناك أساليب عدة يمكن بها مواجهة التطورات الأخيرة (يعنى صفقة الأسلحة المصرية مع الاتحاد السوفيتى) - وإذا أريد تاجيل تنفيذ الحل الكامل فى الوقت الحاضر انتظارا لظروف معينة فإنه لا بد أن

بدأ «بن جوريون» يتحرك فعلاً نحو خيار نووى إسرائيلى راح يتحدث عنه باستمرار باعتباره «الضمان النهائى» إذا «بدا أن كل شىء يمكن أن يضيع»! وكانت أول خطوة له هى تعيين العالم الألمانى اليهودى الشهير «إرنست بيرجمان» مستشارا خاصا له للشئون العلمية! وكان قراره أن يكون المشروع النووى الإسرائيلى تحت الإشراف المباشر لرئاسة الوزراء



يكون مُستَقرا لدى الجميع أنه يستحيل أن يكون هناك حَل نهائى دون إسقاط ناصر من السلطة، فهذا وحده ما ينزع جذور وأسباب الخطر الذى يَتَهَدَّد إسرائيل.

ب - إذا كان من المطلوب إسقاط نظام ناصر فإنه من الضرورى ولتحقيق هذه المهمة السعى إلى مواجهة حاسمة مع المصريين فى وقت قريب ... أقرب وقت ممكن، وإلا فإن التكاليف الأمنية قد تصبح عالية بالنسبة لهذا البلد (إسرائيل) لأننا إذا انتظرنا حتى يتم استيعاب صفقة الأسلحة التشيكية لمصر، فإن أى عمليات إسرائيلية ضد مصر سوف تكون غالية الثمن.

حـ - إن الحكومة (فى إسرائيل) مطالبة بأن تسعى للحصول على مَدَد إضافى كبير من الأسلحة المتطورة وذخائرها قبل أى تاريخ يُحَدَّد للمواجهة، وعلى أى حال فإنه لا يجب ربط الأمرين لزاماً ببعضهما فى التوقيت (أى المواجهة الحاسمة مع مصر - والحصول على مَدَد جديد من الأسلحة المتطورة).

د - إن هذا المفهوم يختلف عن المفهوم الذى ينادى بحرب وقائية ضد مصر لأن «الحرب الوقائية» قد تبدو حرباً عدوانية تشنها إسرائيل مباشرة، والدولة (إسرائيل) لا تستطيع أن تواجه العالم من موقف المعتدى!

هـ - إن إسرائيل لا تحتاج إلى أية خطط لاستفزاز مصر لأن حكومة مصر نفسها كفيلة - بعنادها ورفضها للحلول الوسط دائماً - بأن تقدم أسباباً للاستفزاز تستغلها إسرائيل - أى أن على إسرائيل أن تكون مُتَيَقِّظة لأن تكون المُفَجِّر "detonator" عندما تنشب أى أزمة حتى تستطيع الإمساك بها وتحويلها إلى فرصة قابلة للتفجير إذا رُؤِىَ بأفضلية ذلك، وهكذا فإن التوصية التى تتقدم بها هيئة الأركان هى التَنَبُّه بطريقة واعية لأى استفزاز مصرى، والإمساك به وتكبيره بحيث تكون الفرص مفتوحة أمام صانع القرار الإسرائيلى يَستَغِل منها ما يشاء فى التوقيت الملائم له!

وعندما قرأ «بن جوريون» مذكرة رئيس الأركان كان طلبه أن تعد رئاسة الأركان وتعرض عليه خططاً بديلة:

— خطة لاحتلال غزة وفصل القطاع عن مصر.

— خطة لاحتلال شرم الشيخ والمنطقة المحيطة بها.

— خطة لاحتلال خط العريش - رأس محمد فى سيناء.

— وخطة لاحتلال سيناء كلها.

وهنا تَظهَر فى الوثائق الإسرائيلية لأول مرة بداية شعار «الأرض مقابل السلام»، ليَتَطَوَّر فيما بعد إلى نظرية كاملة.

وقد شرح «دافيد بن جوريون» باستفاضة فى اجتماع لهيئة الأركان فكرة وسياسة (ثم نظرية) «الأرض مقابل السلام» على النحو التالى:

«عندما قامت قوات جيش الدفاع باحتلال منطقة العريش فى مصر فى الأيام الأخيرة من حرب سنة ١٩٤٨ (ديسمبر) - فقد لاحظ أن الملِك «فاروق» ووزارته وكل أركان حكمه كانوا فى حالة يرثى لها. وقد هَروَلوا إلى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة يطلبون تدخل حكوماتها بسرعة قبل أن تنكشف الحقيقة، وكانوا على استعداد لدفع أى ثمن حتى يتجنبوا فضيحة علنية أياماً أو أسابيع تبقى لهم فيها أرض محتلة.

العرب يفعلون ما يشاءون لكنهم يخشون من الفضيحة، وهنا فإن الضغط عليهم سهل خصوصاً مصر التى تعتبر نفسها اكبر وأهم دولة عربية. مصر لا تستطيع مواجهة العرب الآخرين وجزء من أرضها تحت الاحتلال خصوصاً إذا كانت القوة المحتلة هى إسرائيل الصغيرة التى يكرهونها ويتعاملون معها بأنفة وازدراء.

وناصر شأنه شأن فاروق، وربما أكثر من فاروق، لن يستطيع تَحَمُّل فضيحة احتلال جزء من أرض مصر بواسطة إسرائيل، بينما هو يحاول إخراج إنجلترا من بلده بعد احتلال سبعين سنة.

نحن هنا - يقول «بن جوريون» - أمام فرصة أو معادلة سياسية جيدة ونافعة. أرض. جزء من أراضيهم كبير أو صغير حسب الظروف - يتم احتلاله بواسطة قواتنا. وإذا أرادوا أرضهم فعليهم أن يدفعوا الثمن».

ثم يضيف «بن جوريون» فى الخلاصة: «الأرض مقابل السلام» !

(ويصير التعبير مَثَلاً، ثم شعاراً، ثم سياسة ونظرية كاملة طُبِّقَت فى حينه وما زالت تُطَبَّق حتى الآن !).

....

....

[ومن المفزع أن السياسة العربية الراهنة تستعمل الآن هذا الشعار وهذه النظرية وكأن كليهما من اجتهاداتها أو اختراعاتها، غافلة عن الأصل، وناسية تجارب عديدة جرى فيها الإمساك بمواقع متعددة كبيرة وصغيرة من الأرض العربية - رهائن فى مقابل فدية - عودة أرض فى مقابل تراجع حق!].

....

....



٨ الحرب

ومع بداية سنة ١٩٥٦ فإن الوثائق الإسرائيلية تفقد خصوصيتها، ذلك أن الطريق إلى السويس بدأ، وفى طليعته مشت بريطانيا وفرنسا. وفرنسا سابقة بخطوة أو خطوتين وهى المحَرِّض والمنَظِّم لعملية السويس حسب ما تقول به الوثائق الإسرائيلية.

والشاهد أن الطريق العسكرى إلى السويس بدا ظاهراً فى وثيقة ذات أهمية خاصة تحكى تفاصيل لقاء بين «بورجيس مانورى» وزير الدفاع الفرنسى و«آبل توماس» مدير وزارة الدفاع الإسرائيلى. وفى هذا اللقاء فإن وزير الدفاع الفرنسى قام يرحب بضيفه مدير وزارة الدفاع الإسرائيلى، وبدلاً من التحية بادره - طبقا لتقريره ضمن الوثائق الإسرائيلية - قائلا: «والآن قل لى يا عزيزى توماس، ما هو الوقت الذى يلزم للجيش الإسرائيلى لكى يدخل إلى سيناء ويصل إلى قناة السويس؟ - وما هى الطلبات التى نستطيع تقديمها لكم إذا كنتم على استعداد لهذا العمل؟».

ثم راح وزير الدفاع الفرنسى يروى لضيفه الإسرائيلى أن «فرنسا لم تَعُد قادرة على تَحَمُّل انتشار النفوذ المصرى فى شمال أفريقيا، وتحريض ناصر اليومى لشعوب المغرب العربى حتى تتحرر من السيطرة الفرنسية - إضافة إلى أن ناصر فيما يبدو يفكر فى التَحَرُّش بشركة قناة السويس وهى ملكٌ لفرنسا تحرص عليه وتقاتل من أجل الاحتفاظ به !».

وكانت هذه المبادرة هى التى قادت إلى مؤتمر سرى فرنسى - إسرائيلى فى قلعة «فيرمار» (قرب باريس) يوم ٢٤ يونيو ١٩٥٦ وقد تم الاتفاق فيها على أكبر صفقة سلاح حصلت عليها إسرائيل، وكانت مُكَوَّنة من ٧٢ طائرة من طراز «ميستير»، ومائة دبابة من طراز "AMX" - والهدف المشترك هو العمل «لإسقاط ناصر ونظامه» - وكان الإغراء الأكبر الذى قدمته فرنسا لإسرائيل حتى تَقبَل دورها فى مغامرة الوصول إلى قناة السويس - رَدًّا تَلَقَّته الحكومة الإسرائيلية بالإيجاب على طلب قدمه «شيمون بيريز» مُلحًا فى ختام مؤتمر «فيرمار»، ووفقاً لهذا الرد الإيجابى فإن فرنسا تَعَهَّدت بأن تعطى لإسرائيل مفاعلا نوويا من طراز «إى. إل. ٣» "E.L.3"، وأن تشارك فى توفير ١٠ أطنان من الماء الثقيل - جاءت فيما بعد من النرويج - ثم إن فرنسا سوف تساعد على تركيب المفاعل وتشغيله !

....

....

[إن الظروف مشت بعد ذلك إلى سحب عرض قدمته الدُوَل الغربية (الولايات المتحدة - بريطانيا - ومعهما البنك الدولى) يَحمل تَعَهُّدًا بالمساعدة فى تمويل السد العالى الذى أصبح حلم الوطنية المصرية. وقد جرى سحب العرض فى ظروف مهينة إذ ادعى البيان الصادر عن وزير الخارجية الأمريكى «جون فوستر دالاس» وقتها أن «المشروع أكبر من قدرة الاقتصاد المصرى على تحمله»!

وردت مصر بتأميم قناة السويس.]

....

....

وطبقاً للوثائق الإسرائيلية فقد ذهب «موشى ديان» يوم ٢٩ يوليو ١٩٥٦ - أى بعد ثلاثة أيام من تأميم القناة - إلى مقابلة مع «دافيد بن جوريون» وبحضور «شيمون بيريز» ليعرض عليه خطط جيش الدفاع للعمل الفورى ضد مصر، ويطلب توجيهه فى شأنها، وأيها أكثر ملاءمة فى الظروف المستجدة: احتلال غزة - أم احتلال شرم الشيخ - أم احتلال سيناء كلها - وفوجئ «ديان» - على حد ما تروى الوثائق الإسرائيلية - بـ«دافيد بن جوريون» يطلب إليه «أن يهدئ أعصابه لأن إسرائيل لم تَعُد فى المقدمة، ذلك أن بريطانيا وفرنسا دخلتا بشدة على خط المواجهة، وإسرائيل الآن تملك «فرصة وترف» أن تفكر على مهلها وتقرر لنفسها كيف تتصرف «لمساعدة الدولتين الكبيرتين».

ثم يلتفت «دافيد بن جوريون» إلى «بيريز» - ويقول له: «المهم أن نحصل على المفاعل النووى الذى وَعَدوك به».

وتمشى الحوادث - كما تروى الوثائق - من مؤتمر «فيرمار» إلى مؤتمر «سيفر» الشهير يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، وقد شاركت فيه بريطانيا مع فرنسا ضمن مؤامرة تواطؤ على غزو مصر تقوم فيها إسرائيل بدور الاستفزاز وتخترق حدود سيناء داخلة إلى عمقها فى اتجاه قناة السويس لكى تعطى للدولتين الكبيرتين فرصة للتدخل بتوجيه إنذار إلى مصر بإخلاء منطقة القناة كلها.

....

....

[وتلك من أولها لآخرها أسرار لم يبق منها فى الخفاء شىء، حتى نصوص معاهدة «سيفر» السرية والموَقَّعة من الأطراف - وهى أول مرة توقع فيها الدول فى العصر الحديث مؤامرة - مؤامرة - مكتوبة فى صَكٍّ مُمْهور بإمضاء - وقد جرى نشر صورة هذه المعاهدة السرية حين عَثَرَ باحثون من هيئة الإذاعة البريطانية - أثناء إعداد فيلم تسجيلى عن حرب السويس - على النسخة الخاصة بـ«دافيد بن جوريون» من هذه المعاهدة السرية، وكان رئيس الوزراء الإسرائيلى قد طواها بأصابعه ووضعها فى جيبه واحتفظ بها فى أوراقه].

....

....

وربما أن أهم ما بقى فى الوثائق الإسرائيلية من تلك الفترة أنه بعد الغضب الأمريكى من عملية السويس لأن الحلفاء الأوروبيين وإسرائيل تصرفوا دون استشارة واشنطن وإذنها - ثم بعد الإنذار الروسى الذى وجهه «خروشوف» إلى الأطراف والذى كان له أثره - ثم بعد صمود مصرى للإنذار البريطانى - الفرنسى يوم ٢٩ أكتوبر وللحرب فى مواجهة القوى الثلاثة المعتدية من أركان المؤامرة الثلاثية - ثم بعد مُساندة هائلة من الأمة العربية ومن كل بلدان آسيا وأفريقيا - فإن إطلاق النار على جبهات القتال تَوَقَّف يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦، وكانت المؤامرة قد فشلت

هناك وثيقة من مكتب رئيس الوزراء «موشى شاريت» تشير إلى أن رئيس أركان الحرب «موشى ديان» اقترح عليه (فى ذلك الوقت من أواخر ١٩٥٤) خطة عمل مسلح هدفه عزل قطاع غزة عن مصر لإفقادها الإعتبار وسط العرب، والتأثير على هيبتها فى آسيا وأفريقيا.



تماماً. وبات على العدوان الثلاثى أن ينسحب.

وكان «بن جوريون» - طبقاً للوثائق - مَمروراً وساخطاً يشعر أنه أدى نصيبه فى اتفاق «سيفر»، لكن الآخرين تخاذلوا ووقفوا فى منتصف الطريق، وسحبوا جيوشهم من بور سعيد، وتركوا إسرائيل وحيدة وسط سيناء.

ثم حدث أن «بورجيس مانورى» وزير الدفاع الفرنسى تولى رئاسة الوزارة بعد سقوط رئيسه السابق «جى موليه». وقام «مانورى» بدعوة «بيريز» إلى باريس ليقول له إن «فرنسا لم تغير أهدافها، وأنها ما زالت مصممة على دعم أمن إسرائيل إلى النهاية، وأنه من ذلك قرر أن المفاعل النووى الذى تقدمه فرنسا لإسرائيل يجب أن يكون بضعف طاقة الأول «حتى تستطيعوا أن تفعلوا ما تريدون».

وكان ذلك أقصى ما يحلم به «دافيد بن جوريون»، وقد أدرك (كما تُوَضِّح الوثائق) أن إسرائيل عليها الآن أن تبتعد عن الواجهة فى الشرق الأوسط، وأن تقبع بعيداً وتنكب صامتة على تشغيل مفاعلها النووى - وإنتاج قنبلتها القادرة على الحسم النهائى قبل الدقيقة الأخيرة.

وعندما أعلن الرئيس الأمريكى «دوايت أيزنهاور» مسئولية الولايات المتحدة عن المنطقة بمقتضى إعلانه الشهير يوم ٥ يناير ١٩٥٧، فقد بدا مُحققاً لـ«بن جوريون» أن انتقالا إمبراطورياً كبيراً تم فى المنطقة، وأن نجم فرنسا قد أفل، وأن الشمس البريطانية على الشرق الأوسط تدحرجت إلى حافة الغروب، وأن عصراً جديداً قد بدأ وقيادته للولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فإن على إسرائيل أن تخلى الساحة وتنتظر شكل الحوادث المقبلة، وتقرر من مكمنها طريقة تدخلها مستفيدة من الأحوال المستَجَدَّة!



٩ الملوك

تبدو الوثائق الإسرائيلية - أو على الأقل ما هو متاح منها - هادئة وتكاد تكون فاترة على امتداد فترة السنوات من منتصف سنة ١٩٥٧ إلى منتصف سنة ١٩٦٣، والأسباب فيما تقول به الأوراق كما يلى:

١ - أنه فى تلك الفترة كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تقود المعسكر الغربى كله فى التعامل مع حركة القومية العربية، وكان إحساس إسرائيل أن أى ظهور لها فى الحملات السياسية والنفسية الكبيرة المحتدمة على ساحة المنطقة يُعَقِّد المسائل ولا يُسَهِّلها.

٢ - أن إسرائيل - كما يتبدى من الوثائق - تركت قلب العالم العربى للولايات المتحدة وتفرغت هى لما أسمته «محاولة بناء طوق خارجى حول الطوق العربى المحيط بها»، وبذلك فهى تُحَوِّل العرب الذين يحاصرونها إلى عرب محاصرين. وسبيلها إلى ذلك إقامة علاقات تعاون وثيق مع دول الحافة الخارجية للعالم العربى، وبالتحديد: تركيا، وإيران، وإثيوبيا.

٣ - أن تلك الفترة شهدت نشوء واشتداد نوع من الحرب الأهلية العربية - عرباً ضد عرب - كما كان «بن جوريون» يريد ويتمنى. فالملك «سعود» أغضبه تأميم قناة السويس دون تشاور مسبق معه، وكذلك أحرجه التقارب المتسارعة خُطاه بين مصر وسوريا، ثم تَوَرَّط الملك فى محاولة لضرب الوحدة المصرية - السورية، واغتيال «جمال عبد الناصر»، وفشلت المحاولة وانكشفت ونُشِرَت وثائقها، وساءت علاقة مصر بالسعودية. ثم حدث بعد ذلك أن الوحدة السورية - المصرية نفسها انتهت بانفصال شاركت فى الترتيب له ودعمه عناصر عربية مجاورة وقريبة دَفَعَت وجَنَّدَت وحَرَّضَت حتى انفك الرباط بين دمشق والقاهرة. ثم إن النظام الهاشمى الذى سقط فى العراق بثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨، حَلَّ محله حُكم «عبد الكريم قاسم» الذى أثبت بسيطرة الشيوعيين عليه أنه أكثر عداء لحركة القومية العربية من كل العروش!

٤ - وكان أن الحرب الأهلية العربية التى دارت بالتآمر وبالمال وبالتحريض تفاقمت لكى تصبح حرباً مسلحة فى اليمن، وقد جرى استئجار آلاف المرتزقة الأجانب (إنجليز وألمان وأسبان وفرنسيين) لكى يتولوا شن حرب عصابات حديثة ضد القوات المصرية بقصد إنهاكها فى اليمن، وكان أهم الضالعين فى تنظيم حرب إنهاك الجيش المصرى فى اليمن هو اللورد «جوليان إيمرى» وكان وزيراً سابقاً للحرب فى حزب المحافظين (وزوجاً لابنة رئيس الوزراء أيامها «هارولد ماكميلان»)، وهو لم يكن يهودياً فقط، وإنما كان إلى جانب يهوديته صهيونياً مُتَعَصِّباً، وفى نفس الوقت صديقاً مقرباً من بعض الملوك العرب، وقد التقاه الملك «حسين» - باسمه ونيابة عن آخرين - (طبقاً للوثائق) عدة مرات سنة ١٩٦٥، وتَمَّت اللقاءات فى بيت «جوليان إيمرى» فى «إيتون سكوير» قلب بلجرافيا ووسط لندن، وقد وضعت تحت تصرف اللورد «إيمرى» ولجنة من أصدقائه اعتمادات مفتوحة! - وكان لإسرائيل فى العملية دورٌ مُحَدَّد، هو أن يقوم طيرانها بمهمات منتظمة لإمداد قوات المرتزقة الأجانب بالمهمات والذخائر من الجو، وذلك لأن الإمداد عن طريق الجوار اليمنى من عدن الخاضعة لوزارة المستعمرات البريطانية مكشوف - ثم إن اكتشافه (إذا جاء من سهول «تهامة» الجنوبية، أو من «جيزان» و«نجران») مُؤدٍّ إلى عواقب سياسية مُعَقَّدة!

٥ - والظاهر من قراءة الملفات وما تحمله من إشارات - أن إسرائيل فى تلك الفترة انهمكت فى حملة من نشاط المخابرات يستهدف العُلَماء الألمان الذين استعانت مصر ببعضهم لدعم برامجها فى صنع السلاح غير التقليدى، وهكذا فإن هؤلاء العُلَماء تَعَرَّضوا لحملات من القتل والتشهير والمطاردة. وكان المشرف على هذه الحملات هو «إيسر هاريل» مدير «الموساد».

وتشير الوثائق الإسرائيلية من بعيد إلى أن خلافاً وقع بين مدير المخابرات الإسرائيلية العامة (الموساد) «إيسر هاريل» وبين مدير المخابرات العسكرية (أمان) «مائير آميت» - موضوعه كما يلى:

مدير «الموساد» يرى أن برنامج التسليح المصرى يدخل إلى مناطق أصبحت تشكل خطراً على إسرائيل. ومنطقه:

● أن مصر عَرَفَت بأمر مفاعل إسرائيل النووى (الذى حصلت عليه من فرنسا) وبادَرَت تَستَعِد مُدرِكَة أن إسرائيل بهذا المفاعل الكبير - سوف تسبق إلى صنع القنبلة، ولهذا فإنها (مصر) من باب التعويض وحتى تتمكن من سَدِّ الفجوة التى يصنعها السبق النووى الإسرائيلى - تُرَكِّز الآن على نوعين من السلاح:

— السلاح الكيماوى (غاز السارين - أو القنبلة النووية للفقراء كما سُمِّىَ السلاح الكيماوى وقتها).

— والسلاح الجرثومى (ابتداء من جراثيم الحُمَّى الصفراء إلى الطاعون).

(ومع أن إسرائيل لديها ما يكفى من هذين السلاحين - الكيماوى والجرثومى - فإن تَوَصُّل مصر إلى هذه الأنواع من الأسلحة، والتَّوَسُّع فى إنتاجهما، له على إسرائيل مخاطر هائلة بسبب رقعتها المحصورة وتَكَدُّس الجزء الأكبر من سكانها داخل مُثَلَّث القدس / تل أبيب / حيفا.)

● وبالنظر إلى ما حققته مصر وفاجأت به العالم وإسرائيل معه فى يوليو ١٩٦٢ من إطلاق صواريخ متوسطة المدى تطول كل إسرائيل، فإن تقديرات إسرائيل كانت أن الأسلحة الكيماوية والجرثومية - وفى حال تهديد خطير بالصواريخ - يمكن أن تكون رادعاً حقيقياً يُعَطِّل استعمال القنبلة النووية الإسرائيلية التى لم يتم صنعها بعد، وإنما هى فى قلب المفاعلات سرٌ لن تظهر آثاره قبل سنة ١٩٦٨ أو بعدها على الأغلب.

(وتشير الوثائق الإسرائيلية إلى أن الصواريخ المصرية كانت تعانى من مشكلة لم يتيسر حلها، وهى مشكلة أجهزة التوجيه - لكن مشروع الصواريخ كله وإشراف العالم الألمانى الدكتور «بيلز» عليه - كان مرفوضاً من إسرائيل جملة وتفصيلاً - والملاحَظ (طبقاً للوثائق) أن إسرائيل هى الأخرى كانت لديها فى ذلك الوقت مشكلة فى أجهزة التوجيه).

● واستنادا إلى ذلك فإن إسرائيل - كذلك رأى مدير «الموساد» - لا بد لها أن تشن حملة «قتل» ضد العُلَماء الألمان العاملين فى مصر، وإذا أدى ذلك إلى مشاكل مع الحكومة الألمانية وخصوصاً أن بعض هذه العمليات ضد العُلَماء الألمان سوف يتم فى ألمانيا (أثناء وجودهم هناك لمِهَمَّات أو إجازات) - فإن حكومة إسرائيل يجب أن تكون حازمة وأن تُذَكِّر الحكومة الألمانية إذا «فَتَحَت فمها» بـ«الماضى الأسود» للدولة والشعب فى ألمانيا تجاه اليهود فى التاريخ البعيد والقريب!!

أما مدير «أمان» (المخابرات العسكرية) الجنرال «مائير آميت» فقد كان له منظورٌ آخر:

● فهو لا يقلل من خطر ما تصنعه مصر، لكنه يراه خطراً مؤجلاً لأن تحقيق المشروعات المصرية سوف يستغرق زمناً طويلاً.

● ثم هو يرى أن الولايات المتحدة تشن حرب أعصاب قوية على مصر [تَمَثَّلَت فى تحذيرات من التوسع النووى (ومن الأسلحة غير التقليدية عموماً، وبينها الأسلحة الكيماوية والجرثومية) - وكلها تحذيرات تضمنتها رسائل لم تنقطع من الرئيسين «كنيدى» و«جونسون» إلى الزعامة المصرية!].

وفى هذه الرسائل فقد تَبَدَّى أن قلق الولايات المتحدة من مشروعات الأسلحة غير التقليدية التى تحاول مصر صنعها لا يقل عن قلق إسرائيل. وفى حين أن إسرائيل لا تملك تاثيراً يُذكَر على مصر فإن الولايات المتحدة تقدر على الأقل أن تُهَدِّد عند اللزوم بوقف شحنات القمح الأمريكى إلى مصر.

● وأخيراً فإن إسرائيل فى غِنى عن إغضاب ألمانيا فى هذه الظروف، وخَصوصاً أنها قد حصلت على صفقة أسلحة هائلة منها - استكمالا للتعويضات الألمانية، ساعد عليها أن «بون» ضاق صدرها بالسياسة المصرية التى اعترفت بألمانيا الشرقية، وينبغى تشجيعها وليس إحراجها!

وكان القرار على المستوى الإستراتيجى فى إسرائيل حلاً وسطاً بين الجنرالين: رئيس «الموساد» ورئيس «أمان».

أى أن الحل كان تَرْك «إيسر هاريل» يمارس نشاطه فى إرهاب العُلَماء الألمان مُتَجَنِّباً - قدر المستطاع - أن تتم عملياته فى ألمانيا، ومن ناحية أخرى واستجابة لـ«مائير آميت» فإن رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية فى

شرح «بن جوريون» باستفاضة فى إجتماع لهيئة الأركان نظرية «الأرض مقابل السلام» على النحو التالى: «عندما قامت إسرائيل بإحتلال منطقة العريش فى مصر فى الأيام الأخيرة من حرب سنة ١٩٤٨ . فقد لاحظ أن الملك «فاروق» وزارته وكل أركان حكمه كانوا فى حالة يرثى لها. وقد هرولوا إلى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة يطلبون تدخل حكوماتها بسرعة قبل أن تنكشف الحقيقة.



إسرائيل عليهما العمل على زيادة التقارب - بكل الوسائل - مع «بون» (عاصمة ألمانيا الغربية) حتى تظل شحنات السلاح الألمانى مُتَدَفِّقة.

وكان هناك سبب آخر لإبقاء الأبواب مفتوحة فى «بون»، فقد عَرَفَت إسرائيل بأمر عقد توشك مصر على توقيعه مع شركة «سيمنس» الألمانية لشراء مفاعل نووى يوازى المفاعل الإسرائيلى فى «ديمونه» ويتفوق عليه، ويحل محل مفاعل «أنشاص» (السوفيتى الصنع) الصغير الذى أدى دوره وزيادة فى تدريب وإعداد كادر إنسانى مصرى قادر كانت إسرائيل تخشى منه حجماً وكفاءةً (وكان لديها رصد دقيق لعدد من عناصره، وخطط للخطف أو الاغتيال يجرى تحضيرها لبعضهم) - وفى طلب إبقاء الأبواب فى «بون» مفتوحة فإن إسرائيل كانت تُرَتِّب لحملة ضغط سياسى وإعلامى على ألمانيا الغربية يَتَصاعَد ويُؤدى إلى وقف عقد شركة «سيمنس»!



١٠ هـــامـلـتـــون

مع بداية سنة ١٩٦٣ عادت إلى الوثائق الإسرائيلية - فى حدود ما وصل إلىَّ - كى تصبح نشيطة مرة أخرى ومثيرة، وقد ظهر فيها سياق وتفاصيل قصة تَتَكَشَّف مُقدماتها خطوة بعد خطوة:

١ - كان «بن جوريون» قد بدأ يشعر بالتعب وربما بنوع من الملل سببه إرهاق السنين وضغط المسئوليات، ثم «القَرَف» - على حد تعبيره - من مناورات السياسات الحزبية فى إسرائيل، وقد أحس بها مُثْقَلة بالهموم و«تكاد تكون مُشَبَّعة بالسموم» (على حَدِّ قوله)!

٢ - وقد فكر «بن جوريون» أن يبتعد لكى يريح ويستريح، وكان لديه ما يدعوه إلى الاطمئنان إلى أن مشروع إسرائيل النووى يمضى فى طريقه، وأنه مهما كان جنوح وحماقات السياسة الحزبية الإسرائيلية فإن مؤسسة الأمن الإسرائيلية (جيش الدفاع مُمَثَّلاً بهيئة أركان الحرب وفروعها وأهمها التقديرات والعمليات - والمخابرات العامة («الموساد») - والمخابرات العسكرية («أمان») - ومؤسسات العلوم والتكنولوجيا الواقعة تحت إشراف رئاسة الوزراء - ومراكز البحث السياسى الإستراتيجى المعتمدة) هى المسئولة دائماً عن تحديد مطالب «الأمن» فى بلد يحتل «الأمن» فيه أكبر مساحة من اهتمامات السياسة. بمعنى أن الساسة فى هذا الحزب أو ذلك، وفى هذه الحكومة أو تلك، وفى هذا الائتلاف أو غيره، ليسوا هُم المسئولين عن تحديد مطالب «الأمن» الإسرائيلى، وإنما تحديد هذه المطالب - مُتَجَدِّدة مع تغيير الظروف - منوطه بتلك الجهات الباقية والدائمة والمسئولة وراء كل الأحزاب والوزارات والائتلافات من أى - ومن كل - ألوان الطيف على أفق الحياة السياسية فى إسرائيل (عَمَل - ليكود - شاس - ميريتز - وغيرهم جميعاً وبدون استثناء!).

٣ - وعلى نحو ما فإن «بن جوريون» راوده قبل أن يقرر الاعتزال نهائياً حلم التوصل إلى اتفاق مع مصر تَصَوَّرَ أنه إذا حَقَّقَه فقد خَلَّدَ اسمه على مدى التاريخ الإسرائيلى، ليس فقط باعتباره بانى الدولة اليهودية وإنما بكونه صانع سلامها أيضاً.

وكان تقدير «بن جوريون» فى ذلك الوقت سنة ١٩٦٣ قائماً على أساس أن «جمال عبد الناصر» ربما كان مُهَيَّأً الآن كما لم يكن من قبل للوصول إلى تفاهم من نوع ما مع إسرائيل.

وكانت أسباب «بن جوريون» كما شرحها بنفسه فى حديث بينه وبين البارون «إدموند دى روتشيلد» الذى قام بتسجيلها - على النحو التالى:

رأى «د. ب» (دافيد بن جوريون) أن «ناصر» تَعَلَّم الآن بالتجربة ما لم يكن لديه حين سمح لنفسه بمعاداة إسرائيل إلى آخر المدى.

هو الآن (فى رأى «بن جوريون») مجروح من الانفصال بين مصر وسوريا، وهذا الانفصال كان بالنسبة له مفاجأة هَزَّت هيبته. وقد ساعد «ناصر» على قيام ثورة فى العراق لكن زعيم هذه الثورة «عبد الكريم قاسم» انقلب عليه. ثم إنه - أى «ناصر» - لا يثق فى الملوك العرب، وهُم أيضاً لا يثقون به. وقد ذهب إلى مساندة الثورة فى اليمن فاصطاده الملوك العرب وأصدقاؤهم الغربيون وسط جبالها الموحشة وحجزوا ثلث جيشه هناك. وقد تَوَهَّم أن بمقدوره أن يقود حلفاً عربياً كبيراً يواجه إسرائيل، لكنه وجد نفسه فى النهاية يواجه الولايات المتحدة الأمريكية وهى قوة لا طاقة له إزاءها. ثم إن لديه فى مصر مشاكل داخلية لأن هناك من يساعد المسلمين المتعصبين حتى ينشطوا لمعاداة مشروعه داخل مصر نفسها. والواقع - فى تقدير «بن جوريون»، وطبقاً لما كتبه البارون «إدموند دى روتشيلد» وما وَرَدَ فى وثائق إسرائيلية مُتَكررة - أن «ناصر» يواجه عداء أهم حركتين منظمتين فى العالم العربى: حزب البعث فى سوريا والعراق والأردن، وحزب الإخوان المسلمين فى عقر داره فى مصر.

وكان رأى «بن جوريون» كما سَجَّلَه عنه «إدموند دى روتشيلد» أن «ناصر» الآن رجل مرهق متعب، ومع أنه ما زال شاباً بعدد السنين إلا أنه أصبح أكبر من عُمره بالهُموم التى يَتَحَمَّلها من الأعداء والأصدقاء على السواء، وهذا يجعله «مُحبَطاً» frustrated - وكذلك فإنه قد يكون مستعداً لأن يصغى لـ«صوت العقل» حتى وإن جاءه هذا الصوت من اتجاه يعتبره معادياً له، ومن ثم يعرف أن «أحلامه العربية وَهْم»، وأن «إسرائيل تملك على الأقل أن تمنحه الهدوء الذى يحتاجه، وتستطيع أن تُوَفِّر عليه الموارد التى يهدرها لكى يلحق ببرامج إسرائيل العسكرية، رغم علمه أنها سبقته. وفوق ذلك كله فإن «ناصر» يَمكن أن «يرى» الآن حقيقة أن إسرائيل وحدها تستطيع إصلاح علاقاته مع الأمريكان»!

....

....

[وعند هذا الموضع من الوثائق الإسرائيلية يَظهَر مشهد وَجَدتُ نفسى طرفاً حاضراً فى وقائعه ومشاركاً فى حواراته!

ففى ذلك الوقت (مارس سنة ١٩٦٣) جاء لزيارتى فى القاهرة واحد من أقرب الأصدقاء وهو السير «دنيس هاملتون» وكان وقتها رئيساً لتحرير جريدة «الصنداى تيمس» على عهد ملكية اللورد «روى طومسون» لها.

كان «دنيس» أيامها أهم رؤساء تحرير الصحف البريطانية، فقد استطاع صنع معجزة فى «الصنداى تيمس» قفزت بها إلى صَفٍّ وحدها فى مقدمة الصحافة البريطانية الجادة حتى استحق بالفعل وصف The Innovator أى «المجَدِّد» (وهو الوصف الذى أطلقه عليه سِجِلُّ تاريخ «التيمس» فى القرن العشرين).

وكان «دنيس» شخصية إنسانية بديعة إلى جانب تَميزه المهنى. ثم إنه كان يملك وراءه تجربة ضخمة - وغالية - بدأت معه منذ شارك فى الحرب العالمية كضابط مقاتل التحق بقيادة الماريشال «مونتجمرى» أثناء غزو الحلفاء لأوروبا وفق عملية «أوفرلورد» وبهدف تحريرها من سيطرة «هتلر». وكان («دنيس») واحداً من أول النازلين على شواطئ «نورماندى»، وأصابته هناك شظية قنبلة استقرت فى رأسه وبقيت معه حتى آخر حياته، وكانت تسبب له مرات نوبات من الصُداع العنيف.

وبرغم صُداعه المزمن كان «دنيس» رجلاً سعيداً فى حياته، محظوظاً بزوجة ممتازة وأربعة أبناء ناجحين كلٌّ فى مهنته.

وكانت تلك عوامل ساعدت الرجل ليس فقط على تفوقه المهنى وإنما أيضاً على مكانة سياسية واجتماعية مرموقة وغير مُختلف عليها، بالذات لأنه لم يكن صحفياً «يكتب» فيرضى عنه بعض الناس ويغضب عليه بعضهم الآخر، وإنما كان صحفياً «يُدير»، وقد تمكن من صنع النجوم الذين يكتبون حوله وأولهم وقتها - وحتى اليوم - «ويليام ريس موج» رئيس تحرير «التيمس» فيما بعد، و«هارولد إيفانز» الذى خَلَف «دنيس هاملتون» على رئاسة تحرير «الصنداى تيمس» نفسها، غير نجوم كبار مثل «فرانك جايلز» و«سيمون جينكينز»، وغيرهم! - وهكذا فإن «دنيس» كان فى موضع يسمح له بالتأثير على الذين يكتبون، لكنه نفسه لا يكتب، ولذلك فهو لا يُلام على شىء، بل إنه المسئول الذى يُرجى ويُشتَكى إليه من هؤلاء الذين يكتبون إذا جَمَحوا أو لم يَجمَحوا!

وكذلك كانت صلات «دنيس هاملتون» طيبة مع كل القوى فى العاصمة البريطانية - وفى غيرها من العواصم بتأثير نفوذ «الصنداى تيمس» - وكانت الأبواب مفتوحة له من قصر «باكنجهام» إلى مقر رئاسة الوزارة فى «داوننج ستريت»، ومن البيت الأبيض فى واشنطن إلى الكرملين فى موسكو!

وكان ذلك الرجل - «دنيس هاملتون» - هو الرجل الذى جاء لزيارتى فى القاهرة فى مارس سنة ١٩٦٣ - وظهر بعدها بالحجم الكبير فى الوثائق الإسرائيلية، وسَحَبَنى معه إليها - دون أن أدرى - حتى وَصَلَت هذه الوثائق الإسرائيلية إلى يدى ومَشَت عيناى على سطورها!]

....

....



١١ الســــــر

....

....

وصل «دنيس هاملتون» إلى مصر (يوم ١٢ مارس ١٩٦٣) ومعه زوجته «أوليف» ضيوفاً علينا، وبَقِيا معنا فى القاهرة أياماً ثم أبدى «دنيس» رغبته فى زيارة الأقصر وأسوان بظَن أنه هناك قادر على أن «ينام فى الشمس» أياماً بغير أن يقاطعه أحد أو يستولى عليه خبر!

ولم نستطع أن نذهب معهما لشواغل المَحت. وبعد قرابة الأسبوع عادا، وطلب «دنيس» مقابلة «جمال عبد الناصر». ولم يدهشنى طلبه رغم أنه جاء إلى مصر فى زيارة شخصية، وتقديرى أن «دنيس» حتى وإن لم يكن صحفياً كاتباً فإنه كصحفى «يُدير» يحتاج دائماً أن يكون صحفياً «عارفاً»، كما يحتاج إلى صلة بصُنّاع الأخبار فى العالم، وكانت القاهرة فى تلك الأيام مصنعاً من أهم مصانع الأخبار فى الشرق والغرب على السواء.

[وهكذا أخَذتُ «دنيس هاملتون» وذهبنا معاً إلى موعد

أخذت «دنيس هاملتون» وذهبنا معا إلى موعد مع «جمال عبد الناصر» فى بيته، وهناك دار حوار عام عن الأوضاع العامة فى المنطقة وفى العالم لم يخرج عن المألوف فى تلك الأيام، إلى درجة أننى لم أسجل من وقائعه فيما دونت عنه أكثر من سبعة سطور. لكن الوثائق الإسرائيلية راحت تقول عن هذا الاجتماع شيئا آخر بدا لى مُستوْجِبا للدهشة

مع «جمال عبد الناصر» فى بيته. وهناك دار حوار عام عن الأوضاع العامة فى المنطقة وفى العالم لم يخرج عن المألوف فى تلك الأيام. إلى درجة أننى لم أسجل من وقائعه فيما دَوَّنتُ عنه أكثر من سبعة سطور. لكن الوثائق الإسرائيلية - أوراقا بعد أوراق - راحت تقول عن هذا الاجتماع شيئاً آخر بدا لى مُستَوْجِباً للدهشة حين أتيح لى الاطلاع عليه].

....

....

ويكتب «بن جوريون» فى يومياته ما يلى:

«اتصل بى إدموند دى روتشيلد من لندن يقول إن دنيس هاملتون (صديق هيكل المقَرَّب من ناصر) - قابل الرئيس المصرى وسمع منه قوله إنه «إذا التقى هو وأنا فى غرفة واحدة لعدة ساعات فإنه واثق من أن كل المشاكل القائمة بين مصر وإسرائيل سوف تنتهى إلى حل يرضى الطرفين».

....

....

[ولم يكن ذلك ما حدث.

كان ما حدث، وقد حدث أمامى وحدث بمشاركتى، هو أن مقابلة «دنيس هاملتون» لـ«جمال عبد الناصر» جرت - كما أسلفت - فى الإطار العادى المألوف من قضايا تلك الأيام (تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى - العلاقات بين مصر وسوريا والعراق مع كلام زاد أيامها حول مشروع وحدة فيدرالية مُقتَرَحة بين الثلاثة - ثم عن اليمن وعدن والخليج).

وغداة المقابلة سافر «دنيس» و«أوليف» عائدين إلى لندن.

ومَرَّت خمسة أيام بالضبط وليس أكثر وفوجئت بتليفون من «دنيس هاملتون» يقول لى من لندن إنه «قادم إلى القاهرة مساء غد ويريد مقابلتى فور وصوله»، وقلت له إن سيارتى سوف تكون بالمطار فى انتظاره لتحمله إلى «الأهرام» (مكتبى) مباشرة.

ويدخل «دنيس» إلى مكتبى فيسألنى: «هل المكتب مُؤَمَّن من ناحية الاختراق بالتَّسَمُّع؟».

وأَرُدُّ عليه بأن «ذلك ما أظنه». وأضيف «أننى لا أستطيع أن أقطع ولا غيرى فى أى مكان فى العالم بأنه ليس هناك من ينصت إليه؟».

ويقول «دنيس»: «إذن نخرج إلى الشارع، فهو «أفضل مكان مأمون».

واقترحت أن نذهب إلى بيتى، ولم ير «دنيس» أن بيتى أكثر حصانة من مكتبى، وهكذا رحنا - حوالى منتصف الليل - نتمشى على رصيف كوبرى قصر النيل جيئة وذهاباً لمدة أربعين دقيقة، وكان «دنيس» يروى لى قصة أشبه ما تكون بالقصص البوليسية.

سألنى: «هل تعرف أين كنت أول أمس قبل أن أطلبك بالتليفون من لندن؟

وأجبتُ بالنفى.

قال: «كنت فى إسرائيل»!

وأبديت دهشتى.

وعاد «دنيس» يؤكد: «نعم كنت فى إسرائيل مخطوفاً تقريباً. وهناك جلست ساعات مع رئيس الوزراء «دافيد بن جوريون» الذى سألنى عن مقابلتى معك للرئيس «ناصر»، وسألنى عنه، وطلب إلىّ أن أنقل رسالة منه إلى الرئيس !».

ورَجَوتُ «دنيس» أن يتمهل وأن يعود إلى القصة بالتفصيل.

وكانت روايته أنه «التقى فى اليوم التالى لعودته من القاهرة إلى لندن على غداء بالبارون «إدموند دى روتشيلد»، وعَرَفَ منه «روتشيلد» أنه كان قبل يومين مع «جمال عبد الناصر»، وقد وجه إليه «روتشيلد» عدة أسئلة «عادية» و«طبيعية» عن المقابلة وما دار فيها، ثم عن شخصية «ناصر» كما رآها، ثم صداقة «ناصر» بى ومدى عمقها».

وفى مساء ذلك اليوم دُهش «دنيس هاملتون» حين تلقى اتصالا من البارون «روتشيلد» يرجوه فيه أن ينتظره فى بيته على شراب for a drink فى الساعة السابعة مساء.

وفى الموعد المحدد جاء البارون «روتشيلد» ولم يجئ وحده وإنما دخل ومعه السفير الإسرائيلى فى لندن والملحق العسكرى بسفارته.

وقال «دنيس» إنه لدقائق لم يكن قادراً على استيعاب المشهد، ولكن «روتشيلد» شَرَحَ له أنه كان يتحدث تليفونياً مع رئيس الوزراء الإسرائيلى ثم عرض استطرادا إلى ما سمعه من «دنيس» عن لقائه مع «جمال عبد الناصر»، وإذا «دافيد بن جوريون» يهتم ويسأل عما دار، وما هى التفاصيل، و«هل كان هيكل وحده مع هاملتون أم كان هناك غيره؟».

وأبدى «روتشيلد» أنه «هو الآخر» استغرب اهتمام «بن جوريون» إلى هذه الدرجة بلقاء «هاملتون» مع «ناصر»، وأنه عاد بعد أقل من ربع ساعة يطلبه على التليفون ويسأله:

- «هل يستطيع أن يرسل إليه دنيس هاملتون فى تل أبيب، فهو يريد أن يلقاه، وأن يلقاه على الفور وكل شىء ما زال «طازجاً»!

وقال له «روتشيلد»: إنه «لا يستطيع أن يضع «دنيس» فى طائرة ويشحنه إلى إسرائيل، ولا يستطيع أن يوجه إليه دعوة باسم رئيس وزرائها». وردَّ عليه «بن جوريون» بأنه «سوف يبعث بتعليمات إلى سفير إسرائيل فى لندن بأن يذهب إلى «دنيس هاملتون» لإبلاغه بطلب رئيس الوزراء الإسرائيلى أن يلقاه فوراً، ثم إن طائرة خاصة سوف تجىء إلى لندن فى الصباح الباكر غداً لتحمل «دنيس» إلى إسرائيل».

وقال لى «دنيس هاملتون» وهو وأنا نتمشى على رصيف كوبرى قصر النيل - حول منتصف الليل - إنه حاول أن يعتذر لـ«روتشيلد» وللسفير الإسرائيلى، وكان موجب اعتذاره الرسمى أن «وراءه غداً اجتماعا هاماً مع نقابة عمال الطباعة فى جريدة «الصنداى تيمس»، وهذه النقابة تهدد بالإضراب إذا لم يستجب لمطالبها». ولكن «روتشيلد» والسفير الإسرائيلى وملحقه العسكرى راحوا ثلاثتهم يقنعون رئيس تحرير «الصنداى تيمس» بأن «سلام الشرق الأوسط وسلام العالم» أهم من السلام بين إدارة «الصنداى تيمس» ونقابة عمال الطباعة فيها!

واستطرد «دنيس» ونحن ما زلنا على كوبرى قصر النيل يقول إنه «توجه إلى مطار «هيثرو» صباحاً فى رفقة الملحق العسكرى الإسرائيلى فى لندن، وعند الظهر كان جالساً على الغداء فى بيت رئيس وزراء إسرائيل «دافيد بن جوريون».

وكان ملخص ما قاله له «بن جوريون» أنه «يعتقد أن الوقت مهيأ للبدء فى صنع السلام بين مصر وإسرائيل»، وشرح له الأسباب [وأولها ما يظنه عن مزاج «جمال عبد الناصر» المفعم بالإحباط، وما يعرفه (بن جوريون) من خيبة أمله فى كل العرب، والمخاطر التى تهدده (ناصر) من ضغوط من الملوك ومن البعثيين ومن المسلمين المتعصبين، واستعداده (ناصر) نتيجة لذلك أن يركز جهوده كلها على الداخل فى مصر، وأن ذلك يجعله مفتوحاً لتقارب مع إسرائيل !!].

ثم قال «دنيس» (ونحن على كوبرى قصر النيل ما زلنا) إن «بن جوريون» طلب منه أن يتوجه إلى القاهرة وأن يتحدث معى، وأن يقابل «جمال عبد الناصر» فى حضورى ويبلغه أن رئيس وزراء إسرائيل لديه ما يريد قوله له، وكله جديد يختلف عما سمعه «منا فى الماضى»، وفيه كثير يهمه «كزعيم ووطنى مصرى» أن يسمعه، وسوف يكتشف (ناصر) بنفسه «إذا التقينا سِرّا فى أى مكان يختاره، حتى عند «صديقه تيتو» - أن أمامه فرصة لا تتناقض مع طموحاته لمصر، بل العكس لعلها تحقق لمصر أكثر مما يحلم به»!

واستطرد «دنيس هاملتون» (على كوبرى قصر النيل بعد منتصف الليل) أن «بن جوريون» أراده أن يركب الطائرة من تل أبيب إلى القاهرة رأساً، لكنه خشى أن يطلق المصريون عليها النار إذا لم يكن لديهم علم بمهمتها، وإذا وقع إخطارهم مسبقاً بمجىء الطائرة فقد يشعرون أن الموضوع مُناوَرة مفتوحة، وأن القصد منه هو الإحراج - ولهذا فإنه (بن جوريون) يرجوه (دنيس) مهما كان فى ذلك إرهاق له أن يعود إليه فى المساء ويكون قد فَكَّر فى الأمر، ثم يعود بالطائرة الخاصة غداً إلى لندن. ومن هناك ودون انتظار يَتَوَجَّه إلى القاهرة عائداً إليها فى «مُهِمَّة سلام». وقد كان. وهكذا عاد «دنيس» إلى القاهرة وقد تَغَيَّرَت صفته من صديق وصحفى، إلى وسيط سياسى ومبعوث من رئيس وزراء إسرائيل !

وسألنى «دنيس» فى النهاية: «ما رأيك؟» ولم ينتظر ليسمع جوابى، وإنما استطرد قائلاً: «إن بن جوريون أبدى له وهو يُوَدِّعه مساء فى بيته بعد لقائه الثانى معه فى يوم واحد أنه بعث برسالة فى نفس المعنى إلى «ناصر» عن طريق «تيتو»، لكنه يظن أن رسالته عن طريق «دنيس» وفى حضورى (صديق «ناصر» المقَرَّب) سوف تصل مباشرة، وجهاً لوجه، وبدون مراسم!»].

....

....

وفى الوثائق الإسرائيلية وفى يومياته يكتب «بن جوريون»: «لسوء الحظ أن دنيس هاملتون عاد من القاهرة إلى لندن، ثم جاء من لندن ومعه روتشيلد ليقول إن عبد الناصر رفض ما عرضه عليه، وأن كل محاولاته (محاولات «دنيس») لمناقشة تفاصيل رسالتى لم تفلح، وأن ناصر كرر عليه الحجج المألوفة».

ويضيف «بن جوريون»: «خسارة أن تضيع هذه الفرصة الأخيرة. من الواضح أن ناصر غير مستعد لأى اتفاق رغم أنه الأقدر عليه ورغم أن الظروف المحيطة به الآن تجعل اتفاقه معنا أفضل الخيارات المتاحة له».

....

....

[والغريب أن الوثائق الإسرائيلية لا تشرح كيف فهم «بن جوريون» من «روتشيلد» ما فهم - أو ربما كيف فهم «روتشيلد» من «دنيس هاملتون» ما نَقَلَه لرئيس الوزراء الإسرائيلى؟].

....

....

على أنه لم تمض غير أيام على هذه القصة كلها إلا وكان «بن جوريون» قد خرج من رئاسة الوزارة ساخطاً مرة أخرى على كل الناس!

وانتقلت المسئولية منه إلى «ليفى أشكول».

وكان «ليفى أشكول» مُختَلفاً عن «بن جوريون». لم يكن دوره فى الحركة الصهيونية بناء دولة ولا صياغة نظرية أمن، وإنما كانت مسئوليته فى الوكالة اليهودية وبعد قيام الدولة فى مجال توفير وإدارة موارد مياه لازمة لإسرائيل، سواء للمستعمرات الزراعية أو للمدن الصناعية الجديدة.

ومع ذلك ففى عهد رئاسة «أشكول» للوزارة تَعَقَّدَت الأمور ووَصَلَت إلى الحرب فى يونيو سنة ١٩٦٧.

وكانت مصادر المياه المطلوبة لإسرائيل هى المدخل إلى شلالات الدم التى سالت فى ميادين القتال تلك السنة ... وعلى نفس المستوى كانت قضية القنبلة النووية الإسرائيلية !

ويَتَبَدَّى جلياً فى الوثائق الإسرائيلية أن «الماء» و«القنبلة» معاً هما العنصران الرئيسيان فى تحديد موعد الحرب سنة ١٩٦٧.

....

....

وتواصل الوثائق الإسرائيلية عرض خفاياها، كاشفة من الضفة الأخرى مَشهَداً مختلفاً - وموقع نظر مغاير يستحق الذهاب إليه والوقوف عنده بعض الوقت دون أن يكون الوقوف زماناً ضائعاً !

اللغز المحير لسقوط

إيلين سكارى

في السابع عشر من يوليو ١٩٩٦ أقلعت طائرة «تى دبليو إيه» الرحلة رقم ٨٠٠ من مطار جون كنيدى الدولى: وبعد اثنتى عشرة دقيقة ونصف سقطت فى المحيط جنوبى لونج آيلاند. وفى الثانى من سبتمبر ١٩٩٨ أقلعت طائرة «سويس اير» الرحلة رقم ١١١ من مطار جون كنيدى: وبعد أربع عشرة دقيقة فقدت الاتصال اللاسلكى بالمراقبين الجويين: وظلت الطائرة محلقة فى اتجاه الشمال. وفى النهاية عاد الاتصال وأبلغت عن وجود دخان فى كابينة القيادة بينما كانت تقترب من نوفا سكوتيا، ثم هوت فى المحيط الأطلنطى. وفى الحادى والثلاثين من أكتوبر ١٩٩٩ أقلعت طائرة مصر للطيران الرحلة ٩٩٠ من مطار جون كنيدى: وطارت الطائرة شرقاً لمدة إحدى وثلاثين دقيقة، ثم هوت فجأة فى المحيط شرقى لونج آيلاند جنوبى ناموكيت. ولقى الستمائة وستة وسبعين شخصاً الذين كانوا على متن الطائرات الثلاث حتفهم. وخلال تلك السنوات الثلاثة وثلاثة أشهر لم يحدث أن سقطت طائرة ركاب كبيرة أقلعت من الولايات المتحدة.

إن وقوع تلك الحوادث فى منطقة واحدة يوحى بان المنطقة ذاتها ـ أى البيئة الموجودة خارج الطائرة ـ ينبغى وضعها فى كل الحالات ضمن الأسباب التى يتم التحقيق فيها. وقد قطعت الدراسات المهمة التى يقوم بها مركز «جوينت سبيكترم» ووكالة «ناسا» لأبحاث الطيران والفضاء شوطاً طويلاً نحو إعادة بناء البيئة الكهرومغناطيسية للحادث الأول؛ إلا أن العمل بخصوص رحلة «تى دبليو إيه» رقم ٨٠٠ لم يكتمل بعد، ولا يكاد يكون قد بدأ فى حالتى رحلتى «سويس اير» رقم ١١١ ومصر للطيران رقم ٩٩٠.

ولا تبدو الحاجة ملحة لإعادة بناء الظروف المحيطة، بسبب وقوع الحوادث الثلاث فى منطقة واحدة فحسب، وإنما ترجع أيضًا إلى عدم وجود أى سبب داخلى محدد: فيعتقد أن رحلة «تى دبليو إيه» رقم ٨٠٠ سقطت نتيجة لانفجار خزان وقود مركزى، غير انه لم يعثر على مصدر الاحتراق الخاص بذلك الانفجار. (أثناء جلسة الاستماع الخاصة بهذا الحادث فى شهر أغسطس، قسم المجلس القومى لسلامة النقل مصادر الاحتراق المحتملة إلى «محتملة» و«غير محتملة» وحدد «ماساً» كهربياً على أنه الأقل من حيث عدم الاحتمال؛ إلا أن المحققين اعترفوا مراراً بانهم لم يعثروا على دليل محدد على ذلك الماس الكهربى أو حتى على موضع محتمل له).



ويعتقد كل من مجلس سلامة النقل الكندى وشركة «بوينج» أن سقوط رحلة «سويس اير» رقم ١١١ أصله كهربى، إلا أنه ما من نظام على الطائرة، أو قطاع من قطاعات الأسلاك، أو حتى شريحة من الطائرة حكم عليها حتى وقتنا هذا بانها هى السبب. وطبقاً لما ذكره المجلس القومى لسلامة النقل فى الولايات المتحدة، فإن رحلة مصر للطيران رقم ٩٩٠ لم يصبها عطب ميكانيكى يمكن إرجاع هبوطها المفاجئ فى اتجاه المحيط إليه: وقد ذكر مجلس السلامة وكذلك الصحافة مراراً عدم وجود أى سبب ميكانيكى كدليل على أنه لا بد أن أحد الطيارين اختار عمداً أن ينهى حياته وحياة كل المسافرين معه (وهى النقطة التى سوف أعود إليها).




اهتم الجزء الأول من هذا المقال بالملامح المشتركة بين رحلة «تى دبليو إيه» رقم ٨٠٠ ورحلة «سويس اير» رقم ١١١ والذى نشرته مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس فى ٢١ سبتمبر الماضى، ويبدو أن كلاً منهما أصابتها كارثة كهربية، إلا أن سبب كل حادث قد ثبت

أثناء الجزء الأول من رحلتها عبر الأطلنطى. وكما حدث لهما، عانت من سلسلة من الأحداث التى تتوافق ـ كما سنرى بعد قليل ـ مع أى حادث كهربى. ولكن لا بد أن نذكر من البداية أن مصر للطيران ٩٩٠ لا تشترك فى كل الملامح الخارجية التى تتداخل فى حادثى الطائرتين الأخريين. فقد أقلعت فى منتصف الليل، فى الساعة ١,١٩ صباح يوم الأحد، وليس الساعة ١,١٩ مساء يوم الأربعاء. كما أنها لم تسر، كما سارت الطائرتان الأخريان، فى مسار «بيت» الذى يضم ساحل لونج آيلاند لكى تتحاشى الحافة الشمالية من منطقتى التدريبات العسكرية W-105 و W-106. (هاتان هما المنطقتان اللتان المحددتان على خرائط الطيران كما يلى: «تحذير: مناطق عمليات الدفاع القومى، عمليات خطرة على طيران الطائرات داخل هاتين المنطقتين».)

وبدلاً من ذلك فإن مصر للطيران ٩٩٠ وكما تبين الخريطة، دخلت من خلال منطقة التدريب العسكرى W-106 ثم تعبرها إلى منطقة التدريب W-105، حيث طارت لمسافة ١٢٠ ميلاً تقريباً قبل أن تسقط سقوطاً لا صعود بعده فى اتجاه البحر. ويقع موضع سقوطها بعمق داخل منطقة التدريب العسكرى W-105.

حتى الآن انه يصعب تحديده. كما أن كلاً منهما أقلعت من مطار جون كنيدى؛ واتجهت الطائرتان شرقاً على امتداد لونج آيلاند على مسار «بيت» (الذى يجعل الطائرات تتحاشى منطقة من فضاء المحيط تسمى W-105 و W-106، عندما تكون محجوزة للتدريبات العسكرية)؛ وأقلعت الطائرتان فى يوم أربعاء الساعة ٨,١٩ مساء؛ وواجهت كل من الطائرتين أولى صعوباتها بعد اثنتى عشرة إلى أربع عشرة دقيقة من الطيران (صعوبة قاتلة بالنسبة لـ: تى دبليو إيه ٨٠٠، وصعوبة خاصة باللاسلكى تتعلق بجاذبية غير مفهومة حتى الآن بالنسبة لرحلة «سويس اير» ١١١) مع أن مجلس سلامة النقل الكندى لم يحدد انقطاع الاتصال اللاسلكى على انه مركز اهتمام أكثر أهمية من أى جزء آخر فى الطائرة، فهو بالتأكيد من بين مواضع اهتمامهم. وفى ٩ مارس ١٩٩٩ أرسل مجلس السلامة خطاب «توصيات سلامة جوية مؤقتة» إلى ديفيد مايكل وزير النقل الكندى يحث على مد زمن مسجلات الصوت فى كابينة القيادة من طوله الحالى، وهو نصف ساعة، إلى فترة أطول من ذلك بكثير. وذكر المجلس أن هناك حاجة إلى شريط مدته أطول من الثلاثين دقيقة التى انقطع فيها الاتصال اللاسلكى فى رحلة «سويس اير» رقم ١١١: ذلك أن وجود تسجيلات صوتية ممتدة كان سيسجل «محادثات كابينة القيادة، أو ضوضاء الكابينة، أو محاولات الإرسال التى قام بها طاقم الطائرة» وهو ما كان سيساعد مجلس السلامة مساعدة كبيرة فى تقييم الانقطاع. ومع أن جملتين فقط خصصتا للانقطاع الغامض، فإن كون المطالبة بأشرطة ممتدة تقوم على هذا المثال الملموس الوحيد باهميتها المحتملة؛ كما أن كلاً من الرحلتين طارت فى ليلة كانت الغواصات وطائرات P3 التابعة للبحرية تعمل قبالة الساحل.



أقلعت رحلة مصر للطيران رقم ٩٩٠، شأنها شأن «تى دبليو إيه» ٨٠٠ و«سويس اير» ١١١، من مطار جون كنيدى وسقطت



سقطت طائرة مصر للطيران رقم ٩٩٠ فى نفس المنطقة التى كانت قد سقطت فيها طائرتى «تى دبليو إيه ٨٨٠، وسويس إير ١١١» وبعد وقت قصير من اقلاع كل منهما من مطار جون كنيدى. إن وقوع تلك الحوادث فى منطقة واحدة يوحى بأن المنطقة ذاتها ـ أى البيئة الموجودة خارج الطائرة ـ ينبغى وضعها فى كل الحالات ضمن الأسباب التى يتم التحقيق فيها



إن مسألة الأهداف تصبح الطائرات المدنية هدفاً خاصاً للمراقبة وفى ظل أى ظروف وفى أى فترة زمنية موضوع لا يناقش على نطاق واسع فى الولايات المتحدة، بينما هو موضوع تنبغى مناقشته. هل ينبغى أن يتورط المدنيون فى التدريبات العسكرية دون علمهم أو تصريحهم بذلك؟ وبينما يكون من المستحيل بالنسبة للمواطنين أن يعطوا تصريحاتهم على أساس كل رحلة على حدة، فمن المؤكد أن القضية العامة يمكن مناقشتها والجدل بشأنها

وعندما غادرت مصر للطيران ٩٩٠ مطار جون كنيدى، كان قد حدد لها مبدئياً مسار كان سيدور بها حول منطقة التدريب العسكرى W-105، وهو مسار وُصف بأنه Ship Linnd Lacks Dovey

هذه الكلمات وهى تعبير عن التقاطعات التى تمر بها الطائرة استخدمها مراقب جوى نيويورك فى قطاع رادار كنيدى عند الحديث إلى مراقب جوى نيويورك فى قطاع مانتا، الذى كانت مصر للطيران ٩٩٠ تتجه إليه. وتشير الأسماء الأربع إلى تسلسل نقاط التقاطع فى المحيط؛ وكما تبين الخريطة، فإنه لو كانت مصر للطيران ٩٩٠ قد طارت إلى Shippثم إلى Linnd ثم إلى Lacks ثم إلى Dovey ما كانت لتدخل المنطقة العسكرية W-105. لا حاجة إلى القول بأن مصر للطيران ٩٩٠ ربما كانت ستسقط حتى وإن اتبعت مساراً مختلفاً. إلا أن هذا المقال معنى ببحث إمكانية أن البيئة الموجودة فيها الطائرة – ومن ثم المسار – كان لها دور مهم فى الحادث. وعادة عندما يستخدم المصطلح W-105فإنه يشير، كما هو الحال فى هذا المقال، إلى منطقة تتكون من أربعة قطاعات، هى (١٠٥ A, B, C, Dانظر الخريطة). والمنطقتان W-105Bو W-106هى الأقل استخداماً فى التدريبات العسكرية. إلا أنه من المعتاد أنه ما إن تصبح الطائرة فى الجو حتى يقدم لها المراقبون الجويون على طول طريقها مساراً مباشراً، إذا كان الطريق الأقصر خالياً من المرور، أو إذا كانت المنطقة، فى حالة مناطق التحذير، قد سلمها الجيش لإدارة الطيران الفيدرالية. وبحلول الساعة ١,٣٥ صباحاً كانت مصر للطيران ٩٩٠ قد مرت من قطاعى رادار نيويورك، كنيدى ومانتا، ووصلت إلى القطاع الثالث، الأطلنطى، الذى يراقب القطاع الأول من الرحلة عبر الأطلنطى. وقبل الساعة ١,٣٦ بثوان سمحت مراقبة الأطلنطى لمصر للطيران ٩٩٠ بالطيران مباشرة إلى نقطة Dovey فى المحيط، دون أن تمر أولاً على Linnd و Lacks:

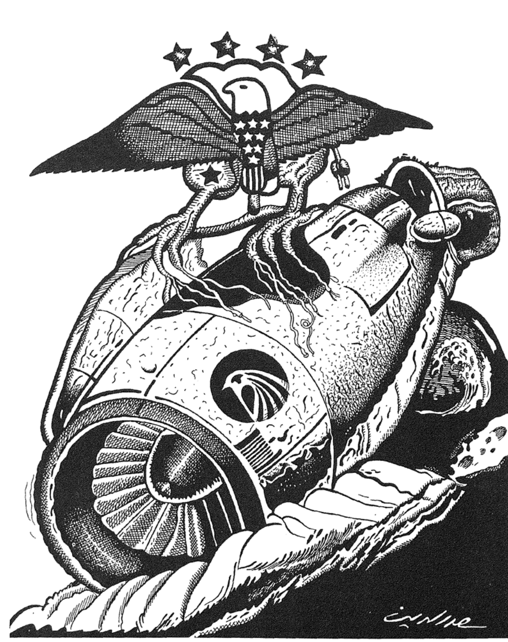
مراقبة الأطلنطى: مصر للطيران ٩٩٠، ارتفع وابق على مستوى الطيران ثلاثة ثلاثة صفر Dovey .33,000 المباشر خال.

مصر للطيران ٩٩٠: ثلاثة ثلاثة صفر، Dovey المباشر، مصر للطيران٩٩٠.

وعلى الخريطة، فإن هذه هى اللحظة التى تستدير فيها الطائرة المتجهة جنوباً نحو Linnd، فجاة شرقاً وتبدأ فى الطيران عبر المنطقة W-105.

الطائرة المصرية

تقرير فنى دولى يطرح احتمالات لفك غموضه



يبدو لكثير من الناس ـ ومن بينهم كاتبة المقال بكل تأكيد ـ أنه من البديهى عندما تسقط طائرة مدنية ينبغى أن يتم بسرعة تحديد عدد وطبيعة كل الهوائيات الكهرومغناطيسية فى منطقة الحادث. ويبدو من البديهى كذلك أن يتخذ هذا الإجراء بطريقة أتوماتيكية، تماماً مثل الكثير غيرها من أشكال الأدلة ـ فالجمع الفورى يفيد عند وقوع حادث. (فى القسم الأول من هذا المقال، أوصى المدير السابق لمركز جوينت سبكترم بعمل ذلك). وعندما تسقط طائرة مدنية داخل منطقة عسكرية أو بالقرب منها، فإنه من الواضح أن يكون هناك سبب أقوى لضمان أن يتم مثل هذا التحديد الشامل لمصادر الترددات.

وليست هناك حاجة لأثر محدد لوجود مشكلة فى الصيانة، أو مشكلة فى الوقود، أو مشكلة فى كابينة العفش لحث المجلس القومى لسلامة النقل على جمع سجلات الصيانة، وعينات الوقود، ومانيفستو الشحن؛ إن جمع هذه المادة أتوماتيكياً يبدأ فى نفس اليوم الذى تسقط فيه طائرة ركاب. ولا ينبغى كذلك أن يتطلب أدلة أو محاجات خاصة لتحديد مواقع الهوائيات فى البيئة الخارجية.

وحقيقة أنه سُمح لمصر للطيران ٩٩٠ بالطيران داخل المنطقتين W-106و W-105 ينبغى أن يكون معناها أنه لم تكن هناك تدريبات عسكرية تجرى فى هاتين المنطقتين؛ وأتاح المجلس القومى لسلامة النقل للجمهور الاطلاع على السجلات اليومية لإدارة الطيران الفيدرالية التى تؤكد أن مناطق التدريب العسكرى كانت مفتوحة للرحلات الجوية المدنية خلال الساعة (أو ما اتضح فى حالة W-105أنها ربع الساعة) التى كانت تطير فيها مصر للطيران ٩٩٠ هناك. كما أتاح المجلس القومى لسلامة النقل للجمهور الاطلاع على السجل الوارد من مراقبة منطقة الأسطول ومنشأة المراقبة فى فيرجينيا كيبس (عادة ما يكون اختصار اسم هذه المنشأة هو FACFACS VaCapes)، إلا أنها تشير إلى نفسها فى وثائقها الداخلية واتصالاتها مع إدارة الطيران الفيدرالية بـ (GIANT KILLER). أى القاتل العملاق.

وتبين سجلات هذه المنشأة فقط تدريباً واحداً فقط كان مقرراً أن يتم فى المنطقة W-105يوم ٣١ أكتوبر، وهو فى وقت متأخر كثيراً عن رحلة الساعة ١,١٩ صباحاً. إلا أن غياب التدريبات العسكرية المقررة لا يضمن عدم وجود طائرات عسكرية فى الممرات المحيطة بمناطق التحذير أو داخلها. الواقع أن الطائرة الوحيدة الأخرى بخلاف مصر للطيران ٩٩٠ التى اتصلت بها مراقبة الأطلنطى الجوى خلال الفترة السابقة للحادث هى طائرة تابعة للأسطول تحمل علامة Arise 57

الطائرة المصرية



كانت تحلق في ممر بين مناطق التحذير. (وفي اللحظة التي تصل فيها Arise 57 يعود المراقب الذي كان قد ابتعد لفترة قصيرة عن شاشة الرادار ويدرك أن مصر للطيران ٩٩٠ اختفت من على شاشات الرادار ومن اللاسلكي). ويبدو أن Arise 57 كانت تطير على مسافة بعيدة - حوالي ١٥٠ ميلاً - من مصر للطيران ٩٩٠: ويشير التفريغ إلى ممر طيران من نقطة تقاطع Champ على المحيط إلى موقع المحيط Sea Isle (هاتان النقطتان جنوبي المنطقة المبينة على الخريطة). ولن تظهر الطائرات العسكرية التي تطير داخل المنطقة W-105 على أشرطة المراقب الجوي التابع لإدارة الطيران الفيدرالية لأنها عند نقطة دخول المنطقة تتوقف عن الاتصال بالمراقبين الجويين. ولا تنشأ الأخطار المحتملة داخل مناطق التحذير والممرات من وجود ذخيرة، ولكن من الرادار عالي القدرة أو غيره من الإشارات الكهرومغناطيسية الصادرة عن هوائيات أرضية ثابتة أو من هوائيات على الطائرات التي تمر في المنطقة.

ونحن نعرف (من التقارير الإخبارية خلال الأسبوع التالي للحادث مباشرة) أن هوائيات رادار القوات الجوية القوى كانت تتعقب مصر للطيران ٩٩٠، ولأن هذه المراسلات مصممة بحيث تكتشف صواريخ كروز، فإن لديها قدرات لا تشاركها فيها أية أجهزة رادار مدنية. ويمكن للرادار المدني قراءة ارتفاع أي طائرة فقط في حال وجود جهاز إرسال واستقبال يعمل، وهو الجهاز الذي يحدد موقع الطائرة. وعلى العكس من ذلك، نجد أن هوائيات القوات الجوية مصممة بحيث تتعرف على ارتفاع أي جسم طائر، حتى ولو كان الجسم الطائر نفسه ليس به جهاز إرسال واستقبال، سواء أكان ذلك لأنه يرغب في إخفاء ارتفاعه (كما في حالة صاروخ كروز أو طائرة تابعة للقوات الجوية تنفذ تدريباً ما) أو لأنه فقد القدرة على تشغيل جهاز المرسل المستجيب الخاص به (كما حدث في حالة مصر للطيران ٩٩٠، وكذلك تي دبليو إيه ٨٠٠ وسويس اير ١١١، قبل أن تسقط).

حدث سقوط مصر للطيران ٩٩٠ في البحر على ثلاث مراحل: فقد هوت من ارتفاع ٣٣ ألف قدم إلى ١٦ ألف قدم، ثم حدث ارتفاع مفاجئ إلى ٢٤ ألف قدم، ثم هوت في نهاية الأمر إلى قاع البحر. ففقدت مصر للطيران ٩٩٠ جهاز الإرسال والاستقبال الخاص بها قرب نهاية الهبوط الأول. ولأن الطائرة كانت هدفاً للمراقبة من جانب هوائيات القوات الجوية في ريفرهيد بلونج آيلاند وترورو بكيب كود، استطعنا أن نعلم ما حدث في مرحلتي الطيران الأخيرتين - أي الارتفاع المفاجئ والسقوط النهائي. أوردت وسائل الإعلام الأمريكية على نطاق واسع دور مرسلات القوات الجوية في التقاط صورة مصر للطيران ٩٩٠، وكذلك عمل فرقة تقييم الرادار الرابعة والثمانين في قاعدة هيل الجوية في يوتاه، التي تقوم بتجميع الصور الملتقطة من مواقع رادار مختلفة تابعة للقوات الجوية. وكان بيان ريفر هيل بلونج آيلاند وترورو بكيب كود أقل وروداً في وسائل الإعلام. وعلى خرائط الطيران، هناك تحذير مطبوع بالقرب من ترورو بكيب كود: «تحذير: أجهزة رادار القوات الجوية الأمريكية خطر على الطائرات على مسافة ميل بحري واحد.» أي الهوائيات الأخرى كانت تراقب مصر للطيران ٩٩٠ وأيها كانت تتصل ببعضها بالقرب من مصر للطيران ٩٩٠، سؤالان يحتاجان إلى إجابة!!

اهتم الجيش في السنوات الأخيرة بالحرب «الساحلية»، مقابل الحرب التي تقع في البحار المفتوحة، التي كانت مركز اهتمام التدريب العسكري في فترة سابقة. وإحدى المهام الدائمة للرادارات العسكرية القوية - وهي تلك المحمولة على عبّارات ايجيس، على سبيل المثال - هي الوصول بقدرتها على تعقب الأجسام الطائرة الصغيرة إلى درجة الكمال، ثم، وهو الأهم، التقاط صورة ذلك الجسم الطائر بما يميزها عن «صخب» حياة الساحل المدنية. وحينئذ يكون من المحتم مراقبة الطائرات المدنية بهذه المرسلات والهوائيات: وهي جزء من صخب الساحل الذي يجب تمييز الأهداف الحقيقية عنه. وإن مسألة أن تصبح الطائرات المدنية هدفاً خاصاً للمراقبة وفي ظل أي ظروف وفي أي فترة زمنية موضوع لا يناقش على نطاق واسع في الولايات المتحدة، بينما هو موضوع تنبغي مناقشته. هل ينبغي أن يتورط المدنيون في التدريبات العسكرية دون علمهم أو تصريحهم بذلك؟ وبينما يكون من المستحيل بالنسبة للمواطنين أن يعطوا تصريحاتهم على أساس كل رحلة على حدة، فمن المؤكد أن القضية العامة يمكن مناقشتها والجدل بشانها.



ليس من الصعب التفكير في الأسباب التي جعلت مصر للطيران ٩٩٠ هدفاً عادياً- أو حتى هدفاً أكثر من عادي- للمراقبة المكثفة. فقد كانت مصر للطيران ٩٩٠، وقبل كل شيء، طائرة أجنبية قادمة من دولة لا تعتبر على الدوام حليفاً مقرباً للولايات المتحدة. والأمر الثاني هو أنها كانت تحمل ثلاثة من ضباط الجيش المصريين، بينهم ضابط برتبة عميد

وليس من الصعب التفكير في الأسباب التي جعلت مصر للطيران ٩٩٠ هدفاً عادياً - أو حتى هدفاً أكثر من عادي - للمراقبة المكثفة. فقد كانت مصر للطيران ٩٩٠، وقبل كل شيء، طائرة أجنبية قادمة من دولة لا تعتبر على الدوام حليفاً مقرباً للولايات المتحدة. والأمر الثاني هو أنها كانت تحمل ثلاثة من ضباط الجيش المصريين، بينهم ضابط برتبة عميد. ذكرت عميداً واحداً، رغم أن العدد يتباين حسب مصدر الخبر من واحد إلى ثلاثة. وطبقاً لما ذكرته مجلة Jane's Defense Weekly فإن مجموعة من ثلاثة وثلاثين ضابطاً كانت تضم «عميدين من القوات الجوية وعميدين من القوات البرية». وطبقاً لما ذكره كينيث بيكون المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية كان الضباط الثلاثة والثلاثون أثناء زيارتهم للولايات المتحدة مقسمين إلى ست مجموعات: كان أفراد إحدى المجموعات يدرسون الاتصالات؛ وكانت مجموعة ثانية تختبر طائرات هليكوبتر تم شراؤها حديثاً؛ وكانت المجموعة الثالثة موجودة هنا لتلقي «تدريب على معدات «عالية التردد»؛ وكانت المجموعة الرابعة تتعلم الاتصال عن بعد؛ وكانت المجموعة الخامسة تدرس إصلاح الصواريخ شابارال؛ وكان أعضاء المجموعة السادسة ينفذون مشروعات مفردة. وبغض النظر عن مهامهم المنفصلة، فقد تم تجميعهم ليركبوا هذه الطائرة بعينها في عودتهم إلى القاهرة.

الاحتمال الثالث هو أن مرور مصر للطيران ٩٩٠ خلال المنطقة W-105 ربما كان مفاجئاً للجيش وربما أدى هذا إلى استنفار قدر معين من الانتباه. وقد يكون أي من هذه الاحتمالات الثلاثة قد عمل بمعزل عن غيره، ولنأخذ الاحتمال الثاني على سبيل المثال: ربما كان مراقبو الجيش الأمريكي على علم بالطائرة وركابها المتميزين قبل وقت طويل من إقلاع الطائرة وعلى طول مسارها. (فقد ذكر كينيث بيكون أن وجود ثلاثة وثلاثين ضابطاً ليس أمراً غير عادي: ذلك أن ألفاً من الضباط المصريين يفدون إلى الولايات المتحدة في كل عام)، أو أن الاحتمالات قد عملت مجتمعة. على سبيل المثال، لو كان قد تم إبلاغ المراقبين العسكريين الأمريكيين باقتراب الطائرة قبل وقت قصير جداً من وصولها، فإنهم كانوا سيولونها مراقبة خاصة. وما إن يبدءوا في المراقبة كانوا سيلاحظون أنها طائرة ركاب مصرية. وهنا ربما كانوا سيولونها قدراً أشد من المراقبة وهم يراجعون خلفية الرحلة ويكتشفون أن على متنها ثلاثة وثلاثين ضابطاً. (وبالطبع ربما قد لا يكون أي من الاحتمالات الثلاثة قد حدث: فربما تكون أجهزة رادار القوات الجوية قد تعقبت الطائرة فقط لأن كل الطائرات المدنية يتم تعقبها هكذا في كل الأحوال).

ولكن ماذا عن الاحتمال الثالث الذي ذكرته: ما السبب الذي يجعلنا نعتقد أن مصر للطيران ٩٩٠ قد فاجأت المراقبين العسكريين في المنطقة (وبالتالي أصبحت هدفاً للمراقبة المكثفة)؟ هذا هو كل ما في الأمر: فاجأت الطائرة مراقباً جوياً مدنياً واحداً على الأقل في تلك الليلة. ولم تكن تقارير الكمبيوتر الآلية، التي كانت ستجعل مرور مصر للطيران ٩٩٠ من قطاع للقطاع التالي مفاجئة تماماً للمراقبين المدنيين، تعمل على الوجه الأكمل؛ وربما كانت الاتصالات بين المراقبين المدنيين والعسكريين كذلك بها عيب.

وفي الوقت الذي كان يتم فيه تسليم الطائرة من مراقب نيويورك في مطار كنيدي لمراقب نيويورك في مانتا، يعبر مراقب مانتا عن امتعاضه وفراغ صبره لأن الرحلة لم يتم ادخالها على الكمبيوتر:

مراقب كنيدي: مانتا كنيدي تسليم يدوي، مصر للطيران ٩٩٠.

مراقب مانتا: ألا يعلم أحد في البرج أنهم اضطروا لإعادة خطوط الطيران هذه من جديد؟

يقدم المجلس القومي لسلامة النقل ضمن وثائقه وصفاً لحقيقة أنه، كجزء من إجراء معتاد، أغلقت أجهزة الكمبيوتر لإجراء إصلاح روتيني. صحيح أنه لا يبدو أن المراقبين وجدوا أن موقفهم غير عادي، غير أنهم لا يرونه مقبولاً (إنه مقزز وحسب»). ولا شك في أن التسليم من كنيدي لقطاع مانتا تم تنفيذه بأمان: فليس لدى مراقب مانتا خط السير على جهاز الكمبيوتر، إلا أن مراقب كنيدي يتلوه شفاهة (Ahipp Linnd Lacks Dovey)؛ وليس لدى مراقب مانتا ارتفاع الطيار المطلوب، ولكن مراقب كنيدي يقدمه (مانتا: «هل تعلم ماذا يريد في النهاية؟» كنيدي: «لدي ثلاثة وثلاثون ألفاً»).



هذه المرحلة الأولى من شكوى المراقب الجوي تستغرق ما يقل قليلاً عن دقيقة واحدة، وربما رؤيت على خلفية الشكوى في كل خط آخر من خطوط العمل. إلا أن الأمر ليس هو إذا ما كان هناك خطأ يحدث هنا أم لا: فالمسألة هي أنه إذا كانت الطائرة غير موجودة على كمبيوتر مراقب مانتا، فهل ستكون موجودة على أجهزة كمبيوتر GIANT KILLER - بعد عشر دقائق حين توجه مراقبة الأطلنطي الطائرة كي تدور شرقاً لتدخل المنطقة W-105؟ تنص اتفاقية تمت في ١٥ يوليو ١٩٩٩ بين مراقبي إدارة الطيران الفيدرالية على الساحل الشرقي

البحرية Arise 57؛ ولذلك يرسل مراقب الطائرات سجلاً إليها بالفاكس.

وتطرأ مشاعر ضيق وعصبية بشأن مسار الطائرة في أماكن عديدة من سجل المراقبة الجوية. وبينما كانت الطائرة لا تزال على أرض مطار كنيدي، يعبر المراقب الأرضي ببرج كنيدي عن قلقه. فالطائرة تقلع متأخرة عن موعدها بساعتين: هل لا تزال خطة الطيران على ما هي عليه؟ يتم تغيير الساعة في تلك الليلة من التوقيت الصيفي إلى توقيت الساحل الشرقي، ومع أنه يتم تأخير الساعة فإن تأجيلا لمدة ساعتين يبدو أنه لمدة ساعة واحدة. إنه يستشير المراقب المسئول عن بيانات الطيران («هل لا تزال خطة الطيران هذه صالحة؟») وهو يؤكد له أنها كذلك («نعم. إنها لا تزال صالحة»). هل ينبغي إعطاء الطائرة كود جديدا لجهاز الإرسال والاستقبال المرسل المستجيب؟ ويؤكد له: «الكود الذي لديه صالح» الساعة ١٢,٥٦ بعد ثلاث وعشرين دقيقة (في الساعة ١,١٩ صباحاً)، عندما يسلم المراقب الأرضي المحلي في برج كنيدي المراقبة لمراقب الحركة في نيويورك، يتذكر قلقه الأول: «مصر للطيران ٩٩٠ تطير فوق Shipp ....إنها على مسار قديم؛ يقول مراقبو إدارة الطيران الفيدرالية على الساحل الشرقي إنه لا يزال صالحاً».



وبعد ذلك، وبينما يتم وضع الطائرة بين يدي مراقب مانتا، يعبر مراقب مانتا عن عدم الثقة في استخدام الكمبيوتر لاختيار مسار إحدى الرحلات: «وهو كذلك. دعني ابدأ مساراً...هذه المعدات الجديدة - أنا حتى لا أعرف كيف أفعل هذا الشيء. أدخل. هاهو ذا. وهو كذلك. مؤقتاً اثنان ثلاثة صفر ارتفاع ٢٣ ألف قدم .ومرة أخرى، هذه الفقرات لا يستشهد بها للإيحاء بأي انتهاك للقواعد أو انقطاع للانتباه من جانب المراقبين الجويين، الذين يبدون في حالة يقظة واهتمام، وإنما للإيحاء بأن قلقهم المشترك بشأن إرسال طائرة مصر للطيران في ليلة يبدو فيها كل شيء «مبهما» إلى حد ما.



هل كانت مصر للطيران ٩٩٠ الطائرة المدنية الوحيدة التي تطير خلال المنطقة W-105، كما يبدو عليه الحال خلال فترة الساعتين التي يغطيها تفريغ اتصالات المراقبة الجوية؟ (هذا السؤال يستحق الطرح لأن دخول طائرة بمفردها المنطقة W-105قد يزعج المراقبين العسكريين بقدر قد لا يحدثه تتابع منتظم للطائرات المدنية). وإذا كانت مصر للطيران ٩٩٠ بحق الطائرة المدنية الوحيدة في منطقة التحذير، فيبدو أن هناك تفسيراً بسيطاً ومباشرا: أن هذا الوقت ساعة متأخرة من الليل: وقليل من الطائرات يطير؛ ومعظم تلك الطائرات التي تطير لا تكون متجهة عبر الأطلنطي. وتطير طائرة خطوط كوستاريكا الجوية رقم ٦٦١ جنوباً على امتداد الساحل: أما لوفتهانزا ٨٢٠٢، وهي طائرة شحن كانت قد توقفت في مطار جون كنيدي أثناء توجهها من فرانكفورت في طريقها إلى أطلانطا، فإنها تطير الآن في الاتجاه الجنوبي الغربي فوق روبنزفيل بولاية نيوجيرسي وتمضي جنوباً. إلا أن هناك طائرة أخرى

خطة الطيران لرحلة مصر للطيران رقم ٩٩٠

المسار الفعلي الذي اتخذته طائرة مصر للطيران ٩٩٠ (قامت المراقبة الجوية بتعديل خطة الطيران اتباعاً لإجراءات عادية في اختصار المسافة)

موقع تحطم طائرة مصر للطيران ٩٩٠

مسار رحلة تي دبليو إيه رقم ٨٠٠

موقع تحطم طائرة تي دبليو إيه ٨٠٠

مسار رحلة سويس إير رقم ١١١

جانب من مسار رحلة سويس إير ١١١ الذي وقع أثنائه انقطاع الراديو

نوفا سكوتا — W-102 — W-103 — W-104 — بوسطن — المحيط الأطلنطي — نانتاكت — مارثاس فينيارد — Dovey — W-506 — موريشس — مطار جون كيندي — نيويورك — W-105 A, C, D, E — Lacks — W-106 — Shipp — نيوجيرسي — W-107 — W-105 B — Linnd

رسمت تلك الخريطة على أساس المعلومات المقدمة من الوكالة الفيدرالية للطيران الأمريكي ومن المجلس القومي لسلامة النقل لتوضيح مسار طيران رحلات كل من طائرة مصر للطيران رقم ٩٩٠، وطائرة تي دبليو إيه ٨٠٠، وطائرة سويس إير رقم ١١١. وكانت كل من الطائرتين الأمريكية والسويسرية قد طارت عبر مسار Bette. وفي حين كان مقرراً في بداية الأمر أن تطير طائرة مصر للطيران عبر المسار الذي تحدده نقاط Linnd و Shipp و Lacks، ثم مسار Dovey، تم توجيهها للطيران مباشرة إلى Dovey، عبر المنطقة العسكرية W-150، والتي طبقا لسجلات الوكالة الفيدرالية للطيران لم تكن مستخدمة لأغراض عسكرية تلك الليلة.

(ملحوظة: المناطق العسكرية من W-150، وحتى W-107، تشير إليها خريطة العالم لعلوم الطيران ط ٢٧ لعام ١٩٩٧، والصادرة عن وزارة التجارة على النحو التالي: «تحذير: مناطق عمليات الدفاع الوطني، العمليات خطرة على الطائرات السالكة لهذه المناطق»).

ومنشاة المراقبة على أنه عندما يتم تسليم مناطق التحذير لإدارة الطيران الفيدرالية، فإن الطائرات المدنية «التي تخترق» الفضاء لابد من الإعلان عنها للجيش من خلال إجراءات صريحة، مثل الإبلاغ بالكمبيوتر.

لقد انقطعت المحادثة بين مراقبي كنيدي ومانتا لأن مراقب مانتا مضطر لتبادل المعلومات مع طائرتين، أولاهما مصر للطيران ٩٩٠، تليها رحلة خطوط كوستاريكا الجوية رقم ٦٦١ وتسمى Lacsa. إلا أنه بعد خمس دقائق لا يزال مراقب مانتا يشعر بالضيق ويعود إلى الموضوع سائلاً مراقب كنيدي: «هل قابلت المزيد من المفاجآت بعد هذا أم هو آخر واحد؟» ويلي ذلك توضيح مهم. ذلك أن ما أغضب مراقب مانتا ليس هو أن كل تقارير الرحلات الجوية لم توضع على الكمبيوتر. فالمشكلة هي أنه تم إدخالها بطريقة غير متسقة:

مراقب مانتا: ... لم يسجل أحد مصر للطيران ولكنهم سجلوا اللاكسا (خطوط كوستاريكا).

يبلغ مراقب كنيدي مراقب مانتا أنه ليست لديه «بطاقات» (معلومات متقدمة) بشأن الطائرات التي سوف يوصلها إلى قطاع مانتا، ولكنه حينئذ يمضي مشيراً إلى أن عدم وجود بطاقة لا يعني أنه لن يكون هناك المزيد من الطائرات: «إن مجرد عدم وجود بطاقة عن أي أحد لا يعني أنه ليس هناك شخص آخر.»

مراقب مانتا: ...إذن سنكون نحن الاثنين بلا أية معلومات.

مراقب كنيدي: نعم هو كذلك.

إن عنصر المفاجأة الذي نسمعه في بيانات مراقب مانتا إلى مراقب كنيدي («هل قابلت المزيد من المفاجآت...؟»؛ «لم يسجل أحد مصر للطيران ولكنهم سجلوا اللاكسا»؛ «سنكون نحن الاثنين بلا معلومات») مسجل كذلك على قطاع رادار واحد آخر على الأقل. على سبيل المثال، ليس لدى مراقبة الأطلنطي سجل في جهاز الكمبيوتر الخاص بها عن طائرة

تستعد للقيام برحلة عبر الأطلنطي، وهي طائرة شحن العال ٢٨١٢، إنها تستعد للإقلاع تقريباً في نفس الوقت الذي تقلع فيه مصر للطيران ٩٩٠، ويبدأ المراقب في توجيه العال ٢٨١٢ المتجهة إلى تل أبيب عن طريق فرانكفورت، كي تخرج من مطار جون كنيدي عن طريق ممر المغادرة رقم سبعة في مطار كنيدي (نفس الممر الذي تخرج منه مصر للطيران ٩٩٠). ولكن المراقب حينذاك يوجه الطيار إلى اتخاذ ممر مختلف:

مراقب برج كنيدي: العال ٢٨١٢، صباح الخير، سمح لك بالإقلاع إلى فرانكفورت عن طريق مغادرة كنيدي سبعة – الواقع أنها مغادرة بيت اثنان وتحول نانتاكت ....

العال ٢٨١٢: روجر، العال سمح لها بالإقلاع عبر بوابة بيت اثنان تحول نانتاكت....



الطريق الجوي من مطار جون كنيدي إلى تقاطع بيت، ومن بيت إلى نانتاكت، هو المسار التي تسلكه الطائرات العابرة للأطلنطي عندما يستخدم الجيش المنطقتين W-106 وW-105 (وهو الطريق الذي سارت فيه تي دبليو إيه ٨٠٠ وسويس اير ١١١) وحقيقة أن هذا المسار يستخدم عند إجراء التدريبات العسكرية لا يعني أن الطريق لا يمكن استخدامه عندما تكون W-106 و W-105 مفتوحتين للطائرات المدنية. إلا أن حقيقة أن خط سير طائرة الشحن كان على طريق بيت ولم يكن خط سير مصر للطيران ٩٩٠ كذلك (مثل حقيقة أن رحلة خطوط كوستاريكا الجوية كانت مكتوبة على الكمبيوتر بينما لم تكن مصر للطيران ٩٩٠ كذلك) تلفت الانتباه إلى عزل مصر للطيران ٩٩٠ في رحلة عودتها في منتصف الليل. كما ذكر آنفاً، طلبت مراقبة الأطلنطي مساعدة الكثير من المصادر المدنية والعسكرية بمجرد إدراكها اختفاء الطائرة من على شاشة الرادار. ومن بينها رحلة لوفتهانزا رقم ٤٩٩ وايرفرانس ٤٣٩، حيث حاولت الأولى العثور على مصر للطيران ٩٩٠ على اللاسلكي، بينما خرجت الثانية عن مسارها كي تحلق فوق جزء من المحيط لترى إن كان من الممكن رؤية أي أثر لطائرة. إلا أنه في الوقت الذي طلبت فيه المساعدة من هاتين الطائرتين، كانت مصر للطيران ٩٩٠ تحت مياه البحر منذ زمن طويل (ثلاثون دقيقة في حالة لوفتهانزا، وخمس وأربعون دقيقة في حالة ايرفرانس).

وعلى فرض أن مستوى الخطر القائم في منطقة التحذير العسكرية أعلى مما هو عليه في البحار المفتوحة، فقد يبدو أن الحرص والدقة الاستقصائية يتطلبان إعادة بناء للبيئة أي الملابسات المحيطة. وقد قدمت تفاصيل عن المسار هنا ليس لأنها تبين أن هناك خطأ ما في المقابل، تظهر أشرطة المراقبة الجوية من سويس اير ١١١ أمراً لا لبس في كونه خطأ، حتى وإن لم يمكننا الحكم على العلاقة بين انقطاع لاسلكي الطائرة لمدة ثلاثين دقيقة وسقوطها في نهاية الأمر، ولكن لأنها تذكرنا بأن العالم خارج الطائرة كان على أقل تقديرٍ بنفس القدر من التعقيد الذي عليه العالم داخل الطائرة التي خضعت لشهور عديدة من البحث والمراجعة.

طبقاً لبيانات متكررة صادرة عن المجلس القومي لسلامة النقل، لا ينطوي سقوط مصر للطيران ٩٩٠ على عطب ميكانيكي، أو على

الطائرة المصرية



من المدهش أن الحقائق المجردة القليلة جداً المعروفة عن سقوط مصر للطيران ٩٩٠ هي نفسها تتسق مع التشويش الكهرومغناطيسي. وهذه هي الحقائق. الأولى: كان الطيار الآلي مفصولاً. الثانية: هبطت الطائرة هبوطاً حاداً مفاجئاً. الثالثة: كانت الروافع الموجودة على ذيل الطائرة تعمل بصورة غير عادية. الرابعة: توقف المحركين

الأقل ذلك العطب الميكانيكي الذي تم التعرف عليه حتى الآن على مسجل بياناتها المتطور. مع أن الأسباب المبدئية لحادثي تي دبليو إيه ٨٠٠ وسويس اير ١١١ لم يتم التوصل إليها، فإن هناك مشاكل مادية يمكن التعرف عليها على الطريق: انفجار في خزان الوقود المركزي في حالة تي دبليو إيه ٨٠٠، وماس كهربائي في عشرين سلكاً بالقرب من كابينة القيادة في حالة سويس اير ١١١ ولم يعثر على شيء مماثل في حالة مصر للطيران ٩٩٠، فيما عدا الأحداث الأربعة التي انطوى عليها السقوط الأخير. ويجب بحث التشويش الكهرومغناطيسي باعتباره سبباً محتملاً، حتى في حالة حوادث الطائرات التي يبدو فيها وجود تفسير ميكانيكي، حيث إن الحدث الميكانيكي ذاته قد يكون وراءه حدث كهربي. هناك مثالان شملا طائرتي بوينج ٣٠٠-٧٦٧، وهو نفس طراز طائرة مصر للطيران ٩٩٠، ففي سنة ١٩٩٣، تعرضت طائرة ٦٧٦ كانت تحاول الهبوط في مطار فرانكفورت لانحراف مفاجئ في الدفة بمقدار ١٦ درجة مما أدى إلى خروجها عن الممر. وكان الحكم على هذا الحدث هو أن ما سببه هو تشويش كهرومغناطيسي. وفي سنة ١٩٩١ سقطت طائرة «لاودا» اير النمساوية طراز ٧٦٧ فجأة سقوطاً مميتاً بالقرب من بانكوك عند انبساط أحد عواكس الذيل بها. وخمنت سلطات الطيران البريطانية – التي شاركت في التحقيقات – في تقريرها الصادر سنة ١٩٩٥ أنه ربما يكون تشويش كهرومغناطيسي هو الذي أدى لانبساط عاكس الذيل؛ إلا أن عدم وجود أي تفسير ميكانيكي (وهو ما يبدو صحيحاً حتى الآن بالنسبة لمصر للطيران ٩٩٠) ينبغي أن يزيد الحماس الذي يتم به جمع ودراسة البيانات المتعلقة بهوائيات اللاسلكي والرادار في المنطقة.

ومن المدهش أن الحقائق المجردة القليلة جداً المعروفة عن سقوط مصر للطيران ٩٩٠ هي نفسها تتسق مع التشويش الكهرومغناطيسي. وهذه هي الحقائق الأربع التي نعرفها. الحقيقة الأولى: كان الطيار الآلي مفصولاً. الحقيقة الثانية: هبطت الطائرة هبوطاً حاداً مفاجئاً. الحقيقة الثالثة: كانت الروافع الموجودة على ذيل الطائرة، وهي الأسطح المتحركة التي على الجزء الأفقي من الذيل التي تتحكم في الحركة الصاعدة والهابطة لمقدمة الطائرة (عن طريق تحديد إن كانت مقدمة الطائرة لأعلى أو لأسفل أو في وضع مستوى)، تعمل بصورة غير عادية، حيث كانت تتحرك بشكل مستقل بدلاً من التنسيق مع بعضها البعض. الحقيقة الرابعة: توقف المحركين (قبل وقت قصير من توقف جهاز المرسل المستجيب، ومن المفترض توقف كل الأنظمة الكهربية الأخرى، عن العمل).



هذه الملامح الأربعة الخاصة بكارثة مصر للطيران ٩٩٠ جميعها بارزة في معظم ما كتب عن التشويش الكهرومغناطيسي – دراسة القوات الجوية لسنة ١٩٨٨ عن الطائرات العسكرية ودراسة ناسا لسنة ١٩٩٤ عن الطائرات المدنية التي أجراها مارتن شومان. وسوف أتناولها بالبحث تباعاً، بادئة بانفصال الطيار الآلي.

تتضمن دراسة ناسا لسنة ١٩٩٤ ملحقاً يلخص فيه طيارون بشكل منفرد حوادث تسبب في وقوعها التشويش الكهرومغناطيسي. وهذه مقتطفات:

**الطيار الآلي يعطل طائرة ركاب منتظمة عن العمل ...

**الطيار الآلي اليدوي ينفصل... النقل التجاري .... في الطيران المستقر،

** تعطل مفاجئ للطيار الآلي...

كيف ينفصل الطيار الآلي في ظروف التشويش الكهرومغناطيسي؟ هناك طريقتان لحدوث ذلك. قد ينفصل الطيار الآلي أوتوماتيكياً (كما في بعض الحالات المذكورة آنفاً، وكذلك في المرحلة الأخيرة من حادث سويس اير ١١١)، إما لأنه يتلقى أمراً كهربياً شارداً يغلقه، أو لأنه يصبح مرتبكاً بسبب المعلومات العشوائية التي يتلقاها وبذلك يتعطل. والاحتمال الثاني هو أن الطيار البشري يرى أن أمراً لم يصرح هو به بدأ تنفيذه على واحد من أسطح التحكم في الطائرة (مثل الدفة أو الروافع أو الجنيحات أو قلابات الجناح). وعندما يحدث هذا يكون من المناسب – أو بالأحرى من اللازم – أن يفصل قائد الطائرة الطيار الآلي. والأمر المقبول هو أن الطيار الآلي في مصر للطيران ٩٩٠ ربما يكون قد انفصل من تلقاء نفسه. حقيقة أنه لم يصدر إنذار في لحظة انفصال الطيار الآلي أثارتها الصحافة كثيراً على أنها دليل أن الطيار الآلي تم فصله بأيدي الطيارين؛ إلا أنه لا يمكن الوصول إلى مثل هذا الاستنتاج على أساس من عدم وجود إنذار. ويشير معهد فيينا لطب الطيران وبيولوجيا الفضاء إلى أن نفس الحدث الكهربي الذي عطل الطيار الآلي يمكن كذلك أن يعطل الإنذار المسموع؛ كما أنه من المقبول كذلك أن قائد الطائرة، عندما شاهد شيئاً غير صحيح، فصل الطيار الآلي بسرعة وبشكل مناسب.

ويشير مارتن شومان الباحث في ناسا إلى أن انفصال الطيار الآلي، سواء قام بذلك الطيار الآلي نفسه أو قائد الطائرة، يصبح ضرورياً لبقاء الطائرة (حيث إن الطيار الآلي يبدأ في وضع الطائرة على مسار يودي بها إلى كارثة). إلا أنه في الوقت نفسه تعد عملية الفصل هذه في حد ذاتها حدثاً خطيراً إلى حد كبير. وحتى هذه اللحظة، كان الطيار الآلي يتلقى تعليمات غير صحيحة (مثل التكيف مع الروافع، أو انحراف الدفة)؛ ولكن إذا كانت التوجيهات العشوائية غير متوافقة مع الطيران الآمن، فإن الطيار الآلي سوف يبدأ في التعويض عن الأمر الكاذب بعمل أفعال مضادة موازنة. وعندما يغلق الطيار الآلي فجأة، يدخل الطيارون في مواجهة مع مجموعة من الأحداث التي قد تكون مربكة، وقد لا يكون هناك وقت لتعديل الأوضاع التعويضية على أسطح التحكم الأخرى أو إلغاؤها.



بعد ثماني ثوان من انفصال الطيار الآلي على مصر للطيران ٩٩٠، هبطت الطائرة هبوطاً حاداً مفاجئاً. وما يدل على هذا الأمر بصورة خاصة هو العمل السابق الذي نفذته القوات الجوية على الهوائيات الكهرومغناطيسية. ومع أن دراسة القوات الجوية لسنة ١٩٨٨، إلى جانب الدراسة التي دامت ثلاث سنوات التي قامت بها وزارة الدفاع الأمريكية وكانت هي الدافعة إليها، لم تطرح بعد للجمهور، فإن أهم ما توصلت إليه

الطائرة المصرية



الدراسة لخصه الكولونيل تشارلز كوينزبيري، وهو أحد من قاموا بالدراسة، في أن التشويش الكهرومغناطيسي يمكن أن يدفع بالطائرة إلى التقلب الذي لا يمكن التحكم فيه أو السقوط السريع. ويمكن للتشويش الكهرومغناطيسي أن يتخذ عشرات الأشكال المختلفة. مع أن الكولونيل كوينزبيري لم يذكر عشرات النتائج. فلأنه كان يقدم ملخصاً، فقد ذكر فقط أهم ثلاث نتائج، كانت إحداها السقوط المفاجئ الذي لا يمكن التحكم فيه. والسقوط المفاجئ مسجل كذلك في دراسة ناسا لسنة ١٩٩٤ الخاصة بالطائرات المدنية: سقطت طائرة تجارية من على ارتفاع ٣٠ ألف قدم؛ وسقطت طائرة تجارية أخرى من على ارتفاع ٢٠ ألف قدم.

ويبدو غريبًا أنه بالرغم من زيادة حالات السقوط التي لا يمكن تفسيرها في الحوادث التي يحدث فيها تشويش كهرومغناطيسي، فإن المجلس القومي لسلامة النقل لم يضعه حتى الآن ضمن الأسباب التي تحتاج إلى تحقيق في حالة مصر للطيران ٩٩٠، وخاصة في ظل حقيقة أن هذه المنطقة الجغرافية نفسها شهدت كارثتي طيران سابقتين، مما يزيد احتمال أن سبب الثلاثة جميعاً يكمن في الظروف الخارجية.

والحدث المهم الثالث (وهو وضع روافع الطائرة) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحدث الثاني. فالروافع ضمن الأسطح التي يمكن أن يشوش البث الكهرومغناطيسي عليها. وعندما قال الكولونيل كوينزبيري إن الطائرات يمكن أن تتعرض لسقوط مفاجئ، كان يعني أن بعض أسطح التحكم على الطائرة (وهي الروافع والدفة وقلابات الجناح) يمكن تغييرها بطريقة تجعل الطائرة تخرج عن السيطرة وتبدأ في السقوط. وقد خمن معهد فيينا لطب الطيران وبيولوجيا الفضاء، بعد استشارة الطيارين النمساويين ممن لديهم خبرة كبيرة في قيادة الطائرة بوينج ٧٦٧، أن يكون السبب المحتمل لكارثة مصر للطيران ٩٩٠ «عدم السيطرة على موازن الطائرة» الذي أحدث حينذاك فصلا أتوماتيكيا للطيار الآلي. وموازن الطائرة عبارة عن دفة أفقية على الذيل، وهو كما يدل اسمه يحافظ عادة على توازن الطائرة، ولكنه في حالة فقدان السيطرة يجعل مقدمة الطائرة مائلة للأمام. كما أن الوضع المنحرف للروافع قد يكون جزءاً من فقدان السيطرة، أو قد يعكس الجهود التي يقوم بها الطيارون للتغلب على عدم السيطرة على موازن الطائرة بتعديل وضع الروافع.

والحدث الرابع، وهو اندفاع المحركات المفاجئ لأسفل، جزء بارز مما كتب عن التشويش الكهرومغناطيسي. وإذا عدنا لملخص الكولونيل كوينزبيري لدراسة القوات الجوية، سنجد ضمن قائمته القصيرة للأحداث الأساسية الانقطاع المفاجئ لتدفق البترول إلى المحركات. ويمكن أن يصاغ هذا الكلام بطريقة أخرى على أنه «توقف مفاجئ للمحركات» حيث إنه عندما يوقف أحد الطيارين (أو إحدى الإشارات الكهربية الشاردة) المحرك، فإن ما يفعله في مثل هذا الأمر هو منع تدفق الوقود. وتظهر روايات التوقف المفاجئ للمحركات كذلك في دراسة ناسا لسنة ١٩٩٤: تعطل محركا إحدى الطائرات فجأة وهي تمر مباشرة فوق هوائي قوى لإذاعة «صوت أمريكا» في نورث كارولينا. في هذه الحالة احترقت أجهزة التحكم الكهربية في المحرك، وإن توقفت المحركات في حالات أخرى دون التعرض لضرر مادي دائم. وفي حالة أخرى، توقف محرك طائرة أخرى في نفس الوقت الذي انفصل فيه الطيار الآلي عندما كان في منطقة بث قوى.

ولأن كلاً من البشر والإشارات الكهربية الشاردة يمكنهم إصدار «الأوامر» لأسطح التحكم في أية طائرة، فإنه من الصعوبة بمكان التمييز بينهما، وإن كان التمييز بينهما ضروريا في الوقت ذاته. يمكن للصناديق السوداء وأجهزة تسجيل الصوت داخل كابينة القيادة أن تساعد في التمييز بين حادث من الحوادث التي تسبب فيها الطيارون وتلك التي كان لها مصدر آخر. إلا أنه حتى مصادر المعلومات تلك ليست حاسمة دائماً، وهي في بعض الأحيان خاطئة. ويمكن لمسجل البيانات أن يشير إلى الأحداث التي يعرف المحققون أنها لم تقع. وعلى العكس من ذلك، يمكن ألا تعلن عن أحداث يعرف المحققون أنها وقعت بالفعل: ففي حالة سويس اير ١١١ ليس الدخان الذي ظهر في كابينة القيادة والحريق الذي تلاه مباشرة مسجلاً على مسجل البيانات، طبقاً لما ذكره كبير المحققين فيك جيردن. ولم يكن لدينا الحوار الذي تم بين قائد الطائرة والمراقبين الجويين، لكي نعرف هذه الأحداث المهمة التي وقعت.

والفصل بين الاثنين شديد الصعوبة في مراحل الكارثة المبكرة؛ بل إنه أكثر صعوبة بمجرد أن تقع الكارثة بالفعل. فما أن دخلت مصر للطيران ٩٩٠ في سقوطها الحاد، ربما يكون الطيارون قد أصدروا الأوامر التالية، حيث كانوا يحاولون محاولة يائسة لاستعادة السيطرة على الطائرة واتخاذ أفضل القرارات التي يمكنهم اتخاذها: وربما كانت تلك الأعمال جهداً على قدر عال من الكفاءة لإنقاذ الطائرة، وقد تكون أقل كفاءة، مهما كانت مثيرة للإعجاب. ومن المحتمل أن الأحداث الأساسية الأربعة جميعها – وهي تعطل الطيار الآلي والسقوط الحاد وانحراف الروافع وتعطل المحركات – سببها تشويش كهرومغناطيسي، أو أن بعضاً فقط من الأربعة أحدثه التشويش الكهرومغناطيسي، بينما كان الباقي نتيجة لتدخل قائد الطائرة ومحاولة الإنقاذ. من بين الأحداث الأربعة، نجد أن الحدث الأخير – وهو تعطل المحركات – به أدلة توحي بأنه عمل تسبب فيه الطيارون: ذلك أن صندوق البيانات ومسجل الأصوات يشيران إلى أن توجيهات إيقاف المحركات، أو على الأقل إيقافها جزئياً، كان مصدرها كابينة القيادة. ولأن هذا الحدث بعينه حدث بعد ثلاثين ثانية من بدء السقوط بسرعة وزاوية مخيفتين (٤٠ درجة في وقت من الأوقات)، فقد رأى عدد من المحللين أن إيقاف المحركات ربما كان حدثاً طارئاً – ذلك أن قائد الطائرة ربما كان يمد يده إلى ذراع مختلفة تماما، أو ربما حاول تهدئة سرعة المحركات، وهو إجراء مناسب في حالة الهبوط الاضطراري، ولكنه ربما تمادى في ذلك. وخلال المناقشات العامة لموضوع مصر للطيران ٩٩٠، كان الحديث عن أن إيقاف المحركات (سواء عن طريق الطيارين أو نتيجة عطل فني) هو العامل الذي تسبب في هلاك كل من هم على متن الطائرة. والمعروف أنه ما إن يصبح وقوع الحادث أمراً حتمياً، فإن قائد الطائرة قد يقرر إيقاف المحركات على الفور قبل الارتطام بغرض تقليل خطر الحريق. (كانت مصر للطيران ٩٩٠ على وشك هبوطها الأول عندما توقفت محركاتها؛ وربما كان لدى الطيارين من الأسباب ما يجعلهم يعتقدون أن الارتطام بعد ثوان، مع أنهم نجحوا بعد ذلك في تغيير أوضاع الروافع وبدأت الطائرة في الصعود. وكانت طائرة مختطفة من طراز ٧٦٧ تابعة للخطوط الجوية الأثيوبية قد هبطت هبوطاً اضطرارياً في البحر سنة ١٩٩٦ بعد نفاد الوقود وتوقف محركيها، حيث نجا ٥٣ من بين ركابها وعددهم ١٧٨ راكباً. وبما أنها من نفس طراز طائرة مصر للطيران، فمن المحتمل أن طاقم مصر للطيران ٩٩٠ كان يعرف تاريخ الطائرة الأثيوبية. وما حدث للطائرة الأثيوبية يبين خطأ افتراض أن إيقاف محركات الطائرة المصرية ضمن هلاك كل من كانوا على متنها، تماماً مثلما أنه يبين خطأ افتراض أن قرار إيقاف المحركات لا يمكن أن يكون وراءه سوى الرغبة في قتل النفس والآخرين.



ويؤثر التشويش الكهرومغناطيسي على طائرات مختلفة بطرق متباينة وفي بعض الأحيان غير متوقعة، لأنه يتفاعل مع أكثر النقاط الكهربية ضعفاً في طائرة من الطائرات: فإذا كانت الطائرة بها تلامس بين الأسلاك (كما في حالة تي دبليو إيه ٨٠٠)، فقد يؤدي هذا إلى وقوع مشكلة فيها؛ وإذا كانت إحدى الطائرات بها نظام ترفيه شديد للركاب (كما يزعم في بعض الأحيان بشأن سويس اير ١١١، مع أن مجلس السلامة الكندي ذكر مراراً أنه لا يرى في ذلك أهمية في الحادث تزيد على أي نظام كهربي آخر في الطائرة)، فإن المشكلة قد تظهر فيه أول ما تظهر. وإذا كانت طائرة تعتمد اعتماداً كبيراً على الأنظمة الرقمية (كما هو الحال بالنسبة لطراز طائرة مصر للطيران ٩٩٠)، فإنها قد تتفاعل بتقديم أمر كاذب للطيار الآلي أو الإشعال أو الموازن أو غيره من أسطح التحكم.

ويحرص المجلس القومي لسلامة النقل دائماً على ألا يدعي معرفة السبب قبل الحصول على أدلة. وفي بعض الأحيان يمكن انتقاده بسبب بعض النواقص، مثل عدم إعادة بناء البيئة الخارجية، أو عدم فرض نفس معيار التحقيق على الأعمال العسكرية الذي تفرضه على أعمال مصانع الأسلاك أو أفراد الصيانة أو الركاب المدنيين. غير أنه قد يكون من الصعب وصفه بأنه يرتكب عملاً خاطئاً. إن قدرته على الاستمرار أربع سنوات في تحقيق حادث تي دبليو إيه ٨٠٠ دون أن يدعي بغير حق أنه عثر على سبب محدد لأمر رائع.

ولذلك فليس مفهوماً كيف أن هذا المجلس نفسه اقترب بشدة (على الأقل كما انعكست بياناته في وسائل الإعلام) إلى اتهام مساعد قائد مصر للطيران ٩٩٠ جميل البطوطي بتعمده قتل ٢١٦ راكباً. لقد اعترف مسئولو مجلس السلامة أمام الكونجرس وأمام الناس بأنه ليس لديهم حتى الآن الأدلة الكافية على تحميل البطوطي مسئولية الكارثة: إلا أن كثيراً من المتابعين لهذا الموضوع (ومنهم كاتبة المقال) يرون أن ما توصف بأنها أدلة «غير كافية» تعادل تماماً عدم وجود أية أدلة

يبدو غريبًا أنه بالرغم من زيادة حالات السقوط التي لا يمكن تفسيرها في الحوادث التي يحدث فيها تشويش كهرومغناطيسي: فإن المجلس القومي لسلامة النقل لم يضعه حتى الآن ضمن الأسباب التي تحتاج إلى تحقيق في حالة مصر للطيران ٩٩٠



من أوراق عبد الرزاق السنهورى

*ولد الفقيه الدستورى الكبير عبد الرزاق السنهورى فى ١١ أغسطس ١٨٩٥ بالإسكندرية وتلقى فيها تعليمه الأولى، ثم التحق بكلية الحقوق بالقاهرة (مدرسة الحقوق آنذاك) وتخرج منها فى عام ١٩١٧.

تقلب السنهورى فى وظائف عدة بالمحاكم والقضاء، وتولى رئاسة مجلس الدولة ووزارة المعارف، وتعتبر جهوده في وضع دساتير دول عربية عديدة أشهر من أن يشار إليها.

توفى السنهورى فى أغسطس عام ١٩٦٩. وهذه بعض من مذكراته التى كتبها بخط يده وأعدتها ابنته الدكتورة نادية وزوجها (تلميذ السنهورى) الدكتور توفيق الشاوى وصدرت عام ١٩٨٨ بعنوان «عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية».

١- الصبغة الشرقية الإسلامية فى مصر

آفة الجامعات الشرقية فى مصر فريقان: فريق يتمسك بالماضى الإسلامى تمسكًا أعمى ولا يتطور مع العصر، فيجلب بذلك عداوة العالم المتمدين ويضحى بالأقليات الدينية النشطة المنبثقة فى الشرق الأدنى، وهذه تلجأ إلى أوروبا طمعًا في حمايتها، وبدلاً من أن تبذل مجهوداتها معنا تنقلب علينا. وفريق يريد أن يقطع حبل الماضى فلا يعود له به صلة، وعند ذلك يتمكن من إدخال المدنية الأوروبية في مصر حتى تصبح جزءًا من أوروبا، دون أن يراعى تقاليد البلاد وتاريخها ومزاجها الشرقى. وكلا الفريقين خطر على الجامعات الشرقية. على أنه يجب الاعتراف بأن حاجتنا إلى أوروبا الآن كبيرة، ولكن هذا ليس معناه تضحية بتقاليدنا القومية وإدخال مدنية غريبة عنا فى بلادنا الشرقية فنعدم بذلك روحنا القومية.





الطائرة المصرية

بالمرة. وقد وصفت أولى البيانات العلنية للمجلس القومى لسلامة النقل بشان مسجل الصوت يوم الاثنين ١٥ نوفمبر ١٩٩٩ المحادثات بين الطيارين بانها ودية، وأوردت أن الطاقم تعاون فيما بينه فى محاولة منع حدوث الكارثة. إلا أنه فى الساعة الخامسة مساء اليوم نفسه بدأت رواية مختلفة تخرج من المجلس القومى لسلامة النقل وسيطرت على الصحافة لعدة أشهر، حيث ركزت الانتباه على ثلاث من أربع جمل منفصلة نطق بها قائد الطائرة او مساعده. فطبقاً لمسئول قانونى لم يذكر اسمه، قال جميل البطوطى «لقد اتخذت قرارى». (ومضى الأمر وكان «قرارى» تعنى قراراً بقتل نفسه و٢١٦ شخصاً على متن الطائرة، وليس قراراً بشان الإجراء الذى يجب اتخاذه عند الإحساس لأول مرة بوجود مشاكل على الطائرة.) وفى يوم ١٩ نوفمبر أعلن جيم هول رئيس المجلس أن شريط الصوت لا يحتوى على جملة تشبه ولو من بعيد جملة «لقد اتخذت قرارى». وما إن مرت هذا الجملة حتى كانت لا تزال هناك جملة ثانية، وهى «عبارة غامضة» صدرت عن قائد الطائرة الذى «تلا دعاء» أو «تمتم بدعاء» وقد فعل ذلك «بالعربية» أو كما ذكرت بعض نشرات الأخبار «بالفارسية». (وبدا تحديد اللغة فى حد ذاته وكانه يوحى بأن هناك خطأ ما، مع أن الطيارين من الدول غير المتحدثة بالإنجليزية عادة ما يستعملون لغاتهم عندما لا يتحدثون مع المراقب الجوى؛ فعلى سبيل المثال معظم تسجيلات الكابينة فى سويس اير ١١١ داخل الكابينة كانت بالألمانية السويسرية.) وقد اتجه القليل من التفكير نحو احتمال أن الطيار ربما لاحظ بعض المشاكل ودعا الله أن يساعده؛إلا أن الدعاء تم تفسيره على نطاق واسع على أنه يعبر عن نية الانتحار والقتل الجماعى. وسرعان ما تلاشت صفة الدعاء «الشريرة» وكذا ما بها من «غموض» أو «إنذار بالسوء». فقد اتضح أن الدعاء جزء من نسيج الحياة اليومية، حيث كان جملة ينطق بها الكثير من المصريين حوالى مائتى مرة فى اليوم، وينطقها الأمريكيون المصريون ثلاثين مرة فى اليوم. وفى بعض الأحيان يجرى الاستشهاد بسؤال قائد الطائرة لجميل البطوطى - «هل أوقفت المحرك؟» - وكان قائد الطائرة يتهم البطوطى بإيقاف المحرك. بينما نجد أن التفريغ الكامل يوحى باحتمال قوى للتفسير العكسى: فقائد الطائرة (سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا) يرغب فى التاكد من أن المحرك أوقف كلياً أو جزئياً. فهو فى البداية يسال «هل أوقفت المحرك؟»، ثم يعيد الكلام بعد ذلك على أنه توجيه: «أوقف المحركات»؛ وعندما يؤكد له مساعده «لقد أوقفت» يمضى إلى التوجيه الثانى «اسحب معى»، وهو ما يبدو أنه مسعى لتغيير وضع الروافع. وعبارة «اسحب معى» التى نطق بها الطيار، فسرت على نطاق واسع وكانها توحى بان البطوطى لم يكن متعاوناً مع زميله الطيار وكان لا بد من حثه على التعاون معه (وطبقاً لوجهة النظر هذه، اعترف الطيار بان البطوطى هوى متعمداً بالطائرة إلى البحر ،ولكنه كان يامل فى أن يبعده عن عمله الجنونى بالعديد من الأوامر المختصرة). والكلمتان «اسحب...اسحب...» نطق بهما منذ أربع سنوات قائد طائرة لمساعده عندما هوت طائرة يواس اير ٤٢٧ نحو الأرض بالقرب من بيتسبرج. وحينذاك ذكرت الكلمتان على نطاق واسع فى الصحافة دون أن يستنتج أحد أن مساعد الطيار لم يكن متعاونا أو انتحارياً. ومن المؤكد أنه لا يبدو أن القضية هى أن عمل الطيار المتعمد يمكن أن يؤدى إلى تلك الأحداث المأساوية (انفصال الطيار الآلى والسقوط الحاد وتنافر الروافع الموجودة على ذيل الطائرة وإيقاف المحركات) التى وقعت فى تلك الليلة.

وعن طريق تجميع المجلس القومى لسلامة النقل لتفريغات أشرطة المراقبين الجويين، وسجلات إدارة الطيران الفيدرالية، والاتصالات من منشأة المراقبة فى فيرجينيا كيبس، وكثير غيرها من المواد، وتقديمها للجمهور، بدأ بالفعل فى تنفيذ إعادة بناء أو تركيب لتسلسل الوقائع كما يمكن أن يكون قد حدث. ونامل أن تكون هذه هى الخطوة الأولى لما قد يصبح فى النهاية مراجعة شاملة للبيئة الكهرومغناطيسية الخارجية. ومثل هذه المراجعة لا يزال من الواجب تنفيذها بالنسبة للطائرات الثلاث التى سقطت منذ يوليو ١٩٩٦ بعد مغادرتها لمطار جون كنيدى.

بترتيب خاص مع:

The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود



تحسمها الأموال الناعمة والصوت اليهودى

تقرير من واشنطن

محمد حقى

■ شاءت الظروف أن أعايش وأتابع الانتخابات الأمريكية سنة ١٩٦٤، بين الرئيس ليندون جونسون، والسناتور بارى جولدووتر، ثم شاءت الأقدار أن أعود للولايات المتحدة سنة ١٩٧٢ لأعايش وأتابع كل الانتخابات الأمريكية منذ سنة ١٩٧٤ وحتى الآن. وقد كانت معظم الحملات الانتخابية مملة وتبعث على التثاؤب، وبالرغم من أن الصحافة الليبرالية كانت تصور السناتور بارى جولدووتر بأنه فاشى النزعة ويمثل أقصى اليمين البالغ الخطورة، فلم يسبق لأية حملة قبل انتخابات هذا العام أن جسدت انقسام المجتمع الأمريكى وابتعاد قطبيه اليمين واليسار بقدر ما حدث هذا العام.

وباستثناء النوادر التى كانت تحدث أثناء المناظرات التلفزيونية، ووقوع بعض المرشحين فى بعض الأخطاء، أوالذين لم تسعفهم سرعة البديهة، أو العكس مثل إتقان بعضهم استخدام بعض «القفشات»، كما فعل الرئيس رونالد ريجان وهو يحاور نائب الرئيس السابق وولتر مونديل عندما قال إجابة على سؤال حول سنه، وكان عمره يومها ٧٦ عامًا. أنه لن يستغل «حداثة سن» مونديل ضده فى الحملة، وضجت القاعة بالضحك. أو عندما قال الرئيس فورد إن بولندا حرّة ولا تسيطر عليها الشيوعية، أو عندما سئل مايكل دوكاكيس - الذى كان يعارض عقوبة الإعدام: ماذا يكون رد فعله - إزاء مجرم اغتصب زوجته ثم قتلها؟ ووقف دوكاكيس «مشدوها» لايدرى بماذا يجيب.

باستثناء هذه اللحظات، أو المناظرات كلها إن شئت، فإن التصفيات الأولية والحملات عامة لم تكن تشد اهتمام الشعب الأمريكى، وكانت معظم الحملات قبل سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتى، تجرى حول السياسة الخارجية ومن والتصفيات بين سائر المرشحين، ويصل المرشحان إلى مؤتمرى الحزبين، حيث يتحدد برنامج كل منهما، ويختار كل منهما نائبه، غير أنهم كانوا يقولون دائمًا إنه بالتجربة فإن الفيصل يجئ فى عطلة عيد العمال، عندما تنتهى فترة الصيف، وتعود العائلات من المصيف، ويبدأ الناس فى التركيز على من الذى سيختارونه يوم الانتخابات، وكانوا يقولون دائمًا: إن الذى يتفوق فى استطلاعات الرأى يوم عطلة عيد العمال، وهى ٤ سبتمبر من كل عام، تكون له الغلبة يوم الانتخابات العامة فى الأسبوع الأول من نوفمبر.

من هنا فقد تساءل البعض هذا العام: ترى هل نعتبر عيد العمال بداية الحملة الانتخابية أم نهايتها؟ وتشهد الإحصائيات وسجل الاستطلاعات بصدق هذه النظرية، باستثناء ما حدث سنة ١٩٤٨، عندما كان هارى ترومان يتخلف عن منافسه بثمانى نقاط يوم عيد العمال، ولكنه تمكن من مفاجاة الشعب الأمريكى كله بهزيمة منافسه توماس ريوى بنسبة ٥٠ فى المائة مقابل ٤٥ فى المائة من الأصوات. أما فى المرتين الآخريين وهما معركة

---

١ - The Corruption of American Politics: What Went Wrong and Why
إفساد الحياة السياسية
Elizabeth Drew
Overlookpress, 278pp, $ 1595,2000

٢ - Jewish Power
Inside the American Jewish Establishment
القوة اليهودية
J.J. Goldberg
Perseus PR,448 pp,$ 15,1997


بوش الابن

چون كيندى ضد ريتشارد نيكسون سنة ١٩٦٠، ورونالد ريجان ضد جيمى كارتر سنة ١٩٨٠، فقد دخل السباق «أقصى درجات السخونة» - كما يقولون هنا - يوم عيد العمال.

وبالرغم من متابعتى - دون أية دهشة - لتحيز الصحافة والتليفزيون قاطبة ضد جورج بوش طوال الحملة، وانتقادها له فى كل منعطف، وبعد كل خطاب، فلم أكن أتوقع أن تخرج جميع الصحف يوم عيد العمال لتقول إن «بوش يتفوق على نائب الرئيس ألبرت جور بفارق واسع يتجاوز العشر نقاط، وقالت بعضها إنه يتفوق بنسبة ١٧ نقطة والبعض الآخر إنه يتفوق بنسبة ١٩ نقطة.

ولكنها عادت فى نهاية الأسبوع الأول من سبتمبر وعدلت من أرقامها، وأصبحت المعركة تجرى فى إطار - أقصى درجات السخونة - مرة أخرى.

وقبل أن نسأل: ما الذى حدث هذا العام، يبقى أن نسأل: ما هى الظروف التى تجعل معركة هذا العام كلها تختلف عن أية معركة سابقة؟

وترد لنا أليزابث درو، وهى واحدة من أكثر الصحفيات دراية بشئون السياسة الداخلية، التى كتبت عنها عدة كتب كان آخرها بعنوان: «إفساد الحياة السياسية»، الذى صدر هذا العام.

وتذكر درو عدة تغييرات طرأت على الحياة السياسية الأمريكية خلال ربع القرن الماضى، لعل أهمها تدهور مستوى رجال السياسة خلال هذه الحقبة، وهو تغيير قد لا يحس به المواطن الأمريكى العادى، أو قل أنه يحس به ولكنه لا يستطيع فهم أسبابه أو تحديد ماهيته، فرجال السياسة الجدد ليسوا فقط أقل إلمامًا بالقضايا السياسية، بل إنهم بلا تجربة سياسية سابقة، ذلك أنه بعد أن ساد مناخ عام خلال فترة طويلة معاد للحكومة، أصبح عدم الدراية بأصول الحكم فضيحة.

ووجهت الكاتبة هجومها إلى ما يمكن أن يطلق عليه «انقلاب نيوت جينجريتش» سنة ١٩٩٤ (رئيس مجلس النواب السابق)، الذى اكتسح فيه الجناح اليمينى فى الحزب الجمهورى الانتخابات العامة، والذى جلب معه أعدادًا من أعضاء الكونجرس الذين يمكن وصفهم بأنهم «عقائديون» متزمتون أكثر منهم متمرسون، فكان ثلثهم بلا أية خلفية سياسية، وبلا أية تجربة سابقة فى الحكم أو الممارسة الحزبية أو السياسية، وقد أدت مقالاتهم وهجومهم الشرس على الكونجرس، إلى إضعاف مؤسسة الكونجرس وأدى تزمتهم الأيديولوجى إلى تفشى الوصولية، وتخرج بعض هؤلاء النواب لينتقلوا إلى مجلس الشيوخ، الأمر الذى نخر فى جسد مجلس الشيوخ بشكل قاس.

تدهور لغة الخطاب السياسى

وتعتقد الكاتبة أن غالبية الناس، أو العناصر الصالحة للاشتغال بالسياسة بدأوا يعزفون عن الخوض فيها لعدة أسباب: ارتفاع نفقات الترشيح الباهظة، وفقدان الحياة الخاصة تمامًا، وخوض وسائل الإعلام فى كل صغيرة وكبيرة عن أنفسهم، وأصبح الحزبان يجدان صعوبة فى تجنيد العناصر الصالحة للعمل السياسى.

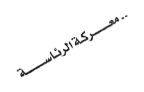
بل إن تشارلز لويس مدير مركز «الأخلاق فى الحياة العامة»، فى كتابه «شراء الرئيس سنة ٢٠٠٠»، قال إن نحو ٩٠ مقعدًا من مقاعد مجلس النواب فاز بها أصحابها بالتزكية لأنهم لم ينافسهم فيها أحد بسبب هذه النفقات الباهظة، حتى عزف ١٠٠ مليون أمريكى عن الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات العامة سنة ١٩٩٦، أى أكثر من نصف الأصوات الانتخابية الصحيحة، وهى أعلى نسبة فى تاريخ أوروبا والعالم الغربى كله.

وتحدث الكثيرون من أعضاء الكونجرس عن تدهور لغة الخطاب السياسى، وخلو المناقشات البرلمانية من أى معنى أو رقى، وبعد أن كانت قاعات الكونجرس تمتلئ بأفراد الشعب الذين كانوا يستمتعون بجلسات الكونجرس، وبلاغة الشيوخ والنواب ويتابعون مناقشة الموضوعات التى تهمهم بالدرجة الأولى، فلم

آل جور

ليبرمان















بعد هناك خطباء يعتد بهم، وأصبحت جلسات الكونجرس تكاد تخلو تمامًا من الجمهور.

وقال لويس إن آرشيبالد كوكس المحقق الخاص في فضيحة ووترجيت التي أدت إلى استقالة الرئيس نيكسون سنة ١٩٧٣ قال: إن فساد تمويل الحملات الانتخابية أسوأ بكثير مما حدث أيام ووتر جيت. كما قال إن الأمور اختلطت إلى درجة أن مساعدى الشيوخ والنواب أصبحوا يتركون مناصبهم ليعملوا في جماعات «اللوبى» للضغط على أعضاء الكونجرس بمرتبات توازى أضعاف أضعاف مرتباتهم السابقة، وبعد أن كان عدد العاملين في هذه الجماعات منذ ثلاثين سنة لا يزيد على ١٠٠، فإن عددهم يصل الآن إلى ١٤ ألفا!

ويمضى لويس ينعى هبوط المستوى السياسى بقوله: لقد أصبح السياسيون يقومون بالدعاية التليفزيونية، مثل قيام آن ريتشاردز حاكمة ولاية تكساس وماريو كومو حاكم ولاية نيويورك بالدعاية للبطاطس المحمرة بينما يقوم السناتور روبرت دول بالدعاية للفياجرا!

أما التغيير الآخر الذى تتحدث عنه اليزابث درو، فهو الذى طرأ على الحزب الجمهورى، الذى كان يمثل تاريخيا ما يسمى «بالمؤسسة» أى المؤسسة الحاكمة، التى تستند أساسًا على المحافظين الذين يمثلون تيار الوسط الذى يتمركز عادة في الشمال الشرقى، أما الآن فقد أصبح المحافظون يمثلون تيارًا شعبيًا يعتمد على قاعدة أوسع تتمركز في الجنوب والغرب، وهوالتطور الذى بدأ مع بارى جولدووتر سنة ١٩٦٤، وحظى بقوة دفع هائلة بفوز رونالد ريجان، وكان يعتمد على الاقتصاد والسياسة الخارجية، وينادى بتقليص الحكومة الفيدرالية المركزية، بالرغم من أن استخدام تسمية «السياسة الخارجية» كانت خاطئة لأنها كانت تعتمد على زيادة النفقات العسكرية فقط.

وقالت إنه إزاء النقد المتزايد والمتصاعد لسفر أعضاء الكونجرس المتكرر في رحلات مدفوعة بسبب وبغير سبب، فقد أصبح الأعضاء لا يسافرون خارج أمريكا، ومن ثم انعزلوا تمامًا وأصبحوا جهلة تمامًا بما يجرى في العالم.

هذا المناخ العام كله، أدى إلى أهم تغيير حدث في الحياة السياسية في واشنطن كلها وهو صعود دور المال، وتمويل الحملات السياسية، بحيث أصبح المال هو العامل الأساسى والأول في أى معركة، وليس السياسة، أو المبادئ، أو المعتقدات أو أجندة العمل أو أى شىء آخر.

فقد كان قانون الانتخابات الصادر سنة ١٩٧٤، الذى صدر بغرض إصلاح هذا الخلل في الواقع، يقضى بألا تزيد المبالغ التى يتبرع بها الفرد على ألف دولار، كما كان يقضى بألا تزيد تبرعات «جماعات العمل السياسى» التى أصبحت تعرف بالحروف «PACS» لأى عضو على خمسة آلاف دولار، غير أن القضاء طعن في هذا الدستور سنة ١٩٧٦، وأصبح في مقدور أى ممول أن يدفع أى مبلغ ما دامت هذه المبالغ لم تذهب إلى عضو بعينه، وإنما للحملة عامة، وكان من شأن هذا التطور أن أصبح ٣٩ عضوًا من أعضاء مجلس الشيوخ مليونيرات، ١٦ منهم مليارديرات، وأصبحت معظم جماعات الضغط قادرة على التأثير المباشر على الأعضاء وعلى البرامج بشكل مباشر، كثيرًا ما يتعارض مع رأى العضو الحقيقى.

الأموال الناعمة
خارج إطار القانون

ثم برز عامل أكثر خطورة وهو ما يسمى بـ«الأموال الناعمة»، وهى الأموال التى يجمعها الحزب خارج إطار قانون سنة ١٩٧٤، وكان الأصل فيها أن تنفق فقط على نشاط الحزب عامة وليس لصالح أى عضو بذاته، حتى ولو كان المرشح للرئاسة، ولكن الحزبين بدآ في حقبة الثمانينيات في جمع «الأموال الناعمة» على نطاق واسع للغاية، وبحلول سنة ١٩٩٦، ألقى الرئيس بيل كلينتون ونائبه ألبرت جور بكل المقاييس والمعايير من النافذة، وبدآ يستخدمان «الأموال الناعمة» في حملاتهما الخاصة والإعلانات السياسية بطريقة فجة وبلا أية حدود أخلاقية أو قانونية، بعد أن جمعاها بطرق مشبوهة ومصادر مشبوهة وممارسات غير قانونية، حتى بلغ ما جمع سنة ١٩٩٦ أكثر من ٢٦٢ مليون دولار، وهو أعلى رقم وصلت إليه أية انتخابات، وأكثر من كل الحملات الثلاث السابقة مجتمعة.

وكتب وارين بافيت، وهو رجل أعمال ملياردير في صحيفة «نيويورك تايمز» يوم ١٠ سبتمبر هذا العام أن مبالغ الأموال الناعمة قفزت من ٨٦ مليون دولار سنة ١٩٩٢ لتصل إلى حوالى ٢٥٦ مليون دولار هذا العام، أى بزيادة قدرها ٢٠ في المائة سنويًا وهو نمو يفوق نمو الاستثمارات في وادى «السليكون» للتكنولوجيا المتقدمة!

واستخدم كلينتون وجور كل وسيلة ممكنة لجمع التبرعات، من تأجير غرف نوم البيت الأبيض إلى السفر على طائرة الرئيس الخاصة، وطائرة نائب الرئيس الخاصة، حتى سمى البيت الأبيض - سخرية - بالموتيل رقم ٦.

وقام أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وهو فريد طوسون، بالتحقيق في عملية جمع التبرعات لسببين، هما: إفساد الحياة السياسية، وتعريض الأمن القومى لأمريكا للخطر.

والأمر الذى يتصل بانتخابات هذا العام بشكل مباشر، رغم أنه وقع سنة ١٩٨٦، هو ما قام به جور لجمع التبرعات في معبد «هى لاى» بمدينة لوس أنجيلوس، وهو معبد بوذى، والمعروف أن المعابد الدينية تتمتع بالإعفاء من الضرائب، ويمنع عليها تمامًا جمع التبرعات لأغراض سياسية، ولكى يدافع جور عن نفسه قال إنه لم يكن يعرف أن الحفل الذى حضره كان بغرض جمع التبرعات، وتحجج بأنه كان يشرب كثيرًا من الشاى وربما فاته وهو يتردد على دورة المياه أكثر من مرة أن الغرض كان هو جمع التبرعات!

واستخدم جور تليفونه ومكتبه بالبيت الأبيض كذلك في جمع التبرعات، وهو أمر محظور قانونًا، وفى البداية قال إنه استخدمهما «بضع مرات فقط» ثم تبين أنه استخدمهما ٦٥ مرة، ثم قال في عبارة أصبحت مثار سخرية الولايات المتحدة كلها إنه «ليست هناك سلطة قانونية عليا تمنع ذلك»! وكرر هذه العبارة سبع مرات في مؤتمر صحفى. وأصبحت نمطًا لتصرف جور وميله إلى الكذب في كل مرة يجد فيها نفسه محاصرًا.

ومن نوادر الحملة الماضية ما قاله روجر تامراز، رجل الأعمال اللبنانى المطلوب القبض عليه في فرنسا ويتتبعه الإنتربول أمام الكونجرس، أنه دفع ٣٠٠ ألف دولار سنة ١٩٩٥ لحملة كلينتون / جور، مقابل أن يحضر ست حفلات في البيت الأبيض - رغم اعتراض عضو في مجلس الأمن القومى - وكان يسعى إلى مساعدة أمريكا في الحصول على حق بناء خط أنابيب للبترول من بحر قزوين، وعندما سئل عما إذا كان قد حصل على ما يريد، قال: في المرة القادمة سأدفع ٦٠٠ ألف!

إن تشارلز لويس مدير مركز «الأخلاق في الحياة العامة»، في كتابه «شراء الرئيس سنة ٢٠٠٠». قال إن نحو ٩٠ مقعداً من مقاعد مجلس النواب فاز بها أصحابها بالتزكية لأنهم لم ينافسهم فيها أحد بسبب هذه النفقات الباهظة. حتى عزف ١٠٠ مليون أمريكى عن الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات العامة سنة ١٩٩٦، وهى أعلى نسبة في تاريخ أوروبا والعالم الغربى كله

وفى نفس هذه الجلسة، قال شاهد آخر وهو وارين ميدون، إنه أثناء حفل عشاء دفع كل فرد فيه ١٥٠٠ دولار، ناول ميدون كلينتون وهو يصافحه بطاقة كتب على ظهرها: لدى زميل يهمه أن يدفع لكم ٥ ملايين دولار. وخطا كلينتون خطوتين ثم قرأ الكارت، فعاد إلى ميدون يطلب منه كارتًا آخر، وبعد أيام اتصل به هارولد إيكيس مستشار الرئيس من طائرة الرئيس الخاصة «سلاح الطيران رقم واحد»، وأوضح ميدون لايكيس أن صديقه يبحث عن وسيلة معفاة من الضرائب، ورد عليه إيكيس بفاكس مباشرة يعدد له أسماء المؤسسات المعفاة من الضرائب التى تعاون كلينتون!

وشرح له أحد الأصدقاء الديمقراطيين المقربين من البيت الأبيض: لقد اعتاد الرئيس أن يكسب دائمًا، وهو مستعد لأن يفعل أى شىء في الدنيا لكى يكسب.

ويمتد هذا الفساد - أو الإفساد - إلى السياسة الخارجية، بل إلى الأمن القومى الأمريكى مباشرة.

شركات السلاح تنفق
على الحملات الانتخابية

وهنا يجىء دور شركات السلاح، فقد نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» دراسة في ٣٠ مارس ١٩٩٨ قالت فيها إن أكبر ست شركات للسلاح أنفقت ٥١ مليون دولار على عمليات «اللوبى» وتوسعت في نفقاتها على الحملات الانتخابية للكونجرس حتى بلغت ٣٢ مليون دولار فيما بين انهيار الشيوعية سنة ١٩٩١ وحملة سنة ١٩٩٦.

وضربت اليزابث درو مثلاً على دور هذه الشركات في توسيع نطاق حلف شمال الأطلنطى، لأن ذلك يفتح لهم سوقًا هائلة لمبيعات السلاح، وكان الاقتراح المطروح سنة ١٩٩٨ هو ضم بولندا والمجر وجمهورية التشيك إلى الحلف. وبطبيعة الحال كانت هناك أسباب قوية تمنع من ذلك، أهمها العلاقة مع روسيا التى كانت تتعاون مع أمريكا في عدة مناطق: مثل (البوسنة وكوسوفو والعراق ونزع السلاح وغير ذلك)، وكانت روسيا تعارض ذلك وترى فيه تهديدًا لأمنها وإهانة لها. ولكن إدارة كلينتون استمرت في سياستها بحجة أن التراجع سيكون محرجًا ومهينًا أمام حلفائها، فضلاً عن أن كلينتون حرص على ألا تذهب أصوات الأقليات التى تنحدر من هذه الدول إلى غريمه ومنافسه الجمهورى السناتور روبرت دول الذى كان ينادى بتوسيع نطاق الحلف كذلك.

والطريف أنه لما كانت هذه الدول غير قادرة على شراء السلاح، اعتمد البنتاجون ١٥ مليون

أصبح السياسيون يقومون بالدعاية التليفزيونية، مثل قيام آن ريتشاردز حاكمة ولاية تكساس وماريو كومو حاكم ولاية نيويورك بالدعاية للبطاطس المحمرة بينما يقوم السناتور روبرت دول بالدعاية للفياجرا!

دولار لضمان القروض لهذه الدول لشراء الأسلحة المتطورة!

وقالت درو إنه فى بعض الأحيان كانت تختلق القضايا والأزمات اختلاقًا حتى يمكن جمع الأموال لمعالجتها ومقاومة هذه الأزمات المصطنعة من أساسها.

وفى قضية أخرى من أدق وأخطر القضايا التى تمس الأمن القومى مباشرة، هى محاولة الصين التدخل فى الشئون الداخلية عن طريق الانتخابات الأمريكية، فقد كان السناتور فريد طومسون يحقق فى بداية سنة ١٩٩٧ فى هذه القضية، وطلب من وكالة الأمن القومى NSA التى تتنصت على المكالمات التليفونية فى جميع أنحاء العالم عن طريق الأقمار الصناعية، عن حقيقة ما إذا كانت قد التقطت رسالة بين بكين وسفارتها فى واشنطن، فقامت الوكالة بعرض بعض المواد التى فى حوزتها تعود إلى سنة ١٩٩٥، تشير إلى خطة صينية للتدخل فى الانتخابات الأمريكية، وإن هذا القرار اتخذ على أعلى مستويات الحكومة الصينية.

وفى بداية ١٩٩٦، التقطت وكالتا الأمن القومى والأمن المركزى مزيدًا من المعلومات الدقيقة التى تشير إلى هذه الخطة، عن طريق استخدام بعض الوسطاء لتحويل الأموال إلى أمريكا عن طريق بعض المتاجر أو الشركات الصينية، كما التقط مكتب التحقيقات الفيدرالى (المباحث العامة) معلومات أخرى عن أن الصين كانت تطلب معلومات عن أعضاء مجلس الشيوخ والنواب، وخلفيات حول إمكانيات تحويل مبالغ إلى حملاتهم الانتخابية. وتتضمن القصة تفاصيل طويلة انتهت بإدانة ٢٠ ودخول ١٢ إلى السجن، ولكن الطريف فيها أنه عندما طلب تشارلز ران (المحامى القدير الذى أنقذ كلينتون من الإدانة فى مجلس الشيوخ بسبب فضيحة مونيكا لوينسكى) من لويس فريه مدير المباحث الفيدرالية أن يمده بما لديه من معلومات، رفض فريه على أساس أنه يحقق فى جريمة جنائية تمس بعض المتهمين الذين يعملون فى البيت الأبيض، وعلقت درو على ذلك بقولها: إن معنى ذلك بوضوح هو أن مدير المباحث لا يثق فى أعلى قيادات هذا البلد!

مركز الثقل السياسى ينتقل إلى المدن

نعود إلى عطلة عيد العمال، وهى أهم علامة على الطريق للفوز بالبيت الأبيض. فقد جرت العادة فى كل الانتخابات التى جرت منذ أن سجلت قياسات الرأى العام، أن المرشح الذى يكون متفوقًا يوم عيد العمال، هو الذى يفوز فى العادة بالانتخابات فى نوفمبر. ولما كانت القياسات تشير إلى أن المعركة ما زالت فى مرحلة «أعلى درجات السخونة»، فمعنى ذلك أن الناس لم تستقر على رأى بعد. ويعتقد المؤرخ ستيفن آمبروز الذى عاصر كل الانتخابات السابقة منذ عهد الرئيس ترومان «أن الولايات المتحدة كانت تواجه دائمًا إما فترة من الكساد الاقتصادى، أو الحرب، وبالطبع كان اختيار الرئيس يهم كل أسرة، فقد كانت كلمة معارك مصيرية مسألة حياة أو موت، أما ما يميز الفترة التى نعيش فيها أن الرئاسة ليست لها كل هذه الأهمية.

ولاحظت صحيفة «وول ستريت»، (التى أصبحت الوحيدة التى تستحق القراءة فى أمريكا ـ بتوزيع ١,٨٠٠,٠٠٠ نسخة يوميًا) فى مقالين مختلفين، أحدهما فى ١٦ مايو الماضى، قالت فيه إن مركز الثقل السياسى بدأ ينتقل إلى المدن، وعُمد المدن، وإن المشتغلين بالسياسة يعتبرون أن انتهاء الحرب الباردة نزعت عامل الرعب النووى الذى كان يضع فى يد رئيس أمريكا كل دراما الحياة أو الموت، فضلاً عن أن فضائح الرئاسة و«هلهلة» الصحافة لبيل كلينتون نزعت عن المكتب البيضاوى (فى البيت الأبيض) كل بريق، أو سحر، أو هالة كان يتمتع بها. ولما كانت المعركة تدور الآن حول تقليص دور الحكومة الفيدرالية، فقد عمل الكونجرس والبيت الأبيض معا على نقل كثير من برامج الضمان الاجتماعى إلى حكومات الولايات والمدن. وقالت الصحيفة أن ثورة المعلومات ونمو آليات عصر المعلومات جعلت ما يستحدث ويدور فى وادى السليكون مركز صناعة تكنولوجيا المعلومات أهم مما يجرى فى واشنطن، من حيث إنه يرتبط مباشرة برفاهية الفرد العادى ومدخراته واستثماراته.

بل إن فيليكس روهاتين الاقتصادى المشهور الذى أنقذ نيويورك من الإفلاس ثم أصبح سفيرًا لأمريكا فى باريس، نصح وزارة الخارجية الأمريكية «بتفتيت» سفاراتها فى الخارج وبعثرتها على المدن خارج العواصم الدولية، لأنه يرى أن هذه الدول تبحث عن «زبائن» لتسويق صادراتها، وأنه يتوقع أن نرى أحد هؤلاء يصبح رئيسًا فى القريب العاجل.

وفى مقال آخر صدر فى أول سبتمبر، قالت الصحيفة: إن وجه الاختلاف فى انتخابات هذا العام أنه ليس هناك رئيس قابع فى البيت الأبيض طرف فى المعركة، (وهذه ثالث مرة فقط منذ سنة ١٩٦٠)، كما أن الرفاهية التى يحس بها الفرد العادى تجعل الناخبين مسترخين مستريحين، الأمر الذى يدفعهم إلى الانتظار حتى يقترب موعد الانتخاب، أضف إلى ذلك أن متابعة الألعاب الأوليمبية سوف تلهيهم حتى شهر أكتوبر، ومن ثم فإن الصورة يوم عيد العمال هذا العام قد لا تكون واضحة أو دقيقة بالقدر الكافى.



وسيمضى المرشحان الفترة القادمة فى السفر المحموم بين الولايات التى مازالت تتارجح بين المرشحين، كما يرصدان عشرات الملايين من الدولارات للإعلانات السياسية ضد بعضهما البعض، وربما كان مرد صعوبة الاختيار فى هذا الوقت المبكر، هو ما أشار إليه الكاتب الصحفى جول ويتكوفر (فى كتاب: ليست هذه طريقة لاختيار الرئيس) الذى قال إن حملة هذا العام ارتفعت إلى مستوى أفضل من أى عام مضى، لا سيما بعد انتهاء الانتخابات الأولية. فكلا المرشحين يجئ من التيار العريض فى الحزبين الرئيسيين، وكل منهما يجر الحزب نحو الوسط، فقد تبنى بوش شعار «المحافظ الرحيم» وتبنى جور شعار الليبرالى البراجماتى، أى أنه ليس مثاليًا أو متطرفًا فى عقائده وأفكاره، وكلاهما ينحدر من أبناء النبلاء، فبوش هو ابن رئيس سابق للجمهورية، وجور ابن لسناتور سابق. وكلاهما يمثل الصفوة ولا يمثل الجماهير العريضة أو الكادحة. ويعيب ويتكوفر على ذلك أن الدائرة أصبحت مغلقة لا تسمح بأى ثغرة لمرشح مثل رالف نادر أو بات بيركانان للنفاذ إلى الحلبة السياسية. وبطبيعة الحال فقد صدرت عدة كتب عن حياة كل من المرشحين، ربما كان أفضلها ما كتبه المؤرخ دافيد مارانيس عن البرت جور، بعنوان: «أمير من تنيسى»، تتبع فيه حياة نائب الرئيس جور منذ نشأته وهو يعيش فى جناح فندق «فيرفاكس» بحى السفارات فى واشنطن إلى أن عاد إلى بلدته ليعمل فى صحيفة «كوريار قرطاج» التى كانت توزع ٣٢٠٠ نسخة، ويحلم بأن يشترى الجريدة ويقضى عمره فى النشر والكتابة. غير أن اعتزال جو ايفينز النائب الديمقراطى من مقعده بالكونجرس ـ الذى كان يشغله والد جور قبل ذلك ـ دفع أصدقاء جور إلى أن يطلبوا منه أن يسعى لشغل هذا المقعد. وشجعه والده الذى كان يعمل فى امبراطورية المليونير اليهودى آرماند هامر التى تضم شركة أوكسيدنتال للبترول وعدة شركات أخرى.

ويقول مارانيس أن مجرى حياة جور تغير تمامًا، واشترى ثلاث بدل زرقاء، وحلق «سوالفه» وانتقل من الشقة التى كان يقطنها فى ناشفيل وينام على حشية مملوءة بالماء (كالبالون) إلى منزل على ٨٨ فدانًا فى الضواحى كان والداه قد اشترياه من شركة أوكسيدنتال، بل إنه قال أنه فى اليوم الذى ألقى فيه أول خطاب له على سلم محكمة قرطاج تغلبت عليه مشاعره وعاد إلى منزله ليتقيأ.

ويصف كتاب مارانيس كيف أن جور كان دائمًا يستميت للفوز بمباريات «البنج بونج» وهو صبى، أو مباريات المصارعة وهو طالب بمدرسة «سانت البانه» لأبناء الذوات فى واشنطن، ولكنه ما أن بدأ فى السباق السياسى حتى بدأ يعرف بأنه يأخذ كل شيء مأخذ الجد من التدريبات الرياضية الشاقة كل صباح فى منزله إلى تردده على كل مصنع وكل مكان يتجمع فيه الناخبون.

والمفارقة التى يظهرها تاريخ حياة جور من البداية هى أنه ـ لكى يكسب ـ كان ينبغى عليه أن يضع مسافة بينه وبين والده، الذى فقد مقعده فى الكونجرس لأنه كان ليبراليا معارضًا لحرب فيتنام. وبدأ جور حياته مدافعًا عن نفسه أمام منافسيه الذين كانوا يتهمونه بأنه رجل شركات البترول الذى جاء من واشنطن، ولم يعش فى بلدد قرطاج، ولم يذهب إلى مدارسها، أو يلعب الكرة فى هذه المدارس. وكانت حملات جور كلها تعتمد على ميوله المحافظة، كان يدافع عن حق المواطنين فى حيازة السلاح، ويعتبر الشذوذ الجنسى أمرًا غير عادى، وينادى بإصلاح نظام الضمان الاجتماعى، ويعارض الإجهاض، حتى تساءل مارانيس: هل كان جور يؤمن بذلك كله أم أنه كان يفصل آراءه حتى تتوافق مع المزاج السائد فى بلدته وولايته يومها؟ وقد كان ذلك ما فعله بيل كلينتون فى أولى مراحل حياته فى ولاية أركانسو، حيث كان يسعى لمنصب وزير العدل فيها، فقد أدهش كل أصدقائه بأنه تبنى عدة مواقف يمينية محافظة لكى يكسب.

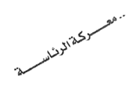
ونقل مارانيس عن صحف العاصمة ناشفيل التى أجرت أحاديث مع جور فى هذه الفترة وكان يؤكد أنه لا يتبنى هذه المواقف المحافظة لكى يكسب، وإنما لأنه يؤمن بما يقول على حد تعبيره.

وكتب جيمس فالوز، رئيس تحرير مجلة «أتلانتيك» الشهرية ـ وهو من أقطاب الليبراليين ـ فى عدد شهر يوليو عن صفة من صفات جور التى ربما كانت الفيصل فى المرحلة القادمة بينه وبين جورج بوش. وهى أنه بالرغم من أنه «متخشب» مثل اللوح، وقدراته كخطيب أدنى بكثير من رئيسه بيل كلينتون، فقد أثبت خلال عقد التسعينيات أنه من أكثر المبارزين فى المناظرات السياسية على القتال والإجهاز على منافسيه. فهو عدوانى إلى حد الشراسة، ومستعد للىّ القواعد والحقائق إذا اقتضى الأمر، وهو أكثر المرشحين قدرة على استخدام هذه المناظرات لكسب بعض المعارك السياسية.

ففى سنة ١٩٩٣، كان معظم الناس يتوقعون أن يتفوق روس بيرو على آل جور فى المناظرة التليفزيونية بينهما، لا سيما حول قضية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا). بسبب ميل روس إلى تبسيط الحقائق وتصويرها بسهولة للجمهور بجمل قصيرة، ولكن جور سحق روس فى المناظرة، وكسب جور إلى صفه معظم أعضاء الحزب الديمقراطى الذين كانوا يعارضون القانون.

آل جور والصوت اليهودى

كذلك عندما وقف جور والسناتور بيل برادلى الذى كان ينافسه فى الانتخابات الأولية، وأعلن السناتور دانيل باتريك موينهان تأييده للسناتور برادلى لأنه يعتقد أن جور «غير قابل للفوز»، ولا يمكن انتخابه. استطاع جور أن يفقد برادلى توازنه بعدد من الهجمات التى لم يتوخ فيها الصدق أو الحقيقة، الأمر الذى انتهى بأن خسر برادلى تفوقه فى ولاية نيوهامبشاير على جور، وفاز جور بكل تصفية بعد ذلك.









ونقل فالوز سيرة لجور أعدها اثنان من الصحفيين هما بيل تورك ومايكل كراولى، بعنوان: «إعادة اختراع جور سنة ٢٠٠٠»، عادة جور فى التمسك بادعاءات عن نفسه، كان من السهل دائمًا دحضها. فمنذ أن كان نائبًا حديثًا وحتى الانتخابات الأولية هذا العام، استمر جور فى ذكر بعض الروايات والصفات عن نفسه إما «مزوقة»، أو زائفة، أو مضللة، وكثيرًا ما تكون لا أساس لها من الصحة، لدرجة أدهشت حتى بعض مؤيديه، كان يقول مثلاً فى أول حملة له لمنصب الرئاسة سنة ١٩٨٨: «إننى وزوجتى وأبنائى الأربعة نعيش فى مزرعة خارج قرطاج بولاية تنيسى»، فى الوقت الذى كان أبناؤه الأربعة يذهبون إلى المدارس فى واشنطن. وهكذا. ويخلص فالوز إلى القول: إننى بعد أن درست تاريخ جور بالتفصيل أجد نفسى أكثر احترامًا لقدراته وأقل حبًا أو ميلاً له.

وقالت صحيفة «لوس إنجيليس تايمز» أن جور لا يقع كثيرًا فى أخطاء، ولكنك عندما تستمع إليه يخيل إليك أنه يتمرن أمام المرآة على ما يقوله، وليته يقول: أنا لا يهمنى رأيك، فهذه هى مبادئى. ولكنه يصر على أن يبنى حملته كلها على أنه شخص لطيف فعلاً، ليس ليقنعك بانه لطيف، وإنما ليقنعك بانه سيكون على الصورة التى تريده أنت أن يكون عليها وتتوقعها منه.

وبالرغم من أن ألبرت جور يجىء من إحدى ولايات الجنوب، التى تتفشى فيها إن لم يكن كراهية اليهود، فهم على الأقل لا يثقون فيهم، وعندما فاز جيمى كارتر بترشيح الحزب الديمقراطى له، هاجمته كل المنظمات اليهودية، واتهمته بانه قسيس إن لم يكن يكره اليهود، فسوف تبقى سحابة قاتمة فوق رأسه بالنسبة لهم حتى يثبت لهم العكس، ولكن جور لا يسعى وراء الصوت اليهودى بالرغم من أنه لا يؤمن به تيمنا برئيسه بيل كلينتون فهو يؤمن بإسرائيل عقائديًا ونفسيًا وتاريخيًا حتى النخاع.

فالواقع أن بيل كلينتون مدين للصوت اليهودى والأموال اليهودية بنسبة تفوق ٨٠ فى المائة، وهذا ما يؤكده جيرى جولدبرج، ابن القاضى الشهير آرثر جولدبرج الذى خدع العرب بقرار ٢٤٢، وقال إنه لم يتضمن حروف الألف واللام قبل كلمة «أراضى» ليس لأن هناك خلافًا حول انسحاب إسرائيل بالكامل، وإنما لمجرد إجراء «تعديلات طفيفة». وقد كتب جيرى جولدبرج أهم كتاب فى السنتين الأخيرتين عن الهيمنة اليهودية بعنوان: «القوة اليهودية» قال فيه: إن السعى إلى الصوت اليهودى خلال القرن العشرين أصبح شيئًا مالوفًا، يتبعه المرشحون وهم يلبسون «القلنسوة» اليهودية، ويجرى تصويرهم وهم يأكلون الوجبات المعدة على الطريقة اليهودية «الكوشير»، ولكنها تحولت فى الآونة الأخيرة إلى إعلان الوله الأبدى بإسرائيل، وتأييدها فى كل ما تحتاج إليه، إلى أن يحل موعد الانتخابات.

ويمضى جولدبرج يقول: وما إن يصل المرشح إلى منصبه حتى ينظر إلى الصوت اليهودى من ناحية عملية، ويعمل ألف حساب لكل قرار يتخذه يتعلق بإسرائيل أو بعلاقة الكنيسة بالدولة، وينفق كل مرشح الملايين لكسب الصوت اليهودى، وقد حرص كل مرشح منذ سنة ١٩٧٢ على تأسيس تنظيم يهودى مستقل، بموظفيه وميزانيته ليجوب أنحاء أمريكا وراء أصوات اليهود الذين لا يزيد عددهم على ٢,٥ فى المائة من السكان، وهو شىء يبدو بلا معنى!

ويشرح ذلك بقوله: إن الأرقام يمكن أن تكون مضللة، لأنه بالرغم من أن عدد اليهود لا يزيد على ٢,٥ فى المائة، فإنهم يمثلون أكثر من ٤ فى المائة من الناخبين، ذلك أنهم يمارسون - كجماعة - حقهم فى الانتخاب بنسبة أعلى من الغالبية، إذ تبلغ نسبة اليهود المسجلين فى قوائم الانتخاب ٨٠ فى المائة من مجموعهم، بينما لا تزيد هذه النسبة على ٥٠ فى المائة لغالبية السكان، أضف إلى ذلك أنهم يصوتون أيضًا بنسبة أعلى تبلغ ضعفين تقريبًا.

ولكن ذلك لا يعدو أن يكون نصف القصة، ذلك أن ٨١ فى المائة من اليهود يتمركزون فى تسع ولايات تقريبًا، وهى الولايات المهمة فى تحديد «المجمع الانتخابى» - الذى سيجئ ذكره بعد قليل - بمعنى أنها هى الولايات المفاتيح فى أى انتخاب وهى: نيويورك ونيوجرسى وفلوريدا وماساتشوستس وميريلاند وكونكيتكت وكاليفورنيا وبنسلفانيا وإلينوى.

الولاية	النسبة المئوية لليهود بين السكان	النسبة المئوية لليهود بين الناخبين
نيويورك	٩,٠٪	١٨,٣٪
نيوجرسى	٥,٥	٩,٩
فلوريدا	٤,٧	٨,٢
ماساتشوستس	٤,٥	٨,٣
ميريلاند	٤,٣	٨,١
كونكيتكت	٣,٠	٦,٢
كاليفورنيا	٣	٥,٨
بنسلفانيا	٢,٧	٤,٩
الينوى	٢,٣	٣,٩

وتتضمن هذه الولايات ٢٠٢ صوت من أصوات المجمع الانتخابى بين ٥٣٥، أى ٣٧ فى المائة من المجموع.

ويذكر المؤلف أنه بالرغم من أن اليهود يصوتون لصالح الحزب الديمقراطى عادة، فإن نصفهم صوتوا لصالح كلينتون بصفة خاصة. وطبقًا لتقديره فإن نحو ١,٥ مليون يهودى صوتوا لكلينتون لأنه استطاع أن يستميلهم للتصويت من أجله شخصيًا، وليس فقط لأنه المرشح الديمقراطى.

الدافع وراء اختيار السناتور اليهودى ليبرمان

ومعنى هذا أن اليهود كانوا يمثلون ربع كل الأصوات التى حصل عليها كلينتون فى المرتين: ١٩٩٢و١٩٩٦، بل إن التحليل الدقيق لكل ولاية على حدة يظهر أن اليهود استطاعوا فى خمس ولايات تجمع فيما بينها ٨٦ فى المائة من المجمع الانتخابى وهى: (نيويورك ونيوجرسى وأوهايو وجورجيا ونيفادا) كانت نسبة اليهود فيها ٧٥ فى المائة من مجموع الأصوات التى تمثل فارق النجاح الذى حصل كلينتون عليه.

فهل كان هذا هو الدافع وراء اختيار جور للسناتور اليهودى جوزيف ليبرمان؟ إن ما يثير الدهشة فى هذا الاختيار أن جور لا يحتاج إلى ممالأة اليهود، فليس هناك على الساحة السياسية حاليًا من هو أقرب إليهم من جور. فهو معروف بأن رجل إسرائيل المفضل، وقد كان اليهود يقولون عن دوائر وولتر مونديل إنهم «يملكونه»، ولكن جور أقرب لهم من ذلك، فقد اختار أن يلقى خطابه أمام الكنيست الإسرائيلى منذ عامين أثناء الاحتفال بمرور ٥٠ سنة على إنشاء إسرائيل باللغة العبرية، الأمر الذى لم يفعله أى سياسى آخر فى العالم، بل إنه فى خطابه أمام المؤتمر السنوى لمنظمة «أيباك» وهواللوبى الإسرائيلى فى واشنطن، وصل - أو قل هبط - جور إلى مستوى من الإسفاف السياسى لم يصل إليه أحد من قبله، إذ قال فى خطابه إنه عندما ذهب أول سفير أمريكى لمقابلة دافيد بن جوريون وجد بن جوريون يقف على رأسه لممارسة رياضة اليوجا، ولما كان السفير دبلوماسيا محترفًا، فقد رأى أن يقف هو الآخر على رأسه طوال مقابلته لبن جوريون. ووعد جور بان تتطابق وجهتا نظر البلدين إذا ما فاز بالرئاسة، حتى ولو أدى ذلك إلى أن تقف أمريكا على رأسها. وهناك أكثر من سبب للدهشة فى اختيار ليبرمان، فعندما عرف أن وارين كريستوفر وزير الخارجية السابق يدرس ملف السناتور ليبرمان كأحد المرشحين، كتب دافيد نايهان فى صحيفة «بوسطن جلوب» يقول إن ليبرمان محافظ، ويختلف عن جور، وإنه ليس المرشح المناسب لأنه يبدو دائمًا كشخص أكل سمكة «فاسدة» على الغداء ويحتاج إلى حبوب مضادة للحوامض!

أضف إلى ذلك أن ليبرمان يضيف شيئًا إلى التذكرة الانتخابية، لأنه يجىء من ولاية صغيرة - كونكيتكت - لا تتعدى أصواتها ١٤ صوتًا فى المجمع الانتخابى. وليبرمان يمثل التيار المحافظ فى الحزب الديمقراطى تعد مواقفه أقرب إلى مواقف بوش من جور: فهو يدافع عن مصالح شركات التامين لأنه يمثل ولاية تقع فيها ٣٦ من كبريات شركات التامين، كما يدافع عن شركات السلاح، وينادى بزيادة الإنفاق على السلاح، بما فى ذلك بناء غواصة «ذئب البحار» التى كانت محل جدل ولغط لمجرد أنها تبنى فى ولايته ويتكلف بناؤها ٢,٥ مليار دولار لكل قطعة، وطائرات بلاك هوك وكومانشى الهليكوبتر. كذلك فقد كان ينادى بالتجارة العالمية، والاختراعات التكنولوجية، الأمر الذى أبعده عن قطاع مهم من الحزب وهو نقابات العمال، وكان معظم التأييد والدعم المالى يجيئه من هذه الشركات ومن شارع المال فى نيويورك ووادى السليكون فى كاليفورنيا وشركات الأدوية، وكثيرًا ما انتقدته إدارة كلينتون - جور لأنه تقدم بعدد من مشروعات القوانين الى وصفتها الإدارة بانها «سخيفة للغاية» وأنها لا تهدف إلا لخدمة شركات التامين!

ولكن مواقف ليبرمان المحافظة تجاه بعض القضايا التى تمس السود هى التى اثارت أهم عاصفة معادية له بعد اختياره. فقد سبق أن عارض ليبرمان قانون «العمل الإيجابى» الذى يعتبر ركنًا مهمًا من الحقوق المدنية التى يتمسك بها السود، كما أنه أيد توزيع قسائم التعليم على كل من يرغب فى إرسال أبنائه إلى المدارس الخاصة.

وقام السود عقب ذلك مباشرة بمظاهرة تزعمها القس جيسى جاكسون، كما انضمت إليهم باتريشيا آيرلند رئيسة المنظمة

هذا المناخ العام كله، أدى إلى أهم تغيير حدث فى الحياة السياسية فى واشنطن كلها وهو صعود دور المال، وتمويل الحملات السياسية، بحيث أصبح المال هو العامل الأساسى والأول فى أى معركة، وليس السياسة، أو المبادئ، أو المعتقدات أو أجندة العمل أو أى شىء آخر



بحلول سنة ١٩٩٦، ألقى الرئيس بيل كلينتون ونائبه ألبرت جور بكل المقاييس والمعايير من النافذة، وبدآ يستخدمان «الأموال الناعمة» فى حملاتهما الخاصة والإعلانات السياسية بطريقة فجة وبلا أية حدود أخلاقية أو قانونية، بعد أن جمعاها بطرق مشبوهة ومصادر مشبوهة وممارسات غير قانونية، حتى بلغ ما جمع سنة ١٩٩٦ أكثر من ٢٦٢ مليون دولار، وهو أعلى رقم وصلت إليه أية انتخابات، وأكثر من كل الحملات الثلاث السابقة مجتمعة



القومية للمرأة، واتهم جاكسون ليبرمان بأنه انضم إلى الحزب الجمهورى، وأنه يقلب قانون «العمل الإيجابى» رأسًا على عقب، ولم يعد «ديمقراطيًا» وإنما أصبح «ديمو جمهوريًا» وهاجم جاكسون مجلس القيادة الديمقراطى الذى يرمز له بالحروف (DLC) الذى أسسه ويرأسه ليبرمان وأسماه «مجلس الطبقة المرفهة».

ولكن ما أن اختار جور ليبرمان، حتى انقلبت كل الموازين، وأصبح الليل نهارًا، وقامت شبكات التليفزيون الثلاث الكبرى، التى قاطعت مؤتمر الحزب الجمهورى كله، واعتبرته خبرًا صغيرًا فى نشرات الأخبار المسائية، بتغطية اختيار ليبرمان حيا على جميع محطاتها، وراح كتاب الصحف ومعلقوها جميعًا يهللون لهبوط الوحى على جور، ومنذ ذلك اليوم وهم يقولون إن جور يتفوق على بوش فى جميع الاستطلاعات، الأمر الذى ثبت كذبه بعد أيام قليلة إذ أصبحت كل الاستطلاعات - رغم جنوحها إلى جور - تقول إن المسافة أقرب جدًا بين المرشحين، وإن المعركة ما زالت تمر «بأعلى درجات السخونة».

وقد كتب أحد المحللين عمودًا لا ندرى ما إذا كان مديحًا أم عكسه قال فيه: إن الاختيار يعلمنا شيئًا عن اليهود الأرثوذكس، وهو أمر صحى فى جميع الأحوال. فهم يحرصون يوم السبت على ألا يركبوا الدواب أو السيارات، أو يردوا على التليفونات، أو يقوموا بالكتابة، وهم لا يمسكون بالفلوس، أو يطبخون الطعام، أو يستمعون إلى الراديو، ولا يشاهدون التليفزيون أو ينظفون البيت، أو يستحمون، أو يأخذون «دش» ولا يوقدون النور أو يطفئونه، ولا يوقدون نارًا من أى نوع!

ونظرًا لأن ليبرمان لا يستطيع أن يركب السيارة يوم السبت (منذ غروب الشمس يوم الجمعة وحتى عشاء السبت) فقد كان يبيت فى شقة بجوار مكتبه فى الكابيتول يملكها زميله آل جور، وكان جور فى الواقع يقوم طواعية بدور «المرمطون» الذى يسمى عند اليهود «شابوس جوى» أى الولد المسيحى الذى يقوم بالخدمات التى لا يستطيع اليهودى الأرثوذكسى القيام بها يوم السبت، مثل إطفاء النور أو القيادة!

من هنا فقد كانت العلاقة بينهما وثيقة، وكانت لها مواقف متطابقة إذ وقفا معًا فى تأييد حرب الخليج فى صف بوش. وربما أراد جور أن يضع حدًا لعامل «الزهق من كلينتون» وإلغاء المشكلة الأخلاقية بضربة واحدة، فاختار ليبرمان.

وباختيار ليبرمان، وطبع قبلة سينمائية طويلة على شفتى زوجته «تيبر» أمام الجمع الغفير فى مؤتمر الحزب الديمقراطى، كسب بها غالبية النساء فى صفه، وبخطبة متصلة رائعة غير فيها جور من شخصيته المتخشبة، ألغى جور الفارق بينه وبين بوش، وطبقًا لبعض الاستطلاعات، بدأ يتفوق عليه بفارق ضئيل. وجرت العادة أنه عندما يكون الاقتصاد قويًا، وينمو بأكثر من ٤ فى المائة، فإن ذلك يكون فى صالح مرشح الحزب الحاكم، والاقتصاد ينمو بقوة بالفعل، بنسبة أكثر من ٥ فى المائة فى النصف الأول من هذا العام.

ويعتقد السناتور جوزيف بايدين أن المعركة حسمت لصالح جور، وأنه إذا لم يتلق جور لكمة قوية فى فكه تفقده توازنه، فقد قضى الأمر. ولكن أحدًا لا يصدق ذلك، سواء من الديمقراطيين أو الجمهوريين، لا سيما أن ما يحسم المعركة فى النهاية هو ما يحصل عليه كل منهما من نسبة أصوات هذا المجمع الانتخابى الذى تحدثت عنه فى البداية.

المجمع الانتخابى يحدد من الفائز

فالواقع أن الشعب الأمريكى يقوم بعمليتين انتخابيتين، واحدة مباشرة، والأخرى - وهى الحاسمة - غير مباشرة، يقوم بها عدد من المنتخبين الذين يختارون بدورهم الرئيس الأمريكى، وفى هذه الانتخابات غير المباشرة، قد تزيد النسبة التى يحصل عليها المرشح عن الأصوات المباشرة أو تقل. فالشعب الأمريكى يختار ٥٣٨ مندوبًا عنه، يمثلون الولايات الخمسين، وتنقسم هذه الأصوات طبقًا لحجم الولايات وتعدادها، فنصيب ولاية كاليفورنيا مثلا ٥٤ صوتًا، تليها ولاية نيويورك التى تضم ٣٣ صوتًا، وهكذا، أما الولايات الصغيرة القليلة التعداد، فيرصد لها ٣ أصوات لكل منها حتى لو لم يسمح تعدادها بذلك. ويقضى قانون المجمع الانتخابى أن المرشح الذى يحصل على أغلبية الأصوات فى أية ولاية، فإنه يغنم جميع الأصوات المخصصة لها فى المجمع الانتخابى. ويحدث أحيانًا أن تخدم هذه الأصوات المرشح الفائز وتزيد من نسبة فوزه، كما حدث مع الرئيس نيكسون مثلاً سنة ١٩٦٨، فقد حصل على ٣٠١ صوت من المجمع الانتخابى مما أعطاه نسبة ٥٦ فى المائة من المجمع، بينما كانت الأصوات المباشرة تمثل ٤٣،٤ فى المائة فقط من الناخبين. كذلك حصل الرئيس جيمى كارتر على ٢٩٧ صوتًا سنة ١٩٧٦ أعطته ٥٥ فى المائة من المجمع الانتخابى، بينما لم يحصل إلا على ٥٠،١ فى المائة من الأصوات المباشرة. من هنا فقد دارت عدة مناقشات تليفزيونية طوال هذا الصيف حول إمكان فوز أحد المرشحين بغالبية المجمع ولم يحصل على غالبية الأصوات الشعبية، وقال معظم الخبراء إن ذلك ممكن ولكنه مستبعد.

وتختلف آراء المتخصصين حتى حول هذه النقطة بحدة، إذ اعتقد بعضهم - طبقًا لصحيفة «كريستيان ساينس» أن بوش يتفوق بفارق ضخم على جور، إذ إنه يضمن حاليًا نحو ٢٥٠ صوتًا مقابل ١٧٤ لجور، بينما عبرت ستة من أساتذة العلوم السياسية «نيويورك تايمز» عن رأيهم بأن جور سيكسب بنسبة تتراوح بين ٥٣ و ٥٥ فى المائة!

وتنحصر المعركة الدائرة حاليًا كلها حول الاقتصاد، وما الذى ينوى أن يفعله كل من المرشحين حول الفائض الذى يقدر بأنه سيصل إلى ٤،٦ ترليون دولار خلال السنوات العشر القادمة، وبالرغم من إصرار جور على أنه يدافع عن الفقراء وأن بوش يدافع عن الأغنياء، فالواقع أن الخلافات بينهما طفيفة.

أما الذى يدافع عن الفقراء بحق، فهو رجل من أصل عربى، وهو رالف نادر، الذى لم تلتفت له الصحافة العربية أو الأمريكية أو تعطه حق قدره، بينما قالت عنه مجلة «رولينج ستونز» أنه واحد من أكثر الرجال نفوذا فى أمريكا، فقد كان هو وراء تمرير العديد من القوانين فى الكونجرس بسبب نضاله المتواصل من أجل المستهلكين والمطحونين، قوانين ضد السيارات السيئة الصنع، والمياه الملوثة، والهواء الملوث، وأحوال أماكن العمل والمصانع، والبنوك السيئة، وقد كان وراء تمرير اثنين من أهم القوانين المعاصرة على الإطلاق وهما قانون حرية الحصول على المعلومات (الحكومية) وقانون الهواء النقى.



وبالرغم من تجاهل كل الصحف الكبرى هنا المتعمد لنادر، فما زال يمثل الخطر والأمل فى المستقبل معا، فهو إذا حصل على خمسة فى المائة من الأصوات العامة، فسيعطيه ذلك ويعطى حزب الخضر الذى يمثله الحق فيما يسمى بالاعتمادات الحكومية المماثلة، أى أنه إذا جمع خمسة أو عشرة ملايين دولار مثلاً، تدفع له الحكومة عشرة مثلها، الأمر الذى يضعه على خريطة الانتخابات القادمة بقوة. وقد أثار ذلك الرعب فى قلب الرئيس كلينتون منذ الانتخابات الماضية ١٩٩٦، إذ قال ديك موريس، الذى كان من أقرب مستشاريه أيام فضيحة مونيكا لوينسكى، أن كلينتون طفق يسألنى عن نادر عدة مرات، وكان يخشى أن يسبب نادر له فقدان ولاية كاليفورنيا المهمة، وقال موريس أنه غير متأكد ما إذا كان كلينتون قد حاول أن يدفع بنادر خارج عملية الانتخاب ولكنه كان مرعوبًا منه بشكل واضح.

ونادر هو أول مرشح صادق مع نفسه ومع الشعب الأمريكى، وأول مرشح لا يعتمد على الملايين الطائلة التى تنفقها الشركات الكبرى وجماعات الضغط وإفساد الحياة السياسية، والوحيد الذى يمكن أن يهز سفينة جور بعنف، والوحيد الذى ينادى بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، ويعارض نقل السفارة الأمريكية إلى القدس وقد كنت أردد لجميع الأصدقاء من الأمريكيين العرب، أنهم لو أرادوا هزيمة جور، فعليهم أن يصوتوا - ككتلة - لصالح رالف نادر، وساعتها فقط سيلتفت لهم الحزبان الرئيسيان والشعب الأمريكى كله، ويعملون لهم ألف حساب.

ومهما كانت نتائج الانتخابات. فقد استطاع رالف نادر أن يغير الخريطة السياسية لأمريكا إلى الأبد، فرد واحد استطاع أن يعرى الحزبين الرئيسيين، ويزرع بذرة بين طلبة الجامعات أنهم هم القادرون على خلق المستقبل الذى يطلبونه، لأن الحزبين الرئيسيين غير قادرين على إصلاح أنفسهما، فقد وصل إفساد الحياة السياسية مداه، وأصبحت العملية السياسية تعتمد على أموال الشركات الكبرى، وأن أبواب الديمقراطية بدأت فى الانغلاق فى واشنطن لأنها اختطفتها الشركات العالمية التى أصبحت تسيطر على كل قطاعات المجتمع.

أما العامل الثانى الذى سيلعب دورًا كبيرًا فى الانتخابات القادمة، فقد ترك بصمات مهمة فى هذه الحملة، ولكنه ما زال فى بدايته، وهو «الإنترنت». فهناك ٨٠ مليون أمريكى يستخدمون «الإنترنت» على الكمبيوتر يوميًا، ويستخدمها ٢٥ مليونًا حاليًا فى الحصول على المعلومات. ولم تعد المعلومات حكرًا على الجريدة اليومية أو القناة المفضلة. وكتب ديك موريس كتابًا سماه بلغة الكمبيوتر: «التصويت. دوت. كوم» ليشرح كيف تتغير الحياة السياسية أمام أعيننا، وقد أصبح أى فرد يستطيع أن يكون ناشرًا، وأن يتعرف كيف يصوت النواب، وخلفياتهم. ومن أين تأتى التبرعات السخية لحملتهم، وكيف تنفق. حتى الاجتماعات التى برع فيها كلينتون فى المدن الصغيرة وأصبحت سمة من سمات حكمه، حل محلها اللقاء والنقاش على الإنترنت، ويعتقد موريس أن الاستفتاءات سوف تجرى على الإنترنت، وسيكون لها تأثير أقوى من الحكومة، وسوف يقضى على سيطرة رءوس الأموال التى أفقدت الناس ثقتهم فى ممثليهم، وهو يتفق مع نادر فى أن الحزبين الرئيسيين ينافقان عندما يتحدثان عن إصلاح النظام الانتخابى، ويؤمن مع نادر أن الإنترنت سوف يقلص أهمية المال فى المعارك الانتخابية، ولكنها معركة طويلة الأمد. ■

الغـــرب يعلن الحـــرب

الانتعاش الاقتصادى فتح شهيته على الطاقة الرخيصة:

تلقى حكومات الدول الغربية مسئولية ارتفاع أسعار البترول الخام فى الآونة الأخيرة على دول أوبك التى لا يزيد نصيبها مجتمعة على ٤٠٪ من الإنتاج العالمى. وفى محاولة لفهم ما يجرى فى السوق العالمية للبترول، ينبغى التفرقة بين العوامل الأساسية التى تحكم تلك السوق وبين الأعراض التى تكشف عن اختلالات وقتية لن تلبث أن تنقشع خلال زمن قد لا يتجاوز الربع الثانى من العام القادم. ولذلك ينبغى أن نبدأ بتوضيح الدور الذى يلعبه كل من الأطراف الأربعة الأساسية المتعاملة فى تلك السوق وهم : الدول المصدرة، والشركات الوسيطة، وحكومات الدول المستوردة، ثم المستهلك النهائى.

خذ بريطانيا كمثال حيث يهدد رئيس وزرائها «تونى بلير» بتشكيل جبهة للتصدى لأوبك بقصد الضغط عليها لزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. ففى عام ١٩٩٩ عندما كان سعر سلة أوبك (وهى مجموعة من الزيوت الخام التى تنتجها دول المنظمة) لا يتجاوز ١٨ دولارا للبرميل فى المتوسط، كان المستهلك البريطانى يدفع فى هذا البرميل بعد تحويله إلى منتجات قابلة للاستهلاك مثل البنزين ووقود التدفئة نحو ١٤١ دولارا. أين ذهب الفرق ؟ حصلت الشركات الوسيطة على نحو ٢٧ دولارا (أى ١٩٪) بينما حصلت الحكومة البريطانية فى صورة ضرائب على نحو ٩٦ دولارا (أى ٦٨٪)، وتحملت أوبك نحو ٧ دولارات كتكلفة إجمالية لإنتاج البترول الخام (أى ٥٪) وبذلك لم يبق لها من الـ ١٨ دولارا غير ١١ دولارا لتعويض قيمة الثروة البترولية التى نضبت تلبية لاحتياجات الدول الصناعية ولا يمكن تجديدها مهما طال الزمن. وبعبارة أخرى، فإن صافى ما حصلت عليه دول أوبك من السعر الذى دفعه المستهلك النهائى بعد استقطاع ما تحملته من نفقات لم يتجاوز ٨٪.

وحتى لو امتد الإطار الزمنى ليشمل الشهور التسعة التى انقضت من عام ٢٠٠٠ وقيل إن السعر تجاوز خلالها حد الثلاثين دولارا، فإن سعر البرميل من سلة أوبك لم يتجاوز ٢٧ دولارا فى المتوسط. وباستبعاد تكلفة الإنتاج التى تبلغ ٧ دولارات، فإن ما حصلت عليه دول أوبك كثمن صاف للثروة البترولية التى نضبت لم يتجاوز ٢٠ دولارا أو ما يعادل ١٤٪ من السعر النهائى.

ولا تختلف الصورة عن ذلك كثيرا بالنسبة للدول الصناعية الرئيسية وهى فرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان التى تتراوح معدلات الضرائب التى تفرضها على استهلاك المنتجات البترولية حول ٧٠ و٨٠٪ من السعر للمستهلك النهائى.



ومن دراسة حديثة لمنظمة أوبك يستخلص أن معدل الضرائب التى تحصل عليها الدول الأوروبية مجتمعة يبلغ نحو ٦٨٪ من السعر النهائى للمستهلك الأوروبى والذى يزيد قليلا على المائة دولار، بينما يبلغ ما تحصل عليه الشركات الوسيطة لتغطية نفقاتها وأرباحها نحو ١٦٪، وتحصل على مثلها دول أوبك بما فى ذلك التكلفة الفعلية التى تتحملها لإنتاج البترول.

أما الولايات المتحدة فهى الاستثناء الوحيد من هذا النمط، إذ تبلغ الضرائب البترولية فيها نحو ٣٤٪ ويتراوح متوسط سعر المنتجات للمستهلك النهائى بين ٤٥ و٥٠ دولارا للبرميل. والغريب أنه على الرغم من تدنى السعر فى السوق الأمريكية إلى أقل من نصف نظيره فى أوروبا، فإن الزيادة التى طرأت مؤخرا على أسعار البنزين فيها ولم تتجاوز سنتات قليلة فى اللتر دفعت أسعار البنزين إلى قمة القائمة التى يتنافس على أساسها مرشحو الرئاسة الأمريكية، كما دفعت الرئيس كلينتون للتهديد باستخدام الخيارات المتاحة له للتأثير على أسعار البترول بهدف تخفيضها.

عودة إلى بريطانيا التى تهدد بتشكيل جبهة للضغط على أوبك. فإنها تنتج من البترول الخام أكثر مما تستهلك، إذ بلغ إنتاجها عام ١٩٩٩ نحو ٢٫٩ مليون برميل يوميا (ب/ى) بينما بلغ استهلاكها ١٫٧ مليون ب/ى، وبذلك استطاعت تصدير نحو ١٫٢ مليون ب/ى. وبذلك تستفيد بريطانيا كدولة مصدرة للبترول من ارتفاع سعر البترول الخام، وإن كانت قد رفضت صراحة التعاون مع أوبك لمساندة السعر عندما انخفض فى أواخر ١٩٩٨ إلى أقل من عشرة دولارات. ووجه التناقض فى موقف الحكومة البريطانية واضح، فهى من ناحية تستفيد من ارتفاع سعر الخام، كما تستفيد من ناحية أخرى من الضرائب الباهظة التى تفرضها على استهلاك المنتجات، ثم ترفض بعناد مطالبة شعبها بخفض تلك الضرائب.

وتتناسى الدول الصناعية الغربية فى ضغطها على أوبك لخفض الأسعار أن خسائر أوبك بلغت فى عام ١٩٩٨ وحده نحو ٥٦ مليار دولار، إذ انخفضت قيمة صادراتها البترولية من ١٦٦ مليار دولار عام ١٩٩٧ إلى ١١٠ مليارات دولار عام ١٩٩٨ نتيجة لانخفاض سعر سلة أوبك الى ١٢٫٢٨ دولار للبرميل خلال العام المذكور. وإذ لا يتجاوز نصيب أوبك من صادرات البترول العالمية النصف تقريبا، فإن معنى ذلك أن خسائر مصدرى البترول قد بلغت فى العام المذكور نحو ١١٠ مليارات دولار استفاد منها الاقتصاد الغربى بما لا يقل عن ٨٠ مليار دولار عبر وارداته البترولية التى تمثل نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية.

ويتسم البترول، كمورد طبيعى ناضب، بوجود ما يعرف بالريع البترولى، والذى يعتبر توزيعه موضع خلاف رئيسى بين الدول المنتجة للبترول والدول المستهلكة له. إذ كلما انخفض سعر البترول الخام تضاءل نصيب الدول المنتجة من ذلك الريع والعكس صحيح. وقد انتهجت الدول الصناعية، بمساندة شركاتها البترولية العملاقة، من السياسات البترولية ما ساعدها على الضغط نزوليا على أسعار البترول الخام، ومن ثم اقتناص القدر الأكبر من الريع البترولى. ويعرف الريع البترولى بانه الفرق بين التكلفة الكلية (إنتاج ونقل وتكرير وتسويق) وبين سعر المنتجات المكررة فى أسواق المستهلك النهائى. ويتوزع الريع البترولى - بعد استبعاد



علـــى أوبــــــــك!

حسين عبدالله

كافة التكاليف وأرباح الشركات الوسيطة – بين الدول المصدرة (معبرا عن نصيبها بالفرق بين تكلفة الإنتاج وسعر البترول الخام) وبين حكومات الدول المستوردة (معبرا عنه بما تحصل عليه في صورة ضرائب تفرضها على المنتجات البترولية).



وتستند حصة الدول المنتجة للبترول في مشروعيتها إلى أن البترول يعتبر مصدرا طبيعيا ناضبا، وما تحصل عليه كنصيب في الريع يعوضها جزئيا عن نضوب تلك الثروة ويعتبر ثمنا لها مستقلا عن تكلفة الإنتاج. ومن ناحية أخرى، فإن هذا النصيب يساعدها على توفير استثمارات تستخدم في البحث عن حقول جديدة وتنميتها لضمان تلبية الاحتياجات المتزايدة للمستهلكين.

وكان برميل المنتجات المكررة يباع في عام ١٩٧٠ للمستهلك النهائي في دول المجموعة الأوروبية بنحو ١١,٤٢ دولارا. وباستقطاع إجمالي التكاليف، بما في ذلك تكلفة الإنتاج والنقل والتكرير والتوزيع وأرباح الشركات الوسيطة، كان الريع الصافي يقدر بنحو ٦,٠٧ دولار لم تحصل منه الدول المصدرة للبترول على اكثر من ١,٤٢ دولار وهو ما يعادل ٢٣٪ بينما كانت حكومات الدول المستهلكة للبترول تحصل على ٤,٦٥ دولار أو ما يعادل ٧٧٪.

فلما استردت الدول المصدرة للبترول، في ظل حرب أكتوبر ١٩٧٣، حريتها في تحديد الإنتاج والأسعار، تحول توزيع الريع البترولي إلى صالحها وبلغ ذروته في عام ١٩٨٠ عندما بلغ سعر البرميل للمستهلك النهائي نحو ٦٥ دولارا في المجموعة الأوروبية. وقد وزع هذا السعر بحيث حصلت الشركات الوسيطة على نحو ١٢ دولارا (أي ١٩٪) وحصلت الدول المصدرة على نحو ٣٤ دولارا للبرميل (أي ٥٢٪) بينما لم تتجاوز ضرائب الحكومات الأوروبية ١٩ دولارا (أي ٢٩٪) حيث اضطرت لخفض معدل ضرائبها إزاء الموقف التفاوضي القوى الذي كانت دول أوبك ما زالت تتمتع به في ظل انتصارات أكتوبر.

غير أن أسعار البترول الخام لم تلبث أن أخذت في التآكل خلال النصف الأول من الثمانينيات ثم انهارت من نحو ٢٨ دولارا في ١٩٨٥ إلى نحو ١٣ دولارا عام ١٩٨٦، عندئذ لم تسمح الدول الأوروبية بانتقال الانخفاض إلى المستهلك النهائي، مما كان سينعكس أثره في زيادة الطلب على البترول، بل سارعت إلى زيادة ضرائبها البترولية عاما بعد آخر بحيث ارتفعت من نحو ٢٢,٥٠ دولار عام ١٩٨٥ إلى نحو ٦٨ دولارا خلال عام ١٩٩٩ وتجاوز السعر للمستهلك النهائي في أوروبا مستوى المائة دولار. ويأتي مشروع الاتحاد الأوروبي لفرض ضريبة الكربون بحجة حماية البيئة كعبء إضافي على هيكل الضرائب البترولية. بل إن بعض الدول الأوروبية مثل ألمانيا بدأت بالفعل تفرض هذا النوع من الضرائب واستخدمت حصيلته في أغراض لا علاقة لها بحماية البيئة مثل إعانات البطالة أو خفض الضرائب على محدودي الدخل.

أما سعر البترول (معبرا عنه بسلة أوبك) فقد استمر في التآكل بحيث انخفض من ١٨,٦٢ دولار عام ١٩٩١ إلى ١٥,٥٣ دولارا عام ١٩٩٤ وبلغ أدناه عند ١٢,٢٨ دولارا عام ١٩٩٨ حيث منيت أوبك بخسائر بلغت نحو ٥٦ مليار دولار كما ذكرنا.

وقد استمر السعر متدنيا خلال الربع الأول من ١٩٩٩ وانخفض أحيانا إلى أقل من عشرة دولارات مما دفع دول أوبك الى خفض الإنتاج منذ مارس ١٩٩٩، وساندتها في ذلك دول غير أعضاء في المنظمة مثل المكسيك وعمان وروسيا والنرويج، فارتفع السعر إلى ١٨ دولارا في يوليو ١٩٩٩ وتراوح حول ٢٤ دولارا خلال الربع الأخير والشهور الخمسة الأولى من ٢٠٠٠. بذلك سجل السعر ١٨ دولارا كمتوسط عام ١٩٩٩. وحتى بعد أن قفز السعر إلى ٢٩ دولارا منذ يونيو ٢٠٠٠ فانه لم يتجاوز ٢٧ دولارا في المتوسط خلال الأشهر التسعة التي انقضت من عام ٢٠٠٠.

وإذ تعتبر المجموعة الصناعية الغربية الشريك التجاري الرئيسي في مبادلة البترول بالسلع التي تصدرها تلك المجموعة إلى دول أوبك، فإن تطور الأسعار في الجانبين يمكن أن يعبر عن القيمة الحقيقية لسعر البترول. وبعبارة أخرى فإن استبعاد أثر التضخم وأثر تقلبات سعر صرف الدولار الذي يستخدم للتعبير عن سعر البترول يمكن أن يكشف عن تطور القيمة الحقيقية لأسعار البترول. وباستخدام ١٩٧٣ كسنة الأساس، فقد استمر تآكل سعر البترول في صورته الحقيقية، إذ أخذ في التراجع بعد أن بلغ ذروته عام ١٩٨١ عند ١٦,٣٩ دولار للبرميل (بدولارات ١٩٧٣) لكي يبلغ ١٥,١٨ دولار عام ١٩٨٥ قبل أن ينهار في عام ١٩٨٦ إلى نحو ٦ ستة دولارات. ولم يتجاوز سعر البترول في صورته الحقيقية (أي بعد استبعاد أثر التضخم وتقلبات سعر الصرف) مستوى أربعة دولارات على مدى الجانب الأكبر من عقد التسعينيات.



في ضوء هذه الخلفية، يصح التساؤل: ما الذي حدث منذ مطلع عام ٢٠٠٠ وما زال يحدث للآن في السوق العالمية للبترول؟

والإجابة ببساطة أن العوامل الأساسية التي تحكم تلك السوق وأدت إلى انهيار السعر عام ١٩٩٨ عادت إلى التوازن عام ١٩٩٩ ثم تحولت إلى الاتجاه العكسي عام ٢٠٠٠ وزاد عليها بعض التعقيدات الفنية. وهذا ما نلخصه في النقاط التالية:

(١) انعكس في عام ١٩٩٩ نمط العرض والطلب الذي ساد منذ منتصف ١٩٩٧ وساد خلال ١٩٩٨. فقد بلغ فائض الإنتاج العالمي الذي لم يستوعبه الاستهلاك نحو نصف مليون ب/ى عام ١٩٩٧ ونحو مليون ونصف مليون ب/ى عام ١٩٩٨ مما تسبب في الضغط نزوليا على السعر كما ذكرنا.

أما في عام ١٩٩٩ فقد انخفض الإنتاج العالمي من البترول بنحو مليون ونصف



الرسمان المرافقان لهذا المقال سبق نشرهما في «وجهات نظر».. ونعيد نشرهما هنا.. لأنه لا شيء يتغير!!





مليون ب/ى تحت مستواه فى عام ١٩٩٨ بينما تجاوز الاستهلاك العالمى مستوى عام ١٩٩٨ بنحو ١.٣ مليون ب/ى.

وقد أدت النتيجة المزدوجة عام ١٩٩٩، وهى انخفاض الإنتاج بنحو ٢.٢٪ وارتفاع الاستهلاك بنحو ١.٦٪ إلى الضغط على الأسعار صعودا فحقق السعر نحو ١٨ دولارا للبرميل فى المتوسط خلال ١٩٩٩.

(٢) يرجع انخفاض الانتاج العالمى عام ١٩٩٩ فى جانب منه إلى ما قررته أوبك منذ مارس ١٩٩٩، بمساندة دول أخرى، من تحجيم إنتاجها لامتصاص الفائض الضاغط نزوليا على الأسعار. كما يرجع الانخفاض فى جانب آخر إلى انخفاض بنحو ٠.٤٤ مليون ب/ى فى إنتاج مجموعة الدول الصناعية الغربية وبصفة خاصة الولايات المتحدة التى أخذ إنتاجها فى الانكماش المطرد خلال الأعوام الأخيرة وبلغ الانخفاض عام ١٩٩٩ نحو ٢٥٠ ألف ب/ى.

(٣) أما انتعاش الطلب العالمى على البترول خلال ١٩٩٩ فيرجع إلى الانتعاش الاقتصادى الذى ساد مجموعة الدول الصناعية الغربية OECD والتى يبلغ نصيبها من الاستهلاك العالمى للبترول نحو ٦٣٪ (منها نحو ٢٦٪ للولايات المتحدة). وقد ارتفع استهلاك تلك المجموعة فى العام المذكور بنحو ٦٧٥ ألف ب/ى بلغ نصيب الولايات المتحدة منها نحو ٤٦٠ ألف ب/ى، وبذلك يبلغ الأثر المزدوج للولايات المتحدة الضاغط فى اتجاه ارتفاع الأسعار (انخفاض إنتاج وزيادة استهلاك) نحو ٧١٠ آلاف ب/ى.

كذلك يعزى النمو الذى طرأ على الاستهلاك العالمى من البترول عام ١٩٩٩ فى جانب منه إلى الانتعاش غير المتوقع الذى طرأ على اقتصاديات دول جنوب شرق آسيا والتى يبلغ حجم استهلاكها نحو ١٩٪ من الاستهلاك العالمى (بعد استبعاد نصيب اليابان الذى يدخل فى المجموعة الصناعية الغربية). فبعد أن انكمش استهلاك دول المنطقة من البترول بنحو ٤٢٠ ألف ب/ى عام ١٩٩٨ بدلا من زيادة بنحو ٧٠٠ ألف ب/ى كانت متوقعة قبل الأزمة التى أصابتها، وبعد أن كان المتوقع أن تمتد تلك الأزمة لسنوات عديدة، عادت المنطقة إلى الانتعاش مسرعة لكى يرتفع استهلاكها من البترول بنحو ٦٢٠ ألف ب/ى خلال ١٩٩٩.

(٤) يأتى بعد ذلك من العوامل الأساسية الحاكمة فى السوق العالمية للبترول، دور المخزون العالمى والذى يتم عن طريقه معالجة الاختلال الذى قد ينشأ بين العرض والطلب بالسحب منه أو الاضافة إليه. وتخضع حركة هذا المخزون لنمط شبه منتظم إذ يتذبذب الطلب العالمى على البترول مع اختلاف فصول العام، وتتسع فجوة التقلب لتبلغ أحيانا نحو ثلاثة ملايين ب/ى بين فصل وآخر.

وتعتبر حركة المخزون التجارى فى الدول الصناعية الغربية، والذى تديره شركاتها البترولية العملاقة، من أهم عناصر المخزون العالمى إذ يقرب حجمه من أربعة أمثال نظيره فى باقى العالم. ويعتبر الاختلال الذى قد يطرأ على هذا المخزون الغربى نذيرا باضطراب السوق البترولية. ومن ذلك ما حدث خلال السنوات القليلة الماضية إذ انخفض عدد الأيام التى يغطيها ذلك المخزون من نحو ٦٢ يوما خلال ١٩٩٥ إلى نحو ٥٧ يوما خلال ١٩٩٦ وانخفض ما يغطى منه الطوارىء من ١٢ يوما إلى نحو ٧ أيام. عندئذ أحست الصناعة بالمستوى الحرج الذى تدنى إليه المخزون، فاندفعت الشركات فى محاولة لاستعادته إلى مستوى مريح. ومن ثم تحرك السعر من نحو ١٩ دولارا خلال صيف ١٩٩٦ ليبلغ ذروته فى يناير ١٩٩٧ عند ٢٤ دولارا.

فماذا أصاب مخزون الدول الصناعية الغربية فى الآونة الأخيرة ؟

حافظ على مستوى ٥٧ يوما حتى نهاية الربع الثالث من عام ١٩٩٩ ثم أخذ فى التقلص إلى مستوى ٥٢ يوما خلال الربع الأخير والنصف الأول من ٢٠٠٠، كما تقلص مخزون الطوارىء من مستوى ١٢ يوما خلال الأرباع الثلاثة الأولى من ١٩٩٩ إلى مستوى ٧ أيام خلال الربع الأخير والنصف الأول من ٢٠٠٠.

يضاف إلى عوامل الضغط فى اتجاه ارتفاع الأسعار ما لجأت إليه المجموعة الصناعية الغربية من محاولة لإعادة بناء مخزونها بمعدل ١,١٢ مليون ب/ى خلال الربع الثانى وبمعدل ٦٥٠ ألف ب/ى تقريبا خلال الربع الثالث من ٢٠٠٠. ومعنى ذلك أن الجانب الأكبر من الزيادة التى تضخها أوبك فى الأسواق لا يذهب إلى الاستهلاك المباشر وتخفيف الضغط على الأسعار بل يتجه إلى التخزين ولا ينتظر أن ينعكس أثره على الأسعار إلا فى ضوء ما يتحقق من درجة البرودة خلال الشتاء القادم.

فى ضوء ما تقدم نستطيع فهم حقيقة ما يهدد به الرئيس كلينتون من إطلاق جانب من المخزون الاستراتيجى لتخفيف توترات السوق البترولية، إذ الواقع أن إطلاق ذلك المخزون يمكن أن يؤدى إلى زيادة حدة التوترات بدلا من تخفيفها. وقد سبق أن نوقشت تلك السياسة باستفاضة أثناء أزمة الخليج واستبعد هذا الخيار من جانب الدول الصناعية الغربية على هذا الأساس. وحتى لو اقدم كلينتون على تنفيذ تهديده، فإننا لا نتوقع انخفاض السعر فى المدى القصير بدرجة كبيرة. أو على الأقل ليس قبل انقضاء فصل الشتاء.

(٥) تمارس المضاربة على البترول التى ظهرت منذ منتصف الثمانينيات فيما يعرف بالأسواق المستقبلية Futures markets دورا فعالا فى تذبذب أسعار البترول، حيث اقترن ظهورها ونموها مع اتساع ما يعرف بالسوق الفورية Spot markets عقب انهيار الأسعار من نحو ٢٨ دولارا عام ١٩٨٥ إلى نحو ١٣ دولارا عام ١٩٨٦ حيث ظلت تتراوح حول مستوى ١٦ـ١٨ دولارا منذ ذلك التاريخ.

والأصل فى الأسواق المستقبلية أنها تتناول السلع التى يخضع عرضها لتقلبات يصعب التنبؤ بها مثل المنتجات الزراعية التى تتأثر بعوامل غير متوقعة كتقلبات المناخ. وتحقق تلك الأسواق لمن يشترى السلعة بعقد آجل التحوط ضد مخاطر تغير السعر فى المستقبل Hedging، إذ تؤمن احتياجاته المستقبلية من السلعة بسعر يتفق عليه قبل حلول موعد استلامها بفترة زمنية معينة ودون حاجة لاستلامها عند إبرام العقد وتخزينها إلى وقت الحاجة إليها. كذلك تحقق تلك الأسواق للبائع تحوطا مماثلا بتامين سعر للبيع لا يخضع للتغير الذى يمكن أن يحدث مستقبلا عند تسليم السلعة. وكانت أسعار البترول تتمتع بقدر كبير من الاستقرار عندما كانت تتحدد بقرار من أوبك إلى أن تخلت المنظمة فى منتصف الثمانينيات عن نظام تحديد أسعار رسمية وصارت تكتفى بتحديد سقف الإنتاج مع ترك الأسعار لقوى السوق. وكان المفروض أن يقتصر التعامل فى الاسواق المستقبلية على من يبيع ويشترى البترول الحقيقى. غير أن التعامل فى الأسواق المستقبلية لم يعد يقتصر على من يتعامل فى البترول ويعرف اصطلاحا «بالمضارب التجارى» Commercial speculator، إذ أخذ فريق من المضاربين يتعامل فى تلك الأسواق بهدف تحقيق الربح بالمراهنة على سلامة تنبؤاتهم لحركة أسعار البترول. كذلك دخلها لنفس الغرض العديد من شركات البترول العالمية، والتى وقفت منها فى البداية موقف المتردد. ويطلق على من يضارب لمجرد تحقيق الربح «المضارب غير التجارى» Non-commercial speculator. كذلك يطلق على الأموال المستثمرة فى العمليات غير التجارية «أرصدة» Funds. ومن هنا توسعت المضاربة على أسعار البترول بحيث صارت تتم على مدار الساعة باستخدام شاشات الكمبيوتر فى أهم ثلاث أسواق (بورصات) وهى اسواق نيويورك ولندن وسنغافورة، كما يتم فيها من التعامل اليومى على ما يسمى بالبراميل الورقية Paper barrels ما يزيد عدة مرات على حجم التعامل فى براميل البترول السائل Wet barrel. ويطلق على من يقوم بالشراء فى المستقبليات أنه يحتفظ بموقف «طويل» Long position. أما من يقوم بالبيع فيحتفظ بموقف «قصير» Short position. وبالرغم من أن المتداول فى ظل العقود الآجلة لا يعدو أن يكون براميل ورقية إلا أن حركة البيع والشراء يكون لها

من دراسة حديثة لمنظمة أوبك يستخلص أن معدل الضرائب التى تحصل عليها الدول الأوروبية مجتمعة يبلغ نحو ٦٨٪ من السعر النهائى للمستهلك الأوروبى والذى يزيد قليلا على المائة دولار، بينما يبلغ ما تحصل عليه الشركات الوسيطة لتغطية نفقاتها وأرباحها نحو ١٦٪، وتحصل على مثلها دول أوبك بما فى ذلك التكلفة الفعلية التى تتحملها لإنتاج البترول



نفس الأثر المترتب على البيع والشراء فى أسواق البترول الحقيقى.



دروس مستفادة:

أخيرا لا يفوتنا أن نستخلص مما تقدم دروسا ينبغى أن تعيها الدول المصدرة للبترول، وخاصة المجموعة العربية التى سوف يزداد الضغط عليها لسد احتياجات العالم المتزايدة من الطاقة.

(١) فالضغوط التى تمارسها الدول الصناعية الغربية بقصد إرغام أوبك على زيادة الانتاج لتلبية احتياجاتها البترولية وبأسعار متدنية لا يصح أن تمر دون استخلاص مدلولها بالنسبة للمستقبل المنظور. ذلك لأن إلزام دول أوبك القيام بدور المنتج المكمل، أى إلزامها بسد الفجوة بين إنتاج البترول خارجها وبين الاحتياجات العالمية، سوف يعجل بنضوب احتياطيات تلك الدول. وفى داخل أوبك لا يوجد سوى ست دول ممن تسمح احتياطياتها بالتوسع استجابة لاحتياجات العالم والتى يتوقع أن تنمو بمعدل ١,٨٪ سنويا فى المتوسط لكى تبلغ نحو ٩٤ مليون ب/ى عام ٢٠١٠ ونحو ١١٣ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. وهذه الدول الست هى السعودية والعراق والإمارات والكويت وإيران فى منطقة الخليج ثم فنزويلا. ويتوقع وفقا للدوائر الغربية أن يرتفع إنتاج تلك الدول الست من نحو ٢٤ مليون ب/ى عام ١٩٩٦ لكى يبلغ نحو ٣٣ مليون ب/ى عام ٢٠١٠

إن خسائر مصدرى البترول قد بلغت فى العام المذكور نحو ١١٠ مليار دولار استفاد منها الاقتصاد الغربى بما لا يقل عن ٨٠ مليار دولار عبر وارداته البترولية التى تمثل نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية

ونحو ٥٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. أما باقى منابع البترول فى العالم، بما فى ذلك باقى أعضاء أوبك، فمن المتوقع أن تبلغ طاقتها القصوى عند حدود الفرق بين احتياجات العالم وبين ما سوف يطلب من الدول الست الرئيسية التوسع لإنتاجه.

(٢) كما أوضحنا من قبل، فقد انهارت أسعار البترول من حيث قيمتها الحقيقية خلال عقد التسعينيات إلى مستوى أربعة دولارات للبرميل بدولارات عام ١٩٧٣ وهو ما يزيد قليلا على مستواه قبيل حرب أكتوبر (٣ دولارات). وتمارس الدول الصناعية الغربية الآن ضغوطها لكى تلزم أوبك بعدم تجاوز السعر حدا أقصى طبقا لما أطلق عليه آلية ضبط الأسعار. وقد حدد هذا السعر بنحو ٢٨ دولارا للبرميل وهو ما يتراوح بين ٦ و ٧ دولارات بدولارات عام ١٩٧٣. ووجه التناقض فى موقف الدول الصناعية الغربية أنها سبق أن اتهمت أوبك بأنها تكتل احتكارى يستهدف رفع الأسعار فوق معدلها «الطبيعى» بالمخالفة لقواعد جات مما يعرقل حرية التجارة. وبالفعل قام الكونجرس بمعاقبة بعض دول أوبك بحرمانها من نظام الأفضليات المعمم الذى يوفر معاملة تفضيلية للدول النامية وفقا لأحكام جات. وكان هذا الاتهام أحد أسباب خروج أوبك على نظام تحديد سعر البترول وتركه لقوى السوق والمنافسة مما أدى إلى تدهوره على نحو ما سبق شرحه. والآن، عندما عملت قوى السوق فى غير صالح الدول الصناعية الغربية، تتحول تلك الدول عن مبادىء حرية التجارة التى تنادى بها لكى تلزم أوبك بالا يتخطى سعر البترول حدودا معينة.

كذلك تتغافل حكومات الدول الصناعية الغربية عن الدور الذى تلعبه الضرائب الباهظة التى تفرضها على استهلاك المنتجات البترولية وتؤدى من جانب إلى تقييد الاستهلاك ومن ثم حرية التجارة فى البترول، كما تؤدى من ناحية ثانية إلى الحيلولة دون وصول أى انخفاض فى أسعار البترول الخام إلى المستهلك النهائى، وتعمل، من ناحية ثالثة، على حرمان الدول المصدرة للبترول من نصيبها العادل من الريع البترولى.

(٣) والسؤال الآن: هل سيكون الضغط الواقع على دول أوبك لزيادة انتاجها فى مصلحتها حقيقة، وهل تستطيع تلك الدول إذا قبلت تلبية المطالب المتزايدة من بترولها أن تحصل على سعر حقيقى عادل يعوض القيمة الحقيقية للثروة البترولية الناضبة، أم أن ذلك الضغط سوف يكرس توظيف تلك الثروة فى خدمة اقتصاديات الدول الصناعية الغربية التى تستورد نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية.

وبديهى أن تلك الدول لن يفوتها استخدام وتحريض الدول النامية ضد أوبك بدعوى أن ارتفاع أسعار البترول يعرقل جهود التنمية فى تلك الدول ويصيبها بالتضخم.

(٤) ومن الدروس المستفادة ما يتصل بالمدى القصير. فالحركة النشيطة لتخزين البترول التى بدأت خلال الربع الثانى من العام الحالى ٢٠٠٠، يمكن أن تحول دون بلوغ الزيادة التى تضخها أوبك للمستهلك النهائى، ومن ثم يظل الضغط الصعودى على الأسعار سائدا لفترة أطول. ولقد حدث مثل ذلك فى مناسبات عديدة وكان أشهرها التخزين الجبار الذى لجأت إليه الدول الصناعية الغربية أعضاء وكالة الطاقة الدولية عام ١٩٧٩ وكان من نتائجه الضغط على الأسعار نزوليا خلال النصف الأول من عقد الثمانينيات ثم انهيارها عام ١٩٨٦ إلى أقل من النصف كما ذكرنا. ■

شامبليون ومصر

كيف تحول الولع بمصر إلى علم على يديه؟

يوسف القعيد

«الولع بمصر حتى الجنون أو الموت» عبارة تصلح عنوانا لهذه الحكاية بكل أطرافها ابتداء من مؤلف الكتاب الأول: جان لاكوتير عاشق مصر عاش فيها في زمن صعود يوليو وعرف عبدالناصر عن قرب. وألف عن مصر ثلاثة كتب سواء بمفرده أو بالمشاركة مع زوجته سيمون لاكوتير ويتردد على مصر مرة كل سنة على الأقل. وحبة لمصر قبل حبه لشامبليون كان دافعه لتدوين هذا الكتاب الضخم الذى إن قرأته على أنه قصة ستجد فيه تشويقا ينافس الروايات البوليسية. وإن نظرت له على أنه شعر ستجد ملحمة بديعة تسابق الخيال الشعبى فى حب مصر. ذلك الحب الذى لا نسأل القلب عن أسبابه عادة.

أما جان فرانسوا شامبليون فهو العاشق المتيم لمصر وبمصر، أخرج بحبه آلاف السنوات من تاريخ مصر من الصمت والظلام. جعلها تنطق وتحكى وتقول للمصريين كل ما كان وما جرى. بعد قرون من الصمت. لقد استنطق شامبليون التاريخ. وبفضل اكتشافه العبقرى عادت مصر تتحدث عن نفسها. تنظر لماضيها بزهو وفرح ووصل ما انقطع فى تاريخها. الذى دام أكثر من سبعة عشر قرنا توصل شامبليون إلى اكتشافه فى زمن محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة والذى سنقابله - بعد قليل أو كثير - باعتباره أحد أبطال قصتنا الراهنة. وهذا يجعل من اكتشاف شامبليون محاولة لوصل مجد الماضى بعز الحاضر حتى تنهض مصر من جديد. وهذا الحاضر كان زمن حكم محمد على لمصر.

إن عظمة شامبليون - يقول لاكوتير - لا تكمن فى أنه نصب من نفسه صانعاً للمعجزات ولكن فى أنه عرف كيف يجمع ومضات النور. التى كانت تظهر وتختفى خلال الليل ويجمع شملها لتصبح كشفا وفى أنه كان يجمع فى شخصه المكتشف الرائد. والوارث لأعمال أسلافه. هناك من حاول قبله. ولم تثمر هذه المحاولات سوى جسور ضعيفة ورخوة ومهزوزة لأنهم كانوا يعملون فى الظلام.

بالنسبة لى شخصيا. فإن شامبليون صاحب أعظم مشروع فى القرن التاسع عشر مع أنه لم يكمل من سنوات عمره سوى اثنين وأربعين عاما وشهرين ونصف فقط. ان حجم الانجاز وعمقه كان يتطلب من أى إنسان قرناً من العمل. فما بالك بمن لم يتعد العامين بعد الأربعين فقط إن درس حكاية شامبليون بالنسبة لى هو أن إنجاز الإنسان لا علاقة له بعمره أبداً.

سأبدا من شامبليون وسأنتهى به، سموه الصغير تمييزا له عن شقيقه الاكبر وقالوا عنه المصرى الشرقى والعربى وقد أطلق أسماء مصرية على ابنته وابن شقيقه.

والده كان صاحب مكتبة كتب قديمة . يحصل عليها من البلدان المجاورة ويعرضها للبيع وهى مهنة يمكن أن ينمو فى ظلها عاشق للغة ومحب للتاريخ وصاحب خيال يوصل صاحبه إلى مكان بعيد وزمان أبعد.

كان والده يمتلك قطعة من الأرض والمكتبة والمنزل الذى تعيش فيه الأسرة، كان رجلا مرحاً رجل أعمال ناجح وإن كان لم يتم العثور على أى صورة له أو لزوجته فإن المؤلف يعتمد على عقد زواجهما المؤرخ فى ٢٣ يناير ١٧٧٣ بين جاك شامبليون التاجر وفرانسوا جاليو الابنة الطبيعية والشرعية لجاك جاليو التاجر ولم يكن العقد موقعا من الزوجة لانها لم تكن تعرف كيف تفعل هذا.. كانت أمية.

أنجبت الزوجة لزوجها خمسة من الأبناء ثلاثا من البنات وولدين جاك جوزيف ونقدمه على الآخرين لأهميته من حياة بطل قصتنا - ولد فى اكتوبر ١٧٧٨ وهو سيعد لاحقاً الأخ الأكبر والوالد والمشرف ورجل أعمال شقيقه وكانت تيريز قد ولدت ١٧٧٤ وبترونيل سنة ١٧٧٦ وجان مارى ١٧٨٢ وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ احتفل آل شامبليون بآخر العنقود جان فرانسوا الذى سيخلد اسم آل شامبليون فى كتب التاريخ. ولد الطفل فى حالة صحية جيدة بشرته سمراء وذلك فى المنزل الكائن بحارة لابود سكورى وصدرت شهادة تعميده فى نفس يوم مولده من كنيسة نوتردام روبوى.

ولد شامبليون الصغير والثورة الفرنسية لها دوى فى كل مكان حولها أصداؤها مسموعة بقوة. بل إن المكان الذى كان يلعب فيه الطفل كانت مقصلة الثورة الفرنسية منصوبة فيه وعندما اقتلعت زرعت مكانها شجرة الحرية التى كانت تقام احتفالات الثورة الصاخبة حولها.



ورغم نبوغ الطفل المبكر ومايملكه من إمكانيات ذهنية غير عادية فلم يكن والده معنيا بتعليمه، ومن مواجهة هذا حاول الاهتداء إلى وسيلة يخترق بها أسرار الكتب وكان شقيقه الذى يكبره باثنى عشر عاما قد اهتم بقضية تعليمه عندما أدرك أن والده غير معنى بها.

عندما كان الطفل فى التاسعة كان قد تحصل على مبادىء راسخة فى اللاتينية والإغريقية والعبرية بالإضافة إلى التاريخ الطبيعى والفلك. وفى العاشرة سافر إلى ليون ومنها إلى جرونوبل حتى يكون مع شقيقه. كانت صورته فى هذه السن هكذا:

صبى متوهج المزاج حاد فى تحركاته وتلقائى فى اندفاعه وسريع فى ردود أفعاله، لون بشرته بنى غامق مائل إلى الزيتونى صعيدى دمه ساخن.

يسجل كل من رآه موهبته الأولى فى إدراكه للغات والميل إلى الرسم وستصبح موهبته حاسمة فى حبه للحروف ومن كثرة المرات التى أعاد بها نسخ الحروف الهيروغليفية باعتناء كبير ورقة متزايدة سينجح فى التعود على هذه الرموز السحرية والسرية ثم التغلب عليها وترويضها.

قال جان كوكتو: الموهبة تفعل ما تريد أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها فعله. وكان شامبليون موهوبا وعبقريا فى وقت واحد.

إن كان شغف الصبى باللغات قد قاده إلى الهيروغليفية فإن هناك من الخيوط المبكرة فى حياته ماربطه بمصير شقيقه الأكبر يقول: إذا كنت قد ندمت على شىء فهو أنى لم أنضم إلى الحملة الفرنسية على مصر وإن كان شقيقه الأكبر لم يذهب فإن ابن عمه النقيب أندريه شامبليون يذهب فى هذه الحملة ويكتب رسالة لشقيق له وهو على متن السفينةالمسافرة وإن كان لا يعرف أين.

بعد ذلك بسنوات طويلة سيجد كاتب سيرة جاك جوزيف شقيق الصبى الأكبر مذكرات أخفاها يذكر فيها أن الرجال الـ ٣٦٠,٠٠٠ الذين عملوا لمدة عشرين عاما فى بناء الأهرام استهلكوا مايوازى ٣٦٦,٠٠٠ أكوا «من عملة الامبراطورية الأولى» من الثوم والبصل والفجل وهكذا وصل الاهتمام بمصر عند الشقيق الأكبر إلى الناحية التجارية وما تناوله بناة الأهرام من الأطعمة.

إن كان بطل حكايتنا اسمه جان فرانسوا ويقولون عنه الصغير تمييزا له عن شقيقه الأكبر واسمه جاك جوزيف واسم عائلتهما معا هو شامبليون لكن العلاقة بينهما ستصبح - فيما بعد - شديدة التعقيد وستظل هكذا حتى النهاية. بدون الأخ الأكبر كان الأصغر سيصبح باحثا مغمورا يموت من الغضب من كبت عبقريته وبدون الأصغر فإن الأكبر كان مهددًا بأن تسير حياته العملية فى الجامعات ويكون له حضور اجتماعى فى الدعوات ويسرى عن الحضور بثقافة صالونات سيدات المجتمع.. ولكن تحالف الشقيقين سمح لهما باجتياز العواصف والوصول إلى القمة والاحتفاظ لها. وإن كان صاحب القمة هو الصغير والذى يقف عليها فى ظله هو الكبير.

منذ أن استقر الأصغر مع الأكبر فى جرونوبل والأخير يتولى الأول فى كافة الأمور ورسائل جاك إلى والده تؤكد هذا، فهو يدرس له بنفسه ويحضر له المدرسين ويلحقه بالمدارس، كان يراهن على مستقبل شقيقه الأصغر.

وجان فرانسوا عمره الآن اثنا عشر عاما وقد لفت الأنظار إليه حماسه لدراسة اللغات ثم دفنها فى الذاكرة الإنسانية ووجد فى هذه الدراسة المملة بالنسبة لأى صبى آخر لذة حقيقية، كان يتسلى بفك شفرة هذه الاكتشافات وكان يتجول فى يسر داخل القواميس وكتب قواعد اللغات الأكثر صعوبة للفهم. إن كل هذه علامات للعبقرية وهذا معناه أن جاك فرانسوا عندما وجد نفسه فى مواجهة حجر رشيد بعد ذلك بسنوات كان قد أعد نفسه لتلك المهمة من قبل ولم يبدأ الأمر من لحظة اللقاء مع مستنسخات حجر رشيد.

فى فترة مبكرة من عمره - فى الرابعة عشرة - أدرك جان فرانسوا شامبليون أن اللغة القبطية هى الجسر الذى لا غنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتى تأثرت بدورها باللغة اليونانية التى تحدث بها قدماء المصريين. إن الشراهة الاستشراقية للشاب المراهق قد مرت بثلاث مراحل محور مصرى أولا، ثم محور قبطى، ثم محور هيروغليفى ثالث.

قال جان كوكتو:
الموهبة - تفعل ما تريد،
أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها فعله.
وكان شامبليون
موهوبا وعبقريا
فى وقت واحد

شامبليون: رجل من نور
تاليف: جان لاكوتير
ترجمة وتقديم وتعليق: نبيل سعد
المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة

شامبليون فى مصر
الرسائل والمذكرات
ترجمة: عماد عدلى
مراجعة: د. طاهر عبدالحكيم
دار الفكر للدراسات والنشر - القاهرة، ١٩٩١

وجـــــــدي رشــــــــيد



يكتب رسالة مهمة لأخيه:

إنك تسعى لإدخالي كلية تدرس فيها اليونانية والعبرية والعربية والكالدية والسيريانية. إن انخراطي في المدرسة الخاصة باللغات الشرقية سيتيح لي أن أقبل في المكتبة الامبراطورية إذ سأتمكن من التفرغ التام لدراسة العربية والسيريانية والعبرية والكالدية والفارسية.

لا يكتب مثل هذا الكلام في هذه السن سوى إنسان عنده مشروع عملاق.

١٩ يونيو ١٨٠٧ يحمل للشقيقين حادثا يعكر صفو حياتهما وفاة الأم، ماتت عن ستة وثلاثين عاما وهو عمر صغير وابنها جان فرانسوا سيموت بعد ذلك في سن صغيرة أيضا.

يصل الشاب إلى باريس لأول مرة وعمره ستة عشر عاماً وتسعة شهور، قوى البنيان سريع الحركة تعوزه الرشاقة.

وصوله إلى باريس كان في يوم ١٣ سبتمبر ١٨٠٧ وهو اليوم الذي انتصر فيه محمد على باشا الكبير والي مصر على الإنجليز بقيادة فريزر. محمد على سيقابل شامبليون بعد ذلك عندما سيزور مصر وسيقدم له الخدمات التي يطلبها تسهيلا لمهمته العلمية النبيلة ولأن خيوط الأحداث تتشابك وتتلاقى وتتباعد وفق قانون لانعرفه بعد هذا التاريخ بأسبوع سيعود شاتوبريان من الشرق حيث حاول أن يقيس عبقريته الشخصية بعبقرية الفراعنة الذين شيدوا الأعمال العظيمة.

يواصل جان فرانسوا تقدمه في حقول اللغة يكتب رسالة لشقيقه الأكبر:

أصبحت أصرف في الحديث بالعربية فاصرف الأفعال وأترجم حوارات.

إنه يضع لمساته الأخيرة على كتابه عن جغرافية مصر، رسالة الحب الأولى للمصريين ويواصل أبحاثه في الموسيقى الكالدية والسريانية لصالح أحد الجنرالات المهتمين بالثقافة ويكتب بعض المقالات للصحف، ويزور كنيسة سان روش لأسباب لا علاقة لها بالتدين ولكن ليقابل القسيس المصري الشفتيشي ليزيد من امتلاكه للغة القبطية. جان فرانسوا يتقدم في مشروعه وإن كان لا يبدو سعيدا في باريس:

أشعر باحتقار يختلط به الكره نحو عاصمة فرنسا القذرة. ماذا يمكن أن أفعل وسط هؤلاء الأدباء مصاصي الدماء؟ وفي هذه الأوكار المثيرة للغثيان.

ويصل به الأمر إلى اليأس من العلم ومستقبل العلماء.

ويكتب لأخيه:

أفضل ما يمكن عمله هو أن تبحث لي عن وظيفة مناسبة في أي مكان تراه.

حتى أنه يعيد النظر في مشروع عمره الأول وهو السفر إلى الشرق ولكن السفر إلى مصر: كان قصة أخرى:

هناك أسباب وجيهة جعلت حماسي للسفر إلى الشرق يفتر بعض الشيء، إلا أن هذا لا ينسحب على مصر. فعلى الرغم من أن حالتها أكثر أسى وبؤسا من حقول القسطنطينية وطروادة إلا أن لها في نظري من إغراءات قوية لدرجة تجعلني أتحدى الصعاب.

إنها مصر.

فى فترة مبكرة من عمره. فى الرابعة عشرة. أدرك جان فرانسوا شامبليون أن اللغة القبطية هى الجسر الذى لا غنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتى تأثرت بدورها باللغة اليونانية التى تحدث بها قدماء المصريين

نحن الآن على مشارف حجر رشيد حيث وضع الأب دوتيير سان تحت تصرف جان فرانسوا نسخة منه ويكتب فى ١٥ أغسطس ١٨٠٨ رسالة لأخيه يشرح فيها خطته الكاملة لدراسة البرديات. وتبدو الرسالة القريبة من الشعر كما لو كانت افتتاحية أوبرا، وحتى نعرف أثر هذه الرسالة نقرأ رد أخيه عليها:

إن مشروعك يتطلب اعتباره أن أشهر مثقفى أوروبا سيشعر بالزهو بمثل هذا الاكتشاف، ولذا يتحتم عليك الارتباط بهذا المشروع بدون رجعة.

وخلال صيف ١٨٠٨ تفرغ جان فرانسوا لدراسة اللغة القبطية الصعيدية مثلما ينطقها أهلها، وفى ١٨٠٩ يتفرغ لدراسة القبطية:

إنى متفرغ تماما للغة القبطية أود أن تكون درايتى بهذه اللغة كالفرنسية تماما، لأن عملى على البرديات سيقوم على أساسها. أنا لا أحلم إلا بالقبطى. أصبحت قبطيا لدرجة أننى أسلى نفسى بترجمة كل ما يخطر على بالى بالقبطية وأتحدث مع نفسى بالقبطية.

هل سمعت عن فرنسى يحلم بالقبطية؟! هل يمكن التحكم حتى فى لغة الأحلام؟! ولأن جان فرانسوا يدرس العبرية ضمن دراساته، كان من الطبيعى أن أبحث عن موقفه من اليهود. يكتب لاكوتير عن هذه المسألة الجوهرية:

ها هو فجأة يزيح اليهود إلى دور هامشى شاحب يصفهم بأنهم اليهود الجهلة المؤمنون بالخرافات والذين يدعون أن فى استطاعتهم ان ينافسوا حضارة أهل النيل. مناهض لليهود هو مناهضة فولتير لهم. هذا ما فعله شامبليون مع اليهود. ترى ماذا كان سيفعل لو عاصر الصهاينة بعد ذلك؟ إن رسائله ومذكراته التى سيدونها بعد ذلك لا تاتى على ذكرهم أبدا، كأنهم لا وجود لهم.

ويضغط جاك جوزيف على رئيس جامعة ليعين جان فرانسوا مساعد أستاذ للتاريخ القديم وكان التعيين بأثر رجعى اعتبارا من ٢٠ يوليو ١٨٠٩ وينجب الشقيق الأكبر وينجح فرانسوا فى إقناع أخيه أن يكون اسمه على. ويؤكد له أنه اسم أحد القديسين المسيحيين. ويعمل جان فرانسوا أستاذا فى سن العشرين وأمين مكتبة وصحفيا أيضا. وهكذا ينبت حزب كامل من الذين يحاربونه، أعداء النجاح، ومناهضى الناجحين الذين وجدوا فى كل زمان ومكان وإن كان لا يعبأ بهم ولا يتوقف حتى من أجل الرد عليهم.

فى نهاية أكتوبر ١٨١٤ ظهر له أخيرا كتاب مصر تحت حكم الفراعنة فى جزءين يكتب لصديقه أنه مسرور لأنه أنجب طفلين بدينين، قد تكون لهما بعض العيوب ولكنهما يعطيان على الأقل بعض الآمال. سيجنى المرء بعض ثمار عمله حتى لو كانت محاطة ببعض الأشواك.

إن جيبه خال ومرتبه الشهرى بسيط والمجتمع العلمى متخوف منه ونجاحه فى فك شفرة اللغة القديمة ليس بالوضوح الذى يدعيه. ووضعه فى الجامعة أصبح مهددا بسبب وصول أعدائه إلى السلطة. إنه الآن على تخوم اليأس، مع أن كل هذا يحدث له بعد صدور كتابه عن مصر.

فى العاشر من نوفمبر سنة ١٨١٥ يكتب جان فرانسوا لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لا يعتمد سوى على نسختين، واحدة منهما صنعت فى لندن وأنهما غير متطابقتين مما قد يضر بأبحاثه. وإذا تم عمل نسخة من قالب حجر رشيد الجميل لتوضع تحت تصرفه وتصرف مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر هدية لمحبى الآداب جديرة بالجدية والكرم، اللذين تتسم بهما الجمعية الملكية فى لندن.

وينتهى من اتمام مؤلفه المهم عن قاموس اللغة القبطية. وتقدر اللجنة العلمية أن العمل الذى انتهى منه جان فرانسوا شامبليون لا يرقى لأن يطبع على حساب الحكومة الفرنسية.

وهكذا يصبح الأستاذ الشاب صاحب رأس ساخن مع أنه واضح الرؤية. شهم إلى أقصى حد وإن كان ميالا إلى أن يكون عرضة للإحساس بالاضطهاد على طريقة روسو. ولبعض من التعصب العلمى وكذلك لشىء من الحماس مثل ساتندال.. هل كانت به أشياء من السذاجة؟ بالتأكيد. عنيف ؟! مؤكد.

لقد أثار غيرة العديد من الناس لأن نجاحه كان أسرع مما ينبغى!

ابتداء من ٢١ مارس ١٨١٦ يتم نفى الشقيقين بعيدا عن باريس بسبب نشاط سياسى معاد لمن يحكمون البلاد. هناك تقارير أمنية عنهما. ويكون النفى إلى موطنهما الأصلى فى وسط الأهل والأقارب. البعض يتصور أن فى الأمر مؤامرة لإبعاد الشقيقين شامبليون عن باريس.

قضى فى المنفى ١٨ شهرا من نهاية عام ١٨١٧ إلى خريف ١٨١٨ وإن كان قد استغل هذه الفترة فى المزيد من العمل. والعودة إلى نبعه الأول والبحث عن جذوره الأولى. وبسبب إرهاق العمل يبدأ المرض معه. كان يعانى نقصًا شديدًا فى الوزن وحالات من الاختناق ويعانى أزمات سعال طويلة مع ارتفاع مفاجىء فى درجات الحرارة.

هنا يصبح لكل شقيق طريقه الذى يختلف عن طريق الآخر. جاك جوزيف «الأكبر» يتمتع بحضور اجتماعى الذى هو مزيج من الوصولية وتقديم الخدمات والعاطفة الذى يجعله مخترعا لما نسميه اليوم فن العلاقات العامة.

أما جان فرانسوا فقد اكتشف أنه أضاع أربع سنوات من عمره أسير السياسة والتاريخ وأنهما قد استحوذا عليه تماما ثم جاء بعدهما: التعليم ثم ها هو فى سنة ١٨١٨ لا يستغنى عن أيهما ولكنه يديم نظره فى اللغز وذلك من أجل أن يحله.

ويكتب لأخيه فى هذه السنة الحاسمة من حياته:

يجب أن نركز تفكيرنا فى مستقبلنا الجسدى. أما المجد فيأتى عندما يريد. أما الشهرة فإننى أسخر منها بكل عواطفى. إنى لم أعرف حتى الآن، لا راحة الجسد ولا راحة الفكر ولاراحة القلب. هذا هو قدرى.

كتب هذا الخطاب بعد أن بلغ ثلثى عمره القصير. إنها وصية ثلثى العمر الأولى. كان فى الثامنة والعشرين من العمر. لم يبق من عمره سوى أربع عشرة سنة وسيتزوج بعد هذا التاريخ بستة شهور فقط.

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ يقرأ شامبليون أجزاء صغيرة من شرحه لحجر رشيد. ويوضح شرحه على صورة، رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول وحتى السطر الأخير من النص. إنها الشرارة الأولى نحو تأسيس علم: الايجيبتولوجى (المصريات القديمة) فى فرنسا، بل فى العالم كله.

فى ٣ ديسمبر ١٨١٨ تزوج جان فرانسوا من روز وكنيتها روزين بلان فى كاتدرائية جرونوبل. يقول معاصروه عنه إن نقطة ضعفه الأساسية كانت قلبه. فكل الذين أحبهم أصبحوا من أعدائه فيما بعد. يكتب لصديقته الإيطالية انبجيكا باللى:

فى بحثى عن السعادة أخطات مثل كثيرين غيرى. ويلخص موقفه بعد الزواج بعبقرية: تزوجت نعم. أحسست بالاستقرار. لا. إنه زواج تعس. أدى إلى المزيد من التدهور فى صحته. وزاد تكرار نوبات الدوخة والغثيان أكثر من ذى قبل. إنه فى الثلاثين من عمره. منهك قبل الأوان. تلاحقه الأمراض. وإن كان ينصرف بجلد يحسد عليه إلى بحثه جريا وراء أسرار مصر القديمة.

يمكن تقسيم البحث عن فك رموز مصر القديمة - قبل شامبليون - إلى ثلاث مراحل تاريخية.

١) مرحلة أصحاب التخمينات الجزافية.
٢) مرحلة جامعى الرموز.
٣) مرحلة الباحثين فى حجر رشيد.

لقد كان على شامبليون أن يكمل رحلة من سبقوه. وحجر رشيد صاحب القدرة المغناطيسية الفذة، وجده صدفة أحد جنود الحملة الفرنسية على مصر فى مدينة رشيد وقد أدرك الفرنسيون فورا أهميته الفائقة. وأرادوا الاستيلاء عليه. ونقله إلى باريس ولكن الإنجليز المنتصرين هم الذين استولوا عليه وتمكنوا من نقله إلى لندن حيث وضع فى المتحف الملكى البريطانى.

هناك كثيرون حاولوا فك رموزه قبل جان فرانسوا ولكنهم جميعا فشلوا فى ذلك. والحجر كتلة من البازلت الأسود ١,٢ متر فى ٩٠ سم وسمكه ٣٢ سم مكتوب بالقرب منه : تم الاستيلاء عليه من قلعة رشيد القديمة فى مصر بواسطة الجيش البريطانى سنة ١٨٠١. إنه غنيمة حرب استولى عليها الفريق تورز وصادرها من فوق سفينة فرنسية وكتب: غنيمة مجيدة للسلاح البريطانى لم تنتزع من أيدى شعب أعزل ولكن أخذت بشرف وطبقا لقوانين الحرب.

كان جان فرانسوا لغويا ومؤرخا وفنانا، ولذلك استطاع إكمال السير حتى فك طلاسم ذلك الحجر. فى صيف ١٨٢١ . أى قبل سنة كاملة من صرخته: وجدتها. قدم جان فرانسوا أول تجميع للنتائج النهائية الأكثر خصوبة وفى ٢٣ ديسمبر ١٨٢١ - عيد ميلاده الثلاثين - جاءته فكرة. كيف لم تخطر على باله من قبل؟ أن يجرد الرموز الهيروغليفية فى حجر رشيد وعدد الكلمات اليونانية جردا دقيقا. أصابه الذهول عندما وجد فى مقابل ٤٨٦ كلمة يونانية ١٤١٩ كلمة هيروغليفية. ثم ذهب فى حساباته أبعد من ذلك. فوجدها تنكمش فى ١٨٠ رمزا، وبالتالى يوجد فارق دائم بين العلامات والكلمات والمعانى.

كان هدف كولومبس الوصول إلى الشواطىء المقابلة، بعد بحر الظلمات وشامبليون كان يجتهد لحل شفرة اللغة الهابطة لآخر الأسرات فى وادى النيل باعتبارها جسرا نحو معرفة الفترات التاريخية العظمى فانعطف ليجد نفسه فجأة عند قمة الحضارة المصرية.

جاء يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢. وفيه قرأ مكتشف السر - الذى كان سيحتفل بعيد ميلاده الثانى والثلاثين بعد ثلاثة أشهر - الصفحات الثمانى التى اختصر فيها كشفه وقد وصفته - بعد ذلك - الماركيز دوسابيه بأنه كان غير قادر على التعبير عن نفسه بسهولة ولا على دعم بريق اكتشافه، ولكن باعتراف الشهود جميعا كانت المحاضرة مثيرة للغاية.

فى طريقه إلى مصر. كان لابد أن يمر بإيطاليا وفيها يقع فى قصة حب من طرف واحد. ويكتب للمحبوبة ثلاثين رسالة فى ثلاثين شهرا. فهو كاتب رسائل من الطراز الأول متدفق مثل الرافعى، صاحب لغة رنانة مثل المنفلوطى فضلا عن أن الزمان كان زمن

فى العاشر من نوفمبر سنة ١٨١٥ يكتب جان فرانسوا لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لا يعتمد سوى على نسختين؛ واحدة منهما صنعت فى لندن وأنهما غير متطابقتين مما قد يضر بأبحاثه. وإذا تم عمل نسخة من قالب حجر رشيد الجميل لتوضع تحت تصرفه وتصرف مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر هدية لمحبى الآداب جديرة بالجدية والكرم

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ يقرأ شامبليون أجزاء من شرحه لحجر رشيد. ويوضح شرحه على صورة. رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول، وحتى السطر الأخير من النص. إنها الشرارة الأولى نحو تأسيس علم: الايجيبتولوجى (المصريات القديمة) فى فرنسا بل وفى العالم كله

كتابة الرسائل كفن قائم بذاته يتصدر فنون الكتابة الأخرى.

ومع هذه الرحلة تزداد آلام النقرس لدرجة أنه لا يستطيع الحركة أحيانا. عن مصر لدينا الرسائل التى أرسلها من مصر، ومذكرات الرحلة التى دونها عنها. لقد ظل فى مصر من شهر أغسطس ١٨٢٨ إلى ديسمبر ١٩٢٩. وهى الرحلة التى راودت خياله عشرين عاما. كانت حلم العمر ومشروع العمر. كان يرتقى عتمة القرون السحيقة. كان مسحورا وهو يجد اكتشافه يتحقق على أرض الواقع لحظة بلحظة.

يكتب لشقيقه من صقلية:

دع عنك القلق فآلهة مصر تحفظنا وترعانا.

يرى الإسكندرية من البحر.

كلما اقتربنا من تلك المدينة تزايد إحساسنا بالهيبة.

وينزل على أرض الإسكندرية. التاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٢٨:

قضيت ليلتى فى نفس الحجرة التى نام فيها منذ ثلاثين عاماً القائد كليبر الذى فتح مصر فى يوم واحد بفضل شجاعته الحربية، ثم أضاعها بعد ذلك بسبب ضعفه المدنى.

وإن كان الحليب الذى شربه مع الإفطار لا يحبه ومنظر أحياء المدينة لايعجبه. والكلاب المنتشرة فيها لايرضى انها تعيش فى حرية مطلقة وإن كان يكتب:

لقد وطأت أرض مصر التى طالما تاقت نفسى إليها ففى الثامن عشر من أغسطس الماضى. وقد استقبلتنا كام حنون وسأحتفظ بحجة جيدة، كذلك رويت ظمئى من ماء النيل الرطب الذى يأتى عبر ترعة المحمودية التى أمر الباشا بشقها سأتبرك بتراب مصر.

يوم ٢٤ أغسطس يقابل محمد على. يطلق عليه شامبليون الباشا واللقاء تم فى الإسكندرية. إن انتقال الحاكم إلى الإسكندرية صيفا، له جذوره التى تعود إلى أوائل القرن قبل الماضى، لقد وصل شامبليون إلى مصر فى أغسطس وأبهة الحكم جعلت محمد على يقيم فى الاسكندرية.

هكذا هو وصف شامبليون للقاء:

قابلت الباشا فى الثامنة صباحا ويمتلك سموه العديد من المنازل الخشبية الجميلة المشيدة بذوق وإتقان. وتقع هذه العمائر الجميلة فى جزيرة المنار القديمة. وقد قام القنصل الفرنسى باصطحابى أنا وقبطان الباخرة إلى القصر لتقديمنا إلى الباشا فى حنطور يجره حصانان مطهمان، انطلقا بسهولة عجيبة وسط شوارع الإسكندرية الضيقة والمتعرجة بفضل مهارة السايس الكبيرة، كما ارتدى رفاقى الشبان أبهى ملابسهم وأخذوا يركضون خلفنا على ظهر جياد جموحة.

صعدنا السلم الكبير المؤدى إلى قاعة الديوان واجتزنا قاعة فسيحة تكتظ بالموظفين ثم دخلنا إلى حجرة أخرى حيث كان يجلس الباشا فى زاويتها بين نافذتين مرتديا ثيابا بسيطة وممسكا فى يده بنرجيلة مطعمة بالماس. كان قصير القامة يرتسم على ملامحه من البهجة والبشاشة ما لا ينتظر أن نجده عند رجل ينوء تحت وطأة الأمور الجسام، وتثقل كاهله الأعباء الكثيرة. ومن بين قسمات وجهه تبرز عينان متوقدتان بشكل فريد مع لحيته البيضاء الطويلة المسترسلة على صدره.

استقبلنا سموه على الرحب والسعة وسألنا عن أخبارنا وعن برنامج الرحلة. فأخبرته برغبتى فى الذهاب حتى الشلال الثانى والتمست من سموه الفرمانات اللازمة فمنحنى إياها فى الحال وخصص جنديين لمرافقتنا وحمايتنا فى ذهابنا.

وفى رسالة منه إلى شقيقه الأكبر فى ٢٩ أغسطس يتكلم عن الشعب المصرى:

الشعب المصرى متعاطف مع الأوروبيين خاصة الفرنسيين، بسبب أن محمد على لا يحظى بدعم الضباط العثمانيين الذين يحيطون به، فهؤلاء يضطهدون الشعب المصرى الذى يبادلهم مقتاً بمقت، عندما يقارن المصريون البؤساء ما آل إليه حالهم فى ظل حكم الباشا وبين ما يمكن أن يكون عليه حالهم تحت سيطرة الجيش الفرنسى فسرعان مايميلون إلى الوضع الثانى، ولا يعنى ذلك أنهم يتحرقون شوقا لمجيئنا. تدينهم يحول دون ذلك إلا أنه من المؤكد أنهم ينتظرون ذلك دون امتعاض لتخليصهم مما يعانونه.

فى ١٣ سبتمبر يذهب شامبليون لتوديع الباشا وكان ذلك فى الثامنة مساء:

شكرته على ما أنعم به علينا من دعم وحماية وأجابنى سموه فى لطف بان الأمراء المسيحيين يحسنون معاملة رعاياه، لذا فإن واجبه يحتم عليه أن ينهج نهجهم. ثم تطرق بنا الحديث إلى الكتابة الهيروغليفية. وعندئذ طالبنى سموه بنسخة مترجمة إلى التركية لنصوص مسلتى الإسكندرية فوعدته بإرسالها غدا عن طريق موثق العقود فى القنصلية الفرنسية.

وقد أراد محمد على معرفة إلى أى نقطة ستمتد رحلتى فى بلاد النوبة، مؤكدا لى أننا سنقابل فى كل مكان بالكرم والترحيب ثم ودعته بعد أن غمرته بعبارات الشكر والترحيب والثناء التى أخذ يردها بتواضع شديد.

المركب الكبيرة التى سيسافر بها شامبليون إلى الصعيد، كانت قد صنعت خصيصا لمحمد على، يسميها شامبليون إيزيس. و الدهبية الصغيرة يسميها حتحور وشامبليون فى ترعة المحمودية ثم فى النيل حتى القاهرة يدون أسماء القرى التى يمر عليها بدقة وما يميز أى قرية أو مدينة ويبحث عن التشابه بين ما يراه وما يعرفه عن مصر القديمة ويقارن رحلته برحلة الحملة الفرنسية ويستمع إلى شكاوى الناس من حكم محمد على. يكتب عن القاهرة:

تعتبر القاهرة بحق مدينة عملاقة هائلة وأغلب منازلها أو على الأقل الطابق الأرضى منها مشيدة من الأحجار وتزدان أبوابها بالنقوش والتماثيل. كما تكثر فيها المساجد. وقد حازت القاهرة إعجابى بالرغم من الانتقادات العديدة التى وجهت إليها ويبدو لى عرض شوارعها ذات الثمانية أو العشرة أقدام محسوبا بدقة للاحتماء من الحرارة المرتفعة. الشوارع غير مرصوفة إلا أنها نظيفة حتى تمنيت أن تبدو باريس فى مثل تلك النظافة. إن القاهرة مدينة هائلة مترامية الأطراف.

إن شامبليون يبدو سعيدا بمصر لدرجة أنه يقول عن نفسه:

أشعر حقا وكأننى إنسان آخر ولد من جديد، ويقسم رفاقى على أننى أبدو وكأننى مولود فى هذا البلد. وسأتمكن خلال الاسابيع القادمة من إتقان اللغة العربية حتى لا أبدو كمبتدىء.

إن شامبليون يبدو مهتما بمصر المعاصرة له والتى زارها. ولكنه يبدو مهتما أكثر بمصر القديمة من خلال الآثار التى يجدها متناثرة فى كل مكان واهتمامه بالآثار يفوق الزمن الحاضر ألف مرة.

يقف أمام الأهرامات:

من دواعى الدهشة حقا أن الأثر الذى يتركه ذلك البناء الهائل فى النفس يتناقض كلما دنونا منه. وقد شعرت بشىء من الضآلة وأنا أتطلع من على بعد خمسين قدما إلى ذلك البناء الذى لا نستشعر ضخامته إلا بعد حساب أبعاده والذى نأخذ فى التصاغر كلما اقتربنا منه حتى تبدو أحجاره وكأنها من الدبش الصغير.

ويتأمل أبا الهول:

لقد احتفظ وجه أبى الهول، فى الأجزاء الملاصقة للأذنين باللون الأحمر الداكن / الذى كان قدماء المصريين يستخدمونه فى تلوين بشرة الرجال من بنى وطنهم ويبدأ الرحلة إلى الصعيد.

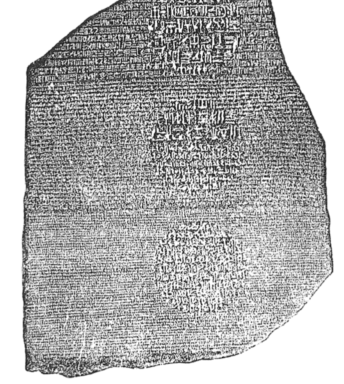
لقد انفطر قلبى عند مرورى أمام قرية الاشمونين حزنا على رواقها الرائع الذى قامت الأيدى الهمجية بتقويضه مؤخرا، لم أر فى الشيخ عبادة سوى الأنقاض بعد أن دمر كل ما فيها ولم يبق سوى بعض الأعمدة الجرانيتية التى لم يقو العابثون على مجرد زحزحتها.

يصل إلى أسيوط لا يهتم سوى بالجبانات التى فيها ومن أسيوط يصل إلى طيبة:

لقد كرست نفسى لمصر حتى أصبحت كل شىء بالنسبة لى، لذلك أنشد لديها السلوان والمواساة.

ويصل إلى دندرة





حجر رشيد

حجر رشيد صاحب القدرة المغناطيسية الفذة وجده صدفة أحد جنود الحملة الفرنسية على مصر فى مدينة رشيد. وقد أدرك الفرنسيون فورا أهميته الفائقة. وأرادوا الاستيلاء عليه ونقله إلى باريس ولكن الإنجليز المنتصرين هم الذين استولوا عليه وتمكنوا من نقله إلى لندن حيث وضع فى المتحف الملكى البريطانى

فى دندرة كان ضوء القمر ساحرا. والمعابد على مسيرة ساعة من الزمن فياترى هل كان فى استطاعتنا مقاومة ذلك الاغراء. إما أن يظلنى الناس مفعما بالحماس أو مجنونا إذا نجحت فى إعطاء صورة ولو شاحبة وهزيلة عنها. سأكتفى بالقول أننا فى أوروبا لسنا سوى أقزام وأنه ما من شعب قديما كان او حديثا بلغ من فهم وتصور فن العمارة بمثل هذه الدرجة الرفيعة والعظيمة التى بلغها المصريون القدماء. لقد كانوا عمالقة يتجاوزون المائة قدم من تصميماتهم، بينما نحن لا نكاد نتجاوز خمسة اقدام وثمانين بوصة. إن الإبداع الأوروبى الذى يحلق فوق أروقتنا ينقلب خاسئا وهو حسير أسفل المائة وأربعين عمودا التى يتكون منها بهو أساطين الكرنك.

ولأنه سافر إلى مصر محملا بقضية فهو يكتب فى ١ يناير ١٩٢٩ من وادى حلفا:

الآن وبعد أن تتبعت النيل من مصبه وحتى الشلال الثانى أعلن لكم بكل زهو وفخر بأن رسالتنا حول الأبجدية الهيروغليفية صحيحة تماما، ولا تتطلب أى تعديل. إذ يمكن تطبيق تلك الأبجدية الصائبة التى وضعناها بنفس النجاح على الآثار المصرية. التى ترجع إلى العصرين الرومانى والبطلمى، وكذلك - وهو ما يماثل أهمية أعظم - على نصوص كافة معابد وقصور ومقابر مختلف العصور الفرعونية.

ولأن شامبليون فرنسى ورغم حبه لمصر الذى قد نتصور أنه يفوق حبه لفرنسا، إلا أنه لا ينسى أن الحكومة الفرنسية ترغب فى تزيين باريس بمسلتين من مصر.

إن شرف الوطن وعزته يحتم علينا اختيار مسلتى الأقصر وترجع هاتان المسلتان الرائعتان - وهما فى حالة مدهشة من الحفظ - إلى سيزوستريس الذى أمر بنحتهما من كتلة حجرية واحدة. إن الأمر لا يكلف فرنسا أكثر من ٣٠٠ ألف فرنك فقط.

أما كون ذلك يعد قرصنة أو استيلاء على آثار الغير ونقلها خارج البلاد فلا يخطر على باله. كانت إنجلترا قد استولت على حجر رشيد، وها هى فرنسا وها هو شامبليون عاشق مصر يرسم كل خطط نقل المسلتين إلى باريس، بل يصمم السفينة التى ستنقلها إلى هناك ولا يرى فى ذلك أى تناقض بين واجبات المحب وضرورات اللصوصية.



كان التعب قد تمكن من شامبليون بعد هذه الرحلة المضنية فى صعيد مصر وإن كان حريصا على عدم مصارحة أحد بحقيقة مرضه وبدأت قواه تخور بعد إقامته الطويلة فى وادى الملوك التى امتدت من الثالث والعشرين من مارس حتى الثامن من يونيو، وخاصة الأبحاث المتعددة والمعقدة للغاية التى اضطر لإجرائها وسط الصمت المطبق فى المقابر العتيقة، بهدف التعمق فى تحرى الطبيعة الحقيقية للتسلسل التاريخى والديانة التى كان يعتنقها المصريون القدماء. وقد عثروا عليه ممددا على الأرض أكثر من مرة وسط سراديب الآثار.

وفترة إقامة شامبليون فى قصر القرنة لم تخل من روح الفكاهة والإنسانية التى يتميز بها المصريون، إذ كان سكان القرى الأربعة المشيدة على موقع طيبة العريقة: الكرنك، الأقصر، القرنة ومدينة هابو يحضرون يوميا إليه ومعهم حيوانات حية على اختلاف أنواعها لدرجة أنه أصبحت لديه حديقة حيوانات.

فى طريق عودته من الصعيد يقابل إبراهيم باشا الذى أحسن استقباله:

وقد أطلنا الحديث معه عن منابع النيل. كما وطدت لديه الفكرة التى كانت تراوده فى تخليد اسمه بهذا الاستكشاف الجغرافى العظيم سواء عن طريق تشجيع الرحالة بصحبة عدد من الرجال المسلحين لحمايتهم.

ثم يعود لمقابلة إبراهيم باشا لثانى مرة ووافق إبراهيم على اقتراح إرسال بعثة مصرية لاستكشاف منابع النيل، كما تمت مناقشة موضوع آخر أكثر إلحاحا فى ذلك الوقت وهو بقاء المستشفى ومدرسة تعليم الطب فى أبى زعبل. وكان قد تم إنشاؤها وفقا لتعليمات كلوت بيك الذى أقام فى مصر منذ عام ١٨٢٥ وكان شامبليون قد علم أن ولى عهد مصر قد قرر تحويل المستشفى إلى معمل للحرير مما أثار غضب سكان القاهرة، وقد قابل شامبليون كلوت بيك كبير جراحى الجيش المصرى لمعرفة ماذا يمكن عمله لحل هذه القضية المؤسفة. وقد انتزع «المصرى» من إبراهيم باشا وعدا بعدم المساس بالمستشفى.

ثم يذهب إبراهيم باشا متوترا ومهتاجا - أكثر من المألوف مما حث الفرنسيين على أخذ بعض الأدوية معهم، وحسنا فعلوا ذلك إذ انتابت ولى العهد أزمة قلبية أثناء تناول وجبة العشاء فسقط على الأرض، عندئذ داواه الفرنسيون وأنقذوه من موت مؤكد وقد أخر الفرنسيون سفرهم أسبوعا لعلاج ولى العهد من وعكته.

بكى محمد على - الذى يقول عنه شامبليون فى مذكراته الملك - من شدة التأثر والانفعال وراح يغدق النعم على ضيوفه منذ تلك اللحظة مرددا:

أحدهما قد بعث ابنى إلى الحياة من جديد بينما قام الآخر بإحياء مجد وعزة بلدى التى اندثرت منذ زمن سحيق.

وهكذا اغتنم شامبليون الفرصة ومعه باريزيت الطبيب الفرصة وتحدث أمام الملك وولى عهده عن أوضاع مصر التعسة. لقد تعذبت روحاهما المرهفة من رؤية مظاهر البؤس والشقاء الشديد الذى يطحن الشعب.





يوم ٢٤ أغسطس يقابل محمد على. يطلق عليه شامبليون الباشا. واللقاء تم فى الإسكندرية. إن انتقال الحاكم إلى الاسكندرية صيفا له جذوره التى تعود إلى أوائل القرن قبل الماضى، لقد وصل شامبليون إلى مصر فى أغسطس وأبهة الحكم جعلت محمد على يقيم فى الإسكندرية

كان شامبليون يتصدى لحالة الآثار المصرية التعيسة المهددة بالتدمير النهائى، أما باريزيت فتكلم عن التحسينات الصحية التى ينبغى إدخالها على مصر وانتشال المصرى من ظلمات الجهل والعبودية وإعادة الروح له والنهوض به إلى مستوى الشرف والكرامة الإنسانية.

تحدث شامبليون عن التقدم الذى يحرزه الطلاب الخمسة والأربعون الذين أوفدهم الباشا للدراسة فى باريس تحت إشراف جوهار والأستاذ القبطى عجوب. وكان شامبليون يعرفهم جميعا بما فيهم أبناء الأمراء الزنوج الستة الذين أضيفوا إلى أعضاء البعثة. وكان قد قابلهم قبل مغادرته باريس لرغبته فى توصيل أخبار صحيحة عنهم لمحمد على باشا. كان ولى العهد يطلق عليهم عمداء كليات المستقبل. وقد أرسل الشيخ دشتوتى كتابا فى الطب، فى حين أرسل الشيخ رفاعة الطهطاوى أشعارا من بينها قصيدة القيثارة المهشمة التى قام الأستاذ عجوب بصياغة نصها الأصلى خاصة عن أعمال خاصة بعلم الفلك.

يعودان - شامبليون وزميله - للكلام عن عظمة شعب مصر رغم الظلم الواقع عليه، فيغير محمد على مجرى الحديث ويسأل: هل كان رمسيس حقا أعظم الفراعنة؟! كان محمد على يهوى الاستماع إلى أخبار بونابرت فى مصر. قائلاً له: إن بونابرت كان يستقبل فى باكورة كل صباح علماء الأزهر الذين وعدهم بدخول الإسلام. وبناء مسجد لقواته ولكن رحيل بونابرت وضع حدا لهذه المهزلة.

يحكى الباشا لشامبليون قصة مطران مدينة منف الذى أرسله له مجمع التبشير ليغير دينه وأن يعتنق محمد على المسيحية، فلما علم الباشا بوصول السفينة التى تقل الأسقف القبطى فى كامل زيه الكهنوتى أرسل له قائلا: إن جلادى فى انتظارك. عندئذ ارتعد القس خوفا، وولى هاربا صوب مدينة نابولى الإيطالية ثم بلغ روما واعتصم فى قصر سانت انج ولم يبارحه بعدها أبداً.

يعلق شامبليون على قصة الباشا:

عندما فرغ الباشا من رواية تلك الواقعة أخذت الابتسامة العذبة التى كانت لاتفارق شفتيه تخبو شيئا فشيئا، وراح يقبض بشدة على رأس الأسد المهيب المستأنس الذى كان قابعا بجواره. عندئذ نهض إبراهيم باشا لتهدئة الموقف خوفا من أن يثور الأسد ويقوم بحركة مباغته نحو الضيفين.

قال إبراهيم باشا:

إشارة واحدة من ملك مصر، تكفى لتهدئة ملك الصحراء.

عندئذ ضحك محمد على بحرارة والتفت إلى شامبليون ليقول له بنبرة فروسية حازمة:

من بين كل المذاهب الأوروبية لا أطالب لى ولشعبى إلا بمذهب فك الرموز الهيروغليفية.

ثم التمس الباشا من شامبليون أن يكتب له موجزا عن تاريخ مصر القديمة. وفى التاسع والعشرين من نوفمبر سلم شامبليون المذكرة المطلوبة ومذكرة أخرى لم يطلبها منه

الباشا حول صيانة الآثار المصرية، أعرب فيها للوالى عن اللوم والعتاب لما يتحمله من المسئولية من إهمال آثار مصر.

وقبل وداعه لهما سلمه إبراهيم باشا علاوة على الهدايا قرارا بالإبقاء على مستشفى أبى زعبل وعدم المساس به وإن كان إبراهيم باشا قد بعث بوعده بعد ذلك. تحت إلحاح مستثمر أوروبى. ولكن بعد إرسال مذكرة احتجاج له. أنقذ المستشفى فى آخر لحظة.



أما محمد على فى لحظة الوداع فقد أبلغ شامبليون قراره بحسم قضية نقل مسلتى الأقصر اللتين أهداهما إلى فرنسا، وقد كلف مدير ترسانة تولون البحرية ببناء مركب عملاق لنقل المسلتين واحدة بعد الأخرى من الأقصر إلى متحف اللوفر. شامبليون هو الذى قام بتصميم مواصفات المركب الذى لم يشهد له العصر مثيلا وقد وافق الوالى وولى عهده على ترتيبات المصرى. معجبين بشمولية معارفه وإن كان شامبليون الذى قابل الوالى وولى عهده كثيرا يقول فى مذكراته أنه أضاع خمسة وسبعين يوما من أجل هذه المقابلات.

هناك مذكرة قدمت إلى الوالى دونها نستورلوت عن الحالة الاجتماعية للفلاح المصرى تتكلم عن النعيم الذى حظى به الفلاح فى زمن الحملة الفرنسية ثم تتكلم عن الظلم الواقع على الفلاح باعتباره ظلما تركيا وإن كانت تصف بؤس الفلاح بدقة وبراعة تنتهى هكذا:

إن مصر تستحق مصيرا أفضل ومستقبلا أكثر إشراقا وسيكون من صالحها أن تاتى قوة أخرى للقضاء على هيمنة الأتراك ووضع حد لهذا الشقاء.

كانت إنجلترا قد استولت على حجر رشيد وها هى فرنسا وها هو شامبليون عاشق مصر، يرسم كل خطط نقل المسلتين إلى باريس بل ويصمم السفينة التى ستنقلهما إلى هناك ولا يرى فى ذلك أى تناقض بين واجبات المحب وضرورات اللصوصية



فى حين أن مذكرة الآثار نجد ختامها على هذا الشكل:

لقد آن الأوان لوضع حد لتلك العمليات التخريبية البربرية التى تحرم العلم من آثار فى غاية الأهمية وتصيب الرحالة بالحسرة وخيبة الأمل لاندثار النقوش الفريدة التى تكبدوا مشاق كثيرة فى سبيل القدوم لرؤيتها.

إن مصلحة العلم لا تقتضى إيقاف الحفائر التى تكتسب من خلالها يوميا المزيد من المعارف غير المنتظرة وإنما تقتضى المصلحة إخضاع تلك الحفائر للوائح وقوانين تضمن الصيانة الكاملة لما يتم اكتشافه من مقابر فى الحاضر والمستقبل وحمايتها من كافة التعديات سواء كان مصدرها الجهل أو الطمع أو الجشع الأعمى.

لا توجد فى المذكرة كلمة واحدة عن حق محمد على فى إهداء آثار مصر إلى دول أجنبية مثل مسلتى الأقصر اللتين أهداهما الباشا لفرنسا بناء على مذكرة كتبها شامبليون نفسه. هل رأيت كم تبدو الحقائق نسبية وليس مطلقة.

كان آخر ما كتبه شامبليون عن محمد على وابنه إبراهيم: لقد أكثرت من رؤية إبراهيم باشا فى القاهرة والإسكندرية، وهو رجل فريد على مستوى الحضارة المصرية القديمة. أما والده محمد على باشا فهو رجل عظيم ليس له من مآرب سوى ابتزاز أكبر قدر ممكن من أموال الدولة ولما كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة، فإن محمد على لا يتورع عن حلبها وإنهاكها ليل نهار انتظارا لشق بطنها. ونحرها فى وقت قريب. إن مصر تثير فى النفس الرعب والشفقة فى آن، ولا مناص من الاعتراف بتلك الحقيقة بالرغم من السيف الرائع والمطعم بالذهب الذى أهداه لى الباشا.

وتكتب جريدة لافيزودى لاميديترانيه. نقلا عن صحف فرنسية أخرى إن محمد على استولى بالقوة على رسومات شامبليون. فيكتب شامبليون من تولون فى ١٥ يناير ١٨٣٠ إلى رئيس تحرير الجريدة يطلب تكذيب هذا الخبر الذى يتنافى مع المشاعر النبيلة التى تميزت بها علاقات محمد على مع الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين.

اقرأ معى ما يكتبه شامبليون عن سفره من مصر. يكتب أول مرة من الإسكندرية فى ٢٨ نوفمبر ١٨٢٩:

أخيرا، وبعد طول انتظار سمح لى آمون العظيم بتوديع أرضه المقدسة وسأغادر مصر فى الثانى أو الثالث من ديسمبر بعد أن غمرنى أهلها القدامى والمعاصرون بكل جميل ومعروف.

ثم يعود ويكتب مرة ثانية من مرفأ تولون فى الأول من يناير ١٨٣٠:

لقد سمح لى آمون رع العظيم بتوديع أرضه المقدسة أما الإلهة حتحور المقدسة فقد تكرمت بتسيير رحلتى البحرية من شواطىء الإسكندرية وحتى سواحل البروفانس.

سفير البرتغال الذى قابل شامبليون وهو عائد لفرنسا كتب عن اللقاء:

رأيت شخصا يسرع الخطى ناحية أبواب الأبدية.

يصل شامبليون إلى فرنسا، يمر بمرحلة احتضار ليست طويلة. فجر ٤ مارس ١٨٣٢ يموت جان فرانسوا شامبليون. كان عمره لحظة وفاته واحدًا وأربعين عامًا وشهرين ونصفًا. جرت مراسم الجنازة صبيحة الثلاثاء ٦ مارس ١٨٣٢ . وأديت الصلاة فى كنيسة سان روش التى كان لها دور مهم فى حياة المتوفى وفى حل شفرة الهيروغليفيات. ذلك أنه قابل فيها القسيس المصرى.

ها هى الأنوار قد خفتت.

كان هذا ما قاله شاتوبريان عن وفاة شامبليون ولكن حكيمًا مصريًا من الامبراطورية الحديثة يقول نقلا عن بردية قديمة:

رجل ذهب. جثمانه مسجى داخل الأرض. جميع معاصريه ذهبوا عن الأرض إلا أن المكتوب سيضع ذكراه على شفاه من سينقلها إلى شفاه أخرى.

لقد مات شامبليون: نعم. لكن الولع بمصر تحول إلى علم. والعلم أصبح مرضا ينعم به الفرنسيون دون سائر البشر. بقى أن يمرض به المصريون أن يحبوا مصرهم. تلك هى القضية الغائبة. ■

من التطرف إلى التأمل

فن الشباب فى صالون الشباب

الغريب يحصل على الجائزة

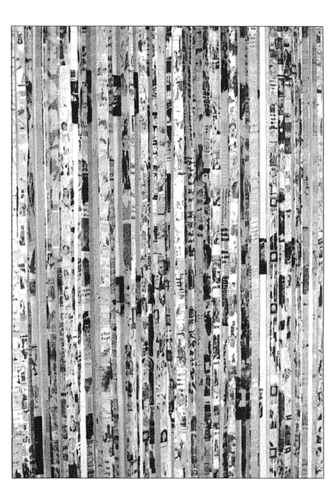
فاطمة على

على مدى اثنى عشر عامًا، هى عمر «صالون الشباب» للفن فى مصر، أطلق الصالون حرية المنافسة بين الشباب إلى ذروتها وتبارى هؤلاء الفنانون فى إبداع كل ما هو غريب ومتطرف فى خاماته وتقنيته وأفكاره التى نادرًا ما وجدت حتى اصطبغ طابع الصالون بالغرابة والتطرف عن مسار الحركة التشكيلية (ظاهريًا) لكن فى الوقت نفسه كان هذا التطرف فى الفن يحصد الجوائز الواحدة تلو الأخرى. ولهذا شقان خطيرا الأهمية.. أولهما إيجابى لإطلاق خيال الشباب ليقدم إبداعاته كاملة الفكرة دون وصايات قد تفرملها أو تعوقها وهذا مطلوب الإبداع ومهم.. وثانيهما سلبى حيث يجعل خيال الشباب لا يرسو لنقص الخبرة عند وسيلة تعبير تخدمه وتؤكد الفكرة، فتضيع الفكرة وتضيع التقنية.

فى صالون العام الحالى وبعد التصفيات والاختيارات بدا التنافس كاشفًا عن الكثير من حالات التأمل الداخلى أو الباطنى لدى الشباب، كما بدا أن الشباب يخوضون التجربة بحالة من التروى كأنهم يراجعون أنفسهم بعيدًا عن الأعمال المتعجلة والإبهار الزائف.. إحدى حالات التأمل الداخلى تلك ظهرت فى العمل المركب للفنان محمد طمان، ففى أنبوب من ستة أنابيب بلاستيكية ضخمة تدلت من السقف أدخل شابًا صغيرًا وسط قليل من الماء وقد أخذ وضع الجنين داخل الرحم فى حركات بطيئة ليديه.. وبدا كما لو أن هذا الفنان خاض بنفسه حالة تأملية لما قبل الميلاد.. وعاش إحساس الجنين داخل محيط مغلق على وسط مائى مصحوب بإيقاع صوتى كضربات قلب الأم.

حالة تأملية أخرى موجهة لما وراء المرئى فى العمل المركب للفنان حنفى محمود تتمثل فى حالة سكونية جسدية تعطى إحساسًا فى وقفة شخص يؤدى الصلاة أمام حائط ذهبى يحمل الكثير من الغموض والريبة وأيضًا الخشوع الشديد الآسر.

وفى التصوير نرى حالة من السكونية المستسلمة أو التأملية فى لوحة الفنان إبراهيم الدسوقى وقد أوقف امرأة بعينها فى لوحتين فى أربعة أوضاع واقفة فى كل منها، هى مستغرقة متأملة لأفكارها فى استسلام داخلى والتى من وقوفها أمام نفسها فى اللوحة الواحدة توحى باللاجدوى، وقد كشفت عن سكونية لا مبالية.



عمل مركب للفنانة صباح مصطفى نعيم

كذلك فى لوحة تأمل للنفس وأيضًا رصد للآخر قدمت الفنانة مى رفقى امرأة تجلس أرضًا فى حالة تأمل وتركيز وقد عقدت إحدى ساقيها نراها من منظور رأسى، ونرى من منظور أفقى فى نفس اللوحة رجلاً ممددًا فى راحة فوق مقعد وأخذ وضع السكونية فى مراجعة متأملة مع النفس.

كذلك فى لوحتى الفنان بسام البارونى ورحلة تأمل داخلية مع ذات الفنان فى الشباب وتوقع الشيخوخة فى لوحتين يغمرهما التأمل الفلسفى البعيد.

وهناك نماذج كثيرة من حالات التأمل والرسو مع النفس فى الصالون.

وكى لا نبتعد عن الصالون كفكرة وممارسة عبر اثنى عشر عامًا علينا أن نعود قليلاً للوراء لنرى بشكل أوضح التجربة شبه كاملة، ثم نعود زمنيًا إلى صالوننا هذا الثانى عشر فى مكانه القائم داخل قصر الفنون.

ولأننا على ذكر الشباب نتوقع أحلاما.. تجارب.. ثم محطات وصول، وقد تصطبغ كل من المراحل الثلاث بالتعجل أو ما يسمى ما فوق الواقعية سواء فى لانهائية مساحة الحلم أو محاولة إمساك النجوم، وهذا ليس بسيىء، ولكن مع محاولة إمساك النجوم يجب ألا نترك موقع أقدامنا فوق الأرض.. هذه المعادلة الصعبة نسبيًا والتى تتحقق مع الخبرة ومغادرة زمن الشباب إلى زمن التروى والتمهل نراه قد تحقق إلى قدر كبير رغم عدم انسحاب الشباب كمرحلة عمرية، كما ذكرت فى البداية أن هذا الصالون حمل الكثير من التأمل الداخلى والرسو مع النفس إلى حد ما وذلك بعد تصفيات أسفرت عن خروج ثلاثة أرباع الأعمال المقدمة من العرض.

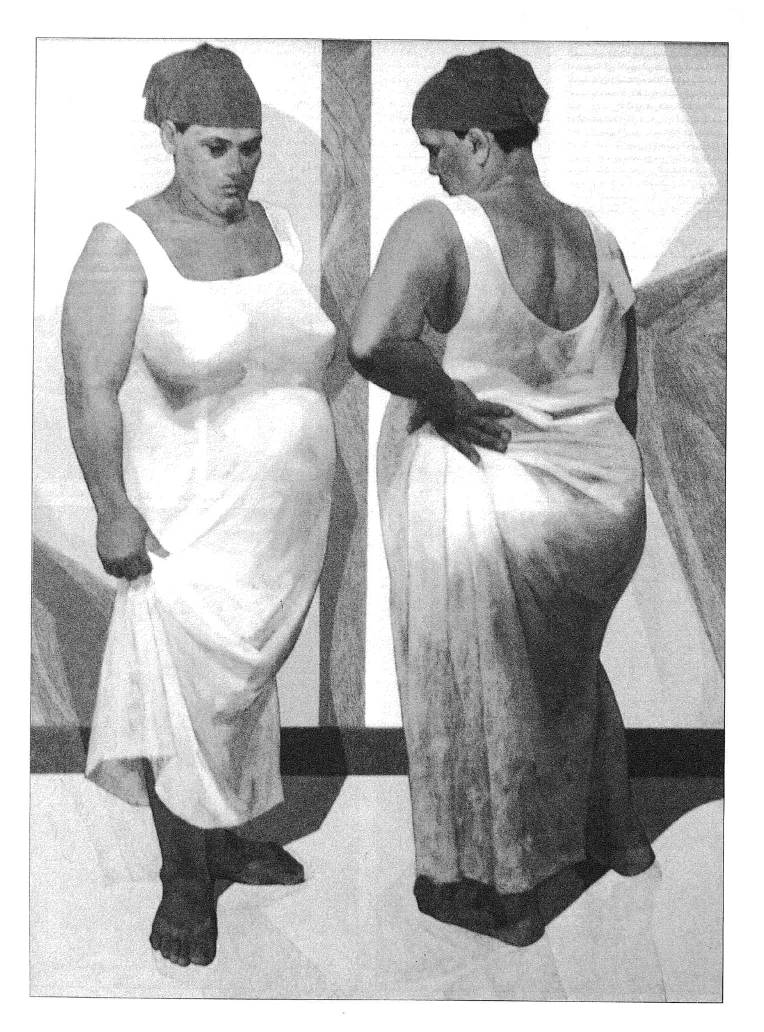


خلال إحدى عشرة دورة سابقة للصالون ترسخ وبشكل نهائى لدى زائريه والفنانين وحتى الشباب المشاركين أن أى شىء يقدم مهما كانت غرائبيته أو قالبه الفنى ما دام غريبًا ينال جائزة وبالتالى هو شىء رائع ومطلوب ويصبح نموذجًا يحتذى به الشباب فى الدورة التالية حتى ينالوا الجائزة.. حتى لو لم يكونوا راضين أو مقتنعين بما يقدمون (كثير من الشباب غير مجاله الأساسى إلى الأعمال المركبة)، وهذه الحصيلة لا تسىء لفكرة الصالون فقط، بل تسىء لشباب الحركة التشكيلية ولذوق الزائرين.

وسأذكر لكم واقعة حدثت يوم افتتاح هذا الصالون الثانى عشر تُظهر خطورة التمادى والانصياع وراء

صالون الشباب الثانى عشر من ٣ إلى ٢٨ سبتمبر، ٢٠٠٠
القاهرة: قصر الفنون بالجزيرة

على الصفحة المقابلة جائزة الشباب الكبرى - إبراهيم الدسوقى فهمى

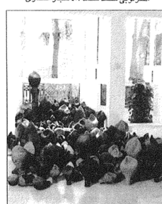




كل ما هو غرائبى شاذ حتى لو لم يكن فيه من الفن شىء، وذلك بسبب كثرة ما قدم الصالون طوال دوراته السابقة من أفكار متطرفة فى شططها الفنى تغذى استفزاز الذوق العام.. وهذه الواقعة تظهر أسوأ ما فى تجربة التطرف الفنى غير الواعى رغم أنها بدأت تهدأ كموجة خلال هذا الصالون والصالون السابق له.

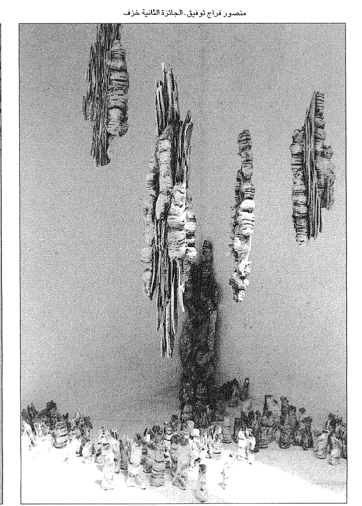
والواقعة التى حدثت وكعلامة خطيرة للغاية حدثت مع العمل الخزفى أو بسببه، وهو العمل الفائز بالجائزة الأولى باسم «التنورة» للفنان حسن رشاد فقد سقط متحطمًا مع الدقائق الأولى للافتتاح وتناثرت أجزاؤه على أرض القاعة.. والمفارقة، وهو ما أقصده منذ البداية ونتيجة لشدة ما شاهد جمهور الصالون من شطط فنى فى الدورات السابقة وقفوا يتاملون بتركيز القطع المتناثرة ويدورون حولها (بشكل جد ماسوى) معتقدين أن هذه الشظايا الخزفية هى المقصود بها العمل الفنى فى شكله النهائى، وأنها وزعت على الأرض بشكل مقصود ومحدد وإلا فلماذا فاز بالجائزة الأولى، وللأسف نشرت إحدى صفحات الفن المتخصصة صورة ركام العمل المتحطم المتناثر مشيرة إلى أن هذا هو العمل الفائز بالجائزة الأولى.

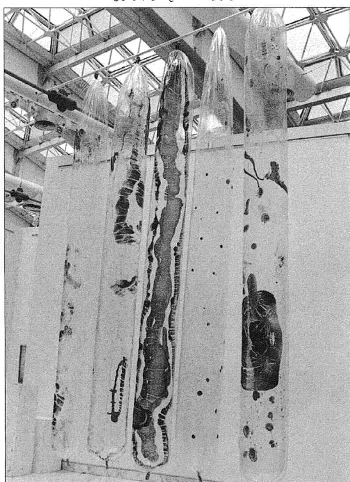
هذا التضارب فى الذوق الفنى والإدراك هو حصيلة السنوات الإحدى عشرة الماضية، فقد آذت الفنانين الشباب تجاربهم، تلك التجارب غير المحسوبة، فظلم المتعجلون منهم الجيدين. لذلك، ونتيجة للتجارب غير المحسوبة فى غالبها فى الدورات السابقة كان للجنة الفرز والتحكيم هذا العام دور فعال فى اختيار الجيد ذى القيمة بعيدًا عن الإبهارات البصرية التى لا تدوم من فعل التطرف الفنى، ولذلك هذا العام تم عرض ٢٦٪ من مجموع الأعمال التى تقدمت للصالون ما دامت لها قيمة فنية، أيًا كان اتجاهها الفنى إن كان واقعيا أو سيرياليا أو حداثيا المهم القيمة الفنية، لذلك كان حجب الجائزة الكبرى من أهم قرارات اللجنة، فالصالون بدا دون حافة إبداعية فاصلة بين مستويات الجيد المقبول وبين فائق الفكر الإبداعى، فالكل بدا مجتهدًا


الشرنوبى محمد محمد. الانفجار الفخارى

بسام محمد البارونى. جائزة لجنة التحكيم


حسن صبحى على. إبراهيم أحمد العطار: عمل مركب


منصور فراج توفيق. الجائزة الثانية خزف


عمل مركب. محمد سامح طمان. جائزة أولى

ومقتربًا من المستوى الإبداعى العادى، ولذلك استنكر البعض حجب الجائزة واستحسن الكثيرون حجبها لأنها ليست من المسلمات الواجبة الصرف، وما دامت الجائزة الكبرى لم تجد ما يليق بها دون وصاية أو مفاضلة أو محاولة تلبيها بأى شكل لعمل ليس جديرًا بها، لذلك أتوقع أن تصبح هذه السابقة صمام أمان للجائزة فى دورات الصالون القادمة، وأيضًا صمام أمان للشباب نفسه.

وشباب الفنانين عبر عمر الصالون مروا إلى حد ما بتغيرات واضحة عن بداية الدورات وهى تغيرات تفرض علينا أن نشاهدهم بعدل يعادل قدر التغير، فقد بدأت تهدأ موجاتهم الميلودرامية العالية فى المواضيع الإنسانية وتمزقاتها العنيفة، كذلك محاولات الإبهار الزائف والمعالجات السطحية المتعجلة وحلت محلها محاولات التفكير المتبصر إلى درجة ما، لمواقع أقدامهم فى تجربتهم خلال هذا الصالون والصالون الماضى، وهذا مفيد لمسيرة الصالون حتى لا يصبحوا كراقص الباليه الذى يقدم حركة الجران تور Grand Tour الذى يستعرض فيها مهاراته باللف حول نفسه فى مكان ثابت ليصيب الآخرين بالانبهار المصحوب بالذهول والدهشة ثم لتمنح له جوائز الصالون كبراها وصغراها فى تشجيع مطلق دون أن يكون محسوبًا تمامًا. كل ذلك رغبة من الصالون فى التشجيع، ويبدو أن الصالون بدأ يعيد تفكيره أولاً قبل أن يوجه نصيحة للشباب كى يساعد برؤياه الموضوعية القائمة على القيمة فى وضع مجسات وخطوط عريضة تساعد الشباب على إعادة الرؤية بطريقتهم والتسابق وراء القيمة ولو كان بها بعض من الإثارة.

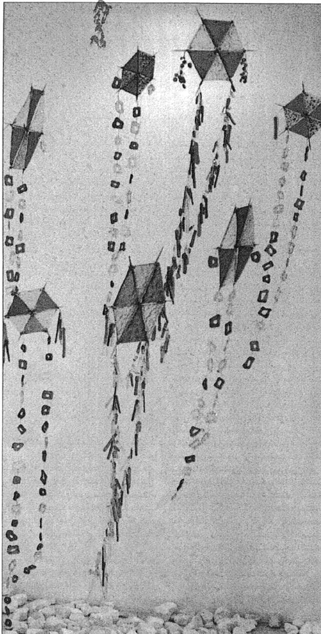
وليست الجائزة الكبرى فقط هى التى حجبت ولم ينلها أحد، بل أيضًا جائزة النحت الأولى حجبت، فقد بدا النحت فى الصالون الثانى عشر كارثة فنية، فقد تقدم القليل للغاية عددًا وقيمة أو حتى فى الملمح الإبداعى، وتساءل البعض مادام هناك سمبوزيوم نحت فلماذا لم يرتفع المستوى؟

لكن المشكلة أن مستوى النحت لم يكن منخفضًا فى حركتنا التشكيلية، بل كان مرتفعًا بالفعل وللغاية وله أساتذته الكبار منذ العشرينيات وليس من العدل أن نقول أن مستوى النحت لم يرتفع، بل نقول لماذا انخفض مستوى النحت - وليس للسمبوزيوم علاقة بهذا - ولماذا هذا التراجع عن النحت المباشر وتوجه بعض الشباب إلى النحت متخفين وراء الخزف النحتى أو الأعمال المركبة.

بدخولك قصر الفنون حيث الصالون ستجد المدارس الفنية متجاورة داخل وعاء يضم حصيلة إبداعات الشباب على مدى عام مجسدًا ما تموج به الحركة التشكيلية من أفكار وقدرات وأحلام، حققت معه اللجنة الكيف وليس الكم، مع استضافة فنانين عرب تحت سن ٣٥ من خمس دول عربية دعمًا للصالون كما جرى تخصيص جناح للفنانين التلقائيين فى مصر.



بلغ مجموع الأعمال التى قدمها الشباب للصالون ١٤٥١ عملاً، تم قبول ربعها فقط، ورغم أن هذه النسبة الكبيرة للأعمال المرفوضة تكشف عيوب الحركة الفنية إلا أن الأمر من ناحية أخرى لصالح الشباب، فبعرض الجيد سيدركون أن الجدية هى الشكل والمنهج المقبول والمطلوب وسيفيدهم هذا وحركتهم التشكيلية



هانى فاروق إبراهيم

للفنانة «مى مصطفى رفقى»



وخاصة أن الشباب اعتادوا التقاط إشارات وتوجهات لجان التحكيم واختياراتها من دورة لأخرى راصدين الملامح الرئيسية والمنهج الفنى الذى يأتى بالجائزة، فكما كان يحدث إذا فاز عمل مركب كبير الحجم ملئ بالخامات المتنافرة (حديد، خشب، خيش، أسياخ، قطن، طين) دون حتى مدلول ترى الدورة التالية كلها على هذه الشاكلة، وإذا فاز عمل هو مجرد تراكم لونى فج لا انفعالى ولا جمالى، ترى الدورة التالية كلها تسير على هذا النهج اللونى من أجل الجائزة.

وقد كشف الصالون فى أعماله المقدمة قبل الفرز عن تخبط شديد واضح وسط الشباب فى غياب الأستاذ المعلم الفنان مفتقدين لفكرة تبنى الأجيال لبعضها البعض، فالصالون فى مجمله مادة ممتازة لحالة الفكر الشبابى الفنى فى مصر، أيا كانت درجتها.

كما تميز الصالون بازدياد أعداد المتقدمين خاصة فى التصوير والرسم، وتراجع أعداد المتقدمين فى النحت للغاية، وظهر عمل واحد فى النحت بالليزر الذى قُدم على أنه عمل مركب، وزاد عدد المتقدمين فى تقنية الكمبيوتر جرافيك، أما التصوير الضوئى فلازال مشاركوه هواة، أما الخزف فتحدث له حالة تحول غريب، فهو فن يعتمد على الكتلة والخامة الثابتة فى استمرارية عبر زمان ومكان لكننا نراه هنا يتحول من دوره كقيمة وظيفية إلى تعبيرية وبإدراك غير واع، ونراه وسط تيارات العمل المركب (التنورة مثلاً) مكون من ثلاث قطع مركبة ولا يمكن التعامل تمامًا معه كشكل خزفى فجزء منه معلق على الحائط وجزءان آخران مركبان من أربع قطع يشكلان تنورتين فى حيز فراغى، ولو جزأنا العمل (قبل أن يتحطم فى الافتتاح) لفقد هويته وشكله، وبذلك يكون قد فقد استمراريته كخزف.

وقد تحولت الأعمال المركبة من مجرد عمليات الإبهار والصراخ البصرى والنفسى وخواء الأفكار وتراكم الخامات إلى التعبير عن الموضوعات الفكرية أو شبه الفلسفية المتأملة وهو أمر إيجابى. لكن تداخلاً حدث فى الوقت نفسه بين أفرع الفن الواحد كالرسم والجرافيك، والنحت والخزف والعمل المركب، والتصوير والأعمال التجميعية.. ولا مانع من أن يظهر عمل يضم كل هذه الأفرع لكن بوعى ودون خلط وتشويه للأمور مع الحفاظ على الفرع الأصلى الذى يضاف إليه من معطيات باقى الأفرع.

وتبقى ظاهرة عدم اهتمام الشباب بإنهاء أعمالهم بإتقان وبشكل لائق حتى أن أجزاء من الأعمال كانت تُخلع أو تكسر بمجرد لمسها وكأنهم على عجلة وأن التشطيبات الفنية الدقيقة ليست من مضمون العمل.

إجمالاً.. داخل الصالون الثانى عشر هناك شباب متميز وطموح واتجاهات واعية عديدة متنوعة وخامات وتقنيات متنوعة وهناك تبادل خبرة يحدث على مدى شهر كامل من عام لآخر مع كل صالون، جعل الشباب يهتمون بالخامة إلى أقصى حد دون أن يجيدوا تقديمها فى شكل متقن.. لذلك جاءت الأعمال غنية فى مادتها وأيضًا زاخرة بالبعد الرابع وهو البعد المتعارف عليه كبعد زمنى نراه هنا وقد تركزت عيون الشباب على وعائه المتحقق وهو المستقبل فى استكشاف وتوقع، وتصبح التجربة هى الفيصل بين الحلم حين يدخل مجال الزمن.. الزمن الخاص، والزمن العام.

عصر من الفساد .. من فساد السفح إلى فساد

محمـــــود المـــــــراغى

كان الفلاسفة ينظرون للفساد كقضية أخلاقية، ولكن هاهم فلاسفة العصر من اقتصاديين وساسة ينظرون له من زاوية «المصلحة».. وبينما كان البعض يقول إن الفساد لازم لتشحيم عجلة الحكومات.. وأنه بالنسبة لقطاع الأعمال إنفاق محدود وعائد كبير.. بينما كانوا يقولون ذلك عن اقتناع باتت المقولة الأكثر شيوعا أنه كارثة تصيب المجتمعات، وتؤثر على نموها، وتضرب اقتصادها فى مقتل.. فالفساد لا يتيح فرصة للتنافس العادل لأنه آلية تنحاز لمن يستطيع أن يدفع أكثر!

ورغم أن الفساد كان قائما على مر التاريخ، إلا أنه بات موضع اهتمام أكبر فى السنوات العشر أو الخمس عشرة الماضية لقد فرض الفساد نفسه تحت تأثير عدد من العوامل جعلته:

* متاحاً بدرجة أكبر.
* ومستشرياً بدرجة أوسع.



[١]

هو متــاح لأن دور الدولة ـ ومنذ الحرب العالمية الثانية ـ قد اتسع، وبات الإنفاق العام يمثل نسبة عالية من الناتج المحلى والقومى.. وباتت نقاط التماس بين العام والخاص قابلة للانفجار فى اتجاه (المصلحة الخاصة ـ مقابل الرشوة).. أو فى اتجاه انحياز الإنفاق لمناطق أو جماعات مصالح أو تكوينات عائلية.. أو ربما فى اتجاه إيرادات الدولة حين تنحاز عبر الضرائب أو الجمارك لفئات دون فئات.

المالية العامة والتى يغذيها دافع الضرائب آلية رئيسية لتوزيع العدل أو الظلم.. وعند أطرافها يقف الفساد أو يبتعد، ففى المعاملات بين (العام والعام) أو بين (الخاص والخاص) يندر أن نجد فسادا.. فالأول لا يستطيع معه ذوو الأمر شيئا.. والثانى تغيب فيه المصلحة على الأرجح.. «فمن يأكل من» لكنها ـ وكما قلت ـ نقاط التماس بين العام والخاص حيث يتم تفريخ الفساد.. وكلما زادت الكعكة المسماة بالإنفاق العام، أو الموازنة العامة.. زادت الفرصة، أيضا كلما اتسعت السلطات الممنوحة للأفراد وغابت الرقابة حدث نفس الشىء.

تشير أرقام تقرير التنمية فى العالم لعام ٩٧ والصادر عن البنك الدولى إلى أن نسبة النفقات الحكومية للناتج المحلى الإجمالى عام ٩٥ بلغت ٤٨٪ فى بلدان منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية و ٢٨٪ فى البلدان النامية ويشير التقرير الاقتصادى العربى الموحد الصادر عن الجامعة العربية إلى أن الإنفاق العام للبلاد العربية منسوبا للناتج المحلى قد بلغ ٤٩,٤٪ عام ١٩٨٦.

الكعكة أصبحت كبيرة بنمو دور الدولة الذى مازال قائما رغم انهيار المعسكر الاشتراكى وانتشار الاقتصاد الحر، فقد حلت وظائف الدولة الاجتماعية مكان وظائف الدولة الاشتراكية.. كما لعب الإنفاق العسكرى المتزايد دوره دائما.. حتى بعد تراجعه فى التسعينيات.

ولكن هل يعنى اتساع الكعكة انتشار الفساد بالضرورة، أو أنه بات متاحا بدرجة أكبر؟

هو افتراض قائم تساعد عليه عناصر: ضعف القانون والمحاسبة والشفافية واشتداد التنافس بين وحدات القطاع الخاص.. إضافة لنفوذ جماعات الضغط فى العالم الثالث.. أيضا فهو افتراض قائم تؤكده الشواهد الكثيرة والمشاهد الغريبة.

فى العقدين الأخيرين بات المشهد العام وكأننا فى (عصر من الفساد).

فقد تراجع الفساد الصغير من حيث أهميته النسبية.. وتقدم الفساد الكبير.. لم يعد اللافت للأنظار الفساد على سفح الهرم حيث الرشاوى الصغيرة، أو المجاملات المحدودة.. لكن اللافت للنظر بات فساد القمة واختلاط السياسة بالاقتصاد.

ولندع قصص الفساد الشخصى وحكايات الجنس والساسة والتى انفجرت فى وجه كلينتون فى الولايات المتحدة، كما انفجرت فى وجه نائب رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق إسحق موردخاى الذى جرى سحب الحصانة البرلمانية منه ليحاكم بتهمة التحرش الجنسى بثلاث سيدات.. ثم انفجرت وفى نفس الوقت ضد دبلوماسى إسرائيلى يشتبه فى تورطه مع شبكة دعارة أطفال فى البرازيل.

لندع هذه القصص رغم أن بعضها قد يدخل فى التعريف الذى وضعه كل من البنك الدولى وصندوق النقد لكلمة فساد، وهو أنه (اغتصاب السلطة العامة من أجل مصلحة خاصة) .. و.. قصص الجنس عند المسئولين قد يكون فيها شىء من ذلك.. ومع هذا فلنتوقف أمام الفساد المالى والذى يفتح مجرى ملاحياً بين المال العام والمال الخاص.. كما يخلق شريانا يصل بين السياسة والاقتصاد.. مواقع السلطة ومواقع الثروة.

المثال القريب والواضح فى حالة سوهارتو الذى عامله صندوق النقد الدولى بخشونة غير مسبوقة حين أجبره على التوقيع على برنامج للإصلاح المالى تنازل فيه عن امتيازات أقاربه ووهب من ماله الخاص (٥) مليارات دولار كمساهمة فى إصلاح أحوال البلاد، وظهر فى صورة فوتوغرافية تاريخية وهو يوقع.. بينما يرقبه «ميشيل كامديسو» مدير صندوق النقد .. وبعدها تمت الإطاحة به، ويتم تباعا الكشف عن فضائحه المالية.

قبله، وفى مكان غير بعيد كانت قصة ماركوس والذى انهالت عليه الصحف قبل أن يرحل واتهمته بالفساد وتهريب الأموال.. ثم انكشف الأمر أكثر بعد الرحيل وإن عادت زوجته تحاول ممارسة السياسة فى البلد المنكوب الفلبين.

وفى آسيا أيضا مازالت أحداث قصة نواز شريف رئيس وزراء باكستان ماثلة للأعين.. ليست قصة خطف الطائرة، ولكن قصة الفساد المالى والتى قد تكون حقيقية وقد تكون مجرد حلقة من حلقات الصراع السياسى.

إنه الفساد عند القمة، سبق إليه رؤساء من أمثال بوكاسا وغيره من رؤساء أفريقيا وأمريكا اللاتينية.. بل إن رئيسا أوروبيا هو جاك شيراك جرى اتهامه أخيرا بانه خلق ـ حين كان رئيسا لبلدية باريس ـ وظائف وهمية وصرف مرتبات منتظمة لأعضاء فى حزب التجمع الديجولى الذى أسسه فى السبعينيات.. أى أنه وطبقا للتعريف «اغتصب السلطة العامة ليحقق مصلحة خاصة» وإن كانت سياسية هذه المرة.

وفى عالمنا العربى، والمستور فيه أكثر من المكشوف كانت قصة رئيس وزراء سوريا محمود الزعبى والذى مات منتحرا بعد اتهامه بالفساد.. أيضا، كانت هناك قصة نواب القروض فى مصر والتى حركت فيها الحكومة الدعوى وأدان فيها القضاء (٣٢) شخصا بينهم وزير سابق وأربعة نواب فى مجلس الشعب، وثلاثة من أسرة واحدة وسرب من مسئولى البنوك، وهى قصة تحكى ميراثا يعود للوراء نحو ربع قرن حين بدأ الانفتاح واختلطت السياسة بالأعمال، واستغل أحدهم علاقته برب العائلة «السادات» فانشأ سلسلة من البنوك والشركات اتخذ بعضها الطابع العائلى فكانت نموذجا للرأسمالية العائلية فى مصر، واتخذ بعضها طابع مجموعة المصالح أو الشلة.. وكل ذلك استند فيما استند له للنفوذ، ولأموال القطاع العام، ولودائع الأفراد بالنسبة للبنوك.. ولغياب المحاسبة أيضا.

بدأت القصة فى السبعينيات، وانفجرت فى التسعينيات ولم يشفع للمتهمين أنهم مشتغلون بالسياسة أو أعضاء فى الحزب الحاكم.



فى هذه القصة وما قبلها بدرجة أكبر كان التاريخ يطارد أصحابه.. وكان الفساد ـ وعبر آليات سياسية ـ يزحف من السفح إلى القمة.. من رقم الجنيه والدولار إلى رقم المليون والمليار وبواسطة أشخاص لا يرقى إليهم الشك.. فهل كان الأمر مستحدثا، أم أنه المناخ الجديد سمح بكشف الغطاء؟

على أى حال فقد كان ذلك هو التطور الأول ولم يكن الوحيد!

خلال السنوات الأخيرة أيضا انتقل الفساد من قضية ذات طابع أخلاقى ومحلى.. إلى قضية ذات طابع مجتمعى ودولى.

لم يعد الأمر أن الفساد يعنى مجرد تكلفة أكثر لبعض المشروعات أو الأفراد الذين يريدون الحصول على صفقة أو خدمة.. ولم يعد الأمر خللا فى طابور العدالة (فالبعض يحصل.. والبعض لا يحصل، وفقا لزيوت التشحيم من رشاوى ونفوذ ووسائط بشرية). الأمر ووفقا للأدبيات الحديثة حول الفساد بات ـ كما يقول رئيس البنك الدولى ولفنسون ـ سرطانا يصيب الاقتصاد فى الصميم، ويصيب أفقر شرائح المجتمع.. بل إنه ـ وكما تذهب المنظمات الدولية الآن ـ يضرب اقتصاد السوق فى مقتل فهو يلغى المنافسة الحرة المتكافئة ..ولأنه كذلك ولأن الاتجاه ـ مع حجم هائل من المعاملات الدولية ـ هو المزيد من التحرير.. لأن الأمر على هذا النحو فقد باتت القضية دولية وباتت محل اهتمام من الأمم المتحدة والبنك الدولى وصندوق النقد والمنظمات الإقليمية معا.

هناك الآن معاهدة أبرمتها منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية وبدأ سريانها فى فبراير عام (٢٠٠٠) ويلتزم فيها الموقعون على اعتماد قوانين محلية مشددة لمكافحة الرشوة.

وهناك معاهدة لمكافحة الفساد بين الدول الأمريكية، ومعاهدة ثالثة بين دول الاتحاد الأوروبى، وهناك جهد مماثل فيما يسمى التحالف العالمى من أجل أفريقيا.

أيضا، كانت هناك المؤتمرات ومن أبرزها عام (٢٠٠٠) مؤتمر عالمى لمكافحة الفساد دعا له نائب الرئيس الأمريكى آل جور وانعقد فى أوائل العام بحضور ممثلى تسعين حكومة وعدد كبير من الأكاديميين.. درس المؤتمر أسباب الفساد الإدارى ونماذج لممارسات مكافحته.. وجرى التركيز ـ ربما لأول مرة ـ على فساد القضاة ورجال الأمن فإذا ترك الفساد ـ كما يقول اريك هولدر نائب وزيرة العدل الأمريكية ـ بلا رادع بين رجال القضاء والشرطة فإنه يشكل تهديدا خطرا للحرية والرفاهية التى تحافظ عليها هذه المؤسسات.

وفى المؤتمر، والندوة التى تواكبت معه فى واشنطن تأتى مجموعة من الاستنتاجات والتجارب.

منها ما يتصل بشيوع الظاهرة «فالفساد ـ كما يقول وكيل وزارة التجارة الأمريكية ـ يتفشى فى البلدان الثرية والفقيرة على حد سواء، ولا توجد شركة كبيرة أو صغيرة محصنة منه».

ومن الاستنتاجات ما يتعلق بالمناخ الذى يسمح بالفساد، والآثار التى تترتب على الفساد «فلا يمكن ـ كما يقول البيان الختامى للمؤتمر ـ أن يتعايش الفساد مع الديمقراطية وسيادة القانون».. ولكن، وحين يسود الفساد، وحين يفوز طرف ما بعقد بسبب الرشوة لا المنافسة العادلة فإن هذا ينال من نوعية المنتجات والخدمات التى يستهلكها الناس».

لذا، ومن تجارب المكافحة: برنامج حكومة كلينتون للحد من رشوة مسئولى الحكومات الأجنبية فى العقود والمناقصات الدولية، وضمن هذا البرنامج تجريم القانون لرشوة مسئولى الدول الأخرى مع إلغاء أى خصم فى الضرائب كان يجرى منحه لتعويض ما يتم دفعه من رشاوى للأجانب مستهلكى السلع والخدمات الأمريكية.

الفساد إذن وعلى ضوء ما جرى فى السنوات الأخيرة ليس قضية موظف صغير ينحرف، أو قضية مجتمع يغلق على نفسه الأبواب ويتحمل وحده آثار ما يجرى.. الفساد بات له شكل آخر يخرج من دائرة علم الأخلاق لدائرة علم الاقتصاد

---

١ ـ Corruption and Military Spending By : Sanjeev Gupta , Luiz de Mello , and Raju Sharan

وهى من أوراق صندوق النقد الدولى وتم إصدارها فى فبراير (٢٠٠٠) كورقة عمل (I.M.F. Working Paper).

٢ ـ ورقة معلومات جاءت من البنك الدولى فى أبريل (٢٠٠٠) تحت عنوان:

Fact Sheet - the World Bank Fights Corruption

٣ ـ ورقة صندوق النقد التى صدرت عام (١٩٩٧) تحت عنوان:

Good Governance - the I.M.F.s' Role

ومن دائرة علم الاقتصاد البحث الى دائرة الاقتصاد السياسى والعلاقات الدولية. إنه وفى حالات كثيرة ـ فساد عابر للحدود!.. أو فساد متعدد الجنسيات! وكأننا نصنع الأمرين معا: تدويل اقتصاديات الدول.. وتدويل الفساد أيضا!



[٢]

فى هذا الإطار صدر تقرير، أو ورقة يصفها أصحابها بأنها «الأولى من نوعها» ورغم أنها صادرة ضمن أوراق صندوق النقد الدولى فقد حرص واضعوها أن يشيروا أن وجهات النظر التى توصلت لها لا تعبر بالضرورة عن الرأى الرسمى لصندوق النقد، والذى قام بتوزيع الورقة على نطاق غير صغير.

عنوان الورقة والصادرة فى فبراير (٢٠٠٠) عن إدارة الشئون المالية فى صندوق النقد «الفساد والإنفاق العسكرى».. وأصحابها هم:

راجو شاران Raju Sharan

سانجيف جوبتا Sanjeev Gupta

ولويزدى ميللو Luiz de Mello

وتحاول الورقة أن تختبر بطريقة إمبريقية ما إذا كانت هناك علاقة بين الفساد والإنفاق العسكرى الكبير.. والتحليل اعتمد على بيانات تم جمعها فى الفترة بين (١٩٨٥ ـ ١٩٩٨) من مصادر مختلفة فى (١٢٠) بلدا.. وهى بيانات اهتمت بالإنفاق العسكرى منسوبا للناتج المحلى وللإنفاق العام.

تبدأ الورقة ـ أو التقرير النهائى ـ بسؤال حول ماهية الفساد، وتشير لفقر الأدبيات التى تناولت هذا الجانب لكنها تنتهى إلى أن (الفساد هو اغتصاب سلطة عامة من أجل منفعة خاصة)، وأنه لذلك كثيرا ما يعتمد على سلوك غير قانونى أو مشروع.. سلوك قد يضحى بالصالح العام والواجبات العامة من أجل أشخاص أو عائلات أو مجموعات. ويذهب أحد التعريفات إلى أن الفساد هو (أن تبيع ماتملكه الحكومة فى المزاد... من أجل صالح خاص... والبائع موظف رسمى).. والصفقة هنا قد تعنى مالا أو خدمة.. وربما قانونا أو قرارا تصدره الحكومة لصالح أشخاص أو مجموعات بعينهم!

وتطرح الورقة بعض الافتراضات كمحددات للفساد منها:

نوعية البيروقراطية التى تحكم، ومستوى الأجور فى قطاع الدولة، ومدى سيادة القانون وما إذا كانت هناك تشريعات تحارب الفساد وهل هناك مصادر طبيعية تلد الثروة.. ومدى انفتاح الاقتصاد وتنافسيته.

وتعرض الورقة لما انتهت له دراسات وتقارير سابقة حول نتائج الفساد وآثاره فهو ينعكس على نمو الدخل القومى، وجودة أو رداءة البنية الأساسية والاستثمارات التى تقوم بها الدولة.. أيضا فهو ينعكس على تدفق ـ أو عدم تدفق الاستثمار الأجنبى ـ كما ينعكس على قضايا: الفقر، والمساواة، والرخاء العام والنمو.

وتفترض الدراسة التى انتهت إلى تقرير شامل أن هناك علاقة بين حجم الإنفاق العسكرى وحجم المشتريات العسكرية وكل من الناتج المحلى والإنفاق الحكومى.. وتشير المعلومات التى تم جمعها أن الإنفاق العسكرى قد يرتبط بالرشاوى والعمولات خاصة فيما يتعلق بالمشتريات العسكرية، ويقدر الخبراء أن

السلطة . ومن الرشاوى الصغيرة إلى رشاوى الجنرالات

الرشاوى تمثل (١٥٪) من الأثمان التى يجرى أداؤها لشراء الطائرات.

تشير هوامش الدراسة إلى تصريح مارك بيث رئيس منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية فى مؤتمر صحفى بمانيلا يوم (١) أكتوبر (١٩٩٩) والذى قال فيه أن كثيرا من الرشاوى يجرى دفعها فى الدول الصناعية خاصة فى مجال تجارة السلاح.. وتشير الهوامش إلى أن رشاوى يجرى دفعها لاستصدار قرارات أو تشريعات تسمح بالإنفاق على البحث والتطوير ورفع القيود على صادرات الأسلحة ومساندة كبار الموظفين لذلك).

والرشاوى لها ألف باب، لكنها بلغة رجال الاقتصاد تأتى من خلال العرض الطلب.. فموردو الأسلحة قد يرشون الموظفين الرسميين فى البلاد المستوردة لكى يشتروا بضائعهم.. والدول المصدرة قد تمنح تخفيضا فى الضرائب لتعويض الشركات عما تدفعه من رشاوى! وتعتبر كثير من الدول أن هذه (المصروفات) لا تمثل جريمة وهو ما دفع منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ومنذ عام ١٩٩٧ لاستحداث نظم تسمح بالشفافية فى مثل هذه الرشاوى المتجهة لدول أعضاء فى المنظمة.

وهكذا فإن من يتولون العرض فى سوق السلاح لهم مصلحة إذن فى أن يبيعوا وأن يقدموا الرشاوى، وقد زادت حدة هذه المصالح منذ منتصف الثمانينيات حين هبطت المشتريات العسكرية وتراجعت الحرب الباردة وسقط الاتحاد السوفيتى.. وتعرضت كثير من الصناعات العسكرية للبوار وخسران ما أنفقته فى البحث والتطوير.. و.. من ثم بات التنافس شديداً.

يشير تقرير آخر لصندوق النقد الدولى وعلى ضوء دراسة عن ثمانين بلدا إلى أن الإنفاق العسكرى كان فى تراجع مستمر بين عامى (٨٥-٩٥) وأنه بينما كان هذا الإنفاق يمثل ٣,٦٪ من الناتج الإجمالى لهذه الدول عام ١٩٩٠.. هبط إلى ٢,٤ عام ١٩٩٥ أى بمقدار الثلث!

نفقات الدفاع فى العالم تتراجع، ومشتريات السلاح كذلك.. ومع ذلك يبقى جانب الطلب كما تشير الدراسة جانبا أساسيا فى آليات (فساد الأسلحة).

«فالحكومات هى المورد الوحيد لخدمات الدفاع، والمفوضون بعقود السلاح أفراد قلائل، والمنافسة المحدودة بين موردى السلاح عنصر تشجيع، وطبيعة السرية وغياب الشفافية وتقييد حرية الإعلام فى تناول صفقات السلاح أو النفقات العسكرية عموماً.. كل ذلك يؤثر على انتشار الفساد».. بل إن هناك عنصرا آخر يشير له تقرير الدراسة وهو ما أسماه (الأصول المملوكة للقوات المسلحة).. مثل الأراضى، والمعدات، وأماكن المناورات، ومعدات النقل، والإسكان، ومراكز التدريب.. فالأراضى - وما فى باطنها من ثروات معدنية كالبترول تصبح فى بعض البلاد بمثابة ميزانية خاصة وإضافية تحت إمرة الجيوش!.. بل إن بعض هذه الجيوش مسموح له بالعمل التجارى مثل إنتاج الأسلحة للبيع، وإنتاج الصلب وتجارته، وإدارة المطارات والأسواق الحرة ومنح امتياز التنقيب عن المعادن!

وهناك آلية ثالثة للفساد بجوار الشراء واستثمار الأصول الثابتة.. وهى الإنفاق فى مجال المشروعات المكثفة لرأس المال والتى تسيل لعاب الشركات الراغبة فى الحصول على مناقصة أو عرض، وهو أمر يؤثر على السلوك المالى للحكومات وعلى مكونات الميزانية التى تعطى جانبا أكبر للاستثمار فى هذه المشروعات على حساب المصروفات الجارية الضرورية.

وهكذا، ومن أجل المصالح الخاصة قد يتغير سلوك الحكومات، وقد يلجأ متخذو القرار فى دول فقيرة لشراء تكنولوجيات معقدة لا تتناسب مع احتياجاتها، ولا يتوافر لها فنيون مدربون.. لكنها الرشوة تفعل كل شىء!





الفساد عند القمة، سبق إليه رؤساء من أمثال بوكاسا وغيره من رؤساء أفريقيا وأمريكا اللاتينية.. بل إن رئيسا أوروبيا هو جاك شيراك جرى اتهامه أخيرا بأنه خلق- حين كان رئيسا لبلدية باريس- وظائف وهمية وصرف مرتبات منتظمة لأعضاء فى حزب التجمع الديجولى الذى أسسه فى السبعينيات..

وكل ذلك مما يفسر الإجراءات المضادة الكثيرة التى اتخذتها مجموعات دولية بعينها مثل منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية التى دخلت اتفاقيتها لمكافحة الرشوة والفساد فى المعاملات الدولية فى (١٥) فبراير الماضى والاتفاقية تنص على أنه تعتبر جريمة أن يتم عرض رشوة، أو الوعد برشوة، أو إعطاء رشوة لأحد الرسميين الأجانب للحصول على أو إتمام صفقة وتحظر الاتفاقية - التى انضم لها (١٨) دولة بينها دولة غير عضو هى بلغاريا.. تحظر منح تخفيضات فى الضرائب لتعويض ما يتم دفعه كعمولات ورشاوى.

(أصدرت الولايات المتحدة قرارا شبيها عام ١٩٧٧)

ولكن.. كيف يتم تقديم الرشوة ؟

الدراسة تقول: بالفواتير الزائفة والمبالغ فى قيمتها أو بالمبالغة فى ثمن قطع الغيار التى يحتكرها منتج واحد فى العادة.. أو بالحصول على عقود تدريب على الأسلحة.

كل الطرق تؤدى إلى السرقة، والسرقة اسمها «بيزنس» وأبطال البيزنس قد يكونون هم الأهم فى بلادهم ومواقعهم!.. إنها لعبة الكبار، وليست لعبة الصغار.

وبالرغم من التحفظات التى تضعها الدراسة حول غياب الكثير من البيانات وصعوبة الحصول على معلومات دقيقة حول تجارة السلاح والتى لا تتضمن عادة المشتريات المحلية.. بالرغم من ذلك فإن الورقة تنتهى إلى أن هناك علاقة ثابتة بين حجم الإنفاق العسكرى ونسبته للناتج أو الموازنة وبين الفساد. أيضا، هناك علاقة بين الفساد وحجم المشتريات العسكرية، وإن لم تتم ترجمتها بالأرقام والنسب المئوية.

كيف يمكن التصدى لهذا النوع من الفساد؟

فى خطاب أخير لمادلين أولبرايت وزيرة خارجية الولايات المتحدة حول الفساد بشكل عام تشير «لأهمية التأثير فى عنصرى العرض والطلب.. العرض من جانب الشركات وموردى الأسلحة.. والطلب الذى يتحكم فيه موظفون ممن ينبغى أن يحسوا أنهم قد يفقدون وظيفتهم، وربما يفقدون حريتهم بسبب ما يفعلون.. ولكن وكما تقول أولبرايت - ليس بالإرهاب - وحده يرتدع الموظفون فالأهم أن يكونوا هم أنفسهم أقل تقبلا لفكرة الفساد بأن يحصلوا على أجور تكفيهم.. وأن يخضعوا فى نفس الوقت للمحاسبة». ونفس الأمر مع إضافات أخرى ينتهى لها تقرير «الفساد والإنفاق العسكرى» الذى نشره صندوق النقد الدولى هذا العام.

** وذلك بتغيير تركيبة الإنفاق العام لتكون أكثر إنتاجية وأقل اندفاعا نحو (العسكرة)، كما يقول التقرير.

** وبتوفير قدر أكبر من المنافسة بين موردى السلاح.. وقدر أكبر من الشفافية، والعلانية ووضع قواعد معلنة لمناقصات السلاح ومعدات الدفاع بشكل عام.

** مع توفير رقابة من جانب سلطات الجمارك.

** وإدخال مشتريات السلاح ضمن قواعد الميزانية العامة من حيث الاعتماد والرقابة، ووفقا لقواعد الشفافية المالية التى وضعها صندوق النقد لتكون نموذجا أمام الحكومات.



[٢]

هل يمكن تطبيق ذلك على البلاد العربية التى يتزايد فيها الاعتماد على الخارج، بما فيه: السلاح وأنظمة الدفاع؟

كما قلت فإن دراسة صندوق النقد ذاتها تتحفظ بنسبة ما على الأرقام والنسب والنتائج، لكنها وبشكل عام تشير لآليات الفساد ونتائجه..

ويمكن أن نضيف تحفظات تتعلق باتساع الدراسة وعدم تماثل مفرداتها فهى تمتد على مدى (١٢٠ بلدا و ١٤ عاما)، أى أنها لا تحصى لكنها تأخذ بالعينة وتحاول الاجتهاد مع خطورة التعميم وتفاوت الحالات.

رغم ذلك فإننا لا يمكن أن نتجاهل أن الدراسة قد اعتمدت فيما اعتمدت عليه على بيانات مستقاة حول (١٢) بلدا عربيا، أى ١٠٪ من العينة من حيث عدد البلاد وأكثر من ذلك مرات ومرات وفقا لحجم الإنفاق والذى برزت فيه طوال الحقبة موضوع البحث بلاد مثل: العراق والسعودية والإمارات والكويت وسلطنة عمان.. وكلها ضمن الدول التى تعرض لها البحث.

وبعيدا عن تقرير صندوق النقد فإنه يمكن الوقوف أمام الحالة العربية ومنذ أن انفجر مورد النفط فى السبعينيات، فباتت هناك فرصة لزيادة الإنفاق العام، وباتت هناك فرصة لبناء الجيوش.. ثم.. جاءت حرب الخليج (١) وحرب الخليج (٢) بالإضافة للحروب المحلية وحروب الحدود.. جاء كل ذلك ليجعل الشرق الأوسط - فى الصدارة منه البلاد العربية - أكبر مستورد للسلاح فى العالم.. بل إن ميزان الشراء والإنفاق قد انتقل من دول الطوق التى تأثرت بالصراع العربى - الإسرائيلى.. إلى دول الخليج حيث الأزمات مستمرة.

فى تقرير للمعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن حول الميزان العسكرى أن النفقات العسكرية لدول الشرق الأوسط قد بلغت ٥٦ مليار دولار عام ٩٧ وبما يعادل (٧-٨) بالمائة من الناتج المحلى وبما يبلغ ضعف المعدل العالمى.. وطبقا لنفس التقرير فقد احتلت دول الخليج وإيران والعراق ثلثى هذه الاعتمادات أو بالتحديد ٦٤٪ منها.

بينما لم يزد الإنفاق العسكرى لإسرائيل على ٧ مليارات دولار ودول الطوق ٦ مليارات دولار فى الوقت نفسه يشير تقرير التنمية البشرية الذى أصدره البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة عام ٩٦ إلى أن الدولة العربية الأولى من حيث الإنفاق العسكرى كانت سلطنة عمان فى ذلك العام والتى بلغ فيها الإنفاق (١٦٪) من الناتج المحلى.. تليها العراق (١٤,٦٪).. ثم الكويت (١٢٪).. ثم السعودية (١١٪)..

تزايد الإنفاق العسكرى للبلاد العربية، وبات قانون الأزمة مبررا كافيا لشراء المزيد من الأسلحة وبناء المزيد من القواعد.. ولكن كان هناك عنصر آخر غير الأسلحة والقواعد وهو رغبة الدول العربية بعد الاستقلال وبعد توافر الموارد المالية فى بناء الجيوش كمظهر من مظاهر بناء الدولة وكدرع يحمى الاستقلال.. وهكذا ازداد حجم القوات المسلحة فى سلطنة عمان (١٧) مثلا بين عامى (٨٥-٩٤) وزاد حجم الجيش السعودى فى نفس الفترة بنسبة (٢٥٣٪) والكويت (١٣٨٪).. أما العراق فقد تراجع بسبب غزو الكويت إلى (٧٤٪) مما كان عليه، بعد أن كان جيش العراق هو الأضخم والأكبر حتى أنه ووفقا لبيانات معهد سيبرى بالسويد كان (أكبر مستورد سلاح فى العالم الثالث خلال الثمانينيات) وأن مشترياته حينذاك قد بلغت (٨٠) مليار دولار وبما يفوق كلا من فرنسا وبريطانيا وألمانيا فى نفس الحقبة.

التدفق للأسلحة والنفقات إذن تدفق هائل وهو مصحوب برقابة مالية ضعيفة، وآليات فى اتخاذ القرار تتسم بالسرية.. ومصحوب بكلمة (سرى للغاية) فلا أحد يعرف (من اشترى.. ماذا؟) والحجة هى الأمن القومى، بينما يجرى التعرف على أرقام الصفقات من المصادر الخارجية التى تنشر أرقام مبيعاتها.. وكل ذلك فى غياب المؤسسات وغياب ديموقراطية تبيح المناقشة وفى ظل توترات أمنية وتقدم تكنولوجى سريع يبيحان وجود مبرر للمزيد من الإنفاق، فالتحديث ضرورة، والقديم لا قيمة له!

هل يعنى ذلك أن كل شىء فاسد؟

لا نستطيع أن ندعى ذلك.. ولا نستطيع أن نجيب بشكل قاطع إلى أى حد كانت المنفعة الخاصة وإلى أى حد كانت المنفعة العامة وراء المزيد من الإنفاق العسكرى والمشتريات الحربية. نحن لا نستطيع، لكننا يمكن أن نتوقف أمام

بلد واحد سمح فيه النظام بقدر من تداول المعلومات، وبقدر من الديموقراطية التي أتاحت مناقشة أمور الدفاع، أعني: الكويت.

طبقا لما دار في جلسات علنية لمجلس الأمة الكويتي، وبعد أن كادت تطوى القضية الشهيرة التي دارت وقائعها أثناء الغزو وهي قضية اختلاسات شركة الناقلات والتي أصدرت فيها محكمة بريطانية حكما بالإدانة.. بعد أن كادت تطوى هذه القضية ومعها قضايا أخرى تتعلق بمشتريات لوزارة الدفاع.. تفجرت قضية صفقة المدفع الأمريكي وحولها أصدر ديوان المحاسبة تقريرا منشورا ملخصه أن المدفع المزمع استيراده أقل من المواصفات المطلوبة من حيث المدى ومن حيث المقارنة مع منافسيه من دول أخرى.. وهو نفس الأمر الذي أشارت له لجان فنية عسكرية زارت الولايات المتحدة.. وقال ديوان المحاسبة إن الصفقة لم تعرض على الديوان طبقا للقانون، أي أنها كانت من وراء ظهره وبينما اتهم رئيس الحكومة الشيخ سعد العبدالله أحد النواب أو بعضهم في تصريح منشور (بالاتصال بأحد السفراء لتمرير صفقة سلاح).. بينما جاء الاتهام هذه المرة لعضو أو أكثر من أعضاء مجلس الأمة.. تردد في المجلس كما تردد في بعض الصحف ما يشير إلى وجود وكلاء غير معلنين في تجارة السلاح سواء بالنسبة لصفقة المدفع التي جرى الحوار حولها في عام (٩٩).. وجرى الإعلان عن توقفها عام (٢٠٠٠) أو بالنسبة لاستيراد الطائرات أو ما أسمي نظام التحكم والسيطرة.. كلها - كما قالت صحيفة الطليعة - لوكيل واحد، على عكس ما قاله مسئول في وزارة الدفاع من عدم وجود مصلحة أو وجود وكلاء في هذا المجال لأن الدولة هي التي تستورد.

في هذه الحالة أيضا لا نستطيع إصدار الأحكام لكننا نتوقف أمام حالة فريده جرى فيها نقاش علني لمسألة النفقات العسكرية واستيراد الأسلحة.. وهو نقاش دائر في الكويت منذ تحريرها من الغزو العراقي.

قبلها، كان مكتب المحاسبة الأمريكي (G.A.O) قد أصدر تقريرا في أول التسعينيات يشير لدول في الشرق الأوسط - في مقدمتها إسرائيل - جرى دفع عمولات لمسئوليها ليتموا شراء صفقات عسكرية.

و.. قبل ذلك وبعده لم تتم إثارة قضية الفساد في المشتريات العسكرية إلا على سبيل الشائعة والخبر غير الموثق.

ولكن تبقى - وبالنسبة للحالة العربية - حقيقة أننا أمام نظم مالية وسياسية تغيب فيها الشفافية وتغيب رقابة الرأي العام، وتغيب فيها المحاسبة في كثير من الأحيان.. ويسيطر على القرار فيها مجموعة أفراد. أيضا، تبقى حقيقة استراتيجية وهي أن الحالة العربية تشهد (إنفاقا أكثر، وأمنا قوميا أقل). بنينا الجيوش.. واستوردنا الأسلحة وامتلكنا الأحدث والأخطر، لكن الخليج بات أكثر انكشافا، ودول الطوق - عدا مصر - أقل قدرة على المواجهة.. بل إن كثيرا مما بنيناه في مجال الجيوش ذهب ضحية حروب طائفية وأهلية.. لقد ذهب ما بنيناه مع الريح وبقيت الديون.. والجروح!

لا نتوقف هنا عند فساد الذمم.. لكننا نتوقف عند فساد القرارات ولنتأمل العبارة من جديد «إنفاق عسكري أكبر.. وعائد أمني أقل».. كيف تسير المعادلة؟.. التقارير الدولية لا تجيب، والديمقراطيات العربية لا تسمح بالتفسير.. لكن الوقائع ثابتة: نحن أكثر انكشافا رغم هذا الإنفاق الهائل على التسليح!



[٤]

منذ نحو عشر سنوات ظهر مصطلح جديد في عالم السياسة والاقتصاد.. المصطلح هو (Good Governance) وترجمة الكلمة مختلف عليها.



الفساد ليس قضية موظف صغير ينحرف، أو قضية مجتمع يغلق على نفسه الأبواب ويتحمل وحده آثار ما يجرى.. الفساد بات له شكل آخر يخرج من دائرة علم الأخلاق لدائرة علم الاقتصاد ومن دائرة علم الاقتصاد البحث الى دائرة الاقتصاد السياسى والعلاقات الدولية. إنه وفى حالات كثيرة.. فساد عابر للحدود!.. أو فساد متعدد الجنسيات!



منذ ثلاثة أعوام كان صندوق النقد الدولي قد دعاني لورشة عمل في بيروت.. وكنا نحو خمسة عشر صحفيا وكاتبا من بلاد عربية مختلفة.. كان الحديث حول (دور الدولة)، وكان البنك الدولي قد فرغ لتوه من نشره تقريره السنوي الذي حمل في ذلك العام نفس العنوان تقريبا (الدولة في عالم متغير). وانتقل الحوار من دور الدولة في ظل سياسة السوق وكيف ينبغي أن يستمر ولكن بشكل مختلف.. إلى دور المنظمات الدولية.. حينذاك جرى طرح هذا المصطلح وتساءل خبير مصري في الصندوق حينذاك هو أحمد أبو شادي.. «ماذا تقترحون ترجمة للكلمة؟» قال البعض إنها نزاهة الحكم».. وقال آخرون: «بل هي جودة الحكم أو حسن الإدارة أو الحكم الرشيد.. وقلت: إن الكلمة لا تعني نظاما سياسيا أو اقتصاديا بعينه.. لا تعني وضع أفضلية بين نظام ملكي أو جمهوري مثلا.. لكنها تعني إدارة النظم، والولايات المتحدة تستخدم كلمة الإدارة كمرادف لما نعنيه نحن بكلمة (حكومة) بل إنهم يستخدمون الكلمة في أعلى معانيها فيقولون «إدارة ريجان أو إدارة كلينتون» فرئاسة الدولة ورئاسة الحكومة الاتحادية هناك شيء واحد.

وقلت إن أنسب معنى للكلمة هو «إدارة الحكم بشكل جيد» أو هو «الحكم الجيد» وبالتالي فنحن لا نتحدث عن نوع النظام وإنما نتحدث عن كفاءة النظام ومدى التزامه بما تصوره أصحاب المصطلح من شفافية، ومحاسبة، وفاعلية، واستقامة وعدل.. بل وبما ذهبوا له فيما بعد من ارتباط ذلك كله بالديمقراطية، فالنظام الديمقراطي هو الذي يتيح حرية القول وحرية المعلومات أي الشفافية.. والنظام الديمقراطي ومن خلال التفاعل مع الرأي العام والرأي الآخر هو الذي يسمح بالمحاسبة ويحقق الاستقامة ويتوخى العدل.. ومن ثم يصبح أكثر فاعلية.. يصبح مستحقا لكلمة (Good Governance) . أي الإدارة الجيدة للحكم.. أو إدارة الحكم بشكل جيد.

ويروى أحمد أبو شادي أن الكلمة قد ولدت قبل أن يستخدموها في صندوق النقد وفي البنك الدولي على يد الدول المانحة للقروض والمعونات.. والبداية كانت من دول الشمال الاسكندنافي ومن منطلق سؤال شغل المانحين طوال ربع قرن مضى وهو: «إلى أين تذهب المعونات.. وهل تحقق أهدافها أم أن نسبة منها تدخل جيوبا خاصة كما ثبت في بعض الحالات؟



هكذا كانت البداية كما رواها لي أحد الخبراء الذين شهدوا لحظة الميلاد، وبعدها بات المصطلح شائعا، وبات المصطلح سياسة، وبات ضرب الفساد جزءا مما يستهدفه «الحكم الجيد».. وفي وقت واحد تقريبا تبنت الدول المانحة وهي الأكثر ثراء في العالم كما تبنى صندوق النقد والبنك الدوليان سياسات وبرامج لترجمة الكلمة.

في سبتمبر (١٩٩٦) تحدث رئيس البنك الدولي ولفنسون عن سرطان الفساد.. وكان يقصد فساد الأنظمة ولم يكن يعني ما ذهب له البنك عام (١٩٨٨) من فساد يتصل بأعمال البنك وقروضه. كان المراد هذه المرة - ٩٦ - دائرة أوسع تتعلق بسلوك الحكومات.. وفي نفس الشهر من نفس العام كانت هناك لجنة في صندوق النقد الدولي تصدر ما أسمي (إعلان المشاركة من أجل النمو) والذي أشار لأهمية الإدارة الجيدة للحكم من خلال: تأكيد سيادة القانون، وتنمية المحاسبة في القطاع العام والحكومي، والتصدي للفساد وتحسين الإنتاجية.. وكلها - كما قال الإعلان (ضرورات للنمو الاقتصادي).

بعدها، وفي المنظمتين وخلال عام (٩٧) توالت القرارات المتعلقة بوضع ترجمة للكلمة.. وآليات لها.

كانت المنظمتان، وعلى ما أظن تسيران على حبل مشدود.. وكان الوقوع من فوقه يعني صداما مع الدول الأعضاء في البنك والصندوق كما يعني خروجا عن المهمة التي جاءت من أجلها منظمات (بريتون وودز) بعد الحرب العالمية الثانية حيث كان المحور الاقتصادي، لا السياسي، هو الأساس.. فالبنك يعمل في مجال التنمية.. والصندوق مهمته ميزان الاقتصاد من نظم نقد وصرف وميزانيات وموازين مدفوعات وعلاقات بين العملات.. إلخ.

والمهمة هذه المرة هي: التصدي للفساد وترشيد استخدام المعونات.. فكيف يؤدي ذلك دون أن يكون خبير البنك أو خبير الصندوق بديلا لحكومة هنا وحكومة هناك.. ودون أن يقال: هذا تدخل في السيادة أو الشئون الداخلية؟.. وكيف تتم المهمة دون أن يقال أن هذا اشتغال بالسياسة وليس عملا اقتصاديا؟

كان الحل واضحا وهو الاتجاه للنظم والسياسات وليس للأشخاص.. لما يؤثر على حالة الاقتصاد وليس لما يقلل أو يزيد من ثروات القائمين على الاقتصاد.

من هنا كان المدخل الرئيسي هو «المال العام» فذلك هو الذي يعني الآخرين وذلك هو الذي يسيل لعابهم في نفس الوقت.. والقضية واضحة لأن صاحب القرار يستطيع أن ينحاز لفئة أو مجموعة أو منطقة فيمنحها من الاعتمادات أو المشروعات ما يعزز نفوذه السياسي.. وصاحب القرار يستطيع أن يقرر من خلال السياسة المالية إعفاء ضريبيا أو جمركيا فيكسب منه البعض المليارات.. أو يدفع البعض المليارات. وقد تعلمنا في علم المالية العامة أن الميزانية - وهي التي تصب فيها كل الموارد العامة وتخرج منها كل النفقات الحكومية - تعلمنا أن الميزانية ليست مجرد أداة جباية، لكنها أيضا أداة لتوزيع العدل والتأثير في الدخول ودفع عملية الاستثمار. إنها أداة متعددة الأغراض، وصاحب القرار.. رئيسا كان أو وزيرا أو برلمانيا يحدد الأولويات طبقا لأهداف متفق عليها.

في هذه المنطقة حاول كل من صندوق النقد والبنك أن يلعب وأن يؤثر سواء من خلال المساعدة الفنية للحكومات لتضع نظاما أفضل للضرائب، أو الميزانيات، أو الإحصاء، أو لمحاسبة القطاع العام.. أو من خلال سلاح التقارير التي تعدها المنظمتان والتي كانت - إلى وقت قريب - بمثابة سر حربي، حتى أننا حين كنا نتابع كصحفيين اجتماعات المجموعة الاستشارية للمانحين بشأن الاقتصاد المصري كنا نتلصص على ما يجري، ونبحث عما تخفيه الوفود من أوراق. الآن: يطلب صندوق النقد - وهو الذي يتعامل مع الحالة الاقتصادية العامة وليس المشروعات - يطلب من الحكومات أن تسمح له بنشر كل شيء.. فنستجيب أحيانا، ونرفض أحيانا. يتعامل برقة وحساسية في بعض الأحيان ويتعامل بخشونة في أحيان أخرى.. يحث على نظم تحرر المجتمعات من قبضة الحكومات ونفوذ البيروقراطية فيطلب اقتصادا حرا، تمتد فيه الحرية للتجارة والنقد والاستثمار والأسعار.. ينصح في نفس الوقت بإصدار قوانين ضد الاحتكار، ويطلب الاحتكام لنظام قضائي عادل ومحايد..

ولكن، أحيانا يحدث الصدام فيستخدم التدخل الخشن كما حدث في اندونيسيا، وكما حاول أن يفعل في بلدان عدة تزايد فيها الفساد واتضحت آثاره من خلال أزمة جنوب شرق آسيا.. والتي جاءت معاصرة لمشاكل أخرى في أفريقيا.

في كينيا، والقصة حدثت منذ حوالي عامين أو ثلاثة جرى اختبار التدخل الخشن في أمور تتعلق بنزاهة الحكم، فقد قام أحد الوزراء باستيراد صفقات السكر دون دفع رسوم جمركية فقرر الصندوق إيقاف برامج مساعداته (ومعها طبعا برامج البنك والمانحين الآخرين إن وجدوا).. و.. وقال: «تتم المحاسبة أولا».. وبالفعل خرج الوزير من

الحكومة، وتم عزل نائب مدير الجمارك الذى كان مسئولا عن الواقعة.

هناك إذن أسلحة يمتلكها الصندوق وتبدأ بما يسمى مشاورات المادة الرابعة من قانون الصندوق والتى تتيح له إسداء النصح للحكومات.. وتنتهى بالحرمان من المساعدات والتى تخضع لما أسموه (المشروطية) فالسياسة التى تتبعها الدول التى تاخذ العون لابد أن تكون فى إطار سياسات عامة يسعى لها الصندوق ووفق حزمة من الالتزامات المتبادلة.

من جانبه، وضع أيضا البنك الدولى ما أسماه (استراتيجية مكافحة الفساد) وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٩٧ ..ومنذ ذلك التاريخ وحتى أبريل (٢٠٠٠)، طبقا لوثيقة أصدرها البنك شارك خبراء البنك الدولى فى ستمائة برنامج مضاد للفساد.. وهى برامج ممتدة لـ (٩٥) دولة، وكما تقول الوثيقة فقد بات الحديث الآن أكثر صراحة، وإن كانت البداية: المشروعات التى يمولها البنك.. والأنظمة التى يمكن أن يساعد على بنائها.

ووفقا لأدبيات البنك الدولى فإن الفساد:

يضرب الفقراء أولا.

ويؤثر على مستوى الخدمات العامة وقد يوجهها لمن لا يحتاجها.

ويؤثر على نمو القطاع الخاص.

ويقلل أثر المعونات الموجهة للدول النامية كما يقلل أثر الدعم الذى قد تخصصه بعض الحكومات للفقراء.

و.. هكذا وضع البنك ضمن سياسته.. محاربة الفساد والتضليل فيما يتعلق بمشروعات يساهم فيها، أو تحليلات اقتصادية يقدمها.. شكل لذلك لجنة خاصة، وأنشأ خطا ساخنا للإبلاغ عن حالات فساد تتعلق بأعماله، ويرى البنك - طبقا لوثيقة أخيرة - أن (٧٠٪) فقط من القروض كانت تدار بشكل جيد، والآن، وبعد الاستراتيجية الجديدة ارتفعت النسبة إلى ٨٦٪، ويرى البنك أن جهود الإصلاح تذهب سدى إذا لم تكن هناك

والرشاوى لها ألف باب، لكنها بلغة رجال الاقتصاد تأتى من خلال العرض الطلب.. فموردو الأسلحة قد يرشون الموظفين الرسميين فى البلاد المستوردة لكى يشتروا بضائعهم.. والدول المصدرة قد تمنح تخفيضا فى الضرائب لتعويض الشركات عما تدفعه من رشاوى!

مساندة سياسية، لذا فهو يجرى الحوار مع الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدنى فى وقت واحد.. وهو يقدم فى برامج المساعدات ما تحتاجه كل دولة: إدارة الضرائب فى لاتثيا، أفكار لاصلاح القضاء فى المغرب وجواتيمالا وألبانيا، وإصلاح الخدمة المدنية فى بوليفيا إصلاح مؤسسى شامل فى جورجيا، ونظام للمحاسبة فى بيرو أطلق عليه اسم (المراقب العام).

وكما يقول البنك أنه قد أصبح لديه وضع فريد يتعرف من خلاله على أوضاع الفساد فى العالم، ومن خلال هذا الموقع جاء حديث رئيس البنك فى المؤتمر الدولى التاسع ضد الفساد والذى انعقد فى أكتوبر (٩٩) بجنوب أفريقيا: «ليس هناك أكثر أهمية من قضية الفساد التى تقف جنبا إلى جنب مع قضية الفقر والعدالة.. وهى قضية يساعد فيها المجتمع الدولى لكن الأساس هو المجتمع المحلى.. الداخل أولاً».



أحس أن هناك عزما حقيقيا لدى المؤسسات الدولية لمحاربة الفساد فى الدول التى تتعامل معها، وأحس بدرجة أقل بهذا الأمر بالنسبة لدول مانحة مثل الولايات المتحدة التى تخصص حوالى (١٤) مليار دولار كمساعدات خارجية كل عام، لكننى غير متاكد أن كل هذه البرامج والتدفقات المالية الدولية تجرى.. بلا فساد، بل إن بعضها - وكما أظن - يأتى إلى بلادنا بهدف الإفساد وليس العكس.

إنها لعبة المصالح، وليست لعبة الطهارة.. والمصلحة تقضى بين المتنافسين على السوق الدولية ألا يخرج أحدهم من الملعب، أو يرتكب (فاول) ضد الآخرين.

أ لماذا كانت الحكومات هى المستهدفة بكل هذه المؤتمرات، والأدبيات والمعاهدات المضادة للفساد فالسبب بسيط لأنها (المالك الغائب).. ولأنها تحوز أكبر نسبة من الناتج تتصرف فيه من خلال الميزانيات.. ولأن البيروقراطية تصنع التعقيدات، وتحلها.. ولأنه - كما يقول الأديب الراحل فتحى غانم فى عنوان صحفى قديم «بقرش.. يرقص الفيل».. والفيل هنا هو الحكومات، وهم بعض الكبار وبعض الصغار. الكل يرقص والاقتصاد الأسود تزيد نسبته فى العالم، وفى بلادنا العربية دون استثناء.

هل يكون الحل إقتصاديا كما تقول المنظمات الدولية أو بعضها .. أم يكون سياسيا كما يلمحون احيانا؟.. هل يأتى من خلال ضغط الخارج (والذى يخشى على أمواله ومصالحه) أم من خلال ضغط الداخل.. صاحب المصلحة الأول؟.. وهل تكون البداية : إصلاحا للإدارة وضبطا للنظم.. أم تكون الديمقراطية وتداول السلطة فلا يبقى البعض فى موقعه ردحا من الزمان مهمته الرسمية: ممارسة الحكم أو الإدارة.. بينما تكون مهمته الحقيقيه: حراسة أخطائه.. وحراسة أمواله.

الفساد قضية خطيرة إنه النزيف الذى نطلق عليه ألفاظا عصرية مثل: عمولات - غسيل أموال - مقابل شطارة.. والشطار كثيرون.

english-everywhere dot com



هل تقضى الإنجليزية على اللغات الأخرى؟

جوشوا أ. فيشمان

حوالى ثلث سكان العالم - يستخدمون اللغة الإنجليزية بصورة أو بأخرى هذه الأيام

رغم لغتك العربية، ربما - أنت أيضًا تكون واحدا من حوالى ١,٦ بليون شخص - حوالى ثلث سكان العالم - يستخدمون اللغة الإنجليزية بصورة أو بأخرى هذه الأيام. فعلى الرغم من أن الإنجليزية هى اللغة الأم لما لا يزيد على ٣٨٠مليون شخص، إلا أنها تستحوذ على نصيب الأسد من كتب العالم وأبحاثه الأكاديمية وصحفه ومجلاته. ومحطات الإذاعة والتلفزيون الأمريكية وكذلك الأفلام المؤثرة تصدر للعالم ثقافة الصخب باللغة الإنجليزية. وهناك أكثر من ٨٠٪ من المواد المتاحة على شبكة الإنترنت باللغة الإنجليزية، بالرغم من أن حوالى ٤٤٪ من مستخدميها يستعملون فى حياتهم لغات أخرى. وليس من عجب إن تضاعف الطلب الدولى على الإنجليزية وكذلك على تعلمها. وسواء اعتبرنا الإنجليزية «لغة قاتلة» أو لم نعتبرها كذلك، وسواء اعتبرنا انتشارها عولمة حميدة أو استعمارًا لغويًا، فإن هذا الانتشار الكبير لا سبيل إلى إنكاره، ولم يقدر أحد على إيقافه حتى الآن. فلم يشهد التاريخ الإنسانى من قبل استعمال (ناهيك عن شبه الاستعمال) لغة على هذا القدر من الانتشار.

وعن طريق هذا الانتشار غير المسبوق، جاءت قوة غير مسبوقة. فعلى الرغم من أن اللغة مرادف إما للأيديولوجيا أو المصالح القومية، إلا أن دور الإنجليزية كواسطة لكل شئ، من الديبلوماسية الرفيعة إلى تنظيم المرور الجوى، تحقق قدرا من الامتيازات للمتحدث بها. وتسهم البلاد التى تتخذ من الإنجليزية لغة أولى لها بحوالى ٤٠٪ من إجمالى الناتج المحلى العالمى. وأكثر فأكثر، يتزايد عدد الشركات التى تجعل من إتقان الإنجليزية شرطا ضروريا للتعيين أو الترقية. كما يتزايد اعتماد الساسة، على مستوى العالم، على إتقان الإنجليزية فى تحقيق النجاح. وعندما التقى المستشار الألمانى المنتخب حديثا جيرهارد شرودر والرئيس الفرنسى جاك شيراك، فى سبتمبر، لمناقشة مستقبل التعاون لم يتحدثا بالفرنسية أو الألمانية، بل بالإنجليزية. والإنجليزية هى اللغة الرسمية للبنك المركزى الأوروبى، بالرغم من أن المملكة المتحدة لم تنضم إلى الاتحاد النقدى الأوروبى، وأن البنك موجود فى فرانكفورت، وأن الموظفين الإنجليز فيه لا تتجاوز نسبتهم ١٠٪. وقد أصبحت هيمنة الإنجليزية مصدر ضيق داخل الاتحاد الأوروبى حتى أن قادة الاتحاد يقدمون الحوافز لطاقم الموظفين لتعلم أى لغة رسمية أخرى.

على أن اللغويين المحترفين يترددون عند التنبؤ بالمدى الذى يمكن أن تصل إليه عولمة الإنجليزية فى المستقبل. فالتاريخ يخبرنا بأن اللغات تصعد وتهبط وفقا للقوة العسكرية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التى تدعمها. وبعيدا عن مد التاريخ وجزره، هناك أسباب أخرى للاعتقاد بأن نفوذ الإنجليزية سوف يتضاءل فى نهاية المطاف. أحد هذه الأسباب هو أن الإنجليزية منتشرة بالفعل ومستعملة من قبل أقلية محظوظة. يضاف إلى هذا أن أشكال التفاعل اللصيقة بالعولمة، من التجارة إلى الاتصالات، شجعت على إضفاء الصبغة الإقليمية ومعها نشر اللغات الإقليمية. فالعربية والصينية والهندية والأسبانية وعدد آخر من اللغات حققت بالفعل قدرا كبيرا من الانتشار- ولازال انتشارها فى تزايد. وأخيرا فإن انتشار الإنجليزية وهذه اللغات الإقليمية مجتمعة - ناهيك عن القوى الكاسحة التى تحفز نشرها - كانت له آثاره الضاغطة على الجماعات الصغيرة، وأسفر عن ظهور جيوب للنزوع القلق نحو المحلية والإحياء اللغوى المحلى المناهض للعولمة.

أحب لغة جارك

وفدت الإنجليزية إلى ماساشوستس بنفس الطريقة التى دخلت بها بومباى: على ظهر سفينة بريطانية. فوراء كل تلك النجاحات التى حققها مايكروسوفت وديزنى يقف الانتشار الواسع للإنجليزية، الناتج عن قرون من الاستعمار الناجح بواسطة إنجلترا. فمن بين ١٠٠ من المستعمرات التى حصلت على استقلالها فيما بين ١٩٤٠-١٩٩٠ هناك ٥٦ مستعمرة بريطانية سابقة وواحدة كانت تابعة لأمريكا. ومعظم المستعمرات التى استقلت عن بريطانيا إما احتفظت بالإنجليزية كلغة رسمية أو، على الأقل، اعترفت باستخدامها.

وانتشار الإنجليزية المطرد الآن يعتبر سببا ونتيجة، فى آن واحد، للعولمة. وهناك بعض العوامل الواضحة: نمو التجارة العالمية والتعاون بين الأمم، واتساع مدى الإعلام الأمريكى بصورة غير مسبوقة، وتوسع شبكة الاتصال الإلكترونى التى أتاحتها الإنترنت، والنفوذ اللغوى للأغانى والأزياء والرياضة وأساليب الاستجمام الأمريكية. وهناك عوامل أخرى ربما بدت أقل وضوحا، وإن لم تكن أقل قوة، مثل اتساع دراسة الإنجليزية فيما وراء البحار والأعداد الضخمة من الطلاب الذين يسافرون إلى الخارج لدراستها فى البلاد الناطقة بها. وفى عام ١٩٩٢، التحق نصف الطلبة الأجانب والبالغ عددهم أكثر من مليون على مستوى العالم بمعاهد فى ست بلاد لغتها الأم الإنجليزية: استراليا، كندا، ايرلندا، نيوزيلندا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية.

على أن العولمة لم تغير كثيرا من حقيقة أن انتشار الإنجليزية، وبغض النظر عن الموقع، متصل تماما بالطبقة الاجتماعية، والسن، والجنس، والمهنة. ووجود مجموعات كبيرة من الشباب باتساع العالم يمكنهم ترديد أغانى مادونا لا يعنى أنهم قادرون على إدارة حوار صحيح، أو حتى فهم ما تقوله مادونا. فالعلاقة التعليمية الرسمية القصيرة باللغة الإنجليزية التى تتاح لمعظم دارسيها من الهزال بحيث لا يمكنها أن تؤدى إلى معرفة متينة بالقراءة والكتابة أو الطلاقة أو حتى الإنشاء. والحقيقة أنه بفضل الحماس والنقد اللاذع، الناجم عن العولمة الواسعة المدى، انتعشت التفاعلات الإقليمية - التجارة، السفر، انتشار الأديان، الزيجات المختلطة الأعراق - التى أثرت على قطاعات واسعة من السكان المحليين. وهذه التفاعلات من شأنها زيادة انتشار اللغات الإقليمية.

ولنأخذ حالة أفريقيا، حيث يتحدث الناس

هناك ٢٠٠٠ لغة من لغات العالم الحديث البالغ عددها ٦٠٠٠ لغة تقريبا، وحيث يعيش هناك ١٣٪ من سكان العالم. الإنجليزية ليست الوسيلة الوحيدة أو حتى الأفضل لاجتياز هذه العقبة اللغوية. ففي أرجاء شرق أفريقيا، تكون السواحلية هي اللغة الأولى التي يجرب استخدامها اثنان من الغرباء عند اللقاء. والمواطن الشرق أفريقي العادى يصادف السواحلية فى سياقات مختلفة، من السوق، إلى التعليم الابتدائى، ونشرات «الإرشاد» الحكومى، وحتى برامج الإذاعة الشعبية والأفلام. والأفلام الهندية الجديدة عادة ما يجرى ترجمتها إلى السواحلية وتعرض فى قرى ومدن باتساع كينيا وتنزانيا وأوغندا. وفى غرب أفريقيا، هناك حوالى ٢٥ مليونًا يتحدثون الهوسا كلغة أولى ويستخدمها ضعف هذا العدد تقريبا كلغة ثانية أو ثالثة، ويرجع ذلك فى جانب كبير منه إلى انتعاش التجارة الإقليمية والأسواق المحلية فى الإقليم. وحيث إن معظم الناطقين بالهوسا من المسلمين، فإن كثيرين منهم من الملتحقين بمدارس لتعليم القرآن حيث يتعلمون اللغة العربية، والتى تعتبر لغة إقليمية رئيسية فى شمال أفريقيا. وهكذا، فإن كثيرين من الأفارقة ثلاثيو اللغة على أسس وظيفية: اللغة الأم للحديث «فيما بينهم» ، والهوسا للتجارة والتعليم المدنى، والعربية للصلاة ودراسة القرآن. ويعتقد الناطقون بالهوسا اعتقادا راسخا بأن الهوسا تتمتع بإمكانيات كبيرة كلغة لتوحيد حتى تلك البلدان من غرب أفريقيا التى لم تنتشر فيها بعد. والمنافس الرئيسى لها ليست الإنجليزية، وإنما لغات إقليمية أخرى مثل الولوف ـ التى تنتشر أيضا فى الأسواق داخل وحول السنغال ـ والإنجليزية البيدجانية.

إن تزايد الاتصال الإقليمى وتفاعل الأسواق غير الرسمى والهجرة، يقود اللغة الإقليمية إلى الانتشار حول العالم مثلما هو حادث فى أفريقيا. فالماندرينية الصينية تنتشر فى أرجاء الصين وعند بعض جاراتها الجنوبية. والأسبانية تنتشر فى الأمريكتين. ومئات التنويعات من الإنجليزية البيدجانية ظهرت بشكل غير رسمى بين جماعات متباينة فى استراليا والكاريبى وبابوا بغينيا الجديدة وغرب أفريقيا. ولا يزال استعمال الفرنسية فى تزايد فى العديد من المستعمرات الفرنسية السابقة، وإن كان بطريقة أشد بطئا من تلك التى شهدتها خلال ذروة نفوذها الاستعمارى. والهندية تصل إلى متعلمين جدد فى الهند المتعددة اللغات والأعراق. والعربية تنتشر فى شمال إفريقيا كلغة للإسلام وكلغة هامة للتجارة الإقليمية.



ويعود انتشار بعض اللغات الإقليمية، فى جانب منه، إلى جهود لجان المنظمات واللجان الحكومية. ففرنسا تنفق بلايين الفرنكات سنويا لدعم المؤتمرات والمدارس وأجهزة الإعلام التى تشجع استخدام الفرنسية باعتبارها واسطة لثقافة مشتركة. والمنظمات الإسلامية الشرق أوسطية تدعو إلى الإسلام على نطاق العالم عن طريق كم ضخم من الكتيبات وغيرها، المكتوبة بالإنجليزية، فى الوقت الذى تتعامل فيه فيما بينها بالعربية. وفوق ذلك، فإن العديد من الحكومات، فى سعيها لنشر الإسلام فى نطاق حدودها، تلجأ إلى تعريب الأقليات العرقية المحلية (مثال ذلك، البربر فى المغرب والمسيحيون فى السودان). وتتولى الحكومة الألمانية تمويل ٧٨ من معاهد جوته، الموزعة من بيروت إلى جاكارتا، والتى تقوم بتدريس مناهج منتظمة فى اللغة الألمانية وكذلك عرض الأعمال المسرحية وتنظيم المعارض الفنية والمحاضرات ومهرجانات الأفلام الألمانية. وسنغافورة، وهى بلد صغير يستخدم أربع لغات رسمية، دخلت حملته «تحدثوا الماندرينية» عامها التاسع عشر. وقد خططت سنغافورة الحملة لتشجيع المتحدثين باللهجة الصينية على تبنى لغة مشتركة وتسهيل استعمال الماندرينية كلهجة إقليمية.

ومن المحتم أن تتزايد أهمية اللغات الإقليمية فى المستقبل القريب. فالكتاب الشعبيون، والتجار المتجولون، وتجار الأسواق، ودعاة نشر التعليم، ورجال الإسعاف، وصانعو الأفلام، وبعثات التبشير، كل هؤلاء يميلون إلى الاعتماد على لغة إقليمية مشتركة طالما كانت تتيح الفرصة للانتشار الأوسع، حتى وإن كان أقل سرعة، والوصول إلى المزيد من الناس. وفى العديد من المناطق النامية، تسهل اللغات الإقليمية التوسع الزراعى والتجارى والصناعى عبر الحدود الثقافية والحكومية المحلية. كما أنها تدعم مراحل التعليم المختلفة، بما فيها التعليم الأولى، فى المناطق المفرطة فى تعدديتها اللغوية. وكلما ازداد عدد اللهجات المحلية، كلما تصدرت اللغات الإقليمية.

الوطن وطن اللغة

برغم كل ضغوط ومكافآت الإقليمية والعولمة، تظل الهويات المحلية هى الأكثر تأصلا. وحتى لو أسفرت النتيجة النهائية للعولمة عن جعل العالم أصغر، فإن مداها يعزز، فيما يبدو، الحاجة إلى صلات محلية أكثر حميمية بين كثير من الأشخاص. وكما صرح برنارد بوانانت، عمدة بلدة قيمبر ببريتانى، لصحيفة واشنطن بوست فإن «الإنسان حيوان ضعيف ويحتاج إلى روابطه الحميمة. وكلما ازداد العالم انفتاحا، كلما تزايد ارتباط الإنسان بجذوره وبأرضه» .

وفى معظم التجمعات، فإن اللغات المحلية، مثل لغة بوانانت البريطانية تلك، تعد وظيفة رمزية قوية باعتبارها علامة واضحة على «الأصالة» . فجوهر الخبرة التاريخية المشتركة للجماعة، والأصالة التى تعكس القاسم المدرك المتصل من الماضى الذى أضفيت عليه المثالية ثقافيا وحتى الحاضر، تحملها اللغة والتقاليد (وبصورة ملتبسة أحيانا) المتصلة بأصول الجماعة. والاهتمام بالأصالة قاد معظم العلمانيين الإسرائيليين إلى إعطاء العبرية الأولوية فى الحديث فيما بينهم إلى جانب معرفتهم بالإنجليزية بل والعربية. ونفس هاجس الأصالة هو الذى يدفع يهود الهاسادا فى إسرائيل أو الشتات إلى إعطاء الأولوية لليديشية إلى جانب

تعلم العبرية والإنجليزية. وفى كل حالة، فإن الأصالة تدعم جوهر المعتقدات والتفسيرات الثقافية التى لا تقاوم العولمة فحسب بل وتتعزز فعليا بـ «المخاطر» الناجمة عن العولمة، والتى تهدد هذه القيم التاريخية. وقد يرى الباحثون أن الهويات الثقافية تتغير مع الوقت استجابة لنظام مكافأة محدد. لكن المحللين غالبا ما يقاومون مثل هذه التفسيرات ويدافعون عن الأصالة واللغات الأم المحلية فى مواجهة ما يرونه تهديدا من جانب العولمة عن طريق العاطفة الدينية.

وكنتيجة لذلك، وبصورة لم يشهدها التاريخ من قبل، أصبح عدد اللغات المعترف بها كبيرا للغاية: حوالى ١٢٠٠ لغة. فقد استفادت العديد من اللغات الأصغر، حتى تلك التى يستعملها أقل من المليون شخص بكثير، من منظمات الحفاظ على اللغة. سواء تلك التى تشرف عليها الحكومات أو التطوعية. وعلى أكثر المستويات غير الرسمية، هناك جماعات فى ألاسكا وشمال غرب أمريكا تكون مجموعات نقاش على الإنترنت، فى محاولة لنقل اللغات الأمريكية الأصلية إلى الأجيال الأصغر. وفى أقاليم الباسك، وقطالونيا، وغاليسيا الأسبانية، فإن مثل هذه الحركات تبدى مقاومة سياسية شرسة للحكومة الأسبانية فيما يتعلق بالحقوق السياسية واللغوية. وتتراوح المشروعات بين حملة لطبع النقود الأسبانية بأربع من لغات الدولة الرسمية وبين تنشئة الأطفال عليها منذ الحضانة والمدرسة الابتدائية. ويتصدى الزاباتيون فى المكسيك لإحياء لغات المايا كجزء لا ينفصل



من حملتهم السياسية المطالبة بالاستقلال الذاتى.

وبالإضافة إلى الاستنجاد بالأهمية الخالدة للجذور المحلية، يقدم أنصار اللغات المحلية دفوعات عملية عن استمرارهم فى استخدامها. فهذه اللغات تحقق مستويات نجاح مدرسية أعلى، ودرجة أعلى من المشاركة فى الحكومة المحلية، ووعيًا أكبر بالمواطنة، ومعرفة أفضل بثقافة الناس وتاريخهم وإيمانهم. وأطفال النافاجو Navajo، بولاية اريزونا، ممن كانت النافوجية لغتهم الأساسية فى الدراسة، أثبتوا تفوقا فى اللغة الإنجليزية على غيرهم ممن كانت الإنجليزية لغتهم الدراسية الأولى. كما أن بإمكان الحكومات ومنظمات الإغاثة استخدام اللغات المحلية فى نشر المعلومات المتصلة بالتقنيات الصناعية والزراعية وكذلك كوسيط بين متلقين متنوعين للتوعية الصحية. وعلى سبيل المثل، توصل العاملون فى مجال التنمية بغرب أفريقيا إلى أن هذه اللغات المحلية هى أفضل وسيلة لتعليم عدد ضخم من الفلاحين كيفية زراعة ورعاية المحاصيل بما يحقق أعلى إنتاجية. ومن الاستوريين إلى شعب الزولو، فإن اعتماد العالم عمليا هو على تلك اللغات المحلية التى لا تقل أهمية عن أدوار الهوية التى تعبر عنها هذه اللغات. على أن كل من الأقلمة والعولمة بحاجة إلى تعدد لغات أولئك الناطقين باللغات المحلية.

التطلع قدما

حيث إن كل التجمعات الناطقة باللغات الأكبر تتجه نحو الحفاظ على لغاتها الخاصة فى مواجهة العولمة، فلا ينبغى أن نفاجأ إن نهج أصحاب اللغات الأصغر نفس النهج. ولكن إذا كان بمقدور الألمان تبنى العولمة، مع استمرار استخدامهم للغة الألمانية فيما بينهم، فلماذا لا يفعل التيلجو فى الهند الشىء نفسه؟

إن التعددية اللغوية تسمح للناس باختيار كهذا. ولكل لغة فى تجمع متعدد اللغات وظائفها الخاصة المتميزة. فاللغة المستخدمة مع الأسرة والمقربين غير تلك التى تستخدم مع الشركاء أو الجيران، وليس من الضرورى استخدام نفس اللغة، أو لغة واحدة، مع الرؤساء أو فى التعامل مع الحكومة. وقد تحتاج قراءة الموضوعات التقنية أو الاقتصادية المتقدمة إلى إتقان لغة أخرى غير تلك التى نقرأ بها مقالات الصحف المحلية. وطالما أن لغتين أو ثلاثا لا تتنافس على نفس الوظيفة الاجتماعية، فإن التقسيم اللغوى للعمل يمكن أن يكون مطلوبا وقادرا على الاستمرار فى آن. وهناك قلة من الهنود الناطقين بالإنجليزية، على سبيل المثال، تنازلت عن الإنجليزية لصالح لغاتهم الأم أو لغاتهم الإقليمية. ونفس الشىء فى بورتوريكو والمكسيك، حيث تستخدم الإنجليزية «أحيانا»، حتى بين أولئك الذين تعلموها طلبا للترقى الوظيفى أو الدراسى.



وبالطبع، فإننا سوف نشهد صراعا، بغض النظر عن الفائز والخاسر. والصراع اللغوى يحدث عندما يكون هناك تنافس بين لغتين فى سبيل تحقيق الانفراد بوظيفة ذات علاقة بالسلطة ـ الحكومة أو التعليم، على سبيل المثال. وغالبا ما نرى هذا الخلاف عندما تسعى لغة إقليمية أو محلية إلى انتزاع أدوار كانت تقليديا للغة محلية أخرى. ففى الفترة السوفيتية، اتخذت موسكو موقفا عدوانيا من اللغات المحلية، مؤسسة للروسية كلغة وحيدة للتعليم والمصالح الحكومية فى مناطق البلطيق وآسيا الوسطى. لكن فى التسعينيات، بدأ كثير من هذه الدول إهمال اللغة الروسية تدريجيا فى المدارس وأجهزة الحكومة بل وحتى فى المسرح ودور النشر، لصالح لغاتهم القومية. كما سنت كل من استونيا وليتوانيا ولاتفيا أشد القوانين صرامة، للالتزام ـ عند كتابة المناهج الدراسية أو العلوم أو الثقافة ـ باللغات القومية و(حتى وقت قريب) ترك ذوو الأصول الروسية فى العراء.

وحتى بالرغم من أن الأنظمة المحلية والإقليمية غالبا ما تستخدم لأغراض سياسية، فإن اللغات العالمية (بما فيها الإنجليزية، لغة العولمة) يمكن أن تتصارع فيما بينها. وقلق فرنسا بشأن انتشار الإنجليزية موثق تماما. فالحكومة فى باريس تمنع الإنجليزية فى الإعلانات وتحدد عدد الأفلام الناطقة بالإنجليزية المسموح بعرضها فى البلاد. وهناك شخصية على مستوى وزارى، هو وزير الثقافة والاتصالات، مسئولة عن مراقبة سلامة اللغة القومية والأكاديمية الفرنسية، مرجع فرنسا القومى فى اللغة والأسلوب، تحدد الاستخدامات الرسمية للعامية الأنجلو ـ أمريكية لحماية اللغة الفرنسية من «التخريب».

وغالبا ما يرى أولئك الذين يتحدثون لغات العولمة ويتقنونها أن اللغات المحلية «المزعومة» تشكل خطرا على سلام العالم وازدهاره. وخلال معظم فترات التاريخ المكتوب، كانت اللغات القوية ترفض اقتسام السلطة مع اللغات الأصغر وتتهمها بإثارة المشاكل وزعزعة الاستقرار وتشجيع العنف العنصرى والانفصالية. لكن تخلص ايرلندا من الغاليين فى القرن التاسع عشر لم يقنع كثيرا من الأيرلنديين بروابطهم مع إنجلترا، وهؤلاء الذين يخشون فقدان سلطتهم واندحار لغات أصالتهم المحبوبة لديهم ما يدعو إلى الاعتقاد بأن معظم المتاعب تأتى من النهاية المعاكسة للغة وانقطاع استمرارية السلطة. والتجمعات الصغيرة تدين بهذه الأخوات اللغوية الكبيرة للإمبريالية والانتحار اللغوى والانتحار الورائى وتوجيه العقل. ■

www. english everywhere. com

■ كانت الإنجليزية بالفعل لغة دولية رئيسية عندما بدأت مجموعة من العلماء بوزارة الدفاع الأمريكية تنفيذ شبكة مشروعات البحث المتقدم للوكالة ARPANET- البديل السابق للإنترنت. لكن انفجار شبكات الكمبيوتر، خلال العقد الماضى، أدى على ما يبدو إلى انتشار الإنجليزية بصورة غير مسبوقة.

وتتمتع الإنجليزية عن غيرها من لغات الفضاء الإلكترونى بعدة مزايا. فبرامج تشغيل الكمبيوتر الأولى قام بتصميمها الأمريكيون، الذين اتخذوا من الأبجدية الإنجليزية أساسا لنظام العلامات لأول كمبيوتر، وللشفرة القياسية الأمريكية لتبادل المعلومات ASCII. وتظل الإنجليزية اللغة الوحيدة التى يمكن استعمالها بالفعل على أى كمبيوتر فى العالم دون تحريف. والغالبية العظمى من مراكز تبادل المعلومات servers على شبكة الإنترنت، فى جميع أنحاء العالم ـ ٩٠٪ حسب مصادر إى ماركت، المؤسسة الاستشارية للشبكة ـ لازالت متمركزة فى البلدان التى تستخدم الإنجليزية كلغة أم. كما تقدر المعلومات المخزنة باللغة الإنجليزية على أجهزة الكمبيوتر فى أرجاء العالم بـ ٨٠٪ من إجمالى هذه المعلومات.

لكن تفوق الإنجليزية هذا لن يقدر له أن يدوم طويلا. فالبرامج الجديدة تمكن مستخدمى الإنترنت بالتخاطب بكل اللغات، من الألمانية إلى العربية إلى الصينية إلى الروسية. ومعظم أدوات تصفح الإنترنت الآن تتيح «تفضيلاً لغويًا» عند الاتصال بمواقع نائية بما يسمح لها بتمييز اللغات وعلامات الأنظمة المختلفة. أما أكثر التغييرات أهمية فهو تنامى استخدام الإنترنت فى البلدان النامية. وحسب تقدير مؤسسة Nua الأيرلندية لاستشارات الإنترنت، فإن نسبة تطور استخدام الإنترنت سنويا تبلغ ٤٠٪ فى الولايات المتحدة، بينما تصل إلى ٢٠٠٪ فى البرازيل، و٣٠٠٪ فى الهند، وتتجاوز النسبة ٥٠٠٪ فى الصين. ومع نهاية هذا العام، فإن الأمريكيين ـ حسب تقديرات إى ماركت ـ سوف يصبحون أقلية على الشبكة.

ما الذى يعنيه هذا بالنسبة للإنجليزية؟ يشير متخصص اللغات دافيد جرادول إلى أن أكثر من ٥٠٪ من استخدام الإنترنت فى الولايات المتحدة «محلى»: مراسلات إلكترونية بين الأصدقاء، على سبيل المثال. ومن هنا، فإن سيادة الإنجليزية ستتراجع مع دخول المزيد من غير المتحدثين بالإنجليزية على الشبكة. لكن الإنجليزية من المحتمل أن تظل اللغة الوحيدة التى يشترك فى استخدامها أكبر عدد من الناس على الإنترنت فى المستقبل المنظور ـ وقد يكون السبب الوحيد هو أنها تظل اللغة الأكثر فهما من جانب أكبر عدد من الناس. ■

هل تتحدث الأوروبية؟

يحث الاتحاد الأوروبى أمم أوروبا على الحديث بصوت واحد. فما هى اللغة التى سيتحدث بها هذا الصوت؟

لقد كان على الاتحاد الأوروبى دائما أن يسير على خيط دقيق بين تشجيع الاندماج وبين إثارة المشاعر القومية عند أولئك الحذرين بالفعل من «المواطن الأوروبى». وفى الذكرى الأولى لتأسيسها عام ١٩٥٨، طرحت الجماعة الاقتصادية الأوروبية سياسة للتعددية اللغوية لضمان تمثيل لغة قومية لكل بلد من أعضائها فى المنظمة الجديدة. واليوم، فإن هناك ١١ لغة رسمية للاتحاد الأوروبى يمكن لأعضاء البرلمان الأوروبى استخدامها فى النقاش أثناء الجلسات.

إن العولمة والأقلمة والمحللة -localiza tion، كلها ظواهر جديدة. لكنها تتفاوت فى قوتها باختلاف مناطق العالم والزمان. وبإمكان كل منها أن تلعب دورا مؤثرا فى التغيير الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، بل والسياسى. فقد اختار التاميل الهنود الراغبون فى التواصل مع الشماليين الناطقين بالهندية، اللغة الإنجليزية، أكثر من مرة، كواسطة لتحقيق هذا الاتصال. ومن المفارقات أن اللغة الإنجليزية كانت، بالنسبة لكثيرين من التاميل -التى تسود البرودة علاقتهم بالسلطة المركزية فى دلهى- تبدو لغة أقل استعمارية من الهندية. أما فى إندونيسيا، فإن اللغة الإنجليزية ترتبط بالحكم العسكرى وإنكار الحقوق المدنية واستغلال العمال، حيث تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية، منذ زمن، نظام جاكارتا الأوليجاركى. وعلى الرغم من انتشار الإنجليزية فى أوساط الفئات العليا من إندونيسيا، فإن الحكومة تؤكد على استخدام لغة إندونيسيا الرسمية (بهاسا اندونسيا) فى مخاطبة الجمهور. أما اللغات المحلية فهى محرومة حتى من الاعتراف الرمزى. والزعماء التقليديون والعامة فى جاوا، ورثة التقاليد الأدبية القديمة لسكان جاوا الأصليين، يستاءون من تفضيل الإنجليزية والإندونيسية على لغتهم. ونشر اللغات غالبا ما يكون ممقوتا لأنه يمكن أن ينزل الضرر بكثير من اللغات فى الوقت الذى تحقق فيه المزايا للبعض الآخر منها.



وقد اتخذ مسئولو الاتحاد الأوروبى مجموعة من الإجراءات التى من شأنها دفع التنوع اللغوى فى أوروبا. ففى ١٩٨٤، أنشأ البرلمان الأوروبى المكتب الأوروبى للغات الأقل استخداما، وهو ما يضمن الحفاظ على الحقوق اللغوية لحوالى ٥٠ مليون مواطن أوروبى ممن يتحدثون لغة أو أكثر من لغات الأقليات الأوروبية الأربعين المعترف بها. ومنذ فترة قصيرة للغاية، بدأ الاتحاد الأوروبى مشروع -LIN GUA، وهو برنامج تعليمى يدعم تدريب المدرسين والمشروعات التعليمية المشتركة، ويطور الأدوات اللازمة للتعليم. وعلى الرغم من أن المشروع يمثل كل لغات الاتحاد الأوروبى الرسمية، بالإضافة إلى الغالية والأيسلندية واللوكسمبورجية والنرويجية، فإن هناك تفضيلاً لتلك اللغات الأقل استخداما وتعليما.




ولربما كان ميثاق اللغات الإقليمية ولغات الأقليات هو أهم معالم السياسة اللغوية الأوروبية. وهذا الميثاق، الذى تبنته، فى ١٩٩٢، الدول الأربعين الأعضاء بالمجلس الأوروبى، يلزم الموقعين عليه بتسهيل استخدام لغات الأقليات فى التعليم وإجراءات التقاضى والمصالح الإدارية والعامة وأجهزة الإعلام. وقد وقع الميثاق حتى الآن فنلندا وهولندا، مع بريطانيا وألمانيا، وينتظر انضمام أسبانيا.

وبالرغم من المبادرات الكبيرة لهذه القارة، فإن الجهود المبذولة فى سبيل المساواة فى التعامل مع كل اللغات الرسمية داخل إدارة الاتحاد قد باءت بالفشل. وعلى الرغم من أن ١٥٪ من عدد أعضاء المبعوثية الأوروبية آل ١٧٠٠٠ هم من المترجمين والمتخصصين فى اللغات، فإن مؤسسات الاتحاد لا تستخدم سوى عدد محدود من «اللغات العاملة» لتصريف الأعمال اليومية. ويأتى فى مقدمة هذه اللغات الإنجليزية، اللغة الأساسية المستخدمة فى شبكة المشروعات المشتركة (المسئولة عن تنظيم المشروعات المشتركة بين شركات الاتحاد الأوروبى) التابعة للاتحاد، والبنك المركزى الأوروبى، والعديد من نشرات الاتحاد، ومعظم المخاطبات الاقتصادية الأخرى. والإنجليزية تهدد كذلك بالحلول محل الفرنسية كلغة للدبلوماسية داخل الاتحاد الأوروبى. فقد أظهرت دراسة أجريت عام ١٩٩١ أنه بالرغم من أن الفرنسية لازالت أكثر استخداما من الإنجليزية فى المبعوثية الأوروبية، فإن الإنجليزية لازالت مفضلة عند شباب الموظفين.

وذات مرة، تساءل هنرى كيسنجر، مازحا: «عندما أود التحدث مع أوروبا، اتصل بمن؟». الأوروبيون لازالوا مختلفين حول الإجابة. لكن أيا كانت هذه الإجابة، فمن المحتمل أن تكون قادرة على تلقى المكالمة بالإنجليزية.

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهورى

٢ـ روابط شعبية لتنمية العلاقات العربية

يجب التفكير في ربط الأمم الشرقية بروابط اقتصادية ولغوية وقانونية قبل التفكير فى ربطها بروابط سياسية، فإن هذه تأتى تالية لتلك ومثل ذلك الدول الألمانية. ولتطبيق ذلك علميًا يمكن البدء بالنهضات الآتية:

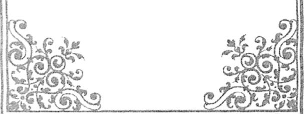
١ـ نهضة تتناول الشريعة الإسلامية وجعلها مطابقة لروح العصر وهذه النهضة تنتشر في كل الدول الشرقية.

٢ـ نهضة تتناول اللغة العربية وإدخال ما يجب إدخاله عليها من التعديلات وتوحيد اللهجات المختلفة فيها بقدر الإمكان، وهذه النهضة تنتشر في البلاد العربية كمصر والشام وبلاد العرب والعراق وبلاد المغرب.

٣ـ نهضة اقتصادية وتتناول ربط البلاد المستقلة بمعاهدات تجارية واقتصادية واتحاد جمركى أو ما يشبهه وهذه النهضة لا تتيسر إلا فى البلاد المستقلة كما تقدم كتركيا والعجم والأفغان والحجاز ومصر عندما يتم استقلالها.

٤ـ نهضة لإحياء العلوم والمعارف الشرقية وبخاصة الإسلامية وهذه تتناولٌ جميع الدول الشرقية كما تناولت حركة إحياء العلوم في أوروبا أمم الغرب التى كانت مستعدة لذلك.

ومن المفيد جداً أن يبدأ في تولى هذه النهضات جمعيات مؤسسة على مجهودات الأفراد فإن كل عمل من هذا القبيل يبدأ دائمًا بمجهودات أفراد قبل أن تفكر فيه الحكومات، والواقع أن الأفراد هم الذين يؤسسون الجمعيات وهذه هى التى تدرس الخطوات العملية للوصول إلى غرضها وتأتى الحكومات من بعد ذلك وتأخذ بالنتائج التى وصلت إليها الجمعيات، وأرى أن هذه الجمعيات يجب أن تتعدد بتعدد الأغراض.



ثـورة فى صنـاعة الـدواء بعد اكتشـاف الجينـوم

محمـــد رءوف حـــامد

■■ المتتبع للمقال الجميل والمهم جدًا للدكتور أحمد مستجير في «وجهات نظر» (بعنوان: «الجينوم» قراءة في سفر الإنسان) في يوليو الماضي يمكنه أن يدرك أن الجينوم البشرى كشف علمى أمثل. وتقوم أمثلية هذا الكشف العلمى - فى تقديرنا - علي الاعتبارات التالية:

- أن موضوعه يتعلق بالإنسان فى كل مكان (وزمان).

- أن الإنجاز فيه جاء من خلال «فرق عمل» تشكلت من خلال جهود علماء من عدة دول، أى فرق عمل «عبر دولية».

- أنه كمشروع يتضمن جنبا إلى جنب جزءًا «معرفيًا» محضًا، وهو الخاص بالتعرف على «خريطة» الجينوم، مع جزء «تكنولوجى» محض، هو الذى يتعلق بتطوير جذرى في طرق فحص سلسلة القواعد على شريط الـ (دنا).

إن الجانب التكنولوجى في المشروع قد تقدم بسرعة أسية، حيث تمكن المشروع من تقصير الزمن الخاص بفحص سلسلة من عدد ١٢٠٠٠ قاعدة من «أكثر من عام» قبل بدء المشروع إلى «٢٠ دقيقة» عام ١٩٩٧، ثم إلى دقيقة واحدة عام ٢٠٠٠. هذا بالإضافة إلى السعى إلى إحداث تطوير محدد فى الدقة (من ٩٩٫٩٠٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٩٩٫٩٩٪ عام ٢٠٠٣)

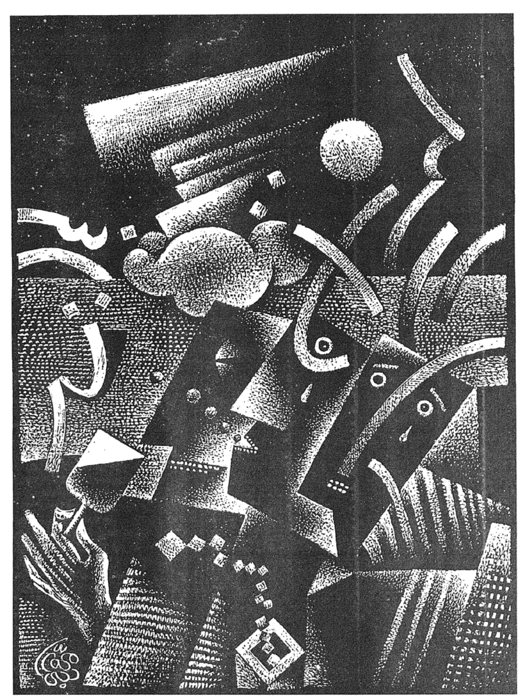
- إتاحة الكشف لعموم البشر يومًا بيوم علي الإنترنت، وهو أمر مثالى في مجال العلم، حيث يؤدى ذلك إلى منع المتاجرة بنتائج العمل العلمى، وكذلك إتاحة فرصة الاستفادة من هذه النتائج لكل من يستطيع.

- الاعتراف بالجميل للكشف العلمى الأساسى الخاص بالجينوم وهو اكتشاف التركيب الدقيق لـ (دنا) بواسطة جيمس واطسون وفرانسيس كريك عام ١٩٥٣، وذلك من خلال الترتيب للاحتفال بنشر الخريطة النهائية للجينوم عام ٢٠٠٣ في ذكرى مرور نصف قرن على نشر بحث واطسون وكريك.

إن الأمثلية الكامنة في الكشف العلمى الخاص بالجينوم تتعدى الاعتبارات المنهجية الظاهرة السابق الإشارة إليها لتتجلى في المعانى والانعكاسات الفكرية والمعرفية الناتجة أو التى يمكن أن تنتج عن هذا الكشف. فمن ناحية، ليس من قبيل المبالغة القول بأن العديد من الأشياء والتوجهات والمجالات ستُرى وتُحس ويُخطط لها بعد اكتشاف الجينوم بطرق مختلفة عما كان عليه الحال قبل اكتشافه. وهكذا، في إطار أمثلية وأهمية الجينوم البشرى تصبح هناك حاجة لإعادة التقييم والاستكشاف بخصوص المسارات والاحتمالات والممكنات الخاصة - ربما - بكل شيء. ومن الأشياء أو المجالات التى يستشعر الكثيرون ما تمثله من أولوية عند إعادة التقييم والاستكشاف من صناعة الدواء، وهذا هو ما يصبو هذا العرض إلى تقديمه.

طبيعة صناعة الدواء:

يعرف «الدواء» بانه «أى مادة في منتج صيدلى تستخدم لتغيير أو استكشاف نظم فسيولوجية أو حالات مرضية لصالح متلقى هذه المادة». ونظرًا لأن حاجة الإنسان إلى الدواء نشأت مع وجوده وتستمر مع استمرار تواجده فى هذا الكون، فإنه يشار إلى الصناعة الدوائية باستمرار على أنها أقدم صناعة أمكن لها تجنب الركود والتراجع. كان المصدر الرئيسى للدواء علي مدى التاريخ هو المواد الطبيعية، وخاصة النباتات وخلاصاتها. استمر هذا الوضع دون طفرات كبرى حتى عام ١٨٩٧ عندما أمكن لفليكس هوفمان أن يحدث تعديلاً كيميائيًا بسيطًا لمادة مستخلصة من قلف شجرة الصفصاف هى حامض



الساليسيل. كانت نتيجة هذا التحول الكيميائي الحصول على الأسبرين، وكانت نتيجته أيضًا تحول شركة باير والتي كان يعمل بها هوفمان من مجرد صنع الصبغات إلى أول شركة «عصرية» لصناعة الدواء. المقصود بتعبير العصرية بالنسبة لصناعة الدواء هو التحول من تحضير المواد المستخلصة من مصادر طبيعية إلى استخدام التخليق الكيميائي في اشتقاق مواد دوائية جديدة من المستخلصات النباتية أو في تخليق مواد كيميائية جديدة تمامًا. وكان من شأن هذا التحول بزوغ «التغيير» أو «الابتكار» كقيمة وكعامل حرج بالنسبة لصناعة الدواء. وسرعان ما تواصلت المسيرة التقانية العلمية من أجل اكتشاف أدوية جديدة، فظهرت الأدوية المعجزة (مثل السلفا والبنسلين) في النصف الأول من القرن العشرين، وتطورت الاهتمامات الخاصة بالحصول على مواد دوائية جديدة وتصنيع المواد الخام وتحضير الأدوية في أشكال صيدلية مختلفة. ومع الخمسينيات والستينيات صار للتنافسية في صناعة الدواء آليات ومسارات خاصة (التحوير في المنتجات - التوصل إلى مواد دوائية جديدة - براءات الاختراع - الأسماء التجارية للأدوية.. إلخ).

لقد تنامى الإدراك للدور الرئيسي الذي يلعبه البحث العلمي في تعظيم القيمة المضافة في صناعة الدواء، وصار من الواضح أن هذه الصناعة تقوم على العلم، وبالتالي يرتكز تقدمها على أنشطة البحث والتطوير. وهكذا، تطورت مخصصات البحث والتطوير بالنسبة للمبيعات من ٣,٧٪ (في المتوسط) عام ١٩٥١ لتتعدى الآن ٢٠٪ في بعض الشركات، وأن حجم الإنفاق السنوي على أنشطة البحث والتطوير قد فاق المليار دولار في العديد من شركات الأدوية العالمية الكبرى. وتجدر الإشارة إلى أن قائمة أعلى مائة شركة في العالم من حيث الميزانيات المخصصة للبحث والتطوير تتضمن عدد ٢٩ شركة لصناعة الدواء.

إن الأهمية القصوى لأنشطة البحث والتطوير كأساس للتنافسية في صناعة الدواء دفعت اللاعبين العالميين الكبار في هذه الصناعة لأن يشكلوا قوة دافعة رئيسية وراء إصدار اتفاقية حقوق الملكية الفكرية (تريبس) كواحدة من اتفاقيات التجارة العالمية، وذلك بعد أن كانت شئون الملكية الفكرية في العالم تنظم أساسًا من خلال المنظمة العالمية للملكية الفكرية (الوايبو WIPO)، وكما هو معروف، مع اتفاقية «التريبس» أصبحت براءة الاختراع تضمن الحماية ليس فقط للعملية الابتكارية (أو الإنتاجية) ولكن أيضًا الحماية للمنتج، وذلك بمعنى أن مجرد التوصل بطريقة ما إلى ابتكار منتج دوائي معين من شأنه منع قيام الآخرين بالتوصل - تجاريًا - لنفس المنتج بأية طريقة أخرى. إنه أمر يتعارض عند الكثيرين مع المعايير الأخلاقية، خاصة مع الأدوية المعتمدة على المعارف الجينومية، كما سنشير فيما بعد.

الوراثة والدواء فيما قبل اكتشاف الجينوم:

من المفارقات المهمة في تاريخ علم الأدوية (الفارماكولوجي) أن الباحثين في هذا العلم كانوا قد قطعوا شوطًا مهمًا في استكشاف أثر العوامل الوراثية على التأثيرات العلاجية والسامة للأدوية، وذلك قبل سنوات عديدة من بزوغ تقنيات توليف الـ (دنا) عام ١٩٧٣ والشروع في تطبيقها في المجالات الطبية والصيدلية.

لقد بدأت ظاهرة انعكاس العوامل الوراثية على فاعليات الأدوية تجذب انتباه علماء الفارماكولوجي منذ أواخر الخمسينيات حيث نشر موتولسكي مقالا عام ١٩٥٧ في المجلة الطبية الأمريكية «جاما»، يشير فيه ولأول مرة إلى أن آثارًا جانبية معينة للأدوية تنتج عن اختلافات في أيض الأدوية (أي تحولها وتكسرها كيميائيا داخل الجسم) بسبب اختلافات وراثية. وسرعان ما أخذ الاهتمام النظري والمعملي لعلماء الفارماكولوجي بهذا الموضوع يتسارع ويتواصل حيث صاغ الألماني فوجل مصطلح فارما كوجينيتيكس (أو الوراثيات الدوائية) للدلالة على الظاهرة الجديدة أو العلم الجديد وذلك في مقال كتبه عام ١٩٥٩ بعنوان «مجال حديث في علم الوراثة الإنساني».. بعدها تعددت الاكتشافات في مجال علم الوراثة (علم الوراثيات الدوائية أو الفارماكوجينيتكس) بحيث يعرف الآن المتخصصون من خبراء وعلماء الطب والصيدلة أكثر من مائة مثال لأثر غير عادي للأدوية (سواء نقص في التأثير العلاجي أو حدوث أثر جانبي.. إلخ) نتيجة لاختلافات فردية وراثية.

ومن أهم الأمثلة ذلك الذي اكتشف بالمصادفة في كلية الطب بمستشفى سانت ماري في لندن عام ١٩٧٧ بخصوص أحد أدوية علاج ارتفاع ضغط الدم وهو عقار دبريسوكوين، حيث كانت تجرى دراسة على مجموعة مع المرضى، وحدث أن كان أحد الباحثين القائمين على الدراسة يعاني من ارتفاع ضغط الدم فاجرى على نفسه ذات البحث الذي كان يجريه على مرضاه. كانت الجرعة المقررة أقل من الجرعة العلاجية، ورغم ذلك حدثت مفاجأة غير سارة، إذ كاد الباحث المريض يفقد حياته فقد أحدثت له الجرعة المعطاة (برغم انخفاضها عن الجرعة التقليدية) هبوطًا شديدًا في ضغط الدم أكثر بكثير مما حدث لزملائه من المرضى، وكان الحارث بالتأكيد غير متوقع طبقًا للمعلومات المتوافرة عن هذا الدواء عندئذ. قادت هذه المفاجأة الباحث وزملاءه القائمين على الدراسة إلى محاولة اكتشاف السبب، وسرعان ما اكتشف الباحثون السر الذي كاد أن يودي بحياة زميلهم. لقد وجدوا في الزميل الباحث خللًا بخصوص أيض دواء الدبريسوكوين، فبينما يتحول هذا الدواء عادة داخل الجسم بالأكسدة في الكبد إلى مادة أخرى مشابهة ليس لها تأثير في الضغط، إذا بهذا التحول لا يحدث في جسم زميلهم، مما جعل الدواء يظل في جسمه بتركيز أعلى من المطلوب ولفترة أطول من العادي، فكانت النتيجة هبوطًا شديدًا في الضغط يمكن أن يؤدي إلى الوفاة. وبتكرار الدراسة على عدد كبير من المرضى في أوروبا تبين وجود هذه الظاهرة في حوالي واحد من كل عشرة من المرضى بحيث أمكن تقسيم المرضى بخصوص تفاعلهم مع الدواء المذكور «دبريسوكوين» إلى نوعين: نوع ذي أيض ضعيف للدواء Poor Metabolizers مثل الباحث الذي كاد يلقى حتفه، وهؤلاء يمثلون ٩٪ وأما النوع الثاني (٩١٪) فهم ذوو أيض شديد للدواء Extensive Metabolisers وهؤلاء يخرج الدواء من أجسامهم بسرعة. وهكذا اتضح أن الجرعة يجب أن تنخفض بقدر كبير عند المرضى ذوي الأيض الضعيف، وإلا فإن الدواء يتحول عندهم إلى مادة سامة، ووجد أن هذه الخاصية تخضع لقواعد علم الوراثة وأنها ناتجة عن اختلاف وراثي في عامل وراثي (جيني) محدد. وكانت المفاجأة التالية أن المسألة بخصوص هؤلاء المرضى لم تعد تختص بهذا الدواء (الدبريسوكوين) فقط، بل أصبح من الواضح أن هذه الظاهرة عند نفس النوع من المرضى تنطبق على قائمة تضم عشرات من أدوية القلب والأعصاب وأدوية أخرى.

وهنا نود أن نجذب الانتباه إلى وجود تباينات عرقية للتفاعلات الوراثية للأدوية بمعنى اختلاف نسبة المرضى الذين يتفاعلون - مثلا - مع الدبريسكوين بأيض شديد أو بأيض ضعيف نتيجة لاختلافات عرقية. فبينما تصل نسبة ذوي الأيض الضعيف للدبريسوكوين عند الأوروبيين إلى ٩٪ فهي عند العرب ١٪.

إن حجم الإنفاق السنوي على أنشطة البحث والتطوير قد فاق المليار دولار في العديد من شركات الأدوية العالمية الكبرى. وتجدر الإشارة إلى أن قائمة أعلى مائة شركة في العالم من حيث الميزانيات المخصصة للبحث والتطوير تتضمن عدد ٢٩ شركة لصناعة الدواء

التطور الطفري في التصميم الدوائي يعتمد على «التوليف» بين تكنولوجيات راقية، هي على وجه الخصوص المعلوماتية والمواد الجديدة والبيولوجيا الجزيئية. وقد أمكن لهذا التوليف بين التكنولوجيات الراقية أن ينتقل بصناعة الدواء من عهود التصميم اليدوي Crafting لمركب كيميائي مفرد تلو الآخر إلى عهد جديد لم يُعرف من قبل

تقانات التوصل إلى أدوية جديدة:

فيما يلي يمكن الإشارة إلى عدد خمسة أنواع من التقانات (أو المداخل والطرق) الرئيسية المستخدمة للتوصل إلى أدوية (أو مستحضرات صيدلية) جديدة.

(١) التصميم أو التشييد الكيميائي:

بدأ التصميم الكيميائي في مرحلته الأولى من خلال إحداث تحويرات في مواد كيميائية مستخلصة من مصادر طبيعية مثلما حدث بخصوص الأسبرين، ذلك بالإضافة إلى التشييد المعملي لمواد دوائية مشابهة تمامًا في التركيب الكيميائي لأخرى مستخلصة من هذه المصادر، وذلك مثل عقار الثيوفيللين والذي يستخدم لتوسيع الشعب الهوائية - على وجه الخصوص - في الأطفال. ارتقى التشييد الكيميائي في مراحل تالية إلى محاولة تصميم مركبات كيميائية من خلال توقع للاحتمالات الخاصة بالعلاقة بين شكل المركب الكيميائي من ناحية وتأثيره البيولوجي من ناحية أخرى. وبينما اعتمد هذا الاتجاه في البداية - إلى حد ما - على التجربة والخطأ، فإنه مع الوقت تراكمت الملاحظات والمعلومات والمعارف في اتجاه تكوين رؤى أكثر يقينية بخصوص العلاقة بين الشكل الكيميائي والفعل البيولوجي (من حيث الخواص العلاجية والآثار الجانبية)، ومع بداية التسعينيات بزغت طفرة تقانية كبرى في عمليات التصميم الكيميائي للأدوية، تسمى الكيمياء التوافيقية، والتي فيها يتم تشييد المركبات الكيميائية بالاعتماد على مفهوم حساب «التوافيق»، وذلك بعمل «توافيق» بين مدخلات من مواد كيميائية بسيطة، بحيث تتفاعل مع بعضها البعض بترتيب توافيقي لتعطي مركبات كيميائية جديدة. إن تكرار التفاعل التوافيقي بين الوحدات الكيميائية يؤدي إلى تزايد هائل في عدد المركبات الناتجة، بالمئات، والآلاف، وحتى بالملايين. الأمر المهم هنا، هو أن كل ذلك يتم في غضون فترة زمنية وجيزة جداً (دقائق أو ساعات)، وبمعرفة باحث أو اثنين أو ثلاثة. وأكثر من ذلك فإن الغربلة البيولوجية، بمعنى التعرف على أكثر هذه المركبات قدرة على الالتحام بـ (أو التفاعل مع) المستقبل البيولوجي، تتم أيضا في فترة زمنية مشابهة. أو في نفس الوقت، وربما بنفس العدد القليل من الأفراد الباحثين. إن الأساس التكنولوجي الذي أدى إلى حدوث هذا التطور الطفري في التصميم الدوائي يعتمد على «التوليف» بين تكنولوجيات راقية، هي على وجه الخصوص المعلوماتية والمواد الجديدة والبيولوجيا الجزيئية. وقد أمكن لهذا التوليف بين التكنولوجيات الراقية أن ينتقل بصناعة الدواء من عهود التصميم اليدوي Crafting لمركب كيميائي مفرد تلو الآخر إلى عهد جديد لم يُعرف من قبل، وهو عهد الحصول على دواء فعَّال من خلال تصميم وغربلة أعداد هائلة من المركبات في مجموعات، وفي غضون ساعات. إن مقارنة تصميم الأدوية باستخدام الكيمياء التوافيقية بعملية

التصميم التقليدى لمركبات مفردة تشبه إلى حد كبير المقارنة بين صيد السمك بـ «شبكة كبيرة»، والصيد بـ «سنارة».

(٢) الطبيعة كمصدر للأدوية:

يمكن القول أن نصف الأدوية المستعملة فى العلاج هى من مشتقات لمواد من مصادر طبيعية، والاشتقاق أو التحوير الكيميائى هنا يكون فى العادة لتحسين صفات الدواء، وذلك على سبيل المثال ـ بزيادة الفعالية العلاجية وتقليل الآثار الجانبية..الخ.

إن الفوائد الدوائية التى يجنيها الإنسان من الطبيعة ممثلة فى مختلف الأنواع من الكائنات فوق الأرض وفى البحر تتعدى مجرد الحصول على مواد علاجية من خلال استخلاص المواد الفعالة وتجريبها إلى درجة المساعدة فى اكتشاف وصياغة مفاهيم وآليات جديدة بشأن كيفية حدوث الأمراض واختلال وظائف الجسم، ومن ثم إمداد علم الدواء (الفارماكولوجى) بآفاق نظرية وتطبيقية جديدة تساعد فى علاج الأمراض والوقاية منها. من الأمثلة المهمة على ذلك اكتشاف الآثار الفارماكولوجية لسم ثعبان الـ Pitvpiper، والتى أدت بدورها إلى اكتشاف إنزيم خاص بهذا السم يعمل على تسريع تحويل مادة موجودة داخل الجسم إلى مادة أخرى تسبب رفع ضغط الدم. تم ذلك فى النصف الثانى من الستينيات وتتابعت الأنشطة البحثية الرامية إلى اكتشاف أدوية توقف نشاط الإنزيم المذكور بحيث يمكنها خفض ضغط الدم المرتفع، وفى عام ١٩٧٧ أمكن بالفعل التوصل إلى تصميم كيميائى لنوع من المركبات يمكنه إيقاف التحول الإنزيمى المشار إليه. وفى عام ١٩٨١ كان النجاح فى نزول أول دواء من هذه المركبات إلى السوق الدوائية، وهو عقار «كابتوبريل»، والذى جرى بعد ذلك تطوير تصميمه الكيميائى إلى مواد أكثر فعالية ومأمونية. وهكذا توالت الاكتشافات ـ ولا تزال ـ فى هذه المجموعة الدوائية الجديدة، والتى تلعب الآن دوراً رئيسياً فى التعامل مع أمراض القلب والأوعية الدموية.

ومن الأمثلة الأخرى الدالة على دور الطبيعة فى إمداد الإنسان بمفاهيم وآليات دوائية جديدة اكتشاف الكسندر فلمنج للبنسلين عام ١٩٢٨، كإفراز لفطر البنسيلليوم، وبهذا الاكتشاف بدأ التعامل مع الطبيعة (ممثلة فى بعض الكائنات الدقيقة) كصاحبة فضل كبير فى إمداد الإنسان بواحدة من أهم المجموعات الدوائية وهى المضادات الحيوية لقد تتابعت الاكتشافات والبحوث الخاصة بالمضادات الحيوية والمضادات الميكروبية، كما توالت الاكتشافات والتحويرات والتصميمات الكيميائية بحيث أدت المضادات الحيوية والبكتيرية إلى خفض مذهل لنسبة الوفيات نتيجة الامراض المعدية، حتى أنها عُرفت فى البداية بالأدوية المعجزة، كما توالى النمو فى المعارف الخاصة بآليات فعل هذه المضادات وكذلك آليات الإصابات الميكروبية.

وبالاضافة إلى كل ما سبق ذكره عن أوجه النفع الدوائى من المصادر الطبيعية، نجد أن التطورات التكنولوجية الهائلة والتى تسارعت ـ على وجه الخصوص ـ مع الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين تفتح آفاقا ومناحيا جديدة تماما بخصوص الاستفادة من المصادر الطبيعية. من أهم الاتجاهات فى هذا الصدد نشير الى الاتجاهين التاليين:

* استخدام التنوع البيولوجى القائم فى الموارد الطبيعية (على اليابسة وفى البحار والمحيطات، وربما الفضاء مستقبلا) فى الحصول على مواد جديدة تماما من حيث البناء الكيميائى، وهو الأمر الذى سيكون من شانه المساعدة عن طريق الكيمياء التوافيقية (والتى أشرنا إليها من قبل) فى التوصل إلى

..بعد اكتشاف الجينوم




من الأمثلة المهمة على ذلك اكتشاف الآثار الفارماكولوجية لسم ثعبان الـ Pitvpiper، والتى أدت بدورها إلى اكتشاف إنزيم خاص بهذا السم يعمل على تسريع تحويل مادة موجودة داخل الجسم إلى مادة أخرى تسبب رفع ضغط الدم

استخدام تقنيات الهندسة الوراثية فى إحداث تعديلات فى التشفير الوراثى فى الكائنات الدقيقة يؤدى فى النهاية أن تفرز هذه الكائنات مواد كيميائية لم يكن من الطبيعى أن تفرزها. إنها منتجات غير طبيعية منتجة بالاعتماد على الطبيعة

تراكيب كيميائية لم تكن فى خيال الباحثين فى علوم الدواء والكيمياء، بحيث ان هذه التراكيب ستكون عونا فى اكتشاف أدوية جديدة.

* استخدام تقنيات الهندسة الوراثية فى إحداث تعديلات فى التشفير الوراثى فى الكائنات الدقيقة وبحيث يمكن فى النهاية أن تفرز هذه الكائنات مواد كيميائية لم يكن من الطبيعى أن تفرزها. إنها منتجات غير طبيعية منتجة بالاعتماد على الطبيعة unnatural natural products، ويمكن من جديد أن تكون لها أو لمشتقاتها آثار بيولوجية وفارماكولوجية مهمة.

(٣) التوصل إلى تخليق المادة الدوائية فى أنقى صورها الفعالة:

أكثر من ٣٥٪ من الأدوية المعروفة لا يزال خليطا من صورتين مغايرتين متطابقتين فى الشكل الكيميائى لكن مختلفتين فيزيائيا (وهى ظاهرة تسمى الأيدية Chirality)، وذلك بينما إحدى الصورتين فقط هى الفعالة علاجيا (بمعنى الأكثر فعالية و/ أو الأكثر أمانا)، ويعتبر التوصل إلى إنتاج دواء من الصورة الفعالة علاجيا دونا عن الصورة الأخرى إنجازا تكنولوجيا مهماً طبياً واقتصاديا وإن كان هذا المجال من العمل مازال ـ نسبيا ـ فى بداياته.

(٤) التوصل إلى أنظمة جديدة لتناول الدواء وضبط إتاحته داخل الجسم:

توضع المادة الدوائية الفعالة داخل شكل (أو نسق) صيدلى مثل القرص والكابسولة والمرهم.. إلخ. إن الهدف الأساسى للأشكال (أو الأنظمة) الصيدلية هو توصيل الدواء بالشروط الأنسب (خاصة من حيث التركيز والزمن) إلى المكان المقصود داخل الجسم، بحيث تزيد الفعالية وتقل الآثار الجانبية ويسهل استخدام الدواء. ومن أمثلة ذلك وضع هورمونات منع الحمل تحت الجلد فى أنظمة صيدلية يكون من شانها استمرار ضخ الهورمونات ومنع الحمل لعدة أشهر. وبوجه عام يمكن القول أن التطوير فى الشكل الصيدلى أو التوصل إلى أنظمة جديدة لتناول الدواء وضبط إتاحته داخل الجسم هو إنجاز يزيد من قيمة الدواء. إن الزيادة (أو الإضافة) فى القيمة هنا تكون ذات ثلاثة جوانب رئيسية. الجانب الأول يختص بالفوائد الطبية التى يتيحها التطوير الجديد، وأما الجانب الثانى فإنه يتعلق بتمديد فترة حياة مستحضر دوائى تكون الحماية التى تتمتع بها براءة اختراعه قد قاربت على الانتهاء. بعد ذلك ياتى الجانب الثالث وهو استثمارى بحت، حيث نجد أن التطوير فى الشكل الصيدلى لمادة دوائية موجودة بالفعل يتكلف أقل كثيراً من عمليات التوصل إلى مادة دوائية جديدة لم تكن موجودة من قبل، وفى نفس الوقت يحقق ـ نسبيا ـ قيمة مضافة مقارنة أو ـ أحيانا ـ أعلى بعض الشىء. إن الأهمية الخاصة بالتوصل إلى أنظمة جديدة قد أدت فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة إلى تكثيف النشاط البحثى فى هذا المجال، بحيث نشأت شركات جديدة تهدف فى الأساس إلى تطوير و/ أو استحداث أنظمة صيدلية معينة.

(٥) التوصل إلى أدوية جديدة باستخدام التكنولوجيا الحيوية:

يقصد بالتكنولوجيا الحيوية استخدام الكائنات الحية أو الإنزيمات فى إنتاج مواد مفيدة. وفى تعريف أكثر دقة يشار إلى التكنولوجيا الحيوية بانها أى تقنية تستخدم الكائنات الحية (أو أجزاء منها) لتصنيع أو تحوير بعض المنتجات. وهكذا يتضح أن مصطلح التكنولوجيا الحيوية يطبق على مدى واسع من التكنولوجيات القديمة والحديثة والتى تشترك جميعها فى خاصية استخدام الكائنات الحية فى عمليات إنتاجية (أو خدمية)، فهناك ـ على سبيل المثال ـ تكنولوجيات حيوية تستخدم فى إنتاج المشروبات الكحولية، وأخرى تستخدم فى إنتاج أنواع شتى من الجبن، وهناك أيضا تكنولوجيات حيوية خاصة بالتخمر تصنع بواسطتها أدوية المضادات الحيوية،.. إلخ...إلخ. إن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو أن التطبيقات الخاصة بالتكنولوجيا الحيوية فى مجال الأدوية، ويطلق عليها التكنولوجيا الحيوية الدوائية (أو الصيدلية)، تعد مصدراً أساسيا للتوصل إلى أدوية جديدة. وإذا كان التطبيق الأشهر والأكثر ذيوعا فى هذا المجال يختص بإنتاج المضادات الحيوية، فإن توصل هربرت بوير وستانلى كوهين عام ١٩٧٣ إلى التقانة الخاصة بنقل وحدة وظيفية محددة من شريط الـ (دنا) من كائن حى إلى شريط الـ (دنا) الخاص بكائن حى آخر، مع التحكم فى (أو ضبط) التعبير (أو النشاط) الوراثى الخاص بالجزء المنقول إلى الكائن الجديد، قد أدى إلى إحداث طفرة فى مجال التكنولوجيا الحيوية الدوائية. وكان من نتائج هذه الطفرة (والتقانات التى صاحبتها) التوصل إلى أدوية جديدة (أو تحت التجريب) باستخدام تقانات حيوية ابتكارية لم تكن موجودة من قبل، وفيما يلى نشير إلى أهم هذه التقانات الحيوية الدوائية:

التقانة الأولى:
الـ (دنا) المؤلف:

تعتبر هذه التقانة أساسا للعديد من التطبيقات الدوائية. أول هذه التطبيقات هو استخدام كائنات حية دقيقة ـ مثل البكتريا ـ كوسيط لإنتاج جزيئات حيوية كبيرة الحجم (بروتينات) ينتجها جسم الإنسان أو تنتجها أجسام حيوانات ما. لقد شهد عام ١٩٧٨ ظهور الأنسولين البشرى كأول مادة دوائية يتم إنتاجها بواسطة الميكروبات نتيجة استخدام الهندسة الجينية الخاصة بتوليف الـ (دنا). بعد ذلك ظهرت مواد دوائية عديدة منتجة بنفس التقانة من هذه المواد هورمون النمو، ولقاح الالتهاب الكبدى الوبائى ب، والإنترفيرونات، وعقار التيبليز (أكتيفيز) والذى يستخدم فى علاج الانسدادات الشريانية فى القلب والرئة، وغيرها الكثير.

التقانة الثانية:

إنتاج أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ: ظهرت هذه التقانة فى منتصف السبعينات، وفيها يجرى استخدام حيوان صغير (مثل الفأر Mouse) وتقنيات زرع الخلايا لإنتاج أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ، وذلك بغرض علاج بعض الحالات المرضية (مثل: بعض حالات السرطان ـ زرع الأعضاء ـ بعض الأمراض المعدية...إلخ)، أو بغرض التصوير التشخيصى فى بعض الحالات المرضية عن طريق ربط الجسم المضاد بمصدر مشع، كما يمكن استخدام هذه الأجسام وحيدة الاستنساخ فى توجيه المادة العلاجية (سواء كانت مادة كيماوية أو مادة مشعة) إلى مكان محدد داخل الجسم.

التقانة الثالثة:

التكبير الأسى التكرارى لعامل وراثى معين. تعرف هذه التقانة بتفاعل بوليميريز المتسلسل PCR، وتعتمد على تكبير أسى لتكرارية عامل وراثى معين على شريط الـ (دنا)، وذلك بحيث يجرى استنساخ هذا الجزء المكبر من شريط الـ (دنا) باستخدام طريقة الـ (دنا) المؤلف، ومن

خلال عمليات التعبير الجينى فى خلية العائل الجديد الذى يحمل الـ (دنا) المؤلَّف يمكن التعرف على مدى وجود تتابعات جينية دقيقة جداً. ولهذه التقانة استخدامات فى غاية الأهمية فى مجالات تشخيص الأمراض المعدية (مثل الالتهاب الكبدى الوبائى ـ سى)، وكذلك تشخيص الأمراض التى تحدث نتيجة طفرة جينية (طفرة وراثية) مثل مرض التليف الكيسى.

التقانة الرابعة:

منع أو تقليل التعبير الجينى الخاص بجين معين: الغرض من هذه التقانة هو منع جين معين من ممارسة نشاطه أو على الأقل تقليل قدرته والمقصود بنشاط الجين هنا هو تعبيره عن نفسه من خلال تخليق البروتين الذى يُشفِّر له هذا الجين. وترتكز الفكرة الأساسية لهذه التقانة من الناحية العملية على تشييد نيوكليوتايد قليل العدد (مركب يحتوى على عدد قليل من الوحدات المشابهة للوحدات المكونة للـ «رنا»، بحيث يكون هذا النيوكليوتايد قابل للاتحاد مع جزىء الـ (رنا) الرسول mRNA الخاص بالجين المقصود. ونتيجة لذلك يتعطل الـ (رنا) الرسول عن أداء مهمته (والتى تختص بحمل الرسالة الموجهة لعملية بناء البروتين)، وعليه تتوقف (أو تقل) قدرة الخلية على تخليق البروتين الناتج عن نشاط الجين المقصود. يطلق على هذه التقانة النيوكليوتايدات ويمكن تسميتها معطلات التعبير الجينى. ويجرى الآن تطبيق هذه التقانة ـ تحت التجريب ـ فى مجالات العلاج من الفيروسات والسرطانات وأمراض المناعة الذاتية.

التقانة الخامسة:

العلاج الجينى Gene Herapy: الغرض من العلاج الجينى هو إدخال جين صحيح فى الخلايا (خلايا الإنسان) ليحل محل جين مفقود أو جين معيب. وبالإضافة إلى ما ينتظر من العلاج الجينى كثورة ممكنة فى علاج الأمراض الوراثية والأمراض المستعصية، فإن العلاج الجينى يمثل أيضا نوعاً من طرق الإتاحة الحيوية الدائمة للدواء داخل الجسم، وذلك حيث يقوم الجين الجديد الذى يدخل الجسم بممارسة نشاطه والذى يعبر عنه فى النهاية بإنتاج البروتين (الذى يشفر له الجين). وهكذا، إذا كان المرض يتمثل فى عدم قدرة جسم المريض على إنتاج بروتين ما (مثل الأنسولين أو هورمون النمو أو أحد عوامل التجلط...إلخ) بسبب عدم وجود الجين المسئول أو عطل به، فإن من المنتظر من العلاج الجينى أن يجعل الجسم قادراً على تخليق البروتين المطلوب بالكميات التى يحتاجها الجسم دون الحاجة إلى إعطاء البروتين بالحقن أو بأية طريقة أخرى من وقت لآخر. هنا نجذب الانتباه إلى أن الجين قد يُستجلب إلى خلايا تؤخذ من الإنسان (تكون عادة من الخلايا الليمفاوية)، ثم يتم زرعها فى مزارع خارج الجسم، ثم يجرى إدخالها إلى جسم الإنسان مرة أخرى. هذا النوع من العلاج الجينى يطلق عليه ex - vivo اى العلاج خارج الجسم. فى هذه الحالة يكون الجسم قادراً على إنتاج البروتين المطلوب من خلال النشاط الجينى فى الخلايا التى تم إدخالها إلى الجسم طوال فترة حياة هذه الخلايا. وهناك نوع آخر من العلاج الجينى، وهو العلاج داخل الجسم in - vivo وذلك بإدخال الجين إلى خلايا جذعية stem cells فى النخاع العظمى. فى هذه الحالة فإن خلايا الدم الجديدة والتى يكوّنها النخاع العظمى بعد إدخال الجين فيه سوف تكون على الدوام حاملة للجين الجديد وستنتج باستمرار البروتين الذى كان الجسم فى حاجة إليه. هنا تجدر الإشارة إلى أن الطريقة الأخيرة تحمل قدراً من المخاطرة، حيث إذا ثبت أن جسم المريض يتفاعل تفاعلاً ضاراً مع الجين الجديد، قد يلزم ـ فى هذه الحالة ـ تعقيم النخاع العظمى للمريض وإعادة زرع النخاع، وهى عملية معقدة لا تخلو من خطورة. وفى حالات يكون البروتين المطلوب إفرازه داخل الجسم ليس من البروتينات التى تؤدى مهامها من خلال الدوران مع الدم وإنما من خلال التواجد فى أماكن محددة داخل أنسجة معينة فى عضو محدد (مثل الرئة). هنا يكون إدخال الجين البديل إلى النسيج المطلوب عن طريق حامل فيروسى، مثل الأدنيوفيروس adenovirus. والجدير بالإشارة أن جهوداً بحثية وتجريبية كثيرة (على الإنسان) تجرى فى محاولة للتوصل إلى علاج جينى لأمراض مثل مرض نقص إنزيم أدينوسين ديامينيز (ويسبب نقصا فى المناعة)، ومرض التليف الكيسى وكذلك الهيموفيليا وإرتفاع الكوليسترول فى الدم.

التقانة السادسة:
مُقلدات الببتيدات:

نظراً لبعض الصعوبات التى تتعلق بإدخال الأدوية التى تكون فى شكل بروتينات أو ببتيدات إلى الجسم وكذلك صعوبات خاصة بثبات وفترات صلاحية هذا النوع من المستحضرات، فقد اتجه العديد من العلماء إلى اختزال هذه البروتينات أو الببتيدات إلى مركبات مقلدة لها لكنها أصغر جداً فى الحجم وبالتالى يسهل التعامل معها. إن التوصل إلى التشييد الكيميائى لهذه المقلدات يعتمد أساسا على فهم «التداخل» بين البروتين العلاجى من ناحية، والمادة البيولوجية التى تمثل المُستَقْبِل receptor الخاص بهذا البروتين من ناحية أخرى. المقصود بالتداخل هنا هو ذلك الالتحام الكيميائى أو الفيزوكيميائى والذى تنتج عنه سلسلة من الأحداث البيولوجية التى تؤدى إلى الفعل الفارماكولوجى (أو العلاجى) المطلوب. إن فهم هذا التداخل (والذى يتم التوصل إليه بالاستعانة بتقانات البيولوجيا الجزئية والتكنولوجيا الحيوية) يساعد باحثى الكيمياء الطبية على تشييد جزىء أصغر من البروتين أو الببتيد الأصلى، وفى نفس الوقت يقوم بمهامه العلاجية بكفاءة أعلى، كما يمكن تحضيره فى الشكل الصيدلى الأكثر مناسبة. النموذج الرائد فى هذا المجال هو مركب يسمى أوكتريوتايد -oc tereotide والذى يسوق تجاريا بإسم ساندوستاتين. إن هذا المركب الكيميائى يقلد فعل هورمون السوماتوستاتين والذى يقوم بمهام علاجية معينة تختص أساسا بمنع الإسهال الشديد الذى يحدث فى بعض الأمراض المستعصية نتيجة تنشيط إفراز هورمونى معوى معين. ويتفوق الدواء الجديد على الهورمون الأصلى فى طريقة الحقن حيث يعطى تحت الجلد بينما المركب الأصلى يعطى فى الوريد. كما أن للمركب الجديد قوة علاجية أكبر وأيضا فترة بقاء داخل الجسم أطول، حيث لا يتكسر بسرعة (بالأيض) داخل الكبد.

التطويرات الدوائية المحتملة نتيجة المعارف الجينومية الجديدة:

يمكن القول أن صناعة الدواء هى إحدى الصناعات التى ستظل «عطشى» إلى التقدم باستمرار، وذلك مهما يكن قد تحقق فيها من تقدم، لسببين رئيسيين يكمنان وراء هذا الاعتبار. السبب الأول هو الاحتياج المستمر والمتزايد للإنسان بشأن التوصل إلى علاجات جديدة تتفوق على العلاجات الموجودة، أو تجابه أمراضاً جديدة لم تكن موجودة، أو لم يكن قد تم التعرف عليها وعلى آلياتها الباثولوجية من قبل. وأما السبب الثانى فهو اقتصادى محض ويختص بالقيمة المضافة الكبيرة المتحققة فى هذه الصناعة وهكذا نجد أنه بسبب «العطش» الذى أشرنا إليه، فإن صناعة الدواء قد دخلت فعلاً إلى عصر الجينوم البشرى حتى قبل الإفصاح عن مسودة خريطة الجينوم فى يونيو ٢٠٠٠، بل أكثر من ذلك. فقد ظهر فعلاً العديد من المشكلات النوعية الخاصة باكتشاف أدوية جديدة تعتمد على المعارف الجينومية، وبدأ التنقيب عن التعامل العلمى مع هذه المشكلات. كما أن عمليات استشراف الجديد فى عالم (أو صناعة) الدواء بعد التعرف على الجينوم كانت بالفعل قد بدأت على مدى سنوات النصف الثانى من تسعينيات القرن العشرين. إنها كلها أمور توضح قدر العجلة فى تعامل صناعة الدواء مع المستقبل كما سيتضح للقارىء من خلال النقاط التالية:



أ) تطويرات جارية بالفعل منذ زمن:

فيما سبق قد أشرنا إلى تقنيات التوصل إلى أدوية جديدة باستخدام التكنولوجيا الحيوية. لقد إستطاعت صناعة الدواء منذ سبعينيات القرن العشرين أن تنجح فى إنتاج عشرات الأدوية الجديدة باستخدام التقانة الخاصة بالـ (دنا) المؤلّف عن طريق استنساخ جين إنسانى معين ليقوم بوظيفته فى تشييد البروتين العلاجى داخل كائن حى دقيق مثل البكتريا. وكان الأنسولين البشرى والذى ظهر عام ١٩٧٨ وبدأ تسويقه عام ١٩٨٢ هو باكورة هذا الاتجاه الصناعى الجديد. والجدير بالإشارة هنا أن التحول الجينى (أو التحول الوراثى) باستخدام جينات بشرية قد أمكن إحداثه ليس فقط فى الكائنات الدقيقة، وإنما أيضا فى حيوانات كبيرة، وذلك مثلما تم فى إحداث تحول جينى لأنثى الخنزير بحيث تدر فى لبنها كميات وفيرة من البروتين البشرى سى، وهو بروتين علاجى يستخدم فى بعض الأمراض الوراثية الخاصة بتجلط الدم وكذلك فى حالات مرضية أخرى. هناك أيضا المواد التشخيصية الجديدة والتى يمكن باستخدامها التعرف على الأمراض الفيروسية المعدية، وكذلك تشخيص الأمراض التى تحدث نتيجة طفرة جينية. كما أن هناك التقانة الخاصة بإنتاج أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ، والتى أمكن بواسطتها مؤخراً التوصل إلى دواء «هربستين» والذى قد تم بالفعل قبوله (لعلاج سرطان الثدى) فى بعض البلدان وعلى رأسها سويسرا. هذا، وقد نُشر مؤخراً (فى مارس ٢٠٠٠) أن شركة بحثية تسمى «شركة دراسات المنطق الجينى» قد انتهت من التحليل الخاص بالتعبير (أو النشاط) الجينى فى عدد ٤٠ نسيجاً من أنسجة جسم الإنسان. هذا، وتقوم هذه الشركة حاليا باستخدام هذه التحليلات الجينية فى التوصل إلى أدوية جديدة، وذلك بالتعاون (أو التحالف) مع خمس من كبرى شركات صناعة الدواء فى العالم. وكما أشرنا من قبل فإن التكنولوجيات الجارى استخدامها بالفعل من اجل التوصل إلى أدوية جديدة إعتمادا على المعارف الجينومية تتضمن ـ كما أشرنا من قبل ـ العلاج الجينى، وهى تكنولوجيا تثير العديد من المشكلات الخطيرة ـ كما ستاتى ذكره فيما بعد ـ بنفس القدر الذى تثير به الطموح والآمال، كما تتضمن هذه

..بعد اكتشاف الجينوم



العلاج الجينى يمثل أيضا نوعاً من طرق الإتاحة الحيوية الدائمة للدواء داخل الجسم، وذلك حيث يقوم الجين الجديد الذى يدخل الجسم بممارسة نشاطه والذى يعبر عنه فى النهاية بإنتاج البروتين وهكذا، فإن من المنتظر من العلاج الجينى أن يجعل الجسم قادراً على تخليق البروتين المطلوب بالكميات التى يحتاجها الجسم



من هذه الحوادث أيضا وفاة ٣٨ من عدد ٤٨ مريضا بنوع من أنواع سرطان الرئة كانوا قد شاركوا فى تجربة للعلاج الجينى فى اكتوبر ١٩٩٩ وتوفوا فى الفترة ما بين بدء التجربة ونهايتها. وقد أدى الموضوع برمته إلى أن يتدخل الرئيس الأمريكى كلينتون ويطلب مراجعة الإرشادات والنظم الخاصة بالعلاج الجينى



التكنولوجيات أيضا تلك التقانة الخاصة بمنع أو تقليل التعبير الجينى الخاص بجين معين (مضادات الحس). إن شركات بحثية عديدة تحاول التوصل من خلال هذه التقانة إلى أدوية جديدة ومن أبرز هذه الشركات شركة إيزيس (فى الولايات المتحدة) والتى نجحت على مدى العام ونصف العام الأخير فى تسجيل أكثر من ستين براءة باستخدام هذه التكنولوجيا. غير أنه لم يتم بعد قبول تسويق أى دواء من هذا النوع، والجدير بالإشارة هنا أن شركة بحثية أمريكية أخرى، هى شركة «لوراس» قد نجحت فى تجريب مركبين من مضادات الحس على خلايا سرطانية (من بروستاتا بشرية مزروعة فى الفئران. وقد نتج عن ذلك ارتفاع قيمة أسهم الشركة بنسبة ٢٢٪. وأمكن مؤخراً البدء فى التجريب الإكلينيكى (أى التجريب على الإنسان) لأحد هذين المركبين وهو GTI - 2040.

وفى تقديرنا أن من أهم المنجزات الدوائية الوراثية التى قد بدأ التعرف عليها عشرات السنين قبل الإعلان عن مسودة خريطة الجينوم البشرى تلك الخاصة باكتشاف العوامل الوراثية المؤثرة فى درجة فاعلية و/ أو مأمونية العديد من الأدوية (أو ما يعرف بالفارماكو جينتكس Pharmaco genetics). إن من شأن المعارف الجينومية الجديدة المزيد من التدقيق (أو التدقيق شبه المطلق) بشأن وصف الأدوية بالأخذ فى الاعتبار للاختلافات الوراثية على المستويات الفردية، وهكذا نجد أن تكنولوجيات عديدة قد بدأت الصناعة الدوائية بالفعل فى استخدامها أو تجريبها من أجل التوصل إلى أدوية جديدة بالاعتماد على المعارف الجينومية، وقد تم إحراز نجاحات حقيقية فى بعض المجالات.

ب) مشكلات يجرى التعامل معها بالفعل:

بقدر إقدام صناعة الدواء على الدخول إلى مجالات جديدة تماما، بقدر ما تجابه من مشكلات، وبقدر ما تكون هناك الحاجة إلى الجهد والمثابرة ورأس المال والزمن من أجل التغلب على هذه المشكلات. وإذا كانت الخبرات الطويلة المتراكمة داخل الشركات الدوائية العملاقة وفى مراكز البحوث الدوائية الكبرى يمكنها الإسهام الفعال فى حل المشكلات الخاصة بالتشكيل الصيدلى للأدوية المشتقة من (أو التى تستخدم) تقنيات التكنولوجيات الحيوية إلا أن هذه الخبرات التراكمية خلت - إلى حد كبير - من المجالات الخاصة بالتعبير الجينى والعمل مع الجينات.

لقد بدأت أول تجربة على الإنسان باستخدام العلاج الجينى عام ١٩٩٠ فى المعهد القومى للصحة بالولايات المتحدة، وكانت على فتاة تبلغ من العمر أربع سنوات وتعانى من نقص وراثى لإنزيم معين، ورغم تعدى هذه التجارب العلاجية الرقم ٢٠٠ على مدى السنوات العشر الماضية، إلا أنه لم يتم التوصل بعد إلى علاج جينى يمكن الاعتراف به بواسطة جهات الرقابة الدوائية، ومن ثم قبوله فى أسواق الدواء. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعاهد القومية للصحة فى الولايات المتحدة قد أصدرت عام ١٩٩٥ تقريرا ينقد الاندفاع تجاه إجراء تجارب العلاج الجينى على الإنسان وينصح بأن «هذا المجال من التجارب فى حاجة إلى وقت أطول ليصل إلى النضج العلمى اللازم للتوصل إلى تقدم علاجى مناسب». ومما يذكر أن التحدى الرئيسى الذى يعرقل النجاح فى العلاج الجينى يختص بإيجاد ناقلات آمنة Asfe Vectors قادرة على نقل الجين بكفاءة إلى الخلايا المستهدفة، وكذلك قيام الجينات بنشاطها (أى بالتعبير عن نشاطها بشأن

.. بعد اكتشاف الجينوم



يمكن توقع العديد من الانعكاسات المهمة على النظم والتعاملات الخاصة بتسجيل وتسعير ورقابة الأدوية وكلها قضايا مهمة، خاصة بالنسبة للدول النامية والتى نتوقع أن يكون معظمها ولزمن ليس بقصير خارج إطار الدول المنتجة للأدوية المعتمدة على المعارف الجينومية

من أحدث الممارسات فى هذا الشأن قيام الحكومة اليابانية بوضع خطة لزيادة حجم قطاع التكنولوجيا الحيوية الصحية بقدر ٢٥ ضعفا على مدى السنوات العشر القادمة (حتى ٢٠١٠)، كما اتخذت الحكومة الأسترالية خطوة مشابهة خصصت فيها حوالى نصف مليار دولار أمريكى لإنشاء هيئة حكومية تختص بدفع بحوث التكنولوجيا الحيوية

تشييد البروتينات) بمجرد دخولها إلى الخلايا. لقد ازداد الحذر بخصوص مأمونية التجارب التى تجريها الشركات على الإنسان - باستخدام تكنولوجية العلاج الجينى - على وجه الخصوص فى سبتمبر الماضى بعد وفاة الشاب جيسى جلسينجر فى تجربة بالعلاج الجينى. كان هذا الشاب البالغ من العمر ١٨ عاما والذى يدرس بالجامعة يعانى مرضا نادرا يختص بنقص إنزيم معين (إنزيم ornithine trans - carbamylase) يؤدى إلى نوع من الأنيميا التى تجد صعوبة فى العلاج. لقد تطوع جيسى فى تجربة علاجية تجرى بمعهد العلاج الجينى البشرى بجامعة بنسلفانيا، وبعد ٤ أيام من استقدام الجين الناقص (أو المعيب) والخاص بالإنزيم المذكور إلى داخل الكبد فى جسم جيسى إذ بجهازه المناعى يتوقف عن العمل، مؤديا إلى توقف وظائف عدد من أعضاء الجسم ثم الوفاة. لقد جذب الحادث اهتمام عضو بالكونجرس الأمريكى هو هنرى واكسمان، والذى راح ينقب فى الموضوع. واتضح له أن حوادث مثيلة قد وقعت من قبل فى المعاهد القومية للصحة وفى بعض الجامعات الأمريكية. من هذه الحوادث وفاة ٣ من كل ٤ اشتركوا فى تجربة مثيلة عام ١٩٩٦. ومن هذه الحوادث أيضا وفاة ٣٨ من عدد ٤٨ مريضا بنوع من أنواع سرطان الرئة كانوا قد شاركوا فى تجربة للعلاج الجينى فى أكتوبر ١٩٩٩ وتوفوا فى الفترة ما بين بدء التجربة ونهايتها. وقد أدى الموضوع برمته إلى أن يتدخل الرئيس الأمريكى كلينتون ويطلب من وزيرة الصحة التعجيل بقيام إدارة الدواء والغذاء الأمريكية FDA وكذلك المعاهد القومية للصحة NIH بمراجعة الإرشادات والنظم الخاصة بالعلاج الجينى. وفى ٧ مارس من العام الحالى صدر إعلان من كل من المعاهد القومية للصحة وإدارة الدواء والغذاء باتخاذ بعض الإجراءات الخاصة بتحسين حماية المرضى المتطوعين فى تجارب العلاج بالجينات، وهى إجراءات تتعلق بالدقة فى متابعة التجارب ومناقشتها مناقشة «علنية».

وعموما يمكن القول أنه مهما كانت هناك من مشكلات فى التوصل إلى أدوية وعلاجات جديدة باستخدام التكنولوجيات الحيوية المعتمدة على المعارف الجينومية، فإن الإصرار (من قبل الشركات والحكومات) على مجابهة هذه المشكلات سيكون من شأنه ليس فقط التوصل إلى الحلول المناسبة، ولكن أيضا المزيد من التخيل والاكتشاف لتقانات جديدة بالإضافة إلى التحويرات الجديدة الممكنة فى التقانات القائمة.

جـ) آفاق جديدة أمكن استشرافها فى السنوات الأخيرة:

لقد أمكن بالفعل لعلماء الدواء التوصل - فى أواخر التسعينيات - إلى استشرافات محدودة بشأن التطورات الدوائية المستقبلية، وهى استشرافات تعتمد - فكريا - على المعارف الجينومية وإمكانيات الاستفادة منها، وقد تضمنت هذه الاستشرافات ما يلى:

*) تقسيم كل مرض إلى أنواع فرعية اعتمادا على الخصوصيات الجينية المميزة لكل نوع فرعى، ثم التشخيص الجزيئى الدقيق لكل نوع فرعى على حدة.

*) التعرف على التغييرات الجزيئية المسببة والمصاحبة للأمراض، وكذلك التعرف على آلية الاستجابة على المستوى الجزيئى للعلاجات الدوائية المختلفة.

*) تفصيل الدواء طبقا للبنية الجينية للشخص الفرد.

*) بدء العلاج قبل ظهور أعراض المرض.

*) العلاج بضمان كفاءة الدواء بمعنى تأكيد وضمان نفعه للفرد الذى يستخدمه وكذلك تأكيد وضمان عدم صدور آثار جانبية (معينة) عن استخدام الدواء (المعين) للفرد (المعين) الذى يصرف له الدواء.

*) خفض كميات الدواء المستخدمة، حيث سيقصر استخدام الدواء فقط على الشخص المناسب تماما، طبقا للاعتبارات والمعارف الجينومية والتشخيصية الجديدة المرتقبة.

*) العودة - أحيانا - إلى أدوية الماضى والتى ربما كانت تتمتع بكفاءة عالية وتكون قد سحبت من الأسواق وتوقف استخدامها نتيجة حدوث آثار جانبية حادة أو خطيرة فى أشخاص كانوا من الناحية الجينية (أى الوراثية) غير مناسبين للتداوى بهذه الأدوية.

د) احتمالات وممكنات مستقبلية جديدة:

ماذا يمكن أن يكون قد جدَّ من استشرافات أو توجهات أو خيالات بعد ما تم بالفعل الإعلان عن مسودة خريطة الجينوم البشرى؟ فى إطار محاولة البحث عن إجابة لهذا التساؤل قد يكون من المناسب الإشارة إلى ما يلى من احتمالات وممكنات مستقبلية:

*) تصبح الاستشرافات السابق الإشارة إليها فى البند السابق (جـ) أكثر قربا للتحقق حيث يمكن توقع بزوغ العديد من البرامج والتحالفات التى تسعى للمساهمة فى تحقيق هذه الاستشرافات.

*) وربما من خلال المعارف الجينومية الجديدة وكذلك باستخدام التكنولوجيات ما بعد الراقية (الموجود فعلا منها مثل الكيمياء التوافيقية، وما يمكن أن يستجد) تكون هناك إمكانية لمضاعفة أعداد الأدوية المتاحة لعلاج أمراض الإنسان بقدر كبير (أكثر من عشرة أضعاف ماهو قائم). وهو أمر قد يغير من شكل وحجم أعمال صناعة الدواء تغييرا جذريا. إن هذا الاحتمال يرتكز على معلومة رئيسية مهمة، وهى أن آلاف الادوية التى تم اكتشافها منذ بدء تسويق دواء الأسبرين (عام ١٨٩٩) وحتى الآن تعمل على ماليزيد على ثلاثمائة جزىء بيولوجى مختلف. هذا بينما يُعتقد بوجود ما بين ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ مُنتَج (بفتح التاء) بروتينى من جينات الإنسان والجينات المرضية التى يمكن أن تهاجمه (وذلك طبقا لرؤية عرضت لها د. كلارا سانسون فى عدد يوليو / أغسطس ٢٠٠٠ من المجلة العالمية لشئون الدواء «سكريب»)، وهى جزيئات تصلح لأن تكون مواضع (أو مستهدفات) بيولوجية لعمل الأدوية إن هذا التصور يعنى أن المستقبل - ربما القريب سيشهد تصاعدا كبيرا فى « أعداد الأدوية وكذلك تدقيقا كبيرا فى المعارف الخاصة بآليات عمل الأدوية بوجه عام. وفى نفس الوقت يمكن توقع تحسن كبير فى عملية تصويب الدواء للموضع البيولوجى المستهدف، وبالتالى التخلى عن (ومنع) إستخدام رصاصات (نقصد أدوية) طائشة لا تصيب الموضع البيولوجى المقصود التعامل معه تعاملاً إيجابيا لإزالة المرض.

*) توسيع عمليات التجريب الدوائى على كائنات أخرى. هنا لا ننسى أن مشروع الجينوم البشرى قد تضمن التعرف على الخرائط الجينية لخمسة من الكائنات الأخرى (هى بكترية القولون، وخميرة الخباز، ودودة سينورابديتيس، وذبابة الفاكهة، والفأر)، ويمكن القول أن الامتداد المتوقع لعلوم الباثولوجى والكيمياء الحيوية والفارماكولوجى فى التعامل مع الكائنات الأخرى على أساس من المعارف الجينية وبهدف علاجى قد يساعد ليس فقط على رفع كبير فى كفاءة الدراسات الخاصة بتطوير وتجريب العلاجات الجينية بالمفهوم السائد حاليا (وهو إحلال جين صحيح محل جين معيب أو مفقود)، وإنما فى تحقيق استفادات

علاجية ما باستخدام جينات كائنات أخرى أو بالانتفاع بالمعارف المتولدة عن التعامل الجيني مع هذه الكائنات.



وإذا كانت الجينات تشكل فقط ٣٪ من شريط الـ (دنا)، فماذا عن الـ ٩٧٪ الباقية؟ هل لها مهام فسيولوجية؟ وهل من شأن أي خلل فيها حدوث تغييرات فسيولوجية أو مرضية ما ؟.. ربما في زمن ما قادم يتضح أن الـ ٩٧٪ الباقية من الـ (دنا) تساهم في تشكيل أهمية صحية ما، ومن ثم تُعدُّ مصدراً لأنواع ما من العلاجات أو من الوسائل التقويمية الخاصة (أو المتعلقة) بالإنسان.

ومن هنا يمكن القول أن التطورات العلمية والتكنولوجية الخاصة باكتشاف وتفسير آليات فعل الأدوية وبتصميم أدوية جديدة سوف تؤدي في غضون زمن قريب (٧-١٠سنوات) إلى إحداث تغييرات جذرية في مفاهيم ومناهج العمل في علوم الفارماكولوجي والباثولوجي والكيمياء الطبية (وكذلك في علوم أخرى متعلقة بالأدوية).

انعكاسات الجينوم البشري على نظم واقتصاديات وسياسات صناعة الدواء:

مع قدوم تطويرات جذرية في المواد الدوائية بالاعتماد على المعارف الجينومية يمكن توقع العديد من الانعكاسات المهمة على النظم والتعاملات الخاصة بتسجيل وتسعير ورقابة الأدوية وكذلك الإجراءات والاهتمامات الخاصة بتقييم فاعلية الادوية ومتابعة آثارها الجانبية، ذلك فضلاً عن ترشيد عمليات تسويقها وكلها قضايا مهمة، خاصة بالنسبة للدول النامية والتي نتوقع أن يكون معظمها ولزمن ليس بقصير خارج إطار الدول المنتجة للأدوية المعتمدة على المعارف الجينومية، وهي أمور تحتاج إلى معالجة خاصة منفصلة، وعلى جانب آخر فإنه يمكن سرد أهم الانعكاسات الخاصة بالصناعة الدوائية العالمية كنتيجة لتطورات الجينوميات الدوائية، كما يلي:

١) طبقا لدراسة حديثة جداً أعدها معهد كامبريدج لتكنولوجيا الصحة (بالولايات المتحدة) وبثت على الإنترنت في يوليو الماضي، فقد بلغ عدد التحالفات الدوائية الخاصة بالجينوم على مستوى العالم عام ١٩٩٩ فقط بـ ٣٨١ تحالفاً. وقد كان ٦٧٪ من المشاركين في هذه التحالفات شركات أو معاهد أمريكية، وأما المشاركات الأوروبية فقد بلغت ٢٠٪ فقط (منها ٦٫٢٪ في المملكة المتحدة، ٥٫٦٪ في ألمانيا، و٢٫٣٪ في فرنسا، و٨٫٨٪ في سويسرا)، ذلك بينما توقف حجم المشاركات الآسيوية عند ٤٪.

وهكذا، طبقا لهذه الدراسة يتضح مبلغ الفجوة الكبيرة التي تفصل بين تقدم الولايات المتحدة من ناحية، والتواضع النسبي لأوضاع أوربا وآسيا من ناحية أخرى، وذلك بخصوص كثافة وحركية أنشطة البحث والتطوير الدوائي في مجال الجينوميات، وهي فجوة تنذر بقدر كبير من السيطرة الأمريكية في مجال الجينوميات الدوائية (أو الصيدلية) Pharmaceutical genomics.

٢) أدت الاهتمامات المتزايدة بالجينوميات الدوائية إلى اتجاه الشركات البحثية العاملة في هذه المجالات لأن تفتح الباب للاكتتاب العام في أسهمها بأحجام مالية كبيرة في الشهور الأولى من عام ٢٠٠٠ خصيصاً للصرف على مشروعات جينومية دوائية جديدة.

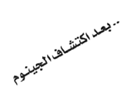
٣) كما أن التأخر النسبي في أنشطة بحوث الجينوميات الدوائية في بعض البلدان (بالنسبة للولايات المتحدة) قد حفز حكومات هذه البلدان لأن تقوم بأدوار فاعلة في دفع ومساندة هذه الأنشطة، ومن أحدث الممارسات في هذا الشأن قيام الحكومة اليابانية بوضع خطة لزيادة حجم قطاع التكنولوجيا الحيوية الصحية بقدر ٢٥ ضعفا على مدى السنوات العشر القادمة (حتى ٢٠١٠)، كما اتخذت الحكومة الأسترالية خطوة مشابهة خصصت فيها حوالي نصف مليار دولار أمريكي لإنشاء هيئة حكومية تختص بدفع بحوث التكنولوجيا الحيوية، وكان الاتحاد الأوربي قد اتخذ خطوة مماثلة عام ١٩٩٥، كما شهدت تسعينيات القرن العشرين اتجاهات مماثلة من حكومات عديدة من ابرزها في هذا الشأن حكومات الهند وانجلترا وألمانيا والبرتغال وسنغافورة.

٤) بدأت ظاهرة التكتلات تدخل مجال بحوث الجينوميات الدوائية، حيث أعلن في نوفمبر الماضي عن تكوين تكتل عالمي (يضم عشرة شركات دوائية كبرى وخمسة مراكز بحثية أكاديمية) يهدف إلى تكوين خريطة للاختلافات الجينية، وهي اختلافات تساعد على فهم العمليات المرضية وتسريع عمليات اكتشاف أدوية جديدة. وبقدر ما يساهم هذا التكتل (الكونسورتيوم) في دفع عمليات البحث والتطوير، فإن من شأنه أيضا تجنب التكرار في الجهود البحثية.

٥) أن الزيادات المتوقعة في حجم أنشطة البحوث والتطوير والإنتاج في مجالات الجينوميات الدوائية في العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين ستكون مصدرا متميزا لفرص جديدة كثيرة للعمل وللبيزنس.

٦) أن الحاجة الملحة للشركات الدوائية الكبرى للمزيد من الأنشطة البحثية في مجال الجينوميات الدوائية تدفع هذه الشركات إلى التعاون مع الشركات البحثية والمعاهد العلمية في إجراء مشروعات بحثية محددة. إن اتجاه الشركات الكبرى لهذا التعاون يمتد إلى معاهد ومراكز البحث العلمي حتى خارج الولايات المتحدة وأوربا واليابان حتى وإن كانت معاهد ومراكز ناشئة ومن احدث اتفاقات التعاون البحثي في هذا الخصوص الاتفاق الذي وقع مؤخراً بين شركة روس السويسرية للأدوية والمركز القومي الصيني للجينوم البشري، وهو المركز الذي أسس عام ١٩٩٨ ويعتبر واحداً من المشاركين في المشروع العالمي للجينوم البشري.

٧) وفي أثناء الاهتمام الدولي العام بالتوصل إلى المسودة الأولى لخريطة الجينوم البشري إذا بالرأي العام العالمي يشهد عددا من الحركات والنداءات المناوئة للاستغلال التجاري للمعارف الجينومية (المبنية على جينات الإنسان) من أهم هذه النداءات ذلك الذي صدر عن المجلس الأوربي والذي نادى فيه بإعادة التفاوض بشأن البراءات الخاصة بالتكنولوجيا الحيوية. كانت النقطة الرئيسية التي أثارت المجلس وجعلته ينادي بإعادة التفاوض هي تلك التي تسمح بالحصول على براءة على «جين» عند فصله من جسم الإنسان. في نفس الوقت تأسست في أوربا مجموعة جديدة تحت مسمى «الحملة المضادة للهندسة الوراثية البشرية». الجدير بالإشارة أن هذه التوجهات الجديدة قد ظهرت نتيجة حملة تبث على الإنترنت بواسطة برلماني فرنسي هو جين فرانسوا ماتيه ومعه باحث ألماني اسمه د. فولفجانج فودارج. وترفع هذه الحملة شعار «أن جسم الإنسان بما فيه من جينات ليس سلعة»، وتنادي بمواقف قومية في هذا الخصوص وتعارض هذه الحملة منح براءات





حملة تبث على الانترنت بواسطة برلماني فرنسي هو جين فرانسوا ماتيه ومعه باحث ألماني اسمه د. فولفجانج فودارج. وترفع هذه الحملة شعار «أن جسم الإنسان بما فيه من جينات ليس سلعة»، وتنادي بمواقف قومية في هذا الخصوص وتعارض هذه الحملة منح براءات على جينات بشرية



هذه الحملة تزيح النقاب عن ظلم وقع وسيقع على كل إنسان موجود أو سيوجد في المستقبل. الظلم يختص بتحويل الاكتشافات التي تتم في جزيئات وجينات جسم الانسان إلى أداة للتجارة عن طريق البراءات وهو الأمر الذي يضر الإنسانية أضرارا بالغة

على جينات بشرية، وتطالب بعدم تضمين التشريعات القومية لأية مواد تتضمن منح أية براءات تعتمد على الجينوم البشري، وكذلك إيقاف العمل بأية مواد قانونية تسمح بذلك. هذا، وتلقى هذه الحملة دعم الكثير من الهيئات والشخصيات، والتي تضم بينها عددا من الحاصلين على جائزة نوبل، والصليب الأحمر، وحركة السلام الأخضر.



ومن أبرز الاعتراضات التي تثيرها حملة ماتيه ـ فودارج الاعتراض على إحلال المنطق التجاري مكان الاحترام الضروري للمعايير الأخلاقية. لقد خاطب ماتيه (والذي هو في نفس الوقت أستاذ في علم الوراثة الطبي) المجلس الأوربي قائلا: «إن الشركات الأمريكية بحصولها على براءة بخصوص التتابعات الجينية المسئولة عن سرطان الثدي إنما تحصل على احتكار يهدد كل امرأة على سطح الكوكب».

إن الاعتراضات الحيوية التي تثيرها حملة ماتيه ـ فودارج وما تبعها من مؤازرة عدد من الهيئات والشخصيات تستحق بحق أن تكون نواة لصياغة رأي عام عالمي مؤثر بخصوص تعديل عملية منح البراءات على الجينوميات البشرية، فكما أثار ماتيه موضوع البراءة الخاصة بالجينات المسئولة عن سرطان الثدي عند النساء، هناك بالفعل احتكار مشابه بخصوص سرطان البروستاتا عند الرجال لقد توصلت شركة بحثية صغيرة وهي شركة (يورو جنسيس) إلى اكتشاف بروتين يوجد على سطح جميع خلايا البروستاتا ويوجد بكميات أكبر على سطح الخلايا البروستاتية المتسرطنة، إن الشركة الصغيرة المشار إليها والتي تحتكر البراءة الخاصة بهذا البروتين ذي الأهمية الباثولوجية والدوائية البالغة (حيث يمكن بالعمل البحثي عليه التوصل إلى أدوية أو أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ لعلاج سرطان البروستاتا) لا تملك القدرة المادية أو العلمية أو ربما الاثنين معا لمواصلة العمل الذي بدأته لذا، فقد باعت هذه الشركة حق اكتشاف علاجات خاصة بسرطان البروستاتا على مستوى العالم (بالاعتماد على الجسم المضاد) لشركة أخرى هي جينيتيك، وذلك مقابل ٣٣ مليون دولار. وهذه الأخيرة تتطلع إلى تحالفات تستغل من خلالها هذا الحق. وهكذا يوقف اكتشاف أدوية جديدة في مجال معين على حق براءة منحت للمكتشف الأول البروتين مرضى يوجد عند كل رجل مريض بهذا المرض على سطح الكوكب.

الأمر إذن يعني أن المصير الصحي لكل إنسان على سطح الكرة الأرضية، رجلا كان أم امرأة، طفلا أم شيخا يصبح مرهونا ليس بإنجازات البحث العلمي، وإنما بتوجهات وتحالفات محتكري البراءات. هنا تجيء الأهمية الإنسانية العالمية لحملة ماتيه ـ فودارج، حيث إن هذه الحملة تزيح النقاب عن ظلم وقع وسيقع على كل إنسان موجود أو سيوجد في المستقبل. الظلم يختص بتحويل الاكتشافات التي تتم في جزيئات وجينات جسم الإنسان إلى أداة للتجارة عن طريق البراءات وهو الأمر الذي يضر الإنسانية أضرارا بالغة من زاويتين. الزاوية الأولى تظهر في تعطيل تواصل وتنافسية البحث العلمي على الجزيئات والجينات المكتشفة، والزاوية الثانية تختص باحتكار العمل على جزيئات وجينات موجودة داخل جسم كل إنسان وتحويل هذا العمل إلى مصدر للاتجار والإثراء بصرف النظر عن المصالح البشرية والاحتياجات الإنسانية.

يـنتسب إليها صاحب الصحيح والخوارزمى وابن سينا

زيـــــارة جـديــــدة

المنقبون عن الآثار، برفشهم ومعولهم قبلا، وبالأساليب التكنولوجية حديثا، لا يألون جهدا فى سبيل الكشف عن مآسى الإنسان فى بقاع الأرض المختلفة، سعيا وراء اكتشاف بيت أو سور أو معبد أو قطعة فنية أو حجر منقوش عليه صورة إله قديم أو بشر يعمل فى الأرض أو يتلقى الشريعة من إله مدينته. والمؤرخ طلعة فى عمله، فهو يتقصى المصادر ويلاحق الوثائق ويستنطق الأدب، أملا فى أن يصور فترة زمنية فى بلد أو رقعة، كبيرة أو صغيرة. ونحن الذين يهمنا أن نعرف أخبار الأولين وتطور الشعوب وقيام الدول وانحطاطها وصور الحياة فى الريف والمدينة وإنجازات أهل الفكر والفن والمعمار، نتلقف ما يكشفه لنا الفريقان بكثير من الشوق.

والمنطقة الممتدة من حدود إيران الغربية حتى الصين بلاد فيها صحارى متسعة، تنقطها واحات متعددة. وبقدر ما كانت هذه الواحات مراكز للزراعة والتجارة والحكم والإدارة، بحيث تقوم فيها عناصر حضارية مهمة، فإنها كانت معرضة لغزوات البدو أهل المنطقة الفقراء الذين يقصدون الواحات للحصول على خيراتها، إشباعًا لجوعهم وطمعا فى الاستقرار فيها.

والمنطقة التى أشرنا إليها كانت فى تاريخها الطويل تقطعها قوافل التجار، ناقلة بضائع الشرق إلى الغرب ومنتجات الغرب إلى الشرق. وكانت الواحات محطات لهذه القوافل: فيها يقيل التجار دوابهم وينعمون بقسط من الراحة ويتبادلون سلعهم ويضمنون الحصول على سلع جديدة تأتى من الشمال أو الجنوب.

ولم تكن المنطقة، على بُعدها، بمنأى عن طمع الفاتحين يأتونها من كل صوب. فالإمبراطورية الإيرانية الأولى (القرن السادس قبل الميلاد)، توسعت شرقا، فاحتلت من أواسط تلك المنطقة رقعة لا يستهان بها. والإسكندر وصل فى فتوحاته (القرن الرابع قبل الميلاد) تلك المنطقة واجتازها شرقا. وأقام خلفاؤه السلوقيون دويلات فيها نكهة يونانية قوية فى بكتيريا (الصفد) وما سواها. والساسانيون الذين أسسوا ملكهم فى القرن الثالث للميلاد، كانت لهم هناك غزوات واحتلال.

كان ذلك فى شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٧٥. كان الصباح قد ارتفعت شمسه، لما وقفتُ وصحب لى، على نشز صخرى مرتفع إلى جانب ما تبقى، مما عفى عليه الزمن، من قلعة «قُهُنْدَز» بخارى.

أجلت نظرى فيما حولى، وكان مجال امتداد النظر واسعا، فرأيت حقولا خضراء يداعب نسيم الصباح ما نما فيها من صغار الزروع وأوراق ما كبر من الشجر. انتعشت وانقبضت نفسى. انتعشت لما بعثته النظرة والتأمل فى حواسى من آيات الجمال. وانقبضت نفسى إذ رأيتنى تحيط بى بقايا مهشمة من شىء كان عظيما، كان عظيما إذ كان جزءا من الحضارة العربية الإسلامية عميقة الجذور، واسعة الانتشار، كبيرة الأثر هنا وهناك وهنالك.

ولما عدت، وقد احتفظت لنفسى وفى نفسى بالشعور المنعش والانقباض، قررت أن أتعرف إلى ما كانت عليه بخارى قبل نحو ألف سنة من وقوفى على أنقاضها.



وكان أول ما فعلت أن عدت إلى ابن حوقل، صاحب صورة الأرض، الجغرافى الرحالة، الذى زار بخارى فى أواسط القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى. قال ابن حوقل: «ولم أرَ ولم أسمع فى الإسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بخارا. لأنك إذا علوت قُهُنْدُزَها (قلعتها)، لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر: تلوح القصور فيما بين ذلك... كالكواكب العلوية بياضا ونورا بين أراضى ضياع مقوّمة بالاستواء مُهَنْدَمة كوجه المرآة بغاية الهندسة. وليس بما وراء النهر (أى وراء نهر جَيْحون) من البلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياما بالعمارة للضياع منهم، مع كثرة متنزهات فى سعة المسافة وفسحة المساحة من أرضهم..

«... ويحيط ببخارا وقراها ومزارعها سور قطره اثنا عشر فرسخا فى مثلها، كلها عامرة زاهرة ناضرة».

لكن وصف الرحالة وتقرير الجغرافى، هو فى غالب الأحوال، آنى، أى أنه يدون الخبر فى حينه، فهو أشبه بتقرير لفترة معينة. فكان لابد من العودة إلى التاريخ لاستطلاع الأخبار، لعلنا نصل إلى خبر موثوق به لهذه المدينة التى وصفها البعض، ممن عاصر أيام ازدهارها، بأنها كانت «قبة الإسلام» فى الشرق، تشبيهًا لها بقبة الإسلام الأصلية (فى الغرب) أى بغداد.



إلى بخارى

نقولا زيادة

وكانت جماعات تأتي من الشرق في الفترات نفسها وقبلها فتقيم ملكا تطول مدته أو تقصر.

ومع هذه الجيوش والغزاة، كانت تصل المنطقة أساطير وقصص وأفكار وآراء دينية مختلفة ولغات متباينة مع ما تضمه من أدب وسواه. فكان أن عرفت المنطقة في حياتها أديان الشرق الأقصى وعباداته، ووصلتها في القرنين الرابع والخامس للميلاد المسيحية آتية من أجزاء الدولة البيزنطية الشرقية، لما أُخرج النساطرة من رقعة هذه الدولة، فاتجهوا شرقا ووصلوا برا إلى الهند.

من هذه الواحات بخارى (بخارا) التي تقع شرقي نهر جيحون (أموداريا أو أكسوس) فيما سماه العرب، بعد فتحهم البلاد «ما وراء النهر».

ظهرت أهمية بخارى للمرة الأولى في أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس للميلاد. وقد ورد اسمها هذا للمرة الأولى في مدونة رحالة صيني اسمه هُزْوان - تْسانْغ الذي مر بها حوالي سنة ٦٣٠م.

وفي هذه الفترة، كانت بخارى وواحتها يدور بهما سور طوله ٢٥٠ كيلومترا منعًا للرمال من الطغيان عليها، ودفعا لغزوات الطامعين. أما المدينة بالذات فكان لها سور داخلي وكانت فيها قلعة للحاكم ومساعديه وجنده. وكانت أسرة أرستقراطية تسمى «بخار خُذَه» تدير شئون المدينة.

كانت الواحة تفيد من مياه نهر يمر على مقربة منها اسمه زَرْفشان (قديما عرف باسم السغد)، وقد حفرت القني المتعددة كي يصل الماء إلى كل بقعة في الواحة.

بعد أن قضى العرب على الدولة الساسانية (٦٥١م)، هاجمت جماعات مختلفة عربية مناطق في الرقعة الشرقية. إلا أنه حتى ولا حملات أمية بن عبد الله (٧٣ - ٧٨ / ٦٩٢ - ٦٩٧) لم تؤسس للعرب موقعا قويا في «ما وراء النهر». لكن لما عهد الحجاج بن يوسف، والي خراسان، إلى قتيبة بن مسلم بالأمر تبدل الوضع، فاحتل بخارى (٩٠/٧٠٩) وسمرقند بعيد ذلك. هنا بدأ العرب حملاتهم التي أوصلتهم حتى إلى شمال الهند من جهة وإلى فَرْغانة وما وراءها من جهة ثانية.

وانتهى أمر الخلافة الأموية، وقامت خلافة العباسيين، واستمر توطين السلطة العربية الإسلامية في هذه المناطق النائية. لكن المنطقة كانت واسعة جدا وكانت تضاريسها - الصحراوية والجبلية - متعبة كما كان سكانها القبليون مزعجين. لذلك نجد أنه حتى، والدولة العباسية لها قوة وزخم، لم يكن من اليسير على بغداد أن تدير أمور هذه المنطقة إلا عن طريق حكام أقوياء، لا يلبث الواحد منهم أن يقيم أسرة حاكمة حتى يستبد بالأمر مستقلا عن الخلافة.



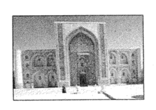
وكان طبيعيا أن ينتشر الإسلام في المناطق التي يستولي عليها العرب.

والإسلام هو الذي ربط تلك المناطق النائية بأقطاره الغربية - أرض الرافدين وما بعدها. والإسلام أعطى تلك الرقعة الرابطة الروحية والثقافية التي بدلت الكثير من شئونها. لكن الإسلام في تلك الديار كانت له صيغة فيها بعض ما كان القوم هناك قد اقتبسوه في التاريخ السابق الطويل. فالطبقات الجيولوجية الاجتماعية التحتية لا تفقد جميع مقوماتها بسبب تكون طبقة جيولوجية اجتماعية حضارية دينية جديدة. ومثل هذا الأمر كان واحدا من أسباب تكون حضارة عربية إسلامية متميزة فيما تلى من القرون.

لما ولي طاهر بن الحسين أمر الرقعة الواسعة في المشرق، كانت خراسان و«ما وراء النهر» جزءا منها. ويبدو أنه بدءا من سنة ٢٠٥ / ٨٢١، أصبح لبخارى إدارة مستقلة عن بقية ما وراء النهر.

كان سامان دهقانا من منطقة تقع في شمال أفغانستان الحالية، وكان قد اعتنق الإسلام وقامت أسرته، ممثلة بأحفاده الأربعة، على خدمة المأمون عسكريا، فولاهم على مناطق «ما وراء النهر» وما إليها. وكان شأن الطاهريين قد تضعضع في مناطق حكمهم، ونال بخارى من ذلك أذى، فطلبت جماعة من دهاقنتها من نصر بن أحمد بن سامان، الذي كان الخليفة العباسي قد أوكل إليه أمر المنطقة عام ٢٦٣ / ٨٧٥ (وكانت عاصمته سمرقند)، أن يبعث إليهم من يمكن أن يتدبر أمر المدينة. فبعث إليهم بأخيه إسماعيل (بن أحمد)، الذي يعتبر مؤسس الدولة السامانية في بخارى.

وكان دخوله المدينة حوالي عام ٢٦٢ / ٨٧٥. وفي السنة نفسها، عين الخليفة العباسي الأخ الأكبر نصر، واليا على «ما وراء النهر». ولما توفى نصر، أصبح إسماعيل والي المنطقة وسلطانها، وتوسع غربا في خراسان وشرقا وشمالا في غرب، بحيث أصبحت الدولة واسعة، وقد امتد حكم إسماعيل السلطان من سنة ٢٧٩ / ٨٩٢ إلى عام ٢٩٥ / ٩٠٧.



الإسلام هو الذي ربط تلك المناطق النائية بأقطاره الغربية - أرض الرافدين وما بعدها. والإسلام أعطى تلك الرقعة الرابطة الروحية والثقافية التي بدلت الكثير من شئونها

يبدو لنا كأن بخارى التي تطورت ونمت وتوسعت وقوى نفوذ أهلها وقامت بأدوارها الأدبية والعلمية خلال القرن العاشر، قد انتظرت سنة ٩٩٩ كي تقفل دفتر المجد وكتاب العلم وديوان الشعر وتودع سنة ١٠٠٠ في حزن وأسى!

في أيام إسماعيل، بدأت بخارى تستقطب لا كبار التجار وجهابذة الصيارفة فحسب، بل أخذت تجذب إليها العلماء والأدباء والشعراء الذين أموها من نيسابور والشاش (على مقربة من طشقند الحديثة) وحتى من بغداد. وقد اتسع نطاق قصادها فيما بعد بحيث وصلها علماء أندلسيون.



نمت بخارى وكبر شأنها مع السامانيين، كما أن السامانيين عظم أمرهم بنمو بخارى، ففي العقود الأولى من القرن العاشر، حكم بخارى إسماعيل وابنه أحمد ونصر (ابن أحمد) ونوح بن نصر (٢٧٩-٣٤٣هـ/ ٨٩٢-٩٥٤م)، وكانت هذه فترة العز الاقتصادي والسياسي للاثنين. فقد كانت الواحة وسواها من الأجزاء الداخلة في حكم السامانيين، تنتج القمح والحبوب الأخرى والأرز وأنواعا مختلفة من القطن، وترتع في ربوعها الأغنام والماعز وتربى فيها الخيول. وكان نهر زَرَفْشان يزود الأرض بحاجاتها من المياه عبر قني حفرت منذ القديم وحوفظ عليها وأصلحت باستمرار. وكان الكاغد (الورق) يصنع في سمرقند وفي بخارى (قلة)، كما أن الفحم الحجري كان يستخرج من الأرض في فرغانة وسواها. وكانت بخارى مركزا تجاريا كبيرا، يحمل إليها من شرق أوروبا الفراء والعنبر والعسل والجلود، وهذه تبادلها بخارى بالحرير الممتاز والأقطان والأواني الفضية والنحاسية والأسلحة والمجوهرات. وقد ازدهر طريق الحرير أيام السامانيين، فكان التجار يحملون من الصين الحرير والأفاوية والقيشاني، وينقلون إلى الصين الخيول والزجاج. وكانت الخانات تقوم على الطرق الرئيسية، بحيث يجد التاجر مكانا لإقامته والتحفظ على تجارته والعناية بدوابه. وقد كانت القوافل يبلغ عدد المشاركين فيها الآلاف، فإن مثل هذا العدد الذي قد يكون معه حماة وحراس، للسلامة أقرب وللنظام أدعى.

إن الحركة العلمية في بخارى، التي بدأت أيام إسماعيل وجدت ظروفا ملائمة لها في أيام نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/ ٩١٤-٩٤٣م).

فالثروة ومصادرها كثيرة، وثمة تقليد لدعوة العلماء وتشجيعهم على الاستيطان في بخارى. وكان الوزيران اللذان أعاناه على الحكم، الجيهاني والبلعمي، حريصين على استزادة العلماء في بخارى؛ لأنهما كانا من العلماء.



ولم تقتصر الحياة العلمية والأدبية في بخارى على البلاط، فقد كانت المدينة تحوي من الوراقين عددا كبيرا. ودور الوراقة لم تكن أماكن لبيع الكتب فحسب، بل كانت مجالس لأهل الفكر والأدب. فقد كان أصحابها أنفسهم ممن يتصلون بالحركة الفكرية اتصالا وثيقا، كما كان بعضهم من العلماء والأدباء والشعراء.

ولعل مما يلفت النظر هو جمهرة العلماء الذين كانوا يقيمون في بخارى.

كما كان للشعر مقام كبير في بخارى، وقد نظم الشعر بالعربية والفارسية. وهناك من نظم في اللغتين. لكن من المهم أن نذكر أن الكثير من الشعر العربي المبكر قد نقل إلى الفارسية، وكان الفرزدق وابن الرومي عزيزين على قلوب المترجمين. على أن النثر العلمي العربي نقل إلى الفارسية.

أما في النواحي العلمية، فقد ظهر في بخارى علماء في الرياضيات والفلك والعلوم، لكنهم كانت تغلب عليهم الناحية النظرية، أما النواحي التجريبية، فقد كانت قليلة الأهمية عندهم. إلا أن شئون الري، من حفر القني وتنظيم توزيع الماء، فقد كانت أمورا عملية برع فيها البخاريون.

وكان من الطبيعي، وقد ضمت بخارى نخبة كبيرة من أهل المعرفة في التفسير والحديث ورجال الاعتزال والصوفيين، أن تثار قضايا خلافية حول هذه القضايا وما يتفرع عنها.

وعلى نحو ما احتوت بخارى على عناصر العلم والمعرفة المتنوعة وعملت على الإفادة منها، فقد قبست العناصر والأساليب الفنية التي عرفتها المناطق المجاورة والتي انتقلت إليها وأصابت هناك موطنا من مواطن انصهارها فتيًا لتخرج منها منظومة فنية متقنة جميلة أنيقة. فكان ثمة الأثر الكوشاني (الهندي الذي حمل من الجنوب)، وكان هناك العنصر الذي جاء من شرق إيران ومعه النموذج الإسلامي العباسي المتمثل بما كانت عليه الفنون في سامراء. وبما أن الكثير الكثير من أبنية بخارى كان يستعمل الخشب فيه، فقد كانت تتعرض للحرائق ولذلك لم يبق الكثير منها.

لكن ثمة تربة الأمير إسماعيل، وهي لا تزال قائمة آثارها: مخططها أساسه معابد النيران المربعة القاعدة تعلوها قبة منخفضة جميلة مزخرفة الألوان. وهذه الألوان المتمازجة على نحو غاية في الجمال، ومثلها في آثار «ما وراء النهر» متعدد، تبين التمازج الفني بين الألوان الصفراء على تنوع قوتها، والزرقاء على تعدد أصبغتها. وأحسب أن هذا الفن يمثل اقتباس اللون الأصفر من الصين ومزجه بالأزرق الذي تكثر آثاره في إيران الشرقية.

ويبدو الزخرف بشكل خاص في المساجد والمآذن. وجدران الأولى كانت تزخرف من الداخل بالخزف الساماني المزين بكتابة كوفية المنوع الأشكال والزخارف والألوان؛ وكان ذلك ينطبق على جدران بعض المآذن الخارجية. وقد أتقنت فنون الخط زخرفة إلى مدى بعيد.

وقد غنى المغنون ولعب الناس على الآلات الموسيقية - العود وسواه، وكانت لهم في الموسيقى آراء نظرية لا تطبيقات عملية فحسب، ولنذكر أن الفارابي كتب في الموسيقى العربية.



في أواسط القرن الرابع / العاشر تعثرت شئون بخارى السياسية والمالية بسبب اضطراب البلاط ومن حوله، وأوقف البويهيون تجارة السامانيين مع الغرب. ويلاحظ الباحثون أن السلطة انتقلت تدريجيا إلى أيدي العسكريين وكانوا من الأتراك. وبسبب قيام قوى جديدة في الشرق والجنوب من السامانيين التي أخذ أصحابها ينتزعون من المملكة السامانية أجزاء منها الواحد تلو الآخر، بحيث إن الحكم الساماني بالكاد أصبح يسيطر على ما وراء النهر؛ وحتى هنا على كثير من الضعف. وفي أواخر القرن الرابع / العاشر كان السامانيون على وشك الخروج من التاريخ.

لكن مع ذلك، كان ثمة تطورات أدبية وعلمية مهمة في بخارى وخوارزم وسمرقند وسواها.

ولنذكر على سبيل المثال أن موسى بن محمد الخوارزمي (توفي ٣٨٧/٩٩٧) كان يعمل في بلاط السامانيين، وهو كما يعرف القراء واضع أسس علم الجبر ومبادئ اللوغريتم، وهو مولود في خوارزم (خيوه اليوم).

ومع أن البيروني ولد في طوس (٣٦٢/٩٧٣) فإنه أقام في خوارزم مدة في بلاط خوارزم شاه المأمون، وليس من شك في أن المحدث البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ/ ٨١٠-٨٧٠م) صاحب الصحيح ثقة من ثقات الحديث، على أن نجم بخارى هو ابن سينا (راجع فيما بعد).

قطعت أوصال أملاك السامانيين تدريجا خلال النصف الثاني من القرن الرابع / العاشر، بين انتزاع أجزاء منها على يد الجيران الأقوياء أو اقتطاع أجزاء أخرى على يد حكام محليين يستبدون بالأمر دون السلطة المركزية.

يبدو لنا كأن بخارى التي تطورت ونمت وتوسعت وقوى نفوذ أهلها وقامت بأدوارها الأدبية والعلمية خلال القرن العاشر، قد انتظرت سنة ٩٩٩ كي تقفل دفتر المجد وكتاب العلم وديوان الشعر وتودع سنة ١٠٠٠ في حزن وأسى!



لا. كان لايزال فيها، وفي المدن التي قامت حولها ومعها، روح فيه ما تعطيه، وقد أتيح لها ذلك على يد الأيلكخانات الذين حكموا ما وراء النهر وتركستان الشرقية (٣٨٢-٦٠٧هـ/ ٩٩٢-١٢١١م).

صحيح أن الشعر دالت دولته إلى درجة كبيرة، لكن النثر أصبح موضع الاهتمام في البلاط، وممن ظهر في ذلك الوقت محمد عوفي مؤلف «لباب الألباب» وهومجموعة شعرية، و«جواهر الحكايات» وهو مجموعة قصص، كما عاش في بخارى محمد بن عمر الرادوياني الذي وضع ترجمان البلاغة، ونقل كتاب النرسخي في تاريخ بخارى إلى اللغة الفارسية. فالعصر كان عصر جمع وترجمة، ومما يلاحظ في هذه الفترة هجرة أهل العلم من بخارى إلى الغرب (مثل ابن سينا) وإلى الهند مثل الزمخشري النحوي (توفي ٥٣٩/١١٤٤) بعد أن عاد إلى بخارى.



وفي أيام أرسلان خان (٤٩٥-٥٢٣هـ/١١٠٢-١١٣٠م)، الذي كان تحت إمرة السلاجقة فعليا، قامت في بخارى حركة بناء كبيرة، فقد عمرت منارة بخارى الكبرى، وهي التي شاهدناها لما زرنا المدينة، كما أنه أعاد تعمير المسجد الكبير وإيوان الصلاة خاصة، كما أنه بنى حمامات وقصورا وعني بإعادة عمارة أسوار المدينة.

ويمكن أن نلخص الوضع العام في المنطقة التي كنا نتحدث عنها في أيام الأيلكخانات في الأمور التالية:

١ - أصبحت ما وراء النهر وما إليها جزءا من آسيا الوسطى، وصارت جزءا من العالم التركي الإسلامي، وبعد أن كانت تتصل ببغداد وما إليها، اتجهت نحو كَشْغَر.

٢ - دخلت اللغة التركية إلى المنطقة، إلى جانب الفارسية، لغة محكية ومكتوبة جزئيا، وظهر مع ذلك أدب إسلامي تركي، حلْبة المنافسة مع اللغة الفارسية. ومن أمثلة ذلك كتب «مرآة الأمراء».

٣ - ظلت اللغة العربية لغة العلوم الدينية والعلوم عامة، وكان ثمة الكثير من كتب الفقه والشرع والمنطق والفلسفة.

٤ - قامت في بخارى أقدم مدرسة، ولعلها كانت النموذج الذي اتبعه نظام الملك الوزير السلجوقي، لما أنشأ ما عرف باسم المدرسة النظامية.

٥ - أصبحت بخارى في هذه الفترة ملتقى ثلاث ثقافات: ثقافة إيران الغربية وثقافة

تركستان الشرقية والثقافة العربية الإسلامية التى رفدت الثقافتين الأخريين بما كانت قد بلغته من الرفعة والنضج والتجديد.

فى سنة ٦١٧/ ١٢٢٠ اجتاحت جيوش جنكيز خان المنطقة، وكان أن أحرقت أكثر أجزاء المدينة، قبل أن تصل مع ورثته إلى بغداد وتهدمها سنة ٦٥٦ /١٢٥٨.

حرى بالذكر، ونحن نصل فى قصتنا إلى ما يشبه النهاية، أن نشير إلى أن تيمور لما أقام أسرة جديدة فى «ماوراء النهر» (٧٧١ - ٩١٢هـ / ١٣٧٠ - ١٥٠٦م) واتخذ من سمرقند عاصمة له، قام هو وخلفاؤه ليس فقط بجعل سمرقند مدينة كبيرة، بل عنوا ببخارى أيضا، فبنوا فيها الكثير وأحيوا من شئونها المدرسية والعلمية ما يذكر لهم بالخير، وكان حفيده أولوغ بك، الذى حكم «ماوراء النهر» (٨١٢ - ٨٥٠هـ / ١٤٠٩ - ١٤٤٦م)، عالما فى الفلك، الذى كان يعلمه أيضا، وأنشأ فى سمرقند مرصدا كبيرا، وقد شاهدنا آلة المسدس الكبيرة للمرصد الذى أنشاه لما زرنا المنطقة.



أثناء حديثنا عن بلاط السامانيين ذكرنا أهم الشعراء الذين ظهروا فى بخارى، ذلك بأن الشعر كان، من قبل على الأقل، بحاجة إلى رعاية أهل البلاط، لذلك تحدثنا عن دقيقى وردكى والفردوسى، وكان البلاط السامانى حريصا على الاهتمام بعلماء الشرع والفقه، فلمع من هؤلاء جماعة فى ذلك البلاط.

لكن ثمة فئة من أهل العلم والفكر وحتى من الشعراء كان ظهورهم وكانت أعمالهم نتيجة العمل الفردى، ونحسب أنه آن الأوان للتحدث عن بعض هؤلاء لتتم الصورة البخارية والماوراء النهرية.

وأول من نريد التحدث عنه هو محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفى صاحب جامع الصحيح المعروف بـ«صحيح البخارى»، والمعروف هو بالبخارى.

ولد البخارى فى بخارى سنة ١٩٤/ ٨١٠ وتوفى فيها سنة ٢٥٦/ ٨٧٠، بدأت عنايته بالحديث دارسا له وهو فى الحادية عشرة من عمره، ولما بلغ السادسة عشرة أدى فريضة الحج حيث سمع عن كبار محدثى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم زار مصر وبعدها قضى ست عشرة سنة متنقلا فى طلب الحديث، كانت حصة البصرة وحدها منها خمس سنوات، وما تبقى كان تنقلا وسفرا فى أقطار آسيوية.

بعد هذه الجولات التى زودته بكم كبير من الأحاديث عاد إلى موطنه وانكب على درس هذه الأحاديث محاولا التأكد من صحتها على أسس سليمة الأسلوب واضحة الطريقة، ولم يكن الأمر سهلا، لكنه أتم عمله قبل وفاته بإخراج «جامع الصحيح» المعروف باسم «صحيح البخارى»، وقد نظم الأحاديث حسب نواحى الفقه المقبولة، ومع أنه لم يتمكن على ما يقول الباحثون فى الصحيح، من العثور على أحاديث صحيحة لجميع مناحى الفقه والشريعة، فقد بذل الجهد الكبير الذى حفظه له السلف، بحيث أصبح «صحيح البخارى» الكتاب الذى يتبرك بقراءته فى الملمات، مثل بدء حملة عسكرية وسوى ذلك.

ونسخة جامع الصحيح الذى يعتمد اليوم هى التى أعدها على بن محمد اليونينى (توفى ٧٠١/ ١٣٠٢) وقد أعانه فى ذلك اللغوى العالم ابن مالك (توفى ٦٧٢/ ١٢٧٣)، وهو صاحب الفية ابن مالك فى اللغة.

على أن النجم الساطع الذى ظهر فى بخارى فى أيام السامانيين هو الرئيس ابن سينا. وهو أبو على الحسن بن عبدالله بن على بن سينا، كان أبوه عبد الله من أهل بلخ، وقد تولى عملا للدولة السامانية، وعاصمتها بخارى، و فى خَرْمَيْثَن ولد ابن سينا سنة ٣٧٠/ ٩٨٠.

وانتقلت الأسرة فيما بعد إلى بخارى، وهناك جئ بمعلم للقرآن وآخر للأدب للعناية بالطفل، ولما أتم العشر من عمره كان قد حفظ القرآن وأتى على كثير من الأدب، حتى كان يُقضى منه العجب.

وأراد أبوه أن يعلمه حساب الهند، فوجهه إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند كى يتعلمه منه.

واشتغل ابن سينا بالفقه وتردد على إسماعيل الزاهد، وكان من أجود السالكين، وفى هذا التردد ألف الفتى طرق المطالبة ووجوه الجدل والنقاش وأساليب الاعتراض على المجيب على النحو الذى جرت به عادة القوم، من أهل الشريعة والكلام.

وهبط بخارى أبوعبدالله الناتلى، وكان يُدعى المتفلسف، وأراد الوالد أن يتعلم ابنه من الناتلى هذا فانزله دارَهم.



وعلى كل فإن هذه التجربة الأولى مع كتاب الإيساجوجى ومع الناتلى فى المنطق حفزت الفتى على السير قدما فى قراءة الكتب على نفسه وأخذ يطالع الشروح حتى أحكم علم المنطق، وعندما انتقل إلى الهندسة.

وكان الفتى قد مرن على القراءة فى الكتب الصعبة وحذق أساليب فهمها وحل ألغازها ورموزها، فلم يقعده عن العمل انعدام «المعلم»، فاشتغل بتحصيل المعرفة من النصوص والشروح مباشرة معتمدا على نفسه، فكانت كتب العلم الطبيعى والإلهى فى جملة ما أتقنه، وصارت أبواب العلم تنفتح عليه.

ورغب ابن سينا فى علم الطب، فاخذ يقرأ المصنفات فيه، ولم يجد فى ذلك صعوبة قط، إذ إنه برز فيه بحيث أن فضلاء الطب أخذوا يقرأون عليه علم الطب، وتعهد المرضى فاتاح له ذلك تجربة فريدة للتعرف إلى أبواب من المعالجات العملية ما كانت تتاح لغيره.

إلى هنا، وابن سينا، لم يبلغ الثامنة عشرة من حياته، أصبح صاحب درجة متميزة فى العلم والمعرفة، فاستحكمت معه العلوم جمعاء، مدركا إياها بحسب الإمكان الإنسانى.

وبعد رحلة حافلة بالعلم، مات والد ابن سينا، وتولى هو شيئا من أعمال السلطان، لكنه لم يجد بدا من الخروج من بخارى.

مراجع مفيدة بالعربية

١. الاصطخرى. الممالك والمسالك تحرير محمد جابر عبد العال الحينى. القاهرة ١٩٦١.

٢. زامباور. معجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى. ترجمة زكى محمد حسن. بيروت ١٩٨٠.

٣. زكى محمد حسن. الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى. القاهرة ١٩٤٥.

٤. فيليب حتى وإدور جرجى وجبرائيل جبور تاريخ العرب. بيروت ط٧ / ١٩٨٦.

٥. لسترانج، كى. بلدان الخلافة الإسلامية. ترجمة (مع تعليقات) بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط٢ بيروت ١٩٨٥.

٦. المقدسى. أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦.

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهورى

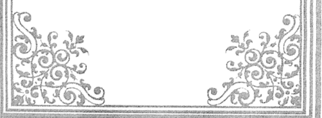
٣. إحياء الفقه الإسلامى

* أرى أن الأساس الذى يبنى عليه إحياء الشريعة الإسلامية يجب أن يكون كما يأتى :

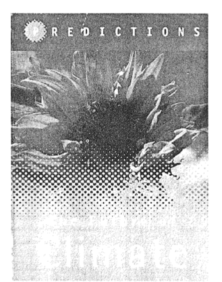
(١) تميز الاعتقاد الدينى المحض عن الشريعة باعتبارها قانونًا لتنظيم علاقات البشر بعضها بالبعض. (الفقه أو علم الفروع).

٢ ـ في نطاق الفقه يؤخذ الجزء الخاص بالقانون (خالصًا من الجزء الخاص بالعقائد والعبادات). ويستخرج منه القواعد العامة للشريعة الإسلامية وهى قواعد تصلح لعموميتها أن تطبق في كل زمان ومكان وتعتبر هذه القواعد أصولاً للشريعة الإسلامية.

٣ ـ هذه الأصول لا تتغير باعتبارها أصولاً ولكن تطبيقاتها تختلف (أولاً) باختلاف الزمن (ثانيًا) باختلاف الأمم. وعلى ذلك تكون هناك أصول للشريعة الإسلامية لا تتغير. وتفاصيل الشريعة الإسلامية تتغير بتغير الزمان والمكان ويكون من المعقول مع بقاء الأصول واحدة أن تكون هناك تفاصيل قررت في قرن معين وفى بلد معين، وهذا هو المعنى الذى يجب أن يعطى للمذاهب المختلفة فى الشريعة الإسلامية كمذهب الإمام أبى حنيفة مثلاً. أى أنه يجب أن يفهم هذا المذهب على أنه مذهب لتطبيق أصول الشريعة الإسلامية في الزمن الذى وجد فيه والإقليم الذى انتشر فيه وأنه يعبر عن الشريعة الإسلامية بهذين القيدين، فيقال إن التفاصيل التى ارتضاها زمن كذا وإقليم كذا هى كذا وكذا. وهذا لا يستتبع أن هذه التفاصيل يجب أن يرتضيها كل زمن وكل إقليم، بل لكل من هذين أن يستنبط من التفاصيل ما ينطبق على ظروفه الخاصة، وليس معنى هذا أن يطرح التفاصيل التى تعب فى استنباطها الأزمنة والأقاليم الأخرى بمجهودات تستوجب الإعجاب، بل يجب ربط الحاضر بالماضى ربطًا لا يقيد الحاضر فيغله ويوقف تقدمه، ولا يقطع صلته بالماضى فتنعدم وحدة الشريعة الإسلامية فى مجموعها.



من يقهر الآخر.. الإنسان أم الطبيعة؟!



ليلى الجبالى

أقوياء العالم بما حققوه من تقدم علمىّ وتكنولوجى مذهل، عاجزون عن تغيير آليات الطبيعة التى تغيّر المناخ نتيجة لما يحدث فى الأرض من تنوع فى عمليات أنشطة الكوكب التفصيلية، مثل السحب ومكوناتها الإشعاعية، والترابط بين المحيطات والغلاف الجوى، والثورات البركانية



ظل الإنسان منذ فجر التاريخ فى صراع مع الطبيعة، فى حركة جدلية لا تنتهى. توصل الإنسان بالعلم والمعرفة إلى اختراعات تكنولوجية بالغة التقدم. وسيظل يواصل كشف أسرار الكون ما بقيت الحياة على سطح الأرض. لكن الإنسان خُلق غروراً طامعاً، فكلما زادت قوته وثراؤه وعلمه زادت أنانيته. وها هو قد وصل إلى درجة العُولمة أى (الهيمنة) يريد فيها أن يمتلك الأرض وما عليها. شبكة رأسمالية أخطبوطية عالمية تؤمن بأن الإنسان الفرد هو غاية الكون. تُقاس القيم البشرية عندها بالقيم النَّقدية. ومن ثمّ، تصبح الطبيعة إما موارد ذات ربح، أو موارد بلا قيمة.

فهل استطاع الإنسان بتكنولوجياته بالغة التقدم أن يتحدى كوكبنا الجميل؟.. الكوكب الذى جعله الله ملائما لحياة الإنسان. غاية فى الجمال، جمع بين الطقس المعتدل، والماء السائل، والجو الأكسوجينى..؟ تكيّف البشر مع بِنْيَة أمنا الأرض. فأخذت الكائنات العضوية على سطحه ترتبط بعلاقات وثيقة فيما بينها. ومع علم «البيولوجيا الحديث» عرفنا أن جميع أنواع الحياة على كوكب الأرض قائمة على خطة أساسية مشتركة للكيمياء الحيوية، وأننا جميعا نتكون من خلية واحدة موجودة فى العامل الوراثى الـ (DNA)...؟

منذ بدء الخليقة صارع الانسان الطبيعة ومازال يصارعها فلم تستسلم له. قاومت عدم احترامه لوظيفتها فى هذه الدنيا وجهت للإنسان صفعات مناخية يعجز عن ردّها. غيّرت مناخ الكرة الأرضية مع تغيّر نظامها «الإيكولوجى» بفعل الإنسان «والإيكولوجيا - Ecology» هى علم البيئة الذى يُعنى بالعلاقات بين النباتات، والحيوانات، والإنسان، وبين بيئتها غير الحيّة.

فهل يمكن التنبؤ بمستقبل هذا المناخ..؟

هذا ما يحاول «أندرو جودى» أن يجيب عنه فى كتابه «مستقبل المناخ» بمقارنة بين الماضى والحاضر، واستعراض القوى الدافعة لتغيير المناخ، والآثار المناخية المترتبة عليها، وما قد يحدث من تغيرات فى المستقبل بعد ارتفاع درجات الحرارة فى الكرة الأرضية كلها.




تطورت الدراسات المناخية والتقنيات الحديثة الخاصة بالتنبؤ بالطقس منذ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. وقد تأسست هيئة دولية تهتم بأحوال المناخ فى العالم عام ١٩٨٨ تحت اسم هيئة الحكومات المشتركة حول تغير المناخ - The intergovernmental Panel Climate Change (IPCC).

وكانت النماذج المناخية هى الوسائل الأساسية لعرض مستقبل أحوال المناخ، وتعرف باسم (نماذج الدورات المناخية العامة - GCMS) وقد تأسست هذه النماذج على القوانين الفيزيقية التى تصف ديناميات الغلاف الجوى، والمحيطات، والطبيعيات. كما تأسست على علاقاتها التجريبية، ووضعها فى صورة معادلات رياضية يتم حلها رقميا باستخدام أجهزة كمبيوتر ضخمة جداً. غير أن معظم نتائج هذه الدورات المناخية الظاهرية، غير مؤكدة تأكيدا تاماً. لأنها تنبثق من وجود سحب، ومكونات إشعاعية، وازدواج بين الغلاف الجوى والمحيطات، وعمليات تفصيلية تحدث على سطح الأرض. هذه العمليات المناخية تستدعى سلسلة من التصورات لا تستطيع (الهيئة الدولية المشتركة حول تغير المناخ) أن تقدم من خلالها تقديرات مستقبلية مؤكدة نتيجة لما يحدث من تأثيرات خارجية غير متوقعة مثل الثورات البركانية التى تؤدى إلى تحولات مفاجئة سريعة نسبيا فى النظام الإيكولوجى.



الإنسان جزء من الطبيعة ومسئول عن تغير المناخ الى حدّ كبير..؟! فالارتباط وثيق بين التغيرات المناخية والمعرفة البيئية العلمية والثقافية وها هم أقوياء العالم بما حققوه من تقدم علمىّ وتكنولوجى مذهل، عاجزون عن تغيير آليات الطبيعة التى تُغيّر المناخ نتيجة لما يحدث فى الأرض من تنوع فى عمليات أنشطة الكوكب التفصيلية، مثل السحب ومكوناتها الإشعاعية، والترابط بين المحيطات والغلاف الجوى، والثورات البركانية التى قد تؤدى إلى تحولات مناخية سريعة فى النظام الإيكولوجى. تحولات تحتاج إلى وعىّ بالمشاكل الناجمة عن التغذيات المرتدة المعقدة فى منظومة الأرض الإيكولوجية.



لنسترجع إذن ما حدث منذ بداية الثورة الصناعية منذ حوالى (٣٠٠عام). كان الناس فى ذلك الزمن يستخدمون الكربون المستخرج من وقود الحفريات المحترقة لإنتاج الفحم، والغاز الطبيعى، والبترول، فينتج عنها كربون الديوكسيد CO_2 + الحرارة + بخار الماء + كميات قليلة من أكسيد الكبريت أو الميثان، وغيرها من الغازات. ولأن الإنسان لم يكف أبدا عن مهاجمة الطبيعة، فقد أسهم فى إحداث تغييرات خطيرة فى مناخ هذه الدنيا. غيّر النظم الايكولوجية الأرضية. غيّر تغييرا جوهريا فى مستوى كربون الديوكسيد على مستوى الكرة الأرضية. الذى ارتفع من (٢٨٠ جزئ فى المليون فى كتلة الهواء المتحركة، إلى ٣٦٠ جزيئا فى المليون حاليا). لماذا..؟ لأنه اقتلع الغابات الباسقة المتوجهة إلى السماء تحصد أوراقها الكثيفة ضوء الشمس لتقوم بعملية التركيب الضوئى. تأخذ طاقتها من ضوء الشمس الذى تولده آلة حرارية نوويّة ضخمة فى أعماق جوف الشمس ليتدفق فى جميع الاتجاهات. وتأخذ الماء من الأرض، وثانى أكسيد الكربون من الهواء. هذه الغابات تحوّل كل هذه المواد إلى غذاء لها تستخدمه هى ذاتها، ونستخدمه نحن البشر - فالنبات يستخدم الكربوهيدرات بوصفها مصادر للطاقة يؤمن لها الاستمرار فى عملها الوظيفى. أما الإنسان فيأخذ من النبات الكربوهيدرات بالأوكسجين الذى نتنفسه من الهواء، وبالتالى نستمد الطاقة التى نتحرك بها. وفى هذه العملية نزفر نحن البشر ثانى أكسيد الكربون، فتأخذه النباتات من الهواء تصنع منه المزيد من الكربوهيدرات فى أعجب تعاون إلهى بين

The Future of Climate

مستقبل المناخ

Andrew Goudie
Phoenix , 1997 , 60pp

النباتات والإنسان الذى يتنفس أحدهما ما يزفره الآخر. عملية متبادلة من فم الإنسان إلى فم النبات على امتداد كوكبنا الجميل، مستمدا طاقته من الشمس (النجم) الذى يبعد عنا (١٥٠ مليون كيلو متر).

فهل احترم الإنسان هذه المنظومة الإلهية الإيكولوجية..؟ أبداً. لم يحترم كبرياء الطبيعة وشموخها مستنداً إلى اكتشافاته العلمية بالغة التقدم. تماماً كما لم يحترم أقوياء العالم، المستعمرين، والاحتكاريون السابقون، والعولميون المهيمنون الحاليون، حرية البشر وحقهم فى الحياة الإنسانية الكريمة، فاستعمروهم ونهبوا أراضيهم وثرواتهم. فعلوا نفس الشىء مع الطبيعة غيّروا بيئة الدنيا الإيكولوجية فتغيّر المناخ. تجاهلوا أنّ البيئة تعنى العلاقات بين النباتات، والحيوان، والتربة، والماء، والبشر، والعوامل الجوية، وخاصة مبادلات الطاقة، والمادة التى تترتب عليها الديناميات السكانية. هذا المفهوم الإيكولوجى لا يتوقف على الحجم، بل ينطبق على قطرة ماء فى فرع شجرة، بقدر ما ينطبق على كوكب الأرض فى مجموعة.

اغتال الإنسان الشره الأنانى، الغطاء الشجرى من الغابات فى المناطق الغابيّة فى الأمازون والمناطق الاستوائية، فزادت تركيزات الكربون على نحو لا يمكن التنبؤ بما لا يبشر بالخير للإنسان.

فماذا كانت النتائج المناخية...؟

تغيّرت مكونات الغلاف الجوى الكيميائية وجزيئاته. زادت سموم الأرض الصناعية. زادت الغازات المنبعثة وكل المواد التى تهاجم طبقة الأوزون التى تقى الغلاف الجوى. تغير الضوء وما يعكسه سطح الأرض من أشعة. زادت انبعاثات الإنسان من الكلورو فلورو كاربون» التى لم تهاجم طبقة الأوزون المحيطة بالغلاف الجوى فقط، بل كان لها أثر أيضا فى ارتفاع النسبة الكامنة غير المتجانسة من غاز الصوب الذى يساعد على ارتفاع درجة الحرارة بزيادة تأثيره على غاز النترو أوكسيد.



ويشير تقرير هيئة الحكومات المشتركة حول تغير المناخ (IPCC)، إلى أن التنبؤ الممكن لاحتمال تغيّر مناخ العالم فى الفترة ما بين الحاضر وعام (٢١٠٠)، هو تأثير ارتفاع درجات الحرارة بسبب ارتفاع غازات الصوب. وانخفاض درجات الحرارة نتيجة لزيادة غازات الهباء الجوى الكبريتى الـ (Oerosol)، فيما قد يؤدى ذات يوم بعيد، الى عصر جليدى كامل يحوّل العالم إلى مناطق واسعة غير ماهولة بالسكان. وتؤدى طبقات الثلج إلى طمس كامل لكل شمال أمريكا إلى أوهايو، وحوض المسيسبى، والبلاد الاسكندنافية، وسويسرا، والجزر البريطانية، وسيختلف ارتفاع درجات الحرارة فى مناطق مختلفة من العالم تبلغ أقصى ارتفاع لها فى المنطقة الواقعة أقصى شمال خطوط العرض، أما التقديرات التى اتفق عليها علماء المناخ اتفاقا نسبيا حول ما سيحدث فى المناطق الاستوائية فهى استمرار الارتفاع الحاد فى درجات الحرارة فيما سوف يخلق مشاكل صحية، مثل ضيق التنفس، ونقل الأمراض المعدية مثل الملاريا، ومن المؤسف حقا أن ٤٥٪ من سكان العالم يعيشون فى مناطق مناخية ينقل فيها الناموس الملاريا وهى نسبة ستصل إلى ٦٠٪ فى النصف الثانى من هذا القرن الحادى والعشرين.

ومع استمرار ارتفاع درجات حرارة الكون نتيجة لتزايد انبعاث غازات الصوب، ستتأثر الزراعة، وتوازن المياه، ومكونات الغلاف الجوى، وتنتشر الأوبئة شديدة القسوة، والأمراض، والحرائق وتتغير جزيئات التربة. كما أن المناطق الواقعة عند خطوط العرض المنخفضة ستتعرض لنتائج مناخية أكثر سلبية، وهى للأسف المناطق التى تعيش فيها أكثر الأمم فقراً لأنها تعتمد على قطاع الزراعة للبقاء على قيد الحياة.



ومع ارتفاع درجات الحرارة، ستتغيّر مكونات الغابات، وتصبح الصحارى الأكثر حرارة منعدمة الرطوبة لا تبشر بالأمطار وسيرتفع سطح البحر، وتتغيّر ديناميات العواصف، وتدمّر الشواطئ، وتزداد ملوحة مصبات الأنهار، وتتغير درجات المدّ والجزر، ورواسب الأنهار، ونماذج التلوث الكيميائى والميكروبيولوجى فى المناطق الساحلية، وتزداد فيها الفيضانات. وقد تهاجر أجناس من خطوط العرض عند خط الاستواء إلى النظم البيئية الأقل حرارة.

ويشير التقرير الذى صدر عام ١٩٩٦ إلى أن التنبؤ بمستقبل المناخ فى العالم لا ينطبق على المدى الزمنى القصير ومع ذلك ها نحن البشر نعيش فى الزمن الحالى، وسيعيش أولادنا وأحفادنا فى العقود القريبة القادمة.. نكابد قسوة النتائج المناخية القاسية الناجمة عن عدم احترام الإنسان بعلمه وقدراته الفائقة، لمنظومة البيئة الطبيعية الإلهية ودورها فى خلق التوازن بينها وبين البشر. لم يستطع الإنسان بكل قدراته، أن يهيمن على الطبيعة ويقهرها. اغتال غطاء الكوكب الأرضى النباتىّ الجميل فافسد جوه واختل التوازن بين الطبيعة والإنسان. اختار الرفاهية المادية لمجتمعاته على حساب صحة وشقاء شعوب العالم الفقيرة بسبب هيمنته السابقة واللاحقة. إننا نتحدث عن إنسان حكومات الدول الصناعية المتقدمة القادرة المقتدرة. لكن الطبيعة أقوى منه. حرمها من دورها الربانىّ على سطح أمنا الأرض لتجمل لنا الحياة بفتنتها وشموخها، فحرمتنا من الاستمتاع بجمالها وعطائها. وها نحن نقاسى من ارتفاع درجات الحرارة غير المألوف التى ستزداد ارتفاعا عاما بعد عام، وآخرون فى مناطق أخرى من الكرة الأرضية سيقاسون من شدة البرودة. ■



تجارب ١٠ من أكبر المؤلفين المعاصرين

عندما حلت أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، كان المسرح الأمريكى يعيش حالة أزمة. فبعد فترة من الازدهار شهدت سلسلة من المسرحيات الرائعة، تتصدرها أسماء كتاب أحدثوا صحوة مسرحية كبرى، على رأسهم آرثر ميللر وتنيس ويليامز، بالإضافة إلى عروض مسرحيات يوجين أونيل، بدا وكأن برودواى. عاصمة المسرح الأمريكى. لم يعد لديها ما تقدمه

في شهر مارس ١٩٩٨، تصادف أن شاهدت على أحد المسارح فى نيويورك، آخر مسرحية كتبها آرثر ميللر - أهم كاتب مسرحى معاصر على مستوى العالم بشهادة كبار النقاد والمؤلفين.

أن تكون هناك مسرحية جديدة لآرثر ميللر فهذا إغراء لايقاوم، لمشاهدتها. لكن ما أثار اهتمامى أكثر، أنها لا تعرض فى برودواى - الساحة الرئيسية لأهم العروض الفنية، لكنها تقدم على خشبة مسرح صغير يسع ١٦٠ مقعدا فقط. وهو مسرح متخصص فى تقديم العروض التجريبية.

المسرح اسمه سيجنيتشر Signature واكتسب سمعة جيدة، بتقديمه أرقى العروض التى تحمل سمات التجريب، واستكشاف الجديد من ناحية الشكل، أو الموضوع، أو لغة الحوار، سواء لمؤلفين جدد، أو لكتاب راسخى القدم مثل آرثر ميللر.

وتساءلت: هل بعد هذا العمر، وذيوع الصيت فى أرجاء العالم، وبعد أن ترجمت مسرحياته لمعظم اللغات، وعرفتها شعوب فى كل القارات، وبعد أن تربع على القمة كأحد أعظم كتاب المسرح. منذ أن أرسى لاسمه وجودا محسوسا، حين عرضت أولى مسرحياته «كل أبنائى» عام ١٩٤٧، بعد هذا كله، يكتب ميللر مسرحية من نوع التجريب، لاتزيد مدة عرضها على ٩٠ دقيقة، وفى قاعة عرض صغيرة؟!

من أول مشهد فى المسرحية ينتقل إليك الانطباع بأن ما تشاهده مختلف تماما عن كل مسرحياته السابقة، وهو لا يجعل الأحداث وحركة الشخصيات، والصراع فيما بينها، يجرى على خشبة المسرح، لكنه يدور داخل عقل الشخصية الرئيسية فى المسرحية وهو «مستر بيتر» الذى يحمل عنوان المسرحية «علاقات مستر بيتر» Mr. Petera' Connections.

وهى نوع من دراما الحالة النفسية، وتقع الأحداث فيها فى المساحة بين النوم واليقظة. وتركز المسرحية على رجل يواجه الموت، ويواجه الحياة أيضا. ففى اللحظات التى تقترب فيها حياته من النهاية، بعد أن تقدم فى العمر، ورحل كل رفاقه وأصدقائه، ومعارفه، فهو يستدعى إلى ساحة عقله، هؤلاء الذين كانوا مقربين للغاية منه. متلهفاً من خلال الحوار معهم، على أن يستكشف معنى وجوده، أو معنى الوجود ذاته. واللهفة يزيدها التهابا، غروب سنوات شبابه وكهولته الأولى، بعد أن سحبت معها الإحساس بالهدف، والتوجه نحو شىء محدد. ومع إحساسه بدنو الأجل، فإن حاجته تزاداد لفهم ما الذى تعنيه الحياة.

وفى حواره مع الآخرين، فإنه فى الحقيقة يتكلم مع نفسه، إلى أن يكتشف مستر بيتر أن هناك أكثر من صورة، وأكثر من معنى للموت تتراوح بين اللامبالاة، والسأم والتبرم، والفشل المزمن، وتقطع الصلات تماما بينك وبين كل المحيطين بك، والأكثر من ذلك انقطاع الصلة والعلاقات بين الناس وبعضهم البعض.

بعد مشاهدتى للمسرحية بشهرين، وبالتحديد فى مايو ١٩٩٨، أتيح لى أن ألتقى آرثر ميللر فى بيته - بعد اتصالات لترتيب هذا اللقاء - وحين سألته عن التجريب فى هذه المسرحية قال: إننى كسرت الحاجز بين الماضى والحاضر، طالما أننا فى حضرة رجل فى حالة عقلية، هو فيها أشبه بنصف نائم ونصف مستيقظ. وهو فى هذه الحالة يتحرك بحرية تسمح له بإقامة كل أنواع العلاقات التى لا نستطيع ونحن فى حالة الوعى أن نقيمها، أى أن مستر بيتر يتحرك فى أرض التجريب.

وآرثر ميللر الذى عكست مسرحياته الشهيرة بعضا من ملامح التجريب، يصل بعد أن بلغ عمره حينذاك اثنين وثمانين عاما (فى عام ١٩٩٨)، إلى خيار بأن تكون «علاقات مستر بيتر» تجريبية فى بنائها الكلى، وهو هنا لا يسبح فى المجهول، لكنه يدخل إلى فروع تجرى فيها مياهه، ويكرس أدواته، وأعمدة بنيانه المسرحى المعروف، فى طرح شكل آخر مختلف لكنه فى النهاية متصل بالأصل، ومستند إلى نفس الأساس.

انطلاقا من هذا المشهد، تحولت بنظرى إلى الساحة الحية بالعروض المسرحية المهمة فى برودواى، أتأمل أعمال عشرة من بين أهم وأكبر كتاب المسرح الأمريكى المعاصرين، لأنى لاحظت أن كلا منهم بدأ يكتب للمسرح فى أول الستينيات، فى القاعات الصغيرة التى كانت تقدم التجريب، فى مجموعة من الأماكن التى حملت اسم أوف أوف برودواى Of Of Broad-way ولم تكن محصلة أعمالهم حين اكتملت خبرتهم ونضجت شخصياتهم، وأصبح لكل منهم وجوده المتميز، هى التجريب كنمط، فكل منهم وهو يجرب، كان يحفر للتجريب قناة تتفرع من النهر الأصلى من المسرح التقليدى إلى أن يشكل لنفسه عالمه المتفرد، ويعود ليصب بمياهه فى المجرى الرئيسى - برودواى.

تاملاتى لهؤلاء العشرة، كانت عبر خمس سنوات متصلة أمضيتها فى الولايات المتحدة، حرصت خلالها على أن تكون فرجتى لكل عرض مسرحى جديد تتيح لى الظروف والوقت مشاهدته، هى على رأس أولويات المتعة الذهنية التى أنشدها، كلما أتيحت لى الفرصة، إما فى نيويورك، أو فى واشنطن حيث يوجد عدد لا بأس به من المسارح، أو حولها فيما يمكن أن نسميه واشنطن الكبرى - فى الأحياء القريبة منها بولايتى فيرجينيا وميريلاند.

ومن خلال المتابعة ذات البعد الأوسع، استوقفتنى تجربة هؤلاء العشرة ضمن عدد من كبار الكتاب المعاصرين فى المسرح الأمريكى الذين بدأوا الكتابة فيما سمى بالمسرح التجريبى، ليصبح كل منهم بعد ثلاثين أو أربعين سنة، واحدا من الكتاب المنتمين إلى المسرح بعالمه ذى الخصائص المشيدة كالبنيان الراسخ، أو السابحين فى بحر كان التجريب فيه موجة من موجاته، فمن أين جاءت البداية؟



عندما حلت أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، كان المسرح الأمريكى يعيش حالة أزمة. فبعد فترة من الازدهار شهدت سلسلة من المسرحيات الرائعة، تتصدرها أسماء كتاب أحدثوا صحوة مسرحية كبرى، على رأسهم آرثر ميللر وتنيس ويليامز، بالإضافة إلى عروض مسرحيات يوجين أونيل، بدا وكأن برودواى - عاصمة المسرح الأمريكى - لم يعد لديها ما تقدمه. فلقد نضب منجم أونيل، وخيم الصمت الإبداعى على ميللر، وكان ويليامز أكثر صمتا وسكونا.

على الناحية الأخرى من المجتمع الأمريكى، كانت رياح تغيير تقترب فى السياسة وفى الثقافة. فلقد غادر البيت الأبيض الرئيس أيزنهاور الذى كان يعكس قيم وأفكار الماضى، وحل محله رئيس جديد، هو جون كنيدى، بشبابه غير المألوف وسط الوجوه التى اعتادت أن تسكن البيت الأبيض، وبتفكيره الذى عكس نمطا مغايرا فى تناول قضايا الداخل والخارج، ممثلا لجيل جديد من القيادة فى أمريكا.

كان الساكن الجديد فى البيت الأبيض - جون كنيدى - مختلفا أيضا عن سابقيه مهتما بالفنون، اعتاد أن يرتاد دور الأوبرا والمسارح وهو قارىء للكتب والمؤلفات خاصة الجديدة، واعتاد أن يدعو مؤلفى هذه الكتب على العشاء فى البيت الأبيض يتحدث ويناقش ويتبادل

---

١. **Contemporary Amecican Playwrights**
(كتاب المسرح الأمريكى المعاصرون)
Christopher Bigsly
Cambridge university Press, 1999

٢. **The New Theatre**
(المسرح الجديد)
By Robert Corrigan
Delta Publising - Boston,1999



عاطف الغمرى

الأفكار.. شهدت هذه الفترة اهتمام رجال الاعمال بدعم المسارح، وحين حل منتصف الستينيات كانت المسارح قد عرفت منافذ الدعم المالى لها من الحكومة الفيدرالية وحكام الولايات ومسئولى المدن الأمريكية.

وسط هذه الظروف كان المبدعون الجدد أصحاب المواهب الواعدة كامنين خارج المجرى الرئيسى للحركة المسرحية لكنهم كانوا قد شقوا لأنفسهم مجارى صغيرة تجرى مياههم فيما بدأ يحمل اسم «أوف أوف برودواى».

وحول هؤلاء بدأت تنمو ثمار مكملة لزهور الحديقة من ممثلين ومخرجين ومصممين للديكور ولخشبة المسرح بل وأيضا من ينظفون الموائد ويبيعون التذاكر. وكان هذا المسرح غنيا بملكات الذين يحملون عبئه، لكنه ليس غنيا فى أى شىء آخر من وسائل الإبهار والضخامة والتكنيك المسرحى. هذه المجموعة من الكتاب، جاء كثيرون من أفرادها إلى نقطة الجذب فى «أوف أوف برودواى» جاءها سام شبرد مثلاً من كاليفورنيا، وجاء من نفس الولاية، أيضا لانفورد ويلسون، وغالبيتهم بدأوا التجريب فى محاولة لخلق شكل جديد للمسرح، فى إطار المسرحيات ذات الفصل الواحد وهم وإن كانوا قد أبحروا فى مياه التجريب إلا أن كلا منهم كان يسبح لمسافة، لكنه لا يبتعد عن الشاطىء أو عن البحيرة الرئيسية محاولا أن يعود إليها مساهما فى تحريك المياه التى قد سكنت فيها.

ومن المنطقة التى بدأوا فيها ولم تكن أسماؤهم معروفة فقد اقتربوا مسافة من قلب برودواى بوجودهم فى الحزام المحيط بها، الذى حمل اسم أوف برودواى والتى ازدهر فيها المسرح على يد التجارب غير التقليدية لهؤلاء المؤلفين، وبدأ جمهور المسرح يعرف طريقه إلى هناك، يملأ قاعات هذه المسارح الصغيرة أو يشهد فى عام ١٩٥٩ مثلا مسرحية «قصة حديقة الحيوان» لإدوار ألبى التى افتتحت فى مسرح شيرى لين، ومسرحية «العلاقة» لجاك جلبر فى مسرح ليفنج ثيتر.

واتفق النقاد فى حينها على ان كلا منها تستلهم روحها من المسرح الأوروبى، لكنها تعيد شق طريق جديد لها فى الوسط الأمريكى.

وكان المسرح هناك فى تلك الفترة حريصا على أن يستقى من نوعية جمهوره الأفكار والقيم والاهتمامات التى تشغله ومخاطبة جمهور جاء إلى «أوف أوف برودواى» وإلى «أوف برودواى» يتطلع لمشاهدة أشكال مختلفة من التجارب المسرحية غير التقليدية وكان يبدو فى تلك الفترة وكأن هذا التيار المسرحى الجديد يقف فى طريق الصدام مع المسرح التقليدى، الذى كان قد شيد لذاته وجودا مهماً ويحاول أن يتشكل فى صور ثقافية، تحاول أن تعكس تغييرات سياسية واجتماعية لم تكن قد تواجدت قبل ذلك بعشرين عاما أو عن طريق خلق لغة مسرحية مستلهمة من خطاب اللحظة الراهنة، وبمعنى آخر من الأحداث الجارية يوما بيوم وحتى يجد المتفرج الذى جاء لمشاهدة هذه العروض غير التقليدية نفسه وأفكاره وشواغله حية على خشبة المسرح أمام عينيه، وإن هذا التجريب ليس تيارا معزولا منغلقا على ذاته بعيدا عن الواقع المحيط به، ولاحظ النقاد أن هذا التيار التجريبى كان أداة تسهم فى استكشاف المجتمع واستطلاع جوانب منه ذات أهمية حيوية ولكنها ليست تحت الضوء أو موضع الاهتمام، وبمعنى آخر فإن التجديد لم يكن قاصرا على الشكل المسرحى، لكنه كان أشمل من ذلك فى دعوته لتجديد المجتمع نفسه من خلال الأفكار والكلمة واللغة التى يستخدمها.

ولعل من نتائج تيار «أوف أوف برودواى» أنه ساعد مرة أخرى على ازدهار مسرحيات الفصل الواحد، ولعلنا نذكر أن المسرح الأمريكى كان قد عرف فى بدايات القرن العشرين، ما سمى بتيار المسرح الصغير وذلك بظهور مجموعات صغيرة من هواة المسرح مثل فرق The Washington Square Players و The Provincetown Players والتى أتاحت الفرصة لبروز أعداد من الكتاب الذين وجدوا أمامهم مجالا للتجريب فى المسرحيات القصيرة، وهو شىء لم يصل عندئذ أو بعد ذلك إلى برودواى.. أما الآن فى بداية الستينيات فقد كانت الفرصة متاحة للكتاب لاستطلاع وسائل استخدام تكنيك ولغة وشخصيات مغايرة للمألوف فى إطار مسرحيات الفصل الواحد، واختبار مهاراتهم الخلاقة وإبداعهم، فى صياغة الحركة المسرحية فى أمريكا.

والملاحظ أن عددا كبيرا من المؤلفين الذين بدأوا فى المقاهى وقاعات المبانى والمؤسسات أو الكنائس وغرف العرض الصغيرة فى «أوف أوف برودواى»، ثم تواصل تواجدهم فى «أوف برودواى» ومسارح أخرى فى الولايات فى السبعينيات والثمانينيات، والتسعينيات، أصبحوا يمثلون اليوم كبار كتاب المسرح الأمريكى، والملاحظ وهذا هو الأهم أنهم سلكوا دروب التجريب ليدخلوا منها إلى أرض المسرح الحقيقية إلى مسرح الكلمة بحيث يضيفون إليه ويطورونه من خلال التجارب التى قاموا بها بما يقوى من صلابة البنيان الأصلى، فهم ليسوا خوارج، أو متمردين على المسرح التقليدى، لكنهم مجددون له، بالرغم من أن بداياتهم الأولى فى شوارع التجريب، وبمعنى آخر فإن التجريب عندهم هو موجة من موجات البحر تعلو بهم إلى حين، لكنها تعود بهم إلى سياق باقى الموجات فى نفس بحر المسرح وهذا واضح فى أعمال العشرة الذين بدأوا بالتجريب، وأصبحوا اليوم، ضمن أهم كتاب المسرح الأمريكى المعاصر وهم:

جون جور

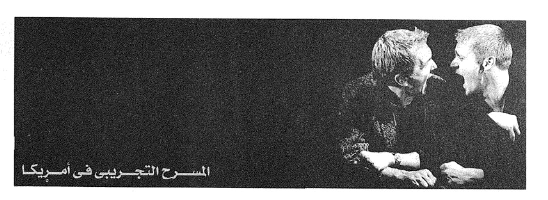
وكان واضحا تركيزه فى أعماله على قيمة الحوار والعودة بالمسرح إلى اللغة الشعرية وعدم الخضوع لسيطرة فكرة الواقعية التى تسمح باستخدام اللغة على إطلاقها جميلها وقبيحها وهو كان يضفى قوة على اللغة التى تنطق بها شخصياته وكأنه ينهج لنفسه طريقا يقترب من عالم الكاتب المسرحى النرويجى الشهير هنريك إبسن، وأحيانا يكاد يلامس أرض الدراما اليونانية، ونجد هذا فى مسرحياته «جاردينيا Gardinia» و «النساء والماء Woman and Water» و «وماركو بولو يغنى سولو» و«مشهد الجسد»، ومنزل أوراق الشجر الزرقاء» و«ست درجات للانفصال»، وغيرها.

حتى أن اللغة أو الكلمة فى مسرحه كانت محورا أساسيا شغل النقاد لما تثيره من خيال رحب وقوة جمالية مؤثرة.

تينا هاو Tina Howe : يمكن اعتبار المسرحيات الشهيرة التى كتبها تيناهاو هى من نتاج فترات السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات بالرغم من أنها بدأت الكتابة للمسرح فى عام ١٩٥٩، لتيار حركة المسارح الصغيرة، فى نفس الوقت الذى كانت فيه المسارح «أوف برودواى» تخلق إمكانية تقديم عروض لمؤلفين من الشباب الذين لم يكن فى قدرتهم الوصول بأعمالهم إلى العالم الرئيسى للمسرح، وكان أول عروضها فى أوف برودواى هو «العش the nest» عام ١٩٦٩ وتعترف تيناهاو نفسها بأن مسرحها يحمل مذاقا أوروبيا. وهنا تشير إلى أن المسرح الأمريكى قد شهد فى أوائل الستينيات تجارب تتأثر بالحركة المسرحية الجديدة فى أوربا، من ناحية الشكل وليس من ناحية الفلسفة أو المضمون.

وفى بدايتها كان لدى تيناهاو رفض للواقعية فى المسرح، لكن التجريب الذى سلكت طريقه طور أعمالها حتى أن اقترابها من النجاح تحقق حين بدأت كتاباتها تميل بقدر ما نحو الواقعية، واستمرت خطوة خطوة فى هذا المسار، حتى أحرزت الاعتراف بها من الحركة النقدية.

وفى أعمال تيناهاو كان للمكان الذى تجرى فيه الأحداث سطوته وتاثيره على العمل بكامل تفصيلاته، ففى مسرحية المتحف، تشكلت من المكان طبيعة الشخصيات ولغة الحوار، والبناء الدرامى، وتطور الأحداث. واستقر هذا فى كثير من أعمالها مثل «طلاء الكنائس Pointing Churches» و «فن الطعام Art of Dining» وفى هذه المسرحية الأخيرة كان المطعم هو مكان الأحداث، وقد صمم على شكل غاية فى الجمال، كل شىء فيه ناطق بالحياة وإن أوحى بقدر من



المسرح التجريبى فى أمريكا

الغموض المحبب وكان المكان بتشكيله وتصميمه يلعب دورا رئيسيا فى خلق أجواء القلق والتوتر، ورافق جو تناول طعام العشاء انفراج أزمة العلاقات وتكشف الغموض شيئا فشيئا.

وتدريجيا وحتى بلوغها مرحلة متقدمة فى الثمانينيات والتسعينيات فهى قد أخذت تدفع بشخصيات مسرحياتها نحو اكتساب سمات كلاسيكية فى أحيان كثيرة وعلى وجه الخصوص فى مواقف التوافق مع الموت أو مع الحياة على السواء.

إميلى مان

خلقت إميلى مان نمطا من التأليف المسرحى، أعتبر من الفنون الصعبة، فهى لجأت إلى اختيار أحداث يومية جارية، أو نص تفصيلى لمناقشات تتناول قضية مهمة، لكى تحولها إلى دراما تجرى أحداثها حية على خشبة المسرح. حتى أنها جعلت من المناقشات الخاصة حدثا علنيا جماهيريا بحيث أعادت تسكين الأحداث والشخصيات فى مناخ مختلف تم تشكيله دراميا، بعد انتزاعها من الإطار الذى وجدت أصلا فيه، وأضفت على هذه الشخصيات تاريخا، وظروفا اجتماعية وتكوينا نفسيا واجتماعيا يعطيها ديناميكية الفعل الدرامى، بحيث يصبح مسرحها فى النهاية انعكاسا للإطار الاجتماعى الأوسع، وليس للشخصية التى استخلصت منها مادتها. وفى أعمالها تبدت مهارة المؤلفة فى صياغة الشكل والإطار والبناء لعملها، وفى تطور الشخصية من خلال الفعل والحدث واللغة، بطريقة تبنى جسرا موصلا بسهولة بين الشخصية على المسرح وبين المتفرج الذى انطبعت فى خياله من قبل صورة أخرى لهذه الشخصية، حين كان لها وجود فعلى بعيدا عن عالم الدراما وخشبة المسرح.

ولو أننا تأملنا مسرحيتها «مازالت الحياة هى» «Still Life is» فإنه رغم أن موضوعها مشتق مباشرة من الحياة كما يدل عليه اسمها - فإنها بدت وكأنها صنعت تمثالا من المادة التى كانت فى يدها فهى تضفى عليه من إحساسها ورؤيتها ووجهة نظرها وموقفها، وفى صلب العمل تبدو الكلمة أو اللغة لها سطوتها الجمالية المخاطبة للعقل والحس.

وكانت قوة مسرحيات إميلى مان تبرز من خلال الموضوع الذى تختاره، والبناء النفسى والاجتماعى الجديد لشخصيات معروفة للمتفرج وهو ما يكثف من انتباه ومتعة الجمهور فى نفس الوقت.

ريتشارد دنيلسون

اهتم ريتشارد نيلسون فى بداياته بالعلاقة بين المسرح والتجريب، واعتبر أن الفن فى حد ذاته مبرر لابتداع أشكاله، لكنه لم يترك هذا المفهوم يجره بلا وعى إلى منطقة تنقطع فيها الخيوط بينه وبين العالم الذى دخله من أوسع أبوابه وليس تسللا من النافذة وهو عالم المسرح كما هو معروف. فعاد يؤكد أنك لكى تتحدث إلى العالم، فيجب أن تكون طرفا فى هذا العالم. وأن السياسة ليست مثل رحلة إلى المحيط، تعود منها لتبدأ حياتك، بل السياسة هى وسيلة للحياة واعتبر أن الكتابة ليست فقط شيئا يجرى فى إطار أخلاقى، أو التعبير عن قيمة أخلاقية لكنها فى ذاتها فعل له نتيجة أخلاقية.

ولعل تشكيل شخصيته ككاتب مسرح فى الستينيات قد ساعد عليه أن المجتمع فى تلك الحقبة كان قد بدأ يجعل من المسرح جزءاً مهماً من تكوينه وكانت أعماله انعكاسا لرؤيته التجريبية ولتحولات المجتمع فى الوقت ذاته، كما اعترف بانبهاره بالدراما الكلاسيكية، حيث مال إلى إضفاء ملامح شكسبيرية واضحة على بعض مسرحياته الكوميدية، كما اعترف بتأثره ببريخت ليس من ناحية التكنيك، وإنما من ناحية فهمه للمسرح كمنتدى للحوار والمناقشة.

وكان أبرز انعكاس لهذا قد ظهر فى مسرحيته «غابة المدن» «The Jungle of the Cit-ies» التى عرضها عام ١٩٨٧ على مسرح الأكاديمية الموسيقية فى بروكلن.

ويلاحظ أن تجربته فى عام ١٩٨٣ بكتابه معالجة جديدة لمسرحية تشيكوف «ثلاث أخوات» «Three Sistere» قد عززت لديه الرباط بين التجريب والكلاسيكيات فهو اضطر لأن يقرأ أعمال تشيكوف ويكتشف فيها عناصر تزيد من وعيه بأعماله هو شخصيا.

مارشا نورمان Marsha Norman : ربما تكون مارشا نورمان قد سلكت فى بدايتها نفس الطريق الذى سارت فيه إميلى مان ككاتبة للدراما التسجيلية. فهى لجأت إلى صياغة المسرحية من خلال مشكلات سياسية واجتماعية مهمة، مستفيدة من قدرتها على الخيال فى إثراء موضوعها ونسجه بخيوط الدراما الواعية. لكن مارشا نورمان تمردت على هذا الشكل بعد وقت قصير من تواجدها فى عالم «أوف - أوف برودواى» وبدأت تبحث عن شكل مختلف.

وتشرح مارشا نورمان أنها فى لحظة سيطر عليها فيها شعور بالرعب، وبان خطرا حقيقيا يهددها، قفز إلى عقلها فى هذا المناخ من المزاج النفسى، خاطر عن فتاة صغيرة كانت قد التقت بها قبل عشر سنوات فى أحد المستشفيات، وهى فتاة فاقدة السيطرة تماما على زمام نفسها، وحدث أن قضت سنوات فى السجن جزاء ارتكابها جريمة قتل ولم يكن ما يشغل بال مارشا فى هذه الرواية العنف الذى اتسمت به شخصية الفتاة فى حد ذاته، ولكن كيفية الخلاص للفتاة من وضع وجدت فيه نفسها، نتيجة ظروف اجتماعية من ناحية، ونتيجة غريزة عدوانية فى طبع الفتاة. وكيف يمكن لها أن تقدم هذا الخيط الرفيع الحساس فى قالب درامى. ووجدت مارشا أن موضوعها سوف يكون تقليديا، مالم تفتش بنفسها عن ماضى هذه الفتاة وجذورها، وأنها طالما اكتشفت ما وراء الوجه المرئى للشخصية، سهل عليها أن تدفع بها إلى خشبة المسرح، وكانت النتيجة هى مسرحية حملت اسم «الخلاص» «Getting Out» والتى كتبتها على أساس وجود شخصية للفتاة الأولى حسبما كانت فى ماضيها والثانية المرأة التى صارت عليها الآن والعلاقة بين الاثنين وتتطور الأحداث لتكشف بعدا إضافيا عن الحياة الاجتماعية للمرأة بشكل عام، وهو بعد قد يكون موجودا فينا نحن المتفرجين، أى أنها جعلت للشخصية، شخصيتين تتصارعان ولكل منهما ذاتيتها.

ولأن نجاح المسرحية فى قوة بنائها وقدرتها على أن تجعل لكل من الشخصيتين إرادتها الخاصة، فى حين تجمعها روح واحدة، وكيف أن الفتاة أنزلت نفسها بنفسها إلى داخل السجن، بينما المرأة استطاعت الخلاص منه، والبراعة فى وضع الماضى والحاضر معا فى لحظة واحدة، رغم أن الماضى دائما ما يتوارى عن العيون، ولا يظهر لنا من مواقف الشخصيات سوى ما يتصل بالحاضر.

وحين تحدثت عن تجربتها ككاتبة مسرحية فى عام ١٩٩٥، قالت ان الهدف من الفن هو أن نعبر عن أشياء مشتركة تجمعنا معا، الحياة التى نحياها معا، والحياة التى يمكن أن نعيشها سويا، لو استطعنا أن نهرب جميعنا من ظروفنا الراهنة. الفن هنا هو وسيلتنا للتعبير عن علاقاتنا مع بعضنا.. مع الذين قاسمناهم النصر، والهزيمة، والهدف، بصرف النظر عما إذا كنا قد قاسمناهم البيت أو الفراش، أو حتى يكون قد جمعنا قرن واحد. وكانت هذه الكلمات بمثابة تشخيص عام لأسلوبها فى الكتابة.

وعن فن الكتابة قالت إنه محاولة للفهم، وتقديم معنى محرك للعقل، من خلال قوة الخيال، والإحساس بالعلاقة مع الذين قد تبدو تجاربهم مختلفة عن تجاربنا، لكننا نقترب من بعضنا ونحن واقفون على خشبة المسرح، أو جالسون فى صفوف المتفرجين نتابع ونشارك.

ديفيد ريب

فى عام ١٩٦٣ عرضت مسرحية اسمها الجسور من إنتاج ورشة عمل مسرحية وكان المؤلف هو ديفيد ريب وقد حظى بالاعتراف كمؤلف مسرحى عندما عرضت له مسرحية «اليتيم» «The Orphan» على مسرح جامعة فيلانوفا فى فيلادلفيا عام ١٩٦٨.

وتصادف أن جند ديفيد ريب فى حرب فيتنام، وحين عاد فى أول السبعينيات من الحرب إلى بلاده الولايات المتحدة، وجد نفسه فى مجتمع شعر أنه غير مهتم بفيتنام وما جرى فيها. وقد شرح شعوره فى عام ١٩٧٣، فقال إن الكتابة هى نتيجة لحافز يسيطر عليك لتفسير واقع نعيش فيه، وليس التجرد من أى شعور تجاه هذا الواقع أو الارتباط به.

ولهذا كانت المسرحيات التى كتبها بعد عودته من الحرب، هى محاولة للفهم، ولإيجاد صيغة ولغة يمكن من خلالها أن ينفذ إلى عمق تجربة، لم يكن فى استطاعته أن ينفذ إليها أو يعبر عنها عندما كانت جزءا من حياته اليومية وقت أن كان يعيشها.

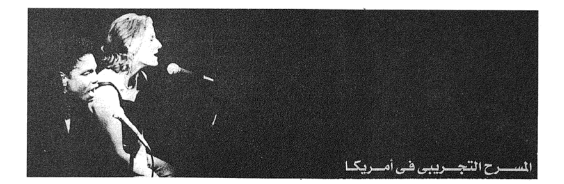
ويعترف بأنه لم يكن يبحر خارج المياه الإقليمية ويقصد المسرح الكلاسيكى - بل كانت تجاربه متأثرة بما حولها من أعمال يوجين أونيل، خاصة مسرحية «رحلة يوم طويل فى الليل» «Long Day Journey Night» أو إدوارد ألبى فى مسرحيته «الحلم الأمريكى» «The Omerican Dream» وكذلك مسرحيات آرثر ميللر بعد السقوط، ومنظر من الجسر، ووفاة بائع متجول، وإن كانت تمثل بالنسبة له منبع إلهام فكرى وأخلاقى، وليس من ناحية التكنيك والبناء الدرامى.

ويتحدث عن الكلمة واللغة فى أعماله التى بدأت تجربته ثم عادت إلى المسار الأقرب إلى الكلاسيكية، ويقول: أشعر أن اللغة فى الحياة، وفى الدراما على وجه الخصوص هى شىء يستخدمه الناس لخلق الحقائق، ولخلق وسائل للتعامل مع الواقع بقبوله أو برفضه. والكلمة تخلق واقعا أكثر من كونها تعكس هذا الواقع.

باولا فوجيل

فى عام ١٩٩٧ وصفت باولا فوجيل مسرحها بانه عملية تقوم على إغراء المتفرجين

هذه المجموعة من الكتاب، جاء كثيرون من أفرادها إلى نقطة الجذب فى «أوف أوف برودواى» جاءها سام شبرد مثلاً من كاليفورنيا، وجاء من نفس الولاية، أيضا لانفورد ويلسون، وغالبيتهم بدأوا التجريب فى محاولة لخلق شكل جديد للمسرح، فى إطار المسرحيات ذات الفصل الواحد، وهم وإن كانوا قد أبحروا فى مياه التجريب إلا أن كلا منهم كان يسبح لمسافة لكنه لا يبتعد عن الشاطىء أو عن البحيرة الرئيسية محاولا أن يعود إليها



بأن أصطحبهم فى رحلة، ليست فقط للوصول بهم إلى حالة من الفانتازيا والخيال، ولكن لتحرير عقولهم فى اللحظات التى يقضونها معنا من قيود النمط اليومى للتفكير.

على هذا النحو كتبت مسرحيتها «قصة حديقة الحيوان» «The Zoo Story» ثم كانت أشهر مسرحيتين لها بعد ذلك يقوم بناؤهما الدرامى على رحلة وهما: «فالسا بالتيمور» «The Boltimore Woltz» و «كيف تعلمت القيادة» «How I Learned to Drive».

وهى كانت تختار أفكارا عن أشياء صارت بمثابة مسلمات لا تمس ولا تتغير فى الحياة السياسية وقد سئلت ذات مرة: هل المسرح عمل سياسى؟ وأجابت: هو سياسى فى المقام الأول.

ولما حصلت باولا فوجيل فى عام ١٩٩٨ على جائزة بوليتزر عن مسرحيتها كيف تعلمت القيادة؟ How I Learned to Drive . بعد أن حصلت قبلها على خمس جوائز من مؤسسات مختلفة عن نفس المسرحية، فإنها تكون قد أكدت وضعها كواحدة من أهم كتاب المسرح الأمريكى الذين عرفت أعمالهم من خلال عروضها فى الثمانينيات والتسعينيات، بالرغم من أن بداية الكتابة لديها كانت أسبق من ذلك بكثير، حيث وصل عدد المسرحيات التى كتبتها إلى حوالى ٢٥ مسرحية.

ويوصف مسرحها بانه حوار عقلانى مع ثقافة المجتمع وتاريخ المسرح نفسه، وأن شخصياتها تتنفس جو المشاكل الراهنة والمتغيرة فى المجتمع، وصارت مسرحيتها انعكاسا لواقع المجتمع، وإن تناولته بأشكال من الواقع والخيال.

ويندى ويسرستين

كانت أول كتابات ويندى ويسرستين هى مسرحية «إنى امرأة لا تستطيع؟» «Any Woman Can't» وهى عن امرأة تسعى لتحقيق استقلاليتها فى عالم يسيطر عليه الرجل، وهو موضوع عادت إلى تناوله فى مسرحية عيد ميلاد سعيد Happy Birthday .

ولكن أنجح أعمالها جاء فى عام ١٩٧٥ وهى مسرحية «نساء غير عاديات وأخريات» «Uncommon Women and Others».

وفى تصورها للكتابة أنها تكتب مسرحيات جادة لكنها مرحة، وقد تكون قاسية لكن قالبها الكوميدى يذيب أى شعور بقسوتها.

اعتمدت ويندى ويسرستين فى التجريب الذى سلكته على الشكل، وقد لجأت إلى هذا النجاح فى مسرحيتها (وعرضت فى عام ١٩٧٢) «it Romantic». التى أقامت بناءها على ١٣ مشهدا مختلفا، تعكس طبيعة الموضوع، الذى يتضمن تشرذم طبيعة الشخصيات وحياتها. بحيث كانت المشاهد القصيرة للغاية انعكاسا من حيث الشكل، للمضمون وتفسيرا له، وربما تكون قد جربت نفس النسق بصورة أخرى فى مسرحيتها «يوميات هايدى» «The Heidi Chronicles» التى تاخذ المتفرج على طول فترة سنوات تمتد من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٩، مع تداخل عضوى للسنوات فى بعضها، وهى أرادت بهذا أن تظهر كيفية تغيير القيم والسلوكيات فى مجتمع.

لانفورد ويلسون

يتذكر لانفورد ويلسون أنه شاهد فى عام ١٩٥٥ وكان عمره ثمانية عشر عاما، مسرحية وفاة بائع متجول لآرثر ميللر وكانت شيئا ساحرا، لم أشهد مثيلا له فى حياتى. ومنذ هذه اللحظة تعلقت بالمسرح.. هذا الساحر الذى سيطر على تفكيرى.

وبعد عام واحد ذهب ويلسون إلى ولاية سان دييجو، ثم انتقل إلى شيكاغو هناك قرر أن يصبح فنانا. وبدأ يحضر برامج للدراسات الحرة عن الكتابة للمسرح. وأخيرا وصل إلى نيويورك وعمره خمسة وعشرون عاما. وكان ذلك فى عام ١٩٦٢، تشده لهفة ليس فقط للكتابة، بل أيضا لمشاهدة المسرح.

ولخيبة أمله لم يجد عروضا لأونيل أو ميللر ولم تكن برودواى تعرض على مسارحها سوى الكوميديات. وأخذ يتحسس طريقه إلى أن وجد له مكانا فى القاعات الصغيرة فى «أوف أوف برودواى» وعرضت أول أعماله عام ١٩٦٤ وكانت مسرحية من فصل واحد باسم Home Free .

ويعترف ويلسون أنه أخذ يجرب أشكالا مختلفة حتى استقر على تشكيل أسلوبه الخاص به، بعد أن تعمق فى دراسة الريبرتوار، فقرأ نصوص هزيك إبسن (النرويجى)، وتشيكوف (الروسى)، وترسب لديه إقتناع بأن إبسن وتشيكوف هما وجهان لعملة واحدة، حتى أنه درس اللغة الروسية، حتى يترجم مسرحيات تشيكوف وهو يشعر بنبض كلماته.

كانت البداية الحقيقية لويلسون فى عام ١٩٦٩ بعد أن كان قد فرض وجوده فى أوف أوف برودواى، وذلك عندما دعاه مجلس إحياء الثقافة الدولية فى نيويورك لتقديم أعماله على مسرح المجلس، وكان ذلك مجالا يقدم عليه تجاربه التى حاول من خلالها الوصول بافكاره وإبداعاته إلى الجمهور. وبعدها اقترب من برودواى ليقدم عليها إنتاجه بعد أن كان قد خاض تجارب فى مختلف دروب المسرح الأمريكى.

وشهدت برودواى نجاح مسرحية Our Town لما تعمله من بناء درامى قوى، ولغة شعرية شديدة الحساسية.

وفى بداياته فى الكتابة شغل ويلسون مثل غيره من أقرانه فى أوائل الستينيات بالتساؤل عن معنى الفن، ومحاولة صياغة إجابة من خلال أعمالهم وكان تفكيرهم حافزا للتجريب، واستطلاع آفاق جديدة، لكنهم حتى مع التجريب كانوا يجدون أنفسهم مهمومين بالمجتمع ومشاكله وبالنسبة لويلسون تبلورت قضيته فى الجماعة، والمجتمع، وعكست أسلوبه المسرحى فى بداياته الأولى، هذه الحقيقة عندما كان يحشد الشخصيات العديدة على خشبة المسرح ليجعل منهم صورة المجتمع الذى يريد تناوله دراميا.

ولكن ويلسون توقف فى مرحلة لاحقة عن حشد عدد كبير من الشخصيات فى أعماله، بعد أن شعر بمسئوليته عن الممثل الذى يتحمل عبء تقديم عمله، فاخذ يركز على عدد قليل، يبلور كل شخصيته فى ملامح وقسمات وبناء مشيد بقوة وإحكام، وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه مسرحيته Brontosaurus التى عرضت فى عام ١٩٧٧ .

ويلاحظ مع ثبات ورسوخ وجود ويلسون فى برودواى، أن أعماله عادة ما تصور عوالم تضمحل، ومجتمعات تتفتت نتيجة الفساد، وعلاقات تهددها الأنانية. وأن أمريكا فى نظره بلد تخون أحلامها ومثلها.

سام شبرد

يتصدر سام شبرد أسماء أهم الكتاب العشرة المعاصرين فى المسرح الأمريكى الذين بدأوا مسارهم من القاعات التجريبية فى «أوف أوف برودواى» وكانت بدايته هناك فى عام ١٩٦٤، عندما عرضت له فى عام واحد مسرحيتان قصيرتان هما الكاوبويز وحديقة الصخور Cowboys و Theroche Garden فى قاعة عرض صغيرة. وتعتبر هذه البداية مع بقية مسرحيات الفصل الواحد التى تتابعت لشبرد حتى عام ١٩٦٧، الأساس لأعماله التى جاءت بعد ذلك فى سعيها جميعا لاستكشاف آفاق أوسع للغة المسرح، واستخدامها بشكل مثير للخيال.

وكتبت عنه النيويورك تايمز فى عام ١٩٦٥، وكان عمره وقتها ٢٢ عاما، أنه أصبح واحدا من النوابغ فى الدراما المسرحية فى ساحة «أوف أوف برودواى».

ولقد أصبح لمسرح سام شبرد سمات تميزه فهو يتصف بالتوترات والتناقضات الداخلية، والنهايات المفتوحة والتطورات غير المؤكدة، ويطرح التساؤلات دون تقديم تفسير أو إجابة عنها، وهو مايجعلها تحتمل أكثر من معنى وأكثر من تفسير من وجهة نظر المتفرجين على اختلافهم.

وفى رأى شبرد عن مساره فى عالم التجريب أن ما كان يسمى بخصوصيته الفريدة فى أعماله الأولى، إنما هو شىء ناتج عن الجهل، فهو لم يحاول أن يسير على نهج الأفكار التقليدية لكتاب المسرح قبله، وكان اختياره المخالف للبناء الدرامى ولهيكل الشخصيات متعمدا. وإن كان هذا لم يمنع من تاثره فى أولى مسرحياته The Cowboy بصمويل بيكيت شانه شان كتاب المسرح التجريبى فى بدايات الستينيات. وقد أشار عدد من النقاد الأمريكيين إلى أن أعمال شبرد الأولى وكذلك أقرانه فى تلك الفترة تندرج تحت مسمى التجريدية، وكان هناك سبب آخر مهم أثر على الشكل الذى اتخذه المسرح على يد هذه المجموعة من المؤلفين الجدد ـ وقتئذ ـ وهو ظهور «أوف أوف برودواى» كساحة توفر أماكن للعروض، وتستوعب وتشجع التجارب الجديدة مما خلق مناخا يساعد على ازدهار التجريب وكانت الفرصة سانحة لأى مؤلف مادام ما يقدمه يمثل شكلا جديدا.

وشهدت نهاية الستينيات تغيرا هيكليا فى كتابات شبرد من حيث الشكل واللغة، عكست مرحلة النضج التى ظهرت بظهور مسرحية Lo Turista وإن ظل محافظا على النمط الذى اختاره لأعماله والذى يترك موضوعه يتحرك على مستويات مختلفة يتلقاها كل متفرج حسبما يتراءى له، وبدون وضع نهاية قاطعة وراحت مسرحياته تغوص فى عالم الحياة المعاصرة.

هكذا ازدهر المسرح الأمريكى، ليس بالخروج عليه، أو التمرد على الأصل، أو هدم البناء راسخ البنيان، وإقامة منشآت أخرى مكانه، وإنما كان ازدهاره، بالانتماء إليه، وحبا فيه، ومن مفهوم هذا الانتماء، كان لحركة التجديد التى بدأ ظهورها فى قاعات التجريب منذ أربعين عاما، تاثيرها فى دعم المسرح وتطوره، وانتعاشه، وعودة الروح إلى برودواى لتصبح واحدة من أهم وأكبر عواصم المسرح فى العالم.

لاحظ النقاد أن هذا التيار التجريبى كان أداة تسهم فى استكشاف المجتمع واستطلاع جوانب منه ذات أهمية حيوية ولكنها ليست تحت الضوء أو موضع الاهتمام وبمعنى آخر فإن التجديد لم يكن قاصرا على الشكل المسرحى، لكنه كان أشمل من ذلك فى دعوته لتجديد المجتمع نفسه من خلال الأفكار والكلمة واللغة التى يستخدمها



صلاح الدين عبدالله

لم أزل منذ سنوات بعيدة أتطلع إلى كتابة بحث مفصل عن قاع الحياة فى القرن الرابع الهجرى، ذلك القرن الذى يعده الباحثون عصر النهضة فى الإسلام، بحث لاتجد فيه إلا نزرا يسيرا عن الخلفاء والأمراء والقواد والوزراء، على حين يضم تفاصيل كثيرة تتعلق بالباعة والشحاذين واللصوص والمقامرين وما يجرى داخل بيوت القمار، كما تجد فيه ذكرا للقوادين والبغايا والطقوس التى يتم العمل بها داخل بيوت البغاء، فضلا عن الغلمان الذين يمارسون الشذوذ بأجر معلوم. أجل كنت أريد أن أكتب بحثا عن أولئك الذين لايملكون ما يدفعونه ثمنا للمؤرخين كيما يزيفوا لهم تاريخا خاصا قد أثقلته المساحيق التى إن كانت تبقى لعصور عديدة فلابد أن تسقط بظهور الحقائق، ولكن لما كان بحث كهذا متشعب المسالك إلى حد يحتاج من الفراغ ما لاطاقة لنا به، فقد جعلت أمسه برفق بين حين وحين، وهأنذا أقدم إلى القراء منه ما يسمح به المجال، ولكن قبل ذلك، أى قبل الكتابة عن هذا الكتاب لابد أن نتعرض لبعض الأمور التى نراها مهمة.



أولا: هناك ثلاث نقاط يجب أن توضع فى الاعتبار قبل أن نكتب ما نريده عن التراث الجنسى عند العرب.

١ ـ إن هناك فرقا شاسعا بين الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية، فالدين هو تلك المنظومة التى تاخذ على عاتقها رسم المُثل العليا التى يجب أن يتطلع إليها المتدينون، أما الحضارة فهى ذلك النشاط البشرى المتنوع بتنوع الذين يمارسونه، ولم تخلق قط تلك الحضارة التى يمكن أن تكون تعبيرا حرفيا عن المثل العليا التى تتربع على قمة وعيها الأخلاقى، ومن هنا فسلبيات الحضارة الإسلامية تحسب على الإسلاميين ـ أى المسلمين والذين يعايشونهم ـ لا على الدين.

٢ ـ إن الكتابة عن التراث الجنسى عند العرب لايمكن أن تكون موضع إثارة من أى نوع، لأن طلاب الإثارة أعدوا لها أنفسهم سلفا فراحوا يطلبونها بإلحاح عبر القصص المستنفدة والمشاهد المبتذلة، فهم لن يقبلوا بوجه من الوجوه على مثل هذه الكتابة التى نقدمها إلى القراء المهتمين بتحليل شتى عناصر التراث الإسلامى.

٣ ـ إن الكتابة عن التراث الجنسى بنزعة تحليلية لاتمثل نَيْلاً من المعايير ولا إنزالا للقيم عن عرشها الذى اتخذته على قمة الوعى الإنسانى باعتبارات مختلفة، لأن أولئك الذين نكتب عنهم بوصفهم تعبيرا عن قاع الحياة إنما يقدمون بين يدى خطاياهم آلاف القرابين فى شكل مبررات ومغالطات، وهم بهذا يتزلفون إلى أية شبهة يمكن أن يتسم بها المنطق البشرى داخل مجال كهذا، كما يعترفون ضمنيا بكون القيم فى مكان الصدارة، فإن لم يسعهم كل ذلك قالوا صراحة بجلالة القيم وأرجعوا تخاذلهم عنها إلى ما فى نفوسهم من ضعف بشرى، بهذا يتضح أن الكتابة عن التراث الجنسى كالكتابة عن أى عنصر من عناصر الحضارة يجب أن يتوفر عليه من الباحثين مؤرخون ومحللون بغية الكشف عن خصائصه الجوهرية.

ثانيا: لقد اتخذ العرب القدماء مداخل شتى إلى الكتابة الجنسية، فمنهم من دخل إليها من باب الطرائف والفكاهات على نحو ما نجده فى الكتب الأدبية العامة، مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«الأغانى» للأصفهانى، و«البصائر والذخائر» لأبى حيان التوحَيدى، و«نهاية الأرب» للنويرى، ومنهم من عالجها من خلال التراث اللغوى مثل «المخصص» لابن سيده، و«لسان العرب» لابن منظور. ومنهم من سلك إليها سبيل الطب أى أن يوضح علاقة الجنس بالصحة إقلالا وإكثارا على نحو ما نجد فى كتابات محمد بن زكريا الرازى وابن سينا وغيرهما، وهناك آخرون قد تناولوها برفق شديد خلال حديثهم عن الحب العذرى كابن داود فى «الزهرة»، وابن حزم فى «طوق الحمامة» و«السرَاج فى مصارع العشاق» وابن القيم فى «روضة المحبين» ، وداود الأنطاكى فى «تزيين الأسواق» وغيرهم، وإنما كان مقصدهم أن يوضحوا مظاهر السلب و الإيجاب فى العلاقة بين الحب والجنس.

هذا إلى جانب الكتب التى عُنيت بتمحيص الجدلية الكائنة بين الجنس والشريعة، أو بقول آخر تنظيم الشرع للعملية الجنسية ككتاب «أحكام النساء» لابن الجوزى، و«أدب النساء» لـ عبدالملك بن حبيب الأندلسى، و «تحفة العروس» للتيجانى، كما أن كتب التفسير لم تجد بدا من التعرض للمسالة الجنسية بانحائها المختلفة، سواء ما كان منها سويا أو غير سوى، خصوصا عند تفسير قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، وقوله تعالى: ﴿واللاتى ياتين الفاحشة من نسائكم..﴾ وقوله تعالى فيما يتعلق بالعلاقات الشاذة: ﴿ واللذان ياتيانها منكم..﴾ وقوله عز وجل ﴿والزانية والزانى..﴾ ، هذا فضلا عن الكتب التى عالجت الجنس بوصفه فنا ذا قواعد ومعايير نذكر منها على سبيل المثال «الإيضاح فى أسرار النكاح» للجاحظ، و«رشف الزلال من السحر الحلال» ، و«نواضر الأيك» و «شقائق الإترنج» وهذه الكتب الثلاثة للسيوطى أو على الأقل منسوبة إليه و«رجوع الشيخ إلى صباه» المنسوب خطأ لابن كمال باشا وهو للتيفاشى، ولاشك فى أن القارئ المطلع لن يحتاج إلى عناء حتى يدرك أن هناك قدرا من التداخل بين هذه المجالات، لأن الكتابة التراثية على العموم لم تكن تخضع لمنهجية صارمة تتحكم فى سيرها.

ثالثا: لقد أهمل كثير من الباحثين المعاصرين تناول التراث الجنسى بما هو فى أمس الحاجة إليه من الوصف والتحليل، بغية الكشف عن خصائصه الجوهرية التى يمتاز بها داخل الحضارة الإسلامية منه داخل الحضارات الأخرى، فمهما يكن الجنس قاسما مشتركا بين شتى شرائح النوع الإنسانى فما من شك أنه يكتسب مقومات محددة داخل كل حضارة تبعا للظروف والمكونات الخاصة بهذه الحضارة، من هنا فإن الذين قرأنا لهم من الباحثين تتباين مواقفهم بين الظلم والإهمال والتعسف.

ونضرب للفريق الأول مثلا بالمرحوم «فخرى أبوالسعود» الذى كتب فى مجلة «الرسالة» سلسلة مقالات يقارن فيها بين الأدبين العربى والأوروبى والتى سمى فيها التراث الجنسى بالأدب المكشوف، وكان تفسيره لنشاة هذا الأدب وتطوره تفسيرا غريبا. فقد رأى أن أكثر الذين كتبوا هذا الأدب لم يكونوا عربا، وبالتالى لم تاخذهم الغيرة على الثقافة العربية وكان الأصلاء فى كل حضارة قد ترفعوا عن ذكر هذا، وأحسب أنه لم يقرأ مثلا كتاب «كاما سُترا» تاليف مالانيجا فاتسيانا وهو يعالج التراث الجنسى عند الهنود، أو لم يقرأ الكتب المختلفة لأوفيد الشاعر الرومانى وهى تعالج نفس الموضوع داخل الحضارة الرومانية.

إذ من الإنصاف أن نقرر أن الكُتاب الإسلاميين كانوا صادقين مع أنفسهم بحيث أشعروا من يقرأ لهم أنه يشهد أعالى الحياة وأسافلها على السواء، فانحازوا بذلك إلى نبض الحياة الذى يسرى فى شرايين كل أمة من الأمم وقدموا لنا بهذا اللون من الكتابات ثروة أنثروبولوجية يتقاسمها علماء العلوم الإنسانية المختلفة.



وأخيرا، فإن أبرز من يمثلون الإهمال هم أولئك الذين أرخوا للبغاء والعلاقات الجنسية دون أن يلتفتوا إلى تلك التفاصيل الثرية التى يزخر بها التراث العربى والتى من شأنها أن تعدل من رؤية علماء الاجتماع لمنحنيات هذه المهنة القديمة الجديدة، فمن هؤلاء:

أ ـ الفريد بوكانان فى كتابه: «العلاقات الجنسية والشذوذ عبر التاريخ» ترجمة كاتيا مراد.

ب ـ سلام خياط فى كتابها: «البغاء عبر العصور».

ج ـ د.صادق صبور فى كتابه عن «تاريخ العلاقات الجنسية».

ومبعث هذه الأزمة من وجهة نظرنا أن العرب الذين يكتبون فى هذا الإطار، قلما يعتمدون على قراءات خاصة فى التراث العربى، فضلا عن اعتمادهم على المؤرخين الأجانب ومن هنا جاءت كتاباتهم لغير عالمنا فى الأغلب الأعم، والآن نظن أننا قادرون على أن نتحدث ولو بإيجاز عن ذلك الكتاب الذى هو موضوع مقالنا هذا، يتالف الكتاب من اثنى عشر بابا تدوركلها ـ ما عدا الباب الأول ـ حول طوائف من المجتمع يرتبطون بانماط جنسية شاذة أو عادية لكنها غير مشروعة، فمن حديث عن العاهرات المهنيات، إلى حديث عن المولعين باصطياد النساء، إلى حديث عن أولئك الشغوفين بالغلمان وما يتعلق بهذا من الغلمان المتهتكين مقابل أجرة معلومة، إلى حديث عن الجنسية المثلية داخل المجتمع النسائى وموقف المجتمع من هذه الطوائف، ذلك الموقف الذى يتراوح بين التشدد والتساهل.

وصاحب الكتاب لاينسى أن يسوق خلال حديثه عن هذه الطوائف قصصا وأخبارا وأشعارا تجمع ماهو متداول فى كتب الأدب والتاريخ وماهو محلى تنضح به بيئته الخاصة، وقبل أن نتحدث عن مادة الكتاب نحب أن نقرر أن التيفاشى كان عبقرية تصنيفية سابقة لعصرها، لأنه حول تلك المادة التى كانت تعتبر هامشية ـ يرغب عنها الناس إما لترفعهم عنها أو لشيوعها فى حياتهم ـ إلى علم ذى أسس وتفاصيل، فاحتفظ كتابه بما اعتاد الناس أن يضيعوه، وهذا هو ما انتبه إليه الفولكلوريون المحدثون حين راحوا يلتقطون من فم الشعوب ما تنطق به من قصص وأمثال وأغان إلى شتى مظاهر الحياة الشعبية، ونحن لانستطيع أن نستعرض مع القارئ كل مافى الكتاب، ولكن حسبنا أن نقرر فى شانه أنه مرآة تنعكس عليها عدة من القيم منها بقاء مقدار من الثبات فى جوهر الحياة البشرية. فمسألة التداعيات النفسية التى ينقاد إليها المولعون بالنساء كانت وما زالت شركًا تنصبه

نزهة الألباب فيما لايوجد فى كتاب
مؤلفه شهاب الدين أحمد التيفاشى. تحقيق جمال جمعة
طبعة دار الريس. الطبعة الأولى. يونيو ١٩٩٢.



النساء البغايا لأولئك المولعين، ولنر ما يذكره التيفاشى عن أصناف العاهرات المهنيات فهو يقسمهن إلى سبعة أصناف هى:

١ـ الغيرانة   ٢ـ السكرانة
٣ـ الحيرانة   ٤ـ الشاطرة
٥ـ المسافرة   ٦ـ المغنية
٧ـ المظلومة

وقبل أن نأخذ فى بيان هذه الأصناف يجب أن نلاحظ أن الضحايا يتمتعون أولا: بالقابلية وثانيا: بالاستعداد النفسى المسبق. ولنرجع إلى الحيل التى ذكرها التيفاشى: فأما الغيرانة فهى فاسقة تلبس إزارا وتتنقب تنقبا غيرمحكم وتظهر فى مشيتها اضطرابا وتتصفح وجوه الرجال، فإذا رأت رجلا تظنه يصلح صيدا قربت منه مارة عليه ثم قالت بحيث يسمعها وهى تدعى أنها غيرملتفتة إليه وتقول: «اللهم العن الشيطان فقد أوشكت أن أكون مثله»، ثم تذهب وترجع كأنها تعيب على نفسها وتلومها، فيعجب الرجل من حالها ويقول لها: «ما شأنك أيتها المرأة؟». فتقول له: «ومالك والسؤال عما لايعنيك؟ دعنى فيما قضى الله علىّ» فيلح عليها فتقول له: « أنا امرأة متزوجة والله ماعرفت قط غيره ولا انكشفت لمخلوق سواه وهو رجل قليل المروءة ميال للزنى، فلما كان الآن خرجت من منزلى للحمام ثم عدت والباب مفتوح فوجدت معه امرأة على فراشى، رأيتهم من حيث لايروننى، وأنا امرأة غيرانة شديدة الغيرة، فخرجت على وجهى وآليت على نفسى ألا أعود إلى منزلى حتى أفعل مثل فعله، ثم رجعت على نفسى بالملامة ولعنت الشيطان وقلت أكون خيرا منه»، ثم تنصرف عنه. فلابد أن ينشأ فى قلب الرجل من كلامها شهوة فيتبعها ويستعيدها فتأبى، فيلحّ عليها ويبذل لها أضعاف ما تستحقه مثلها ويطمع فى دوام صحبتها بما ينشأ فى قلبه من الشهوة لها، فتعود معه على نيل ما تطمع فيه من قلبه.

وأما السكرانة، فهى امرأة منحلة تشرب أقداحا من الخمر بحيث تفوح منها رائحتها، ثم تمشى مشية من غلب عليه السكر مستطلعة وجوه الرجال، حتى إذا لاح لها من تظنه صيدا سهلا أخذت بخناقه، وقالت له يافلان أتتركنى إلى امرأة أخرى، وهى تناديه باسم غير اسمه، كأنما التبس عليها أمره، فإذا نبهها إلى خطئها اعتذرت إليه بأنها سكرانة، ثم انصرفت عنه ببطء وجعلت تقوم وتقعد، هنالك تتحرك على الرجل أطماعه فيدعوها إلى منزله فلا تجيبه حتى تحصل منه الأجر الذى أرادت.

أما الحيرانة، فهى امرأة تتفقد دور العزّاب والمغتربين حتى إذا وقع اختيارها على واحد بعينه طرقت باب داره، فإن كان الباب مفتوحا دخلت وأخذت تنادى يا أم فلان! حتى إذا خرج إليها الرجل ونبهها أنها أخطأت فى العنوان اعتذرت إليه وألانت له القول بما يمكنها فى نفسه، فإن همت بالخروج دعاها إلى البقاء معه، فتستعصى عليه حتى تحصل منه أجرها المعلوم.

ونحن نمسك عن ذكر الباقيات لأن حيلهن تشابه ما مر بنا، ونضرب مثلا لتراكم الخبرات الذى يجعل الأمور العشوائية أمورا مقننة، فاعتداء شخص على غلام أمرٌ يكفى فى حدوثه ما يستولى على نفس الرجل من ضعف دائم وتوهج مفاجئ، ثم يؤول الأمر بعد ذلك إلى الصدفة التى تسلمه إلى النجاح أو إلى الفضيحة.

ونحن نستطيع أن نتعرف على قدر من الثبات فى جوهر الحياة البشرية داخل هذا الكتاب من خلال حديثه عن مقومات الجاذبية التى يجب أن تتوافر فى الرجل، فإذا نفس المقومات التى كان يعرفها القدماء هى هى التى يتداولها المعاصرون، يتضح هذا من قول الشاعر:

ماذا يُظَنُّ بسلمى إن ألم بها
مُرَجَّلُ الرأسِ ذو بردين مَزَّاحُ
حلوٌ فكاهته خزٌ عمامتهُ
فى كفه من رُمَّى إبليس مفتاحُ

إنها نفس المقومات: الجمال والغنى وخفة الظل والأناقة، ويضيق بنا المجال لو مضينا نعدد أصناف القوادين والغلمان الذين يتخذون أجرة معلومة، وما يضطرون إليه من الحيل، لكن الكتاب على العموم كنز أنثروبولوجى نادر المثال، يكشف عما يحتاج إليه الفلاسفة وعلماء الاجتماع من مادة يرصدون من خلالها منحنيات العقل الجمعى والتفاوت الطبقى داخل المجتمع.

إن كثيرا من المعاصرين الذين يتعاملون مع التراث الجنسى ما زالوا يتعاملون معه ـ قراءة وكتابة ـ بوصفه مزيلا لرائحة الأرق، وهم بهذا يصدرون عليه حكما مسبقا بالتفاهة، لأن تحليل عناصر الوعى الجنسى لأمة من الأمم فى زمان ومكان معينين هو أحد السبل الرئيسة التى نسلكها كى نقف على الدرجة الحضارية لهذه الأمة من خلال فحص ما يتم داخلها من علاقات، كما يمكن رصد التطور النوعى للغة من خلال فحص المصطلحات الدائرة فى هذا المجال، كما هى الحال فى مجالات أخرى، ونحن حين أقدمنا على التعريف بهذا الكتاب، إنما أردنا أن نعرف القارئ كيف يتأتى له استخراج أشد الجد من أشد الهزل!

عروض موجزة

كتب عربية

محمود درويش.. المختلف الحقيقى

دراسات وشهادات

عمان، رام الله، الشروق، ١٩٩٩، ٣٦٠ صفحة، ٢٧ جنيها



يتضمن هذا الكتاب عددًا من الدراسات والشهادات والحوارات التي أجريت مع الشاعر الكبير، ساهم فيها ما يقرب من أربعين مثقفًا وشاعرًا وناقدًا بطول الوطن العربى وعرضه، بينهم سميح القاسم وفخرى صالح وأمجد ناصر وعلى الشرقاوى وعباس بيضون ومحمد نبيس وهاشم شفيق ويحيى يخلف وإدوارد سعيد وقاسم حداد ورسول حمزاتوف وآخرون.

يكتب إدوارد سعيد عن التلاحم العسير بين شعر محمود درويش وذاكرة شعبه، فيستعرض مسيرته منذ ميلاده عام ١٩٤٢ فى قرية البروة الفلسطينية التى دمرها الإسرائيليون عام ١٩٤٨، ومعاناته فى السجون الإسرائيلية ودرايته بثقافتهم، ثم انخراطه فى العمل السياسى وقربه من الرئيس عرفات وحرصه على استقلاله دائمًا بعيدًا عن التحزب، وهو الاستقلال الذى دفعه إلى رفض إعلان المبادئ مع إسرائيل فى عام ١٩٩٣، ويستعرض فى هذا الصدد دلالات قصيدته الشهيرة «أحد عشر كوكبًا» التى تشير إلى ما جرى فى الأندلس، وتحرص فى الوقت نفسه علي التأكيد علي دور الـ «نحن» فى مواجهة واقع ترفضه الجموع.

ويكتب فخرى صالح عن درويش وصناعة الأسطورة الفلسطينية، ويلخص تجربة محمود درويش الشعرية بأنها تطمح إلى كتابة الحكاية الشخصية المعجونة بالحكاية الجماعية الفلسطينية من خلال تصعيد التجربة الفلسطينية والكشف عن البعد الملحمى فيها، ويستعرض صالح هذه التجربة بدءًا من ديوان أوراق الزيتون ١٩٦٤، وحتى «سرير الغريبة» ١٩٩٩.

ويكتب أمجد ناصر تحت عنوان «اعتراف متأخر»: أحتاج كإنسان قارئ قبل أن أكون شاعرًا إلى شعر محمود درويش، محتاج إليه لأنه ليس من الضرورى أن يوجد، بل لأننى لا أستطيع أن أتصور الشعر من دونه، فعندما أفكر فى الشعر العربى أفكر بمشهد فى قلبه محمود درويش.

ويكتب هاشم شفيق تحت عنوان «طيران محمود درويش» مؤكدًا أن درويش أسس رمزًا استثنائيًا في الشعر العربى والعالمى، ويضيف: من هنا لا غرو في القول أن محمود درويش قد بنت فلسطين مجدها عليه. وهو مثله مثل لوركا وغرناطة، چيكور والسياب، أوكتافيوبات والمكسيك، بابلو نيرودا وتشيلى، فلا معنى لهذه المدن دون هؤلاء، فهؤلاء هم عمادها ومانحوها المعنى والمجد والدلالات الرمزية ذات الثراء الكبير.

وعن «القلق الدرويشى العظيم»، يكتب محمد على شمس الدين محللاً أبياتًا من قصيدته الديوان «سرير الغريبة» وينتهى إلى قدرة درويش علي الإمساك بقيادة سفينته الشعرية بما يجعل من قصائده قلقًا موسيقيًا وهندسيا بالكلمات، متحررة من كل شىء سوي ذاتها، تذوب فلسطين والسياسة والسياسيون والوطن والمنفى والحب والحبيبة والسرير والغريبة والذات والآخر والتراث والحاضر، كل شىء يذوب فى دوران القصيدة ولا يبقى لدرويش سوى الشعر.. إرثه الجميل من الأوطان والمنافى والحبيبات. أما عنوان دراسة عباس بيضون فقد حملها الكتاب «المختلف الحقيقى»، يقول فيها بعد أن يستعرض تجربته مع شعر محمود درويش: يحملنا درويش على ألا نصدق أنفسنا، حين نسأم القوافى ونتأكد من أنها باتت عبئًا على الشعر، وحدها قوافيه تسلم من سأمنا وتبقى عند نفسها وعندنا طلقة حرة (...) لا يهتم درويش كثيرًا بنقد الشعر، ما يهمه هو الإنجاز، وقد أنجز كثيرًا، لا يحتاج إلى دفاع عن شعره، فقد ولد شاعرًا.

□ □ □

ليال أخرى

محمد البساطى

بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٠، ١٧٨ صفحة، ١٢ جنيها



هذه واحدة من المرات القلائل التى يخرج فيها البساطى من عالمه الأثير، عالم القرية وناس البحيرة والنهر، يجرب هنا أن يكتب عن المدينة وتحولاتها في زمن الانفتاح الذى اجتاحت سماته سنوات السبعينيات وبقيت آثاره إلى اليوم، بطلة روايته «ياسمين» جاءت من الريف بعد ما فقدت الأب لتلتحق بكلية الآداب بالقاهرة، ودرست الاجتماع وتخصصت في الفنون الشعبية، تشتبك ـ وحيدة ـ مع المدينة بكل ما فيها، تتزوج من مصرى مقيم في إيطاليا، جاء إلى القاهرة ليدرس العربية ويفترقا بعد رحيله، تضغط عليها الوحدة وصخب المدينة، لا تفلح اهتماماتها وجولاتها في ربوع مصر فى التخفيف من آثار ما جرى في تلك السنوات العاصفة، وتزيدها ثرثرة المثقفين المحبطين في مقاهي وحانات وسط المدينة عزلة، تطلق للجسد عنانه في شبق لا نهائى أملاً في الانعتاق وفك حصار الروح، لكن الروح التى انطفأت ما عاد ممكنًا استعادتها بجموح الجسد، وفيما بين انطفاء الروح وابتذال الجسد، تسقط قناعات كثيرة، وتتهاوى رواسى كانت تظن أنها تقيم الكون كله، تقاليد تشربتها صغيرة في قريتها،وشعارات تاهت معها فى سنوات الستينيات، عن العدل الاجتماعى واستقلال الإرادة وسيادة الوطن والحفاظ علي الذاكرة القومية ضد أى اختراق، فجأة، وفى سنوات قلائل، توصف هذه الشعارات بأنها أكاذيب،وتحال الأفكار الكبرى إلى الاستيداع، ويتضاءل أمام عينيها كل ما ظنت يومًا أنه مبدئى لا يقبل الجدل، وأمام هذا السقوط المدوى تسقط ياسمين وتتحول حياتها إلي فواصل زمنية فحسب: صباح، ظهيرة، مساء، ليل، لكننا نكتشف أن هناك من يرقبها، يعد عليها أنفاسها، ويلاحق كل من يضاجعها، وتقرأ هى مزهولة فى صحف اليوم التالى خبر قتله، لا يقترب القاتل منها، ربما ليقينه أنها ضحية، وأن مستغليها واللاعبين علي مواطن ضعفها هم من يستحقون القتل، تستمر ياسمين فى غيها، تمنح جسدها لمن يطلبه، وتتواصل حالات القتل التى لا نعرف حتى نهاية الرواية من يقف وراءها، هل هما أخواها اللذان سمعا عن أخبارها، فقررا أن ينتقما على طريقتهما، وإذا كانا هما، فإن قتلها هو ما يغسل عارهما ـ بحسب اعتقاد أهل الريف ـ لا قتل عشاقها؟ هل هو شخص مجهول أحبها دون أن يصارحها وقرر أن يقتل كل من تعرف؟ لا إجابة يقدمها المؤلف، الذى يترك لنا النهاية مفتوحة علي هذا الأفق المحير، ليتركنا نفكر في السقوط ودوافعه وآثاره، الذى لم ينل «بطلته» فحسب، وإنما طال دوائر عدة في دنياها.

□ □ □

فجر العلم الحديث

توبى أ. هف

ترجمة: محمد عصفور

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٠، ٤٠٠ صفحة، ٣,٥ جنيه

عالم المعرفة ٢٦٠

فجر العلم الحديث

الإسلام ـ الصين ـ الغرب

على الرغم من أن هذا الكتاب يسدى خدمة جليلة للثقافة والحضارة العربية، كونه يعترف بفضلها وتقدمها على حضارة الغرب من الناحية العلمية، فإنه ـ تلميحًا وأحيانًا تصريحًا ـ يتساءل عن الأسباب التى أدت إلى تفوق الغرب علميًا فى العصر الحديث، حتى صارت الحضارات القديمة، ومنها الإسلامية وحضارة الصينيين، تلجأ إليه وتستهلك دون مساهمة حقيقية، المنجز الغربى العلمى في وجوه عديدة. أول ما يشير إليه المؤلف من أسباب فى هذا الإطار، هو نشوء فكرة المؤسسات المستقلة في الغرب، مما أوجد فضاءً محايدًا وحرية ضرورية للبحث العلمى، لم يتوافرا لحضارة الإسلام والصين. يرى المؤلف أن العلم العربى منذ القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، كان أرقى علم فى العالم، وكانت إسهامات العلماء العرب في كل حقل تقريبًا، فى العلوم والرياضيات والطب والفلك وغيرها، وكانت النظريات والتصورات التي تتضمنها رسائلهم العلمية هى أرقى ما يمكن الوصول إليه في أى مكان فى العالم، ويرجع ذلك لسببين: أولهما إطلاعهم على تراث اليونانيين كله عبر حركة ترجمة هائلة خصوصًا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر، فيما كان هذا التراث مجهولاً في الغرب منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس، وثانيهما ـ فيما يتصل بتفوق العرب علي الصينيين في هذا المجال ـ أن الصينيين لم يحتكوا بالعالم كما فعل العرب، ومن ثم لم يعرفوا أرسطو أو إقليدس أو بطليموس أو جالينوس، وكانت معرفة هؤلاء بالنسبة للعلماء العرب بداية مهمة لتطوير معرفتهم وعطائهم فى علوم الفلك والرياضيات، واعتبر المسلمون أن هذه العلوم أجنبية تمييزًا لها عن العلوم الشرعية والفقهية الإسلامية.

ويشير المؤلف إلى إنجازات مهمة حققها علماء عرب من أمثال ابن الهيثم والبطروجى وعلماء مدرسة مراغة فى غرب إيران ومنهم الأردنى والطوسي وقطب الدين الشيرازى وابن الشاطر، وجهود علماء الأندلس ومنهم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وموسى بن ميمون، لكن العلم العربى بدلاً من أن يخطو خطوة أوسع نحو العلم الحديث كما يقول المؤلف، بدأ يتدهور وبسرعة، بسبب تداخل الأدوار بين العالم والفقيه، فابن رشد كان فيلسوفًا طبيعيًا وقاضيًا شرعيًا، وكان العالم الفلكى ابن الشاطر إمامًا بالمسجد الأموى بدمشق، وهو ما قصده المؤلف فى البداية من عدم وجود مؤسسات علمية مستقلة عن المؤسسة الدينية، فيما اتجه الغربيون منذ انحسار ظلام القرون الوسطى إلى تحقيق نهضتهم العلمية معتمدين على العقل وحده، وأسسوا المؤسسات والمراكز البحثية والأكاديميات التى يمكنها الاضطلاع بهذا الدور بعيدًا عن سلطة الكنيسة.

وإلى جانب هذا السبب الجوهرى يشير المؤلف إلى عيوب أساسية فى نظام «الإجازة» الذى كان شخصانيًا يربط الطالب بأستاذه دون الاستناد إلى معايير

عروض موجزة

موضوعية في التقييم وهو ما انتبهت إليه الجامعات والمعاهد العلمية في الغرب، ويشير أيضًا إلى التحيز ضد السماح للعامة بالحصول على المعرفة دون قيود، على اعتبار أن كثيرًا من المسائل يعد البحث فيها محرمًا، وقد نصح فلاسفة وعلماء كثيرون، منهم ابن ميمون وابن رشد، بالصمت حيال المسائل المحيرة، وهو ما دفعهم إلى رفض المطبعة بعد ظهورها في أوروبا في القرن الخامس عشر حتى لا تصبح المعرفة ميسورة في أيدي العامة.

لكن أخطر دعوة يبثها المؤلف بين ثنايا كتابه، قوله إن الإسلام خاصم العلم واعتبره ضدًا، وهي مقولة يثبت هو نفسه فسادها بإقراره أن المسلمين سعوا إلى ترجمة تراث اليونانيين كله وأضافوا إليه، في وقت كان هذا التراث غائبًا تمامًا عن العقل الغربي.

□ □ □

سعادة السفير

أحمد حسن صبحي

القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ٢٠٠٠، ٣٩٤صفحة.



يروي المؤلف نتفًا من رحلته الطويلة التي امتدت نحو ثلاثين عامًا في السلك الدبلوماسي المصري، جاب فيها دولاً عديدة، واحتك بحضارات وشعوب مختلفة إلى حد التضاد، في أفريقيا والهند وكندا وإيطاليا وتايلاند والمجر، وما يكتبه المؤلف ليس أدب رحلات بالمعنى المفهوم، وليس دروسًا في الدبلوماسية يقدمها مختص إلى جيل الشباب من الدبلوماسيين أو الطامحين إلى الانخراط في هذا المجال. كما أنها ليست انطباعات شخصية صرفة ولا آراء سياسية حادة، إنها خليط من هذا كله، حيث ينصهر اليومي وما يشغل المواطن العادي، بالوطني السياسي الذي يؤرق موظفًا يعبر عن بلاده خارجها، ويتفاعل في الوقت نفسه مع ما يموج فيها وحولها من أحداث.

يروي المؤلف شيئًا من ذكرياته في العاصمة التنزانية دار السلام، وفيما أنت مستغرق في حكاياته المثيرة عن الأفيال والأسود والتماسيح وغابات أفريقيا الفسيحة، ينقلك فجأة إلى أحداث دامية جرت في العام ١٩٧٠، إذ انتشرت حوادث العنف والسرقة ولم تعد شوارع دار السلام آمنة، وصار المؤلف وأسرته محددي الإقامة، وهكذا، فقد العمل بهجته وصار محفوفًا بالمخاطر.

وفي كندا التي يسميها المؤلف «بلاد الدنيا الجديدة»، بدأت رحلته التي لم يخطط لها أبدًا، وانتهت تقريبًا عند شلالات نياجرا التي يصف مشاهدها بأسلوب أدبي بديع، وقبل هذا المشهد الختامي، ثمة حوار دال مع واحد من المصريين المقيمين هناك، جاءه ثائرًا من رغبة ابنته في أن تتزوج كنديًا كاثوليكيًا، فلما أبدى المؤلف، وكان وقتها قنصلاً عامًا في كندا دهشته من موقف الرجل وهو مصري قبطي، قال له في حدة: وهل الأقباط انتهوا لتبحث عن كندي كاثوليكي؟

فيرد الرجل: لا، إنها مصرية أولاً وأخيرًا.

وفي إيطاليا التي يتواجد بها عدد كبير من الشباب المصري الباحثين عن فرص للعمل والرزق، واجه المؤلف بوصفه قنصلاً، عشرات المشاكل حين أصر أن يفتح باب القنصلية ويقابل كل من يطلب المساعدة، ولاحظ القنصل أن الواردين إليه جميعًا هم من الشباب المصري المغامر، وأن أكثرهم يسردون قصصًا خيالية، تتفوق فيها مساحة الكذب على الحقائق، لكنه كما يقول استطاع أن يهدئ من روعهم ويكسب ثقتهم، فقد كان يحنو عليهم بوصفهم من المظلومين المضطهدين، يبحثون عن عمل شريف، وسط ظروف قاسية، اضطرتهم إلى مغادرة بلدهم والبحث عن عمل في هذه البلاد الغريبة.

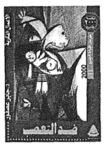
في المجر والهند وتايلاند، حكايات عديدة يختلط فيها العام بالخاص، والشخصي بالموضوعي، وجميعها تقدم صورة عن مسيرة دبلوماسي دامت أكثر من ثلاثين عامًا.

□ □ □

ضد التعصب

جابر عصفور

القاهرة: هيئة الكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ٤٦٥ صفحة، ٣ جنيهات



يرد المؤلف على كتابات عديدة ظهرت في السنوات الأخيرة تعبر عن تعصب وتفتقد الموضوعية في أحكامها، وتستبدل تسامح العلماء بتزمت من يتصورون امتلاكهم للحقيقة المطلقة، الذين لم يكتفوا بمهاجمة وتسفيه آراء مخالفيهم، ممن يرى المؤلف أنهم تنويريون، وهو يتابع هنا على سبيل الحصر قضايا أربعة: قضية نصر حامد أبو زيد التي انتهت بتكفيره والتفريق بينه وبين زوجته واضطراره على إثر ذلك إلى الهجرة والعيش في هولندا، حيث يعمل بجامعة ليدن، وقضية تكفير حسن حنفي أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، وهي المسألة التي تبنتها جبهة علماء الأزهر، لكن الأمور لم تصل إلى ما وصلت إليه في حالة نصر أبو زيد، ثم تكفيرات أخرى نالت الدكتور سيد القمني بسبب كتابه «رب الزمان»، والدكتور أحمد البغدادي الأستاذ بجامعة الكويت الذي حكم عليه بالسجن بسبب اجتهاداته عن جهود الدعوة في المرحلة المكية، والفنان الموسيقي مارسيل خليفة الذي حوكم بسبب قصيدة لحنها وغناها من تأليف محمود درويش قيل إنها تتناول قصة سيدنا يوسف عليه السلام، ثم الحكم الذي صدر في الكويت بسجن الكاتبتين ليلى العثمان وعالية شعيب بتهمة نشر كتب تسيء إلى الأخلاق والدين، ثم أخيرًا الضجة الكبرى التي أثارتها رواية الكاتب السوري حيدر حيدر في القاهرة، والتي تفاعلت آثارها من مظاهرات طلاب جامعة الأزهر إلى ردود الأفعال الصاخبة في مجلس الشعب (البرلمان) المصري، والسجال حول الرواية على صفحات الجرائد المصرية بين مؤيد ومعارض، والنهاية المأساوية لحزب العمل وصحيفة «الشعب» التي أثار أحد كتابها الضجة حول الرواية منذ البداية.

والمؤلف بتصديه لهذه الحملات، إنما يواجه - من وجهة نظره - تيارًا يهدف إلى تقويض المجتمع المدني وقيمه المحدثة تحت شعارات دينية وتبريرات اعتقادية، بما يؤدي إلى تدمير أحلام التقدم والعودة بالمجتمع كله إلى وهاد التخلف، إن الزمن كما يقول المؤلف، هو زمن التعصب الذي علينا أن نمضي في الكتابة ضده، إيمانًا بأن حرية التفكير والإبداع هي جزء لا يتجزأ من حرية الإنسان الاعتقادية والسياسية والاجتماعية، وهي مسئولية عقلية لكل من يرى في الابتكار والابتداع سبيلاً لوعود المستقبل، والنظر إلى حق الاختلاف في الفكر وحق التجريب في الإبداع بوصفهما شرطًا للإضافة الكيفية التي نعني بها معنى التقدم في التاريخ وبالتاريخ.

رصد المؤلف لما جرى في السنوات الأخيرة على صعيد الفكر والإبداع من تداعيات سلبية، يلقي أعباءً إضافية على المثقفين والمفكرين الذين عليهم أن يعيدوا من جديد تأسيس الأفكار التي قادت الأمة في عصور ازدهارها وانفتاحها على المنجز العالمي إلى أرحب الآفاق.

□ □ □

السياسة والدبلوماسية

فؤاد شاكر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠، ٢٦٠ صفحة، ٣٠ جنيهاً



يمثل هذا الكتاب بداية لمشروع طموح يسعى فيه المؤلف إلى تفسير مجريات السياسة والدبلوماسية في القرن العشرين، لا يعني ذلك إهماله لمنعطفات القرن خصوصًا الحربين العالميتين، اللتين تركتا ندوبًا واضحة في قسماته، وأثرتا - حتى اليوم - في تحالفاته الدولية وخيارات شعوبه، فالحرب هي أحد أوجه الدبلوماسية،وهي تبدأ أحيانًا حين تستنفد الدبلوماسية حيلها أو تعجز أدواتها، يقول المؤلف: الحرب الشاملة لا تنشب فجأة، ونشوب الحرب يعني تراجع - إن لم يكن فشل - الدبلوماسية وحل المشكلات أو الأزمات بالتراضي والحسنى.

يبدأ المؤلف كتابه الثاني من الجزء الأول من عام ١٩٠٠ بداية القرن تمامًا والبداية من فرنسا.

لا نعرف لماذا؟ - وهو يبدأ بمقارنة بين ألمانيا التي مثلت في أذهان الأوروبيين المعاصرين ثلاث دعائم لدولة قوية ناهضة: النظام والاتحاد والتقدم، فيما غلبت الخلافات السياسية والفساد والعجز على فرنسا التي بدت على السطح، غارقة في رفاهية الريفيرا والشانزليزيه، ويستعرض المؤلف بالمقابل أحوال إيطاليا التي رسمتها فاشية موسليني بسمات محددة، وبريطانيا التي أرقها السؤال عن بقاء الامبراطورية أو زوالها مع بداية القرن، وكانت ألمانيا مسرحًا لشعارات كبرى وروح بروسية تنادت بالوحدة والتفوق العرقي، ومكنت النازية أن تسيح في عقول العامة، وكانت روسيا على فوهة بركان أججته الثورة البلشفية الكبرى في عام ١٩١٧، طارحة أسئلتها - وأجوبتها كذلك - على مجتمع يمور بالغضب والاحتراق. تلك كانت أحوال الدول العظمى قبل اندلاع الحرب الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨، والتي يصفها المؤلف بأنها كانت حرب احتكاك أكثر منها حرب مواجهة أو تلاحم ويضيف: قدمت التكنولوجيا ما يحقق الغرض: خسائر فادحة، ودمارًا شاملاً في سرعة وعنف، وهو ما لم يسبق له مثيل من قبل.



من أوراق عبد الرزاق السنهوري
٤ ـ مقتطفات

الغرور

الغرور مفيد للشباب، بل هو منه فى منزلة الملح للطعام قليله ضرورى، وكثيره مفسد.

الإيمان

الإيمان والأمل. لا أستطيع السير دون أن أتزود منهما بما يقوى عزمى.

الفضيلة

من المتعذر أن نعيش في الدنيا سعداء، فلنعش فيها أقوياء ولنستمد قوتنا من الفضيلة بقدر ما نستطيع.

الخير

الخير إذا كان ضعيفًا فأولى به ألا يتكلم، وإذا كان قويًا فلا حاجة به إلى الكلام.

الإيمان بالله

أومن بالله، بتلك القوة الخفية التى تحيط بى والتى أعتمد عليها في كل الظروف التى لا أستطيع فيها الاعتماد علي مخلوق. ليس فيما يحيط بى من أشياء وأشخاص وليس فيما يكمن في نفسى من ضعف وقوة، ما أستطيع الاعتماد عليه في قطعى مرحلة هذه الحياة. وشعورى أنى في سيرى متجه نحو تلك القوة الإلهية الخفية يجعلنى أشد العزم وأستأنف السير كلما تعثرت في طريقى.

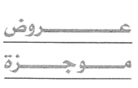
الإحسان

ليس من النادر أن ترى من غُرِسَت في قلبه عاطفة الإحسان ولكن من النادر أن ترى مَن يحسن ويعرف كيف يحسن.

عوامل التفوق

تفوق الرجل بقلبه ثم بأخلاقه ثم بذكائه ثم بعلمه، وما عدا ذلك فمظهر قيمته وقتية أو خداعة.



ويتابع المؤلف بالصور والإحصاءات وبيانات الخسائر ما آلت إليه الأمور، فقد انهارت امبراطوريات وتداعت قوى، وبزغت إلى الوجود قوى جديدة ومفاهيم جديدة في إدارة الصراع العسكرى وكيفية استثمار نتائج القتال في ميادين السياسة، فقد حولت الحرب العظمى الأولى ـ بحسب قوله ـ الثورة الصناعية الأولى إلى ميدان حقيقى داخلى للمعارك، فالذى ينتج أسلحة أفضل وأكثر، وذخائر أفتك وأوفر، كان كانه يقاتل في ساحات الوعى، ويحقق بإنتاجه ما شاء وابتغى، وينتهى بنا المؤلف إلى مؤتمر السلام ومعاهدة فرساى ويرصد في النهاية نتائج اللعبة الخطيرة التى راح ضحيتها ملايين البشر، بالتحديد: ٨,٦ مليون جندى و٦,٥ مليون من المدنيين وآلاف من صور الخراب التى ما زالت ماثلة في أذهان الناس.

ثم يعرض المؤلف بعد ذلك تأثيرات الحرب العظمى الأولى علي العرب ومنطقة الشرق الأوسط وكيف سارت الأمور فى أعقابها خصوصًا مع الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠، ثم يستعرض أحوال مصر فيما بين الحربين العالميتين قبل أن يستعرض قوى النظام الجديد الذى أسفرت عنه الحرب.

وينتهى الكتاب بالحرب العالمية الثانية التى راح ضحيتها ما يقرب من ٤٠ مليونًا، وكذلك يعرض لنتائجها فى السياسة والاقتصاد، وآثارها فى الأوضاع الدولية ونشوء منظمات اقتصادية وسياسية جديدة تعبر عن موازين القوى التى تغيرت، والتى طالتها تغيرات أخرى كنتائج مباشرة للحرب الباردة.

□ □ □

ثقافة النفط
زهير محمد جميل كتبى
السعودية: على نفقة المؤلف، ١٩٩٩، ١٤٥ صفحة



كُتب الكثير عن الآثار السلبية للنفط على المجتمعات العربية خصوصًا على الصعيدين الاقتصادى والاجتماعى، وقيل الكثير عن تأثير الهجرة إلى دول النفط علي الدول التي يضطر مواطنوها إلى العمل فى الدول النفطية، وهكذا أصبح النفط ـ الذى يفترض أنه نعمة إلهية ـ نقمة، ليس فقط علي من وجدت فى أراضيهم آباره، وإنما أيضًا على من سعوا إلى الاستفادة من عائداته. المؤلف هنا، يلقى أضواءً علي ثقافة النفط من داخلها بوصفه مثقفًا ينتمى إليها، وهو ما يمكنه من تقديم تحليل نقدى لا تعوزه الصراحة، إذ يبدأ صفحاته الأولى بسطور يقول فيها إن ثقافة النفط انبهرت بالتجربة الغربية وأساءت استخدامها، فتحققت الرفاهية للإنسان الخليجى دون أن يصاحب هذه الرفاهية تطور نوعي وكيفي يدفع المجتمع فى اتجاهات أكثر إيجابية، ويعتقد المؤلف أن الثقافة التى ترزح تحتها المجتمعات الخليجية، هى ثقافة مزورة، آثرت الاقتراب من الثقافة الغربية على حساب الثقافة الإسلامية، مما جعلها فى نهاية المطاف مشوهة ومزيفة، ولا يفوت المؤلف أن يشيد بالتجربة السعودية التى يعتبرها نموذجًا فريدًا ومميزًا، حافظت على البنية الإسلامية الثقافية، وارتقت بإنسانها وفق هذه الأسس، وأهم ما أثمرته ثقافة النفط من تاثيرات على جيل الشباب، أنها لم تحقق له التوازن المطلوب بين الحقوق والواجبات، مما أدى إلى انحرافات سلوكية تعانيها تلك المجتمعات ولا صلة لها بالثقافة العربية الإسلامية، كما يقول المؤلف.

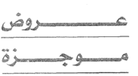
أما كيف نحقق هذا التوازن، وكيف نتخلص من سيطرة الثقافات الغربية علي سلوكنا وتشويهها لقيمنا الإسلامية الأصيلة، فبالجدل والحوار البناء، يقول المؤلف: لا بد أن يكون من مرتكزات هذا المنهج الإصلاحى، أن يعطى الإنسان الخليجى فرصة الرقابة الموضوعية الراشدة التى يفرضها الضمير الإسلامى الحر على أعمال السلطة.

ويقدم نماذج من التراث الإسلامى تعزز هذا التصور، ويهاجم المؤلف المثقفين الخليجيين بعنف مقررًا.. «إن ثقافتكم النفطية فيها طفولة ومراهقة (...) إن شهوة الطعام والجنس أقوى من شهوة الثقافة وشهوة التطور فى ذات المثقف الخليجى، فتجمعهم طاولة طعام وتفرقهم عصا صغيرة».

ويواصل المؤلف اتهاماته فيراها ثقافة قائمة على الخوف والعصبية والعجز وتدنى الوعى، ويقدم فى نهاية كتابه وصفة من «٤٨» نقطة، يرى فيها الخلاص مما أفرزته الثقافة النفطية، وروشتة علاج لأمراض المجتمع الخليجى.

والحقيقة أن قارئ الكتاب، يشعر بجنوح مؤلفه الذى لا تنقصه الشجاعة وملكات التحليل النقدى، لكننا نشعر أن الرغبة فى تعذيب الذات تتجاوز فى كثير من المواضع، رغبة المكاشفة والنقد.

□ □ □



كتب أجنبية

Second Term

(فترة ثانية)

Simon Walters
Politico's, 2000, £16.99



لم يستطع حزب العمال البريطاني الحاكم أن يمضى فى الحكم فترتين متتاليتين وذلك منذ وصوله إلى السلطة للمرة الأولى فى الربع الأول من القرن الماضى ويحاول تونى بلير رئيس الوزراء الحالى أن يكسر سوء الحظ هذا وأن يفوز بفترة حكم ثانية فى الانتخابات المتوقع إجراؤها فى وقت ما من العام المقبل، ورغم أن كل المؤشرات تشير إلى أن حزب العمال فى طريقه لتحقيق هذا الحلم بالنظر إلى الوضع الاقتصادى الجيد وعدم قدرة حزب المعارضة الرئيسى وهو حزب المحافظين على أن يمثل تهديداً حقيقياً للعمال إلا أن الخلافات بين كبار قادة الحكومة العمالية تثير مخاوف من أن ينفرط عقد الحزب أو أن يتعرض لنفس ما تعرض له المحافظون قبيل انتخابات ١٩٩٧ من انقسامات واتهامات بالفساد من طول فترة البقاء فى الحكم.

وأبطال هذه الرواية الخيالية من كبار مسئولى حزب العمال الطامحين للترقى فى ماكينة الحزب أو فى الحكومة وعلى سبيل المثال فإن هناك نائب رئيس الوزراء الأعزب الطموح لرئاسة الوزارة، وهى شخصية تماثل فى الواقع جوردون براون وزير الخزانة الأعزب، الذى تزوج مؤخراً، أى بعيد صدور الرواية. لكن المؤلف غير من سمات الشخصية بناء على نصيحة المحامين حتى لا تقع تحت طائلة القانون. إلا أن الشخصية الرئيسية فى الرواية «العمالية» هى شيرلى ريدباث المتحدثة الصحفية لرئاسة الحكومة، والتى رسمها المؤلف بحيث تجمع بين سمات شخصية التركامبل المتحدث باسم بلير واماندا بلانتل المتحدثة باسم وليام هيج زعيم حزب المحافظين المعارض. وبينما تعد شخصية كامبل مسيطرة وهجومية فإن أماندا رومانسية وهادئة.

ويتحدث المؤلف عن محاولة شيرلى رسم قناع غير حقيقى لما يدور داخل الحكومة والتقليل قدر الإمكان من حدة الخلافات والمناقشة بين الوزراء وخاصة بين بلير وبراون كما تحاول أن تصلح ما يفسده السياسيون بتصريحاتهم .

□ □ □

in the Shadow of the Liberator: Hugo Chavez and the Transformation of Venezuela

(فى ظلال المحرر: هيوجو شافيز والنهوض بفنزويلا)

Richard Gott
Verso, 2000, £16.00





لا يكاد كثيرون يعرفون شيئا عن فنزويلا، تلك الدولة البعيدة سوى أن بناتها جميلات وأن نسبة كبيرة من الفائزات بلقب ملكة جمال العالم من فنزويلا، لكن فنزويلا كانت مثار اهتمام العالم خلال الشهرين الماضيين وتلك المرة من خلال رئيسها الجديد هيوجو شافيز الذى تحدى أمريكا وقام بزيارة للعراق كأول رئيس دولة يزور صدام حسين منذ حرب الخليج الثانية قبل حوالى ١٠ سنوات. ورد شافيز بقوة على الانتقادات الأمريكية للزيارة قائلا إنه يعرف مصلحة بلاده. وكان شافيز قد زار العراق ضمن جولة فى دول منظمة الأقطار المصدرة للبترول «أوبك» وفنزويلا عضو فيها لدعوة قادتها لحضور قمة عقدت الشهر الماضى بمناسبة الذكرى الأربعين لتاسيس المنظمة.

ظهر شافيز على واجهة الأحداث عام ١٩٩٢ عندما كان عقيدا بالجيش وقاد انقلاباً فاشلاً سعى من خلاله لإحداث ثورة اجتماعية ثم فاز خلال العام الحالى بالرئاسة فى انتخابات ديمقراطية ويقول المؤلف، الذى يبدو من خلال الكتاب أنه متعاطف مع شافيز: إن الزعيم الفنزويلى لديه شعور بانه مثل المحرر العظيم سيمون بوليفار بطل القرن التاسع عشر الذى ساعد فى وضع نهاية للحكم الاستعمارى لأمريكا اللاتينية وجاهد من أجل وحدة القارة ويشير المؤلف إلى أن شافيز قال خلال زيارة له إلى كوبا: «باسم كوبا وفنزويلا فإننى أدعو لوحدة الشعبين وباسم ثورتى البلدين اللتين قادهما بوليفار فى فنزويلا ومارتى فى كوبا أناشد أن نقيم وحدة بينهما». ويتمتع شافيز بقدرة مؤثرة على حشد الجماهير وعلى محاربة الفساد والمحسوبية والفشل البرلمانى لكن شعوره بانه محرر بلاده وتجاوزه المؤسسات فى الدولة يجلب عليه الانتقادات ويثير الكتاب جدلا كبيرا حسمته دول عديدة فهل الشعوب فى حاجة إلى شخصية وطنية قوية تتجاوز المؤسسات وتفعل ما تعتقد أنه صحيح للبلاد والناس أم أن الحاجة ملحة لنظام



من أوراق عبد الرزاق السنهورى

٥ ـ مقتطفات

السعادة ـ العدالة

١ ـ من يحاول أن يعتمد على سعادة يستمدها مما حوله لا يلبث أن يشقى . السعادة الحقيقية هى التى يستمدها الإنسان من دخيلة نفسه .

٢ ـ القانون لا يوجد إلا في تنظيم العلاقات فيما بين اثنين متكافئين في القوة أو فى الضعف . أما حيث يتفاوتان قوة وضعفًا فالقانون هو القوة .

السعادة مستحيلة

شيئان يجعلان السعادة الدائمة فى حكم المستحيل : أولهما أن الإنسان لا يقدر النعمة حق قدرها إلا عند زوالها ، فهو لا يعرف السعادة إلا في ذكرى الماضى ، والثانى أن الإنسان إذا تمنى شيئًا يسعد به فناله لا يلبث أن يزهد فيه .

غاية الحياة

كل من يشعر بشىء من حقيقة نفسه يجب أن تكون له غاية شريفة في الحياة يسعى إليها ، وأن يكون لديه شىء من الثقة بمقدرته على الوصول إلى هذه الغاية .

الأصدقاء

من كان جميع الناس أصدقاءه فليس له أصدقاء .

حتى ينتصر الخير

حارب الشر بالشر حتى يندحر . عند ذلك ينتصر الخير .

العقل

العلم لا يوجد إلا بالمعنى الذى يوجد به العقل ، وهو محدد بحدود ذلك العقل البشرى . لا يوجد علم وإنما يوجد عقل .

الحب

يميل الإنسان إلى أن يصور ممن يحب مثالاً للكمال ، وهو أعرف الناس بما فيه من نقائص ، ولكن لذة الحب فى ذلك التصوير .





عـــــروض موجـــــزة

ديمقراطى قائم على المؤسسات التى تستطيع أن تعالج أمراض الدولة من خلال احترام القانون والدستور وفى هذا الكتاب يبدو المؤلف منحازا إلى الرأى الأول.

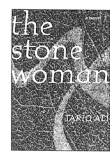
□ □ □

The Stone Woman

(المرأة الحجر)

Tariq Ali

Verso , 2000 , £15.00



مؤلف هذه الرواية المثقف والمفكر البريطانى المسلم البارز طارق على، وهو من أصل هندى، وقد كان طارق على فى نهاية الستينيات أحد أهم زعماء الثورة الطلابية فى بريطانيا. وكان يسارياً وخطيبا مفوهاً ويطلق عليه محارب الشوارع، وعديدة هى المرات التى اعتصم فيها طارق على أمام مقر رئاسة الحكومة البريطانية فى ١٠ دواننج ستريت بلندن دفاعاً عن آرائه واحتجاجا على سياسات الحكومة.

وخلال العقود الثلاثة الماضية عمل طارق على فى عديد من المهن فقد كان صحفيا وسينمائيا ومؤلفا مسرحيا ومؤرخاً وفى كل ذلك كان مبدعاً ومنذ عام ١٩٩٠ دخل عالم الرواية وبدأ مشروعاً طموحاً لإعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر إسلامية يقدم من خلالها الجانب الآخر لما حاول المؤرخون والكتاب الغربيون أن يطمسوه. وأصدر طارق على بالفعل من هذا المشروع روايتين هما «ظلال شجرة الرمان» وكتاب «صلاح الدين» وتأتى هذه الرواية «المرأة الحجر» لتكون ثالث كتاب فى المجموعة ويجسد طارق على من خلال هذه الرواية الصراعات بين الغرب والإسلام خلال فترة بالغة الأهمية وهى بداية سقوط الامبراطورية العثمانية فى نهاية القرن التاسع عشر وتدور الرواية حول نبيل وقائد عثمانى متقاعد هو اسكندر باشا وأسرته وشخصيات أخرى جاءت إلى قصره المطل على البحر والواقع خارج اسطنبول لقضاء إجازة صيف ويتحدث أفراد هذه النخب عن الفلسفة وأحوال الامبراطورية المتداعية وسبل علاجها ولا يخلو الأمر من نمائم ونكات.

ومن خلال هذه الحوارات يكتشف القارىء كثيراً من المعلومات وأنماط التفكير بين النخب العثمانية آنذاك وكيف كانت ردود افعالها على ما يحدث، كما يكشف أيضا الحياة الرغدة التى كانت تعيش فيها والفساد الذى اعترى بعضها.

□ □ □

The dating Game
Searching for the Age of the Earth

(بحثاً عن عمر الأرض)

Chery Lewis

Cambridge up, 216pp, 2000, £17.95



واحد من الأسئلة العلمية التى شغلت العالم أو بالأحرى العلماء لقرون طويلة خاصة القرن العشرين هو كم عمر الأرض. وقد توصل مجموعة من العلماء إلى أن عمر الأرض التقريبى ٤,٥ مليار سنة، وجاء ذلك الاستنتاج بعد جهود شاقة بذلها علماء الجيولوجيا فى القرن العشرين ومن بينهم العالم الجيولوجى البريطانى آرثر هولمز الذى أطلق عليه لقب «أبو قضية عمر الأرض» وتتناول المؤلفة شيرى لويس فى كتابها حياة هذا الجيولوجى وجهودها لتطوير تكنيك يمكن من خلاله قياس عمر الأرض. درس هولمز فى الكلية الامبريالية فى لندن وأمضى أحد مواسم الصيف خلال الدراسة فى موزمبيق حيث أصيب بالملاريا. وكان ذلك من حسن حظه واعتبر اصابته بالملاريا إنقاذا لحياته، فقد كان ذلك يعنى أنه لا يستطيع الانضمام للجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى حيث إن جميع زملائه فى الكلية الذين انضموا للجيش عام ١٩١٤ لقوا مصرعهم فى الحرب. وقد حاول هولمز أن يشق لنفسه طريقا أكاديميا مميزا فعمل فى بورما مع شركة بترول لكن سلوكه الشخصى أثار عليه الانتقادات.

أما عن مشواره العلمى فقد كان من أوائل من حاولوا استخدام تكنيك اشعاعى لقياس عمر الأرض وخاصة الصخور القديمة، وبوسائله تلك تمكن من زيادة عمر الأرض، الذى كان العلماء يعتقدون فيه، من مئات الملايين من السنين إلى آلاف الملايين. وفى عشرينيات القرن الماضى كان هولمز واحدا من بيولوجيين قلائل تحدثوا عما يسمى بالتصدع القارى كما أنه تحدث عن أن الحرارة الموجودة فى قلب الأرض توفر القوة الدافعة لعمليات انتقال الحرارة من جزء من السائل أو الغاز إلى جزء آخر والتى عملت على تحريك القارات حول سطح الأرض.

ويوفر الكتاب معلومات جيدة عن وسائل قياس عمر الأرض من خلال الحديث عن سيرة حياة هولمز، وهكذا الكتاب يدخل ضمن ما يسمى بتاريخ العلم.

□ □ □

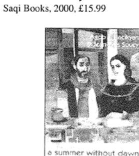
Asummer Without Dawn

(صيف بلافجر)

Agop J. Hacikyan

Jean - Yves Soucy

Saqi Books, 2000, £15.99



من يتذكر اليوم مذابح الأرمن على أيدى العثمانيين الأتراك.. تلك كانت مقولة هتلر الشهيرة عند أراد أن ينفذ مذابح مماثلة ضد اليهود فى الحرب العالمية الثانية.. لكن يبقى السؤال ملحاً الآن لأن اليهود لم يتركوا بشراً أو حجراً إلا أبلغوه بشتى السبل بوجهة نظرهم فى مذابح هتلر ضدهم أو ما يسمى بالهولوكوست ولكن من يذكّر العالم بالمذابح ضد الأرمن والتى لا تريد تركيا حتى الآن الاعتراف بها.

وهذا الكتاب عبارة عن رواية قائمة على أساس قصة واقعية حدثت لجد أحد مؤلفى الكتاب وهو آجوب هاكيان ويعيش هذا الكاتب حاليا فى مونتريال بكندا وهو أرمنى ولد فى تركيا ودرس وتخصص فى قضية الشتات الأرمنى فى العالم. وتدور الرواية حول قصة حب معقدة على خلفية ترحيل الأرمن من أراضى الامبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وبطل القصة طبيب وضابط احتياطى فى الجيش التركى وكان يعمل أيضا صحفيا يرسل أخباراً سرية إلى الصحافة العالمية، وعندما بدأت المذابح ضد الأرمن يتمكن هذا الطبيب من الهرب لكن زوجته وابنه يعانيان من الاضطهاد والتعذيب وتتجنب الرواية اتهام الأتراك مباشرة بالمسئولية عن المذابح لكنها تلقى بالمسئولية على نظام الحكم العثمانى بل إنها تشير إلى أن الزوجة يتم إنقاذها على أيدى مسلم يعمل لدى حاكم عثمانى يدعى رضا بك، هو نفسه كان أحد المسئولين عن المذابح.

ويبدو من الرواية أنها تحاول أن تعيد تذكير العالم بالمأساة الأرمنية دون أن تتورط كثيراً فى أمور سياسية قد تعقد الأمور. وقد صدرت فى البداية باللغة الفرنسية وحققت نجاحاً كبيراً فى فرنسا وكندا ثم جرت ترجمتها إلى الانجليزية.

□ □ □

Something New under the Sun

(هناك جديد تحت الشمس)

John Mcneill

Allen Lane, 2000, 448pp., £20.00

إن قدرتنا كبشر على حماية البيئة غير كفء.. هذه هى النتيجة التى يخلص إليها هذا الكتاب القيم حول التاريخ البيئى للقرن العشرين. وكما يقول المؤلف فإن معظم جهودنا لجعل العالم فى متناولنا كانت نتيجتها خاطئة فى غالب الأحيان وحتى الوسائل التى استخدمناها كانت هى الأخرى خاطئة ويجب أن نغير هذه الوسائل ليس لأنها عالية الكفاءة بدرجة تضر بالبيئة بل لأنها غير كفء.

وخلال القرن الماضى، تدخل الإنسان فى البيئة كما لم يتدخل آباؤه وأجداده من قبل ومن الانفجار السكانى والتصنيع الهائل وتحويل الريف إلى مدن وغير ذلك فإن الإنسان غير تماماً صورة العالم ورغم أن الحقائق التى يقدمها المؤلف فى كتابه ليست جديدة إلا أنه يعرضها بشكل مبسط للقارىء العادى غير المتخصص من خلال لغة بسيطة وتصنيف جيد للمعلومات وعرض صور رائعة تساعد فى فهم القضية. والمشكلة كما يثيرها المؤلف أن الإنسان فى أوقات كثيرة من القرن الماضى اعتبر نفسه فى معركة مع البيئة وأنه لا بد أن يقهرها وينتصر عليها سواء كانت تلك المعركة مع الغابات أو الأنهار أو الحيوانات أو غير ذلك وبعد سنوات طويلة ثبت أن هذه المعركة كانت خاطئة وبالتالى فإن نتائجها كانت مدمرة. وارتفاع درجة حرارة الأرض بشكل لم يسبق له مثيل أوضح دليل على أن تدخل الإنسان له آثاره المدمرة. وقد شارك فى هذا التدمير الافراد العاديون والنخب المتعلمة التى كان هدفها المشترك هو جعل الطبيعة فى خدمة الإنسان بأى وسيلة سواء بشكل مباشر أو من خلال اختراع الآلات أو الأجهزة أو حتى المبيدات التى تساعد فى ذلك، ولا حاجة لتكرار الحديث عن نتائج ذلك.

□ □ □

قراءات جديدة

اجتماع

موسوعة علم الاجتماع
چوردن مارشال
ترجمة: مجموعة باحثين
القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٠

أكثر من ٢٥٠٠ مدخل عن علم الاجتماع ونظرياته ومناهجه، بعد ما انفتح على جميع العلوم الأخرى وتجاوز حدوده الضيقة، وهو ما يؤكد عليه الدكتور محمد الجوهري الذي قدم للموسوعة، مؤكدًا على الدور المهم الذي يمكن أن يلعبه علم الاجتماع في قضايا التنمية.

■■■

هجرة المغاربة إلى الخارج
محمد الكناني وآخرون
الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٠

يجاوز عدد المغاربة المهاجرين إلى الخارج المليونين، يعيش معظمهم في فرنسا وأسبانيا، وهما دولتان تربطهما علاقات ثقافية وتاريخية وثيقة بالمغرب العربي، فضلاً عن تواجدهم في دول أوروبية عديدة، ومؤخرًا تعالت في أوروبا صيحات العنصرية التي ترفض المهاجرين وتلاحقهم، ويتعرضون بشكل مستمر لصدامات وتحرشات، فهل ثمة تدابير تحمي حقوق المهاجرين وتصون إنسانيتهم؟ هذا بعض ما يناقشه الكتاب.

■■■

A Little Too Close to God: The Thrills and Panic of Life in Israel
(الرعب والإثارة في الحياة في إسرائيل)
David Horovitz
Knopf, 2000, 311 PP., $26.00

هاجر المؤلف - وهو صحفي إنجليزي - إلى إسرائيل عام ١٩٨٣، ولكن بعد عشرين عامًا يكتب عن مخاوفه من الاستمرار في العيش هناك. فمن خلال التعليق على الحياة اليومية في المجتمع الإسرائيلي يقدم هوروفتز رؤية إنسانية عن مدى العنف والتحلل الأخلاقي الذي انحدر إليه، والذي يعتقد المؤلف أنه بدأ تدريجيًا منذ حرب ١٩٦٧، حتى وصل إلى الذروة مع حادثة اغتيال رابين. فقد زادت حدة التوتر بين اليهود والعرب من جانب، وبين اليهود العلمانيين واليهود الأرثوذكس من جانب آخر. وأصبحت الأسر في حالة قلق وخوف دائم، والأفراد يسرفون في التدخين وفي القيادة المسرعة وينفقون جزءًا كبيرًا من وقتهم في الجدال مع أنفسهم. وفي النهاية يرى المؤلف وهو ليبرالي ومؤيد للسلام مع الفلسطينيين، أنه لا يعتقد أن إسرائيل بإمكانها عدم التنازل.

■■■

You're Too Kind: A Brief History of Flattery
(أنت بالغ اللطف: تاريخ مختصر عن الإطراء)
Richard Stengal
Simon & Schusler, 2000, 315 PP., $25.00

يبين المؤلف من خلال كتابه أن الإطراء أو التملق يمكن اعتباره هدفًا إرتقائيًا أساسيًا لمعظم السلوكيات الاجتماعية عند البشر منذ فجر التاريخ. فهو سلاح لا غنى عنه في مباشرة جميع الصراعات الشخصية والسياسية على كافة المستويات. فالأضعف يداهن الأقوى ليحصل على مكاسب استراتيجية أو ليتقي شره، والأقوى يطرى الأضعف ليتمكن من إدارته واستغلاله.

إدارة

نهاية عهد الوظيفة
چيرمى ريفكن
أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٠

يتحدث كثيرون من أساتذة الإدارة وخبراء التنمية البشرية عن نهاية عهد الوظيفة مع شيوع الخصخصة والاستثمارات ذات الطبيعة المؤقتة، بحيث تصبح الوظيفة ذاتها مربوطة بزمن تنفيذ المشروعات بما يعني زوال فكرة الوظيفة الدائمة.

■■■

Hidden Value: How Great Companies Achieve Extraordinary Results from Ordinary People
(القيمة الخفية: كيف تحصل الشركات العظيمة على نتائج غير عادية من أشخاص عاديين؟)
Charles A. O'Reilly
Harvard Business School Press, 2000, £17.99

يوضح كيفية خلق نظام إداري وثقافة إدارية قادرة على جعل العاملين يستخدمون مواهبهم. ويدلل المؤلف على تلك القواعد من خلال تجارب واقعية لبعض الشركات التي قام ببحثها.

■■■

The Mind of the CEO
(عقلية المدير التنفيذي)
Jeffrey Garten
Penguin Press, 2000, £20.00

المؤلف قام بإجراء مقابلات شخصية مع ثلاثين مديرًا من أكبر الشركات العالمية في العالم، محاولاً استنتاج صفاتهم المشتركة وأسباب نجاحهم.

أدب

عام الفيل
ليلى أبو زيد
القاهرة: المؤلفة نفسها (ط٤)، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب رواية قصيرة، وهي التي يحمل الكتاب اسمها «عام الفيل» وثماني قصص قصيرة هي بيت في الغابة ورحلة استجمام والمتذمر والصمت والطلاق وعشاء في السوق السوداء والغريب وبطالة. وهي تعد من بواكير القصة النسائية المغربية، يقول عنها الناقد عبد العلي بوطيب أنها معضلة المرأة العربية بعامة، والمرأة المغربية خاصة في إطارها الصحيح، بوصفها إفرازًا موضوعيًا لمعطيات تاريخية.

بيئة

مريوط.. بحيرة في خطر
عادل أبو زهرة
الإسكندرية: جمعية أصدقاء البيئة، ٢٠٠٠

يتزايد بشكل مطرد الاهتمام بقضايا ومشكلات البيئة، وبين هذه القضايا المخلفات التي اختلفت الآراء بشأن التخلص منها في البحر أو حرقها في مواضع خاصة بذلك، وتتعرض بحيرة مريوط لخطر حقيقي بسبب اعتبارها مصرفًا للتخلص من المخلفات، والمؤلف هنا يناقش القضية من كافة جوانبها.

■■■

All our Relations
(كل أقاربنا)
Winona Laduke
South End Press, 1999, 256PP., $14.40

مؤلفة الكتاب اختارها رالف نادر مرشح الرئاسة الأمريكية - والذي ينحدر من أصل عربي - لتكون نائبته في حزب الخضر. وتنتمي وينونا للسكان الأصليين لأمريكا الشمالية، وتعمل بنشاط من أجل حماية البيئة الأصلية للأراضي الأمريكية. وفي هذا الكتاب تتحدث عن اعتداءات الدولة على البيئة الطبيعية والتي تهدد ما تبقى من ثقافة الهنود الأصليين، حيث تعتمد حياتهم وهويتهم على البيئة الطبيعية المحيطة بهم.

تاريخ وآثار

فلسطين في ضوء أوراق البردي والنقوش
مجموعة باحثين
القاهرة: مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، ٢٠٠٠

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه أعمال المؤتمر الذي نظمه المركز عام ١٩٩٨، والأبحاث في مجملها تعالج التراث الفلسطيني ومكوناته، والثقافة الفلسطينية وروافدها، وصلاتها بالحضارات والثقافات القديمة.

■■■

Sydney: The Story of a City
(سيدني: قصة مدينة)
Geoffrey Moorhouse
Harcourt Brace, 2000, 296 PP.,$25.00

في الوقت الذي تتجه فيه أنظار العالم كله إلى مدينة سيدني لمتابعة الألعاب الأوليمبية، يأتي هذا الكتاب ليروي التاريخ الحافل لهذه المدينة منذ أن وصل إلى مينائها الطبيعي الشهير عام ١٧٨٨ أول أسطول بريطاني محمل بسجناء المملكة ليلقى بهم على أرضها. يتناول المؤلف تطور العلاقات بين المستوطنين البيض والسكان الأصليين «الأبورجين»، وفيض المهاجرين الذي أتى من جنوب شرق آسيا.

كما يتناول الجوانب الفنية والمعمارية والسياسية المتعلقة بالمدينة وباستراليا بشكل عام، ليستنتج في النهاية أن أستراليا قد انتهت من فترة المراهقة بمشاكلها لتدخل الآن مرحلة النضوج والتألق مع بداية الألفية الثالثة.

■■■

Hirohito and the Making of Modern Japan
(هيروهيتو واليابان الحديثة)
Herbert P. Bix
Harper Collins, 2000,784 PP.,$35.00

أثار هذا الكتاب منذ ظهوره الشهر الماضي اهتمامًا كبيرًا لما يقدمه من رؤية مختلفة عن تلك التي كانت سائدة حول دور الامبراطور الياباني هيروهيتو في الحرب العالمية الثانية وفي تاريخ اليابان في القرن العشرين. فيؤكد المؤلف أن الصورة التي شاعت عن الامبراطور بعد الحرب العالمية الثانية - والتي ساهمت في إرسائها الولايات المتحدة الأمريكية والجنرال ماك آرثر - وتظهر الامبراطور في صورة الجد المسالم البعيد عن السياسة، الذي لا يهوى سوى عالم البحار، صورة مخالفة تمامًا لما كان عليه هيروهيتو وقت الحرب. حيث كان له حضور في كل جانب من جوانب الحرب وتسبب في إطالتها بسبب طموحه الامبراطوري وعناده. ويتساءل المؤلف لماذا لم ينتحر الامبراطور مثلما فعل هتلر ومثل رئيس وزرائه المخلص توجو؟

■■■

Strange Victory: Hitler's Conquest of France
(انتصار غريب: غزو هتلر لفرنسا)
Ernest R. May
Hill & Wang Pub, 2002, 384PP., $30.00

مؤرخ عسكري أمريكي يعيد النظر مرة أخرى في أسباب الهزيمة السريعة لفرنسا والحلفاء أمام الجيش الألماني في ربيع ١٩٤٠ والتي استغرقت ستة أسابيع فقط. فهو لا يعتقد أن سبب الهزيمة راجع للتفوق العسكري الألماني، حيث كان الجيش الفرنسي أفضل رجالاً وعتادًا، ولكن الهزيمة وقعت حسب تحليله بسبب التفوق الألماني على المستوى التكتيكي والتخطيط الاستراتيجي.

تربية وتعليم

أولادنا والقراءة
سمير يونس
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠٠

عن الدور الذي تلعبه القراءة في حياة أبنائنا، حيث يدخل الطفل معها عوالم متعددة، ويتعرف على بيئات ومجتمعات جديدة، ويسافر خياله في الفضاء وفي أعماق البحار مما يزيد خبراته ومداركه وينمي قدراته المعرفية والتخيلية، كما يناقش المؤلف الدور الذي تلعبه الأسرة في

قـــــراءات جــــــديـدة

تنمية عادة القراءة عند الطفل، وكيف يمكن الاختيار بين أنواع متعددة من الكتب.

■■■

مجموعات المصادر بالمكتبة المدرسية
حسن عبد الشافى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يطرح المؤلف سؤالاً أساسيًا يتعلق بكيفية تكوين المكتبة المدرسية، بوصفها واحدة من آليات تطوير التعليم، وهى برأيه محور العمليات التعليمية والتربوية بالمدرسة المعاصرة، أما مجموعات المصادر التى يقترحها المؤلف، فينبغى أن تكون متنوعة، قوية ومتعددة، بحيث تلبى احتياجات الطلاب فى كافة فروع المعرفة.

■■■

مهارات القراءة
فهيم مصطفى
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

عن المناهج الدراسية فى المرحلة الابتدائية ودورها فى تنمية مهارات القراءة وتطوير الحصيلة اللفظية عند الطفل، وكيفية تدريب الطفل على معرفة المعانى وأشكال الحروف والحركات.

■■■

Gone for Good: Tales of University Life After the Golden Age
(ذهب إلى الأبد: حكايات عن حياة الجامعة بعد العصر الذهبى)
Stuart Rojstaaczer
Oxford University Press, 1999, 210PP., $22.00

المقصود بالعصر الذهبى فى تاريخ الجامعات الأمريكية هو ذلك الوقت الذى كانت تنفق فيه الحكومة الأمريكية على البحوث العلمية بسخاء، لتنافس دول المعسكر المقابل، ولكن ومنذ انتهاء الحرب الباردة قل التنافس وقل الدعم الحكومى المالى وكان على الجامعات البحث عن التمويل من مصادر أخرى. يتحدث المؤلف وهو أستاذ جامعى عن تلك المشكلة وغيرها من المشاكل التى تستشرى فى المناخ الجامعى فى الولايات المتحدة، مثل الكسل الطلابى وتضخم الدرجات والتقديرات وتبسيط المناهج الدراسية لجذب عدد أكبر من الطلاب.. إلخ.

■■■

The Teaching Gap: Best Ideas from the World's Teachers for Improving Education in the Classroom
(الفجوة التدريسية: أفضل الأفكار من مدرسى العالم من أجل تحسين التعلم داخل الفصل)
James W. Stigler, James Hielbert
Free Press, 1999, 210PP., $23.00

من خلال تحليل نتائج «الدراسة الدولية الثالثة للعلوم والرياضيات»، يقدم الكتاب دراسة مقارنة عن الفروق الثقافية فى طرق التدريس، خاصة فى اليابان وألمانيا حيث أفضل النتائج. وقد أظهرت الدراسة أن الولايات المتحدة نتائجها منخفضة للغاية وتقع فى مستوى يضم قبرص وكولومبيا وجنوب أفريقيا والكويت وإيران.

رواية وقصص

الطريق إلى المدن المستحيلة
أبكر آدم إسماعيل
القاهرة: مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠٠

رواية عما جرى فى السودان عبر أبطال يحلمون بتغيير هذا الواقع، والمؤلف جيل جديد من أدباء السودان يلى أجيالاً يتقدمها رائد الرواية السودانية المعاصرة الروائى الكبير الطيب صالح.

■■■

شبرا
نعيم صبرى
القاهرة: دار الحضارة، ٢٠٠٠

اشتهر حى شبرا فى القاهرة دومًا بكثافته العالية، وبشهامة أبنائه من أولاد البلد الذين تتمثل فيهم القيم الأصيلة للشعب المصرى بطوائفه ودياناته وطبقاته، هل تغيرت الحال عبر العقود الأخيرة، ما الذى آلت إليه العلاقات بين أبناء هذا الحى الشهير؟ هذا ما تناقشه الرواية.

■■■

كما يليق برجل قصير
وحيد الطويلة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

ثمانى عشرة قصة قصيرة جميعها كما يشير المؤلف فى نهاية كل قصة، كتبت على المقاهى، تمامًا كما كانت مجموعته السابقة خلف النهاية بقليل، الاختلاف فقط فى أسماء المقاهى، والقصص إجمالاً تختصر لحظات إنسانية بالغة الثراء والشفافية من حياة المؤلف.

■■■

Wild Kids (Modern Chinese Literature from Taiwan)
(أولاد متوحشون، أدب صينى حديث من تايوان)
Chang Tochun, Michael Berry
Columbia University Press, 2000, 280PP., $22.95

أول ترجمة إنجليزية لروايتين لأشهر روائى معاصر فى تايوان، ويتناول فيهما حياة المراهقين فى حقبة الثمانينيات.

■■■

Norwegian Wood
(غابة نرويجية)
Haruki Murakami
Jay Rubin (Translator)
Vintage Books, 2000, 320PP., $13.00

نشرت هذه الرواية لأول مرة فى اليابان عام ١٩٨٧ وباعت ٤ ملايين نسخة وجعلت من المؤلف رمزًا شهيرًا للثقافة الشبابية فى اليابان. تدور الرواية ما بين عامى ١٩٦٩ و١٩٧٠، عندما كان المؤلف فى الجامعة وكانت الانتفاضات السياسية والاضطرابات الطلابية على أشدها. ولكن الرواية تغوص أيضًا فى قصص الحب، والألم والمتعة والخسارة التى تأتى مع فترة الشباب حيث التوقعات الكبيرة والأحزان الكبيرة.

■■■

Daughter of Fortune
(ابنة الحظ)
Isabel Allende
Margaret Peden (Translator)
Harper Collins, 1999, 399PP., $26.00

آخر رواية كتبتها إيزابيل الندى، وتدور أجواؤها بين بيئتين مختلفتين عاشت فيهما المؤلفة بالفعل، الأولى فى تشيلى موطنها الأصلى، والثانية فى كاليفورنيا حيث تسكن الآن. تدور الأحداث فى منتصف القرن التاسع عشر حول الصراع الدائر داخل عائلة متعددة الأجيال ومتعددة الجنسيات.

سياسة

أسرار سياسية عربية
عبد الهادى البكار
القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف أسرارًا تنشر لأول مرة عن وقائع عاشها وكان طرفًا فى بعضها، وهى أسرار تفسر عشرات الألغاز السياسية العربية، ويقدم المؤلف شهادته عن عقود من السياسة العربية وتحولات هذه السياسة ربما من النقيض إلى النقيض.

■■■

العرب بين قمع الداخل وظلم الخارج
تحرير: بهى الدين حسن
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب أعمال المؤتمر الدولى الأول للحركة العربية لحقوق الإنسان الذى عقد فى الدار البيضاء فى أبريل من العام الماضى، وشارك فيه عشرات من الباحثين العرب الذين وضعوا تصوراتهم لمهمات وأولويات حركة حقوق الإنسان فى العالم العربى على مشارف قرن جديد.

■■■

المخاطرة
عبد الرحيم على
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٠

عن الدوافع الحقيقية لمبادرة وقف العنف التى أطلقها أمراء الجماعة الإسلامية فى عام ١٩٩٧، كما يكشف المؤلف عن التغيرات الاستراتيجية فى موقف الجماعة، وهل تمثل هذه المبادرة تغيرًا جذريًا فى فكرها أم مجرد تكتيك مرحلى.

■■■

تمكين المستضعف
مجموعة باحثين
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٠

يحمل الكتاب عنوانًا فرعيًا هو: نحو منظور عربى لتعليم ونشر ثقافة حقوق الإنسان ويفسر المشرف على التحرير مقصد الدراسات، فبحسب قوله، ثمة مصيدة تفرز آليات مسئولة عن إعاقة انتشار ثقافة حقوق الإنسان، وهذا الكتاب يفضح هذه الآليات ويقدم آليات بديلة تساهم فى نشر ثقافة حقوق الإنسان.

■■■

حقوق الإنسان فى فكر الإسلاميين
الباقر العفيف (محرر)
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب دراسة رئيسية قام بها المحرر وتعقيبات عليها شارك فيها باحثون من مدارس فكرية متنوعة، والقضية التى يطرحها الكتاب هى كيفية تفاعل الخطاب الإسلامى التقليدى مع قضايا حقوق الإنسان، بين المشاركين فى التعقيبات: وحيد عبد المجيد وسيف عبد الفتاح وهيثم مناع وغانم جواد.

■■■

لبنان والصراع العربى الإسرائيلى
إلياس سابا
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠

تمكن اللبنانيون أخيرًا من انتزاع استقلالهم برحيل الإسرائيليين بعد مقاومة باسلة عن الجنوب اللبنانى، لكن لبنان رغم ذلك لم يخرج من معادلة الصراع العربى الإسرائيلى، بل يظل ورقة مهمة وفاعلة فى هذا الصراع، الكتاب الذى يقدم له رئيس الحكومة السابق سليم الحص، يبحث هذا الموضوع.

■■■

Eyewitness to Power: The Essence of Leadership, Nixon to Clinton
(شاهد عيان على القوة: جوهر القيادة من نيكسون إلى كلينتون)
David Genger
Simen & Schuster, 2000, 382 PP., $26.00

يكتب مستشار البيت الأبيض المخضرم ملاحظاته عن أحوال القيادة السياسية الراهنة فى أمريكا، وهو يزعم أن انتخابات الرئاسة الأمريكية التى جرت فى عام ١٩٨٠ كانت آخر انتخابات حقيقية شهدتها البلاد. ويقارن المؤلف مقيمًا الأساليب المختلفة التى تميزت بها الإدارات السابقة فى البيت الأبيض، وخاصة فى بناء الصورة العامة للرئيس وفى التعامل مع الصحافة والإعلام. كما يكتب نصائحه للمتقدمين لمنصب القيادة الأمريكية فى المستقبل.

سيرة

ابن عروس
مسعود شومان
القاهرة: دار سما، ٢٠٠٠

دراسة عن شاعر العامية المصرى ابن عروس، عبر تحليل نقدى للروايات التى نقلت عنه أو الحكايات التى تعرضت لشخصيته وحياته بما يفيد فى معرفة أكثر دقة به.

■■■

البابا شنودة شاعراً

عادل البطوسى

القاهرة: دار يوحنا الحبيب، ٢٠٠٠

عُرف عن بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الأنبا شنودة الثالث اهتماماته المتنوعة، بالأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والشئون العامة، وبين اهتماماته وهواياته كتابة الشعر. والمؤلف هنا يتحدث عن أحد هذه الجوانب المهمة فى شخصية البابا شنودة وهو كتابة الشعر.

■■■

الشيتى على كرسى الاعتراف

أحمد أبو سيدو

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يجمع الكتاب مقالات للصحفى الراحل عبد الله الشيتى فى السياسة والثقافة والشئون العامة، وقد عرف المؤلف بأسلوبه الساخر ورؤيته الشاملة لقضايا الوطن العربى كله، كما يضم الكتاب مقالات كتبت فى رثائه.

■■■

حياتى فى الصحافة

عبد الله إمام

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

يروى المؤلف هنا محطات عن تجربته الصحافية الممتدة لأكثر من ٤٠ عامًا قضى معظمها فى روز اليوسف ومجلاتها المتعددة، ثم تجربته أخيرًا رئيسًا لتحرير جريدة العربى الناصرية، وهى تجربة ترصد من زاوية شخصية تغيرات وتحولات المجتمع المصرى خلال هذه السنوات فى السياسة والاقتصاد والصحافة.

■■■

ذكريات وخواطر

أسعد الكورانى

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

سيرة ذاتية للمؤلف يطل من خلالها على المجتمع السورى بإيجابياته وسلبياته طوال عقود مضت. ويبدى آراءً فى السياسة السورية وتوجهاتها المعاصرة.

■■■

مى زيادة.. أسطورة الحب والنبوغ

نوال مصطفى

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

ما تزال الأديبة مى زيادة مثيرة للجدل، بحياتها الثرية وضيوف صالونها الذى ارتاده كبار المفكرين والأدباء من طه حسين إلى العقاد إلى أحمد لطفى السيد وآخرين، وعشاقها الكثيرين وولعها بالأديب المهجرى الأشهر جبران خليل جبران، المؤلفة تسعى إلى اكتشاف جوانب جديدة من حياة مى وفصول من أسباب نبوغها.

■■■

I Love You Ronnie
The Letters of Ronald Reagan to Nancy Reagan

(أحبك يا رونى: خطابات رونالد ريجان لنانسى ريجان)

Nancy Reagan

Random House, 2000, 188 PP.,$24.95

مجموعة من الخطابات الرقيقة التى كان يرسلها الرئيس الأمريكى السابق رونالد ريجان لزوجته نانسى فى مناسبات عديدة مختلفة، تبدأ منذ عام ١٩٥١، عندما تقابلا لأول مرة وإلى أن أصيب بمرض الزهايمر منذ بضع سنوات.

■■■

The Spencer Family

(عائلة سبنسر)

Charles Spencer

Viking, 1999, 368 PP., £20.00

يروى تشارلز سبنسر شقيق الأميرة الراحلة ديانا سبنسر تاريخ عائلته منذ أن كانوا يملكون مزارع للأغنام فى القرن السادس عشر وقصة صعود نفوذهم التدريجى فى مراتب الجيش والوزارة. كذلك يروى المؤلف ما تميزت به العائلة من رعاية خاصة للفنون والثقافة والكتب بشكل خاص، كما يتحدث عن أهم الشخصيات النسائية فى العائلة على مر التاريخ واللاتى كن صاحبات الفضل فى تشكيل سمعة العائلة. الكتاب يقدم صورة من الداخل عن الأرستقراطية الإنجليزية الشهيرة.

شعر ونثر

أعمال ياسين الفيل

الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٠

دراسة تحليلية للأعمال الشعرية لياسين الفيل من خلال رسالة ماجستير أعدت مؤخرًا عن هذه الأعمال وهى أربعة دواوين: حصاد الإيمان، الإبحار على سفن اليقين، صخب الأقنعة، همسات الصدى.

■■■

قصائد قصيرة

كمال نشأت

القاهرة: جماعة الجيل الجديد، ٢٠٠٠

قصائد بالغة القصر لشاعر مخضرم تتنوع موضوعاتها وتنهل من معين الذكريات، ويغلب عليها ما يميز المؤلف عمومًا من صوفية وإنسانية تحتفى بالإنسان الأشمل وتحيل الذات إلى دوائر أكثر اتساعًا وإحاطة، أكثر من ٦٥ قصيدة تدور فى هذا الفلك.

■■■

علاج المسافة

قاسم حداد

تونس: دار تبر الزمان، ٢٠٠٠

يطوِّف بنا الشاعر فى المسافة التى أحيانا ما تكون شاسعة بين أحلامنا وواقعنا، وهو يسعى إلى تقريب تلك المسافة برؤى شعرية وفكرية ليست طوباوية تمامًا، لكنها تلمس مواطن الجرح العربى.

■■■

منتهى الطلب من أشعار العرب

تحقيق: د. حسين نصار

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

الجزء الثانى من الكتاب الضخم الذى ألفه ابن ميمون، ويتضمن قصائد لعشرين شاعرا من كبار الشعراء العرب.

■■■

نبش الذاكرة

حامد طاهر

القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٠

نصوص تحار فى تصنيفها، فكاتبها أستاذ فى الأدب وعميد لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، لكن نصوصه حداثية تحاكى كتَّاب قصيدة النثر من الشباب بمعانيها الطازجة ومشاغباتها التى لا تخلو من ذكاء وسخرية.

طفل

اليد والبرعم. دراسات فى أدب الطفل

على حداد

عمان: مركز عبادى للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

يجول المؤلف بين الأعمال الإبداعية التى كتبت خصيصًا للطفل، ويرى أن الاهتمام بأدب الطفل فى الثقافة الغربية لم يبرز إلا فى نهاية القرن السابع عشر، وقد تم ذلك بفعل عوامل عديدة منها الأفكار التحررية والإنسانية التى شاعت آنذاك، واكتشاف الأدباء لمساحة خصبة تتيحها الكتابة للطفل. وعلى الرغم من اهتمام الواقع الاجتماعى العربى بالطفل، فإن ذلك الاهتمام لم ينعكس على الأدب بصورة واضحة.

علوم

أشعة الليزر

أحمد عبد الرحمن

الكويت: دار سعاد الصباح، ٢٠٠٠

دخلت أشعة الليزر مجالات عديدة فى حياة الناس، فى الطب والزراعة والصناعة وغيرها، هذا الكتاب يناقش تاثير أشعة الليزر على الأنسجة الحية وتطبيقاتها فى الطب، كما يعرض من ناحية أخرى لمخاطرها وآثارها السلبية.

■■■

A Fly for the Prosecution: How Insect Evidence Helps Solve Crimes

(ذبابة من أجل الدعوى: كيف تساهم الحشرات فى حل الجرائم)

M. Lee Goff

Harvard University Press, 2000, 225PP., $22.95

حول الاستخدام الحديث لعلم الحشرات فى الكشف عن جرائم القتل. المؤلف أستاذ فى علم الحشرات وتتم الاستعانة به منذ سنوات فى تحليل ملابسات جرائم القتل من خلال معاينة الحشرات العالقة بالجثث المقتولة والبيئة المحيطة بها، مما يكشف عن أدلة مهمة. ويحتوى الكتاب إلى جانب التفاصيل العلمية على مجموعة من قضايا جرائم القتل التى حدثت بالفعل وشارك فى بحثها المؤلف شخصيًا.

■■■

Nonzero: The Logic of Human Destiny

(اللا صفرية: منطق المصير البشرى)

Robert Wright

Pantheon Books, 1999, 435PP., $27.50

المؤلف له نظرية فى التطور تتلخص فى أن تطور الكائنات الحية تمامًا مثل تطور البشرية، يحدث من خلال التعاون - وليس الصراع - فى صورة مباريات لا صفرية. فالفرق بين الكائنات البسيطة والكائنات الأرقى يرجع للتعقد النابع من تعاون واتحاد الأجزاء المختلفة داخل هذا الكائن. ونفس الشىء بالنسبة للتطور الإنسانى، حيث يتضح أن العولمة والميل للاندماج والاتحاد وازدياد الاعتماد المتبادل بين أفراد المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة هو دليل على استمرار عملية التطور والارتقاء البشرى.

فكر

حضارة العرب

چوستاف لوبون

ترجمة: عادل زعيتر

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

عن فضل الحضارة العربية الإسلامية على تمدين أوروبا وحضارتها الحديثة، وقد بات مستقرًا الآن فى مناهج البحث الأوروبية، الدور المهم للحضارة العربية فى نهضة أوروبا وإيقاظها من غفوتها فى عصور الظلام الوسطى.

■■■

فى ذكرى غالى شكرى

وائل غالى

القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٠

لم يكن الدكتور غالى شكرى ناقدًا أدبيًا فحسب، كان باحثًا اجتماعيًا ومحللاً سياسيًا ومؤرخًا مدققًا، كان حالة استثنائية لمثقف منشغل بالشأن العام ومهموم بقضايا أمته وبعثها بإحياء قيم الاستنارة والتقدم، هذا الكتاب يقدم شهادات لمحمود أمين العالم وأحمد عبد المعطى حجازى وچورج بهجورى ورفعت السعيد وحلمى سالم وسمير سرحان وآخرين، عن دور غالى شكرى وإنجازه الثقافى على مدى نصف قرن تقريبًا.

■■■

The Guilt of Nations: Restitution and Negotiating Historical Injustices

(ذنب الأمم: تعويض ومفاوضة المظالم التاريخية)

Elazar Barkan

W.W Nortcn, 2000, 418PP., $29.95

يناقش الكاتب النقاط الخلافية التى تثيرها مسالة دفع تعويضات مالية للشعوب أو الأمم التى تعرضت لمظالم

قــــراءات جـــــديـدة

تاريخية على يد دول أخرى، مثل تعويض الأبورجين في أستراليا أو الهنود الحمر في الولايات المتحدة وكندا، والكوريين الذين تعرضوا للعبودية على يد اليابانيين، واليهود بالطبع... إلخ. ويحاول الكاتب أن يبرز فوائد وأضرار هذه العملية بالنسبة لتلك الشعوب وغيرها من النواحي الأخلاقية والعملية.

The Myth of Matriarchal Prehistory: Why an Invented Past will not give Women a Future

(خرافة السلطة الأموية ماقبل التاريخية: لماذا لن يعطى الماضي المخترع مستقبلاً للنساء)

Cynthia Eller

Beacon Press, 2000, 304PP., $26.00

تنفى المؤلفة ما تؤمن به الكثير من الكاتبات النشيطات في مجال الدعم النسوى، وهو وجود عصر ذهبى فى وقت ما قبل التاريخ، حكمت فيه النساء الأرض، وكان العالم كله يعبد الإلهة. وهى تقوم فى هذا الكتاب بهدم تلك النظرية على أساس تاريخى وأثرى، كما تؤكد على أن الخرافة لا تصلح كاساس لأى حركة اجتماعية لأنها أساس ضعيف لن يجنى أى تقدم.

فلســـفة

تاريخ فلاسفة الإسلام

محمد لطفى جمعة

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠

دراسة لسيرة وعطاء عدد من أهم الفلاسفة فى تاريخ الإسلام مثل الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم ومحى الدين بن عربى وابن مسكويه وإخوان الصفا، والمؤلف يقدم إلى جانب سيرة حياتهم، بعضًا من آرائهم وتصوراتهم للكون والحياة والوجود وبقية القضايا التى شغلتهم.

فنــــون

خمسون عامًا من الثقافة السينمائية

ناجى فوزى

القاهرة: المركز الكاثوليكى المصرى للسينما، ٢٠٠٠

دراسة عن دور المركز الكاثوليكى فى تشجيع الثقافة السينمائية الجادة ونشرها بين الجمهور، خصوصًا أن هذا المركز يقدم جوائز سينمائية سنوية لأفضل الأعمال السينمائية وأفضل النجوم وفق معايير منضبطة تهتم بالقيم التى يبثها العمل وانعكاسها على الجمهور.

دراسات تشكيلية

صبرى منصور

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

مجموعة من الدراسات تلقى أضواءً على عديد من القضايا التشكيلية عن مصر منذ عصور الفراعنة وحتى بدايات الفن الحديث وكيف تداخلت السمات الفرعونية والقبطية والإسلامية كى تعطى الفن المصرى المعاصر شخصيته المتميزة، ثم عن الفن الأوروبى ومدارسه المختلفة وأهم رموز هذه المدارس.

مسيرة الفن التشكيلى السعودى

عبد الرحمن سليمان

السعودية: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ٢٠٠٠

حقق الفن التشكيلى السعودى قفزات مهمة فى مسيرته خلال العقود الأخيرة، واجتذب فنانين من الشباب من الجنسين مزجوا مدارس الفن الأوروبى ومذاهبه بمعطيات البيئة السعودية وتراثها المتميز. المؤلف - وهو فنان تشكيلى - يعرض لهذه المسيرة ويتوقف عند أبرز الأسماء فى سماء الفن التشكيلى السعودى.

Rap Music and the Poetics of Identity

(موسيقى الراب وشعرية الهوية)

Adam Crims

Cambridge University Press, 2000

الكتاب يناقش بالتفصيل كيف يتم تركيب موسيقى الراب وكيف تساهم موسيقى الراب فى تكوين الهويات الثقافية لكل من الفنانين والجمهور. ويتناول بالدراسة موسيقى فرق محددة من أمريكا وكندا وهولندا للوقوف على الخصائص المحلية والعالمية المختلفة لموسيقى الراب فى العالم.

The Beatles Anthology

(مختارات البيتلز)

By the Beatles

Chronicle Books, 2000, 468PP., $60.00

لأول مرة يوافق كل من بول مكارتنى وجورج هاريسون ورنجو ستار - الأعضاء السابقين لفريق البيتلز - على التعاون معًا لتدوين السيرة الذاتية لفريق البيتلز، كذلك تتعاون معهم يوكو أونو زوجة الراحل جون لينون.

ويحتوى الكتاب إلى جانب ذكرياتهم الشخصية كل على حدة على مجموعة من التصريحات والأحاديث الصحفية وصور لم تنشر من قبل ووثائق مختلفة أخرجها أعضاء الفرقة من أرشيفاتهم الخاصة خصيصًا لهذا الكتاب.

قــــانون

دراسات فى القانون الدولى الإنسانى

باحثون ومتخصصون بإشراف: مفيد شهاب

القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٠

استجدت مشكلات عديدة على كوكب الأرض كان حتمًا على الإنسان أن يواجهها بالقانون بوصفها مشكلات ذات طابع إنسانى ولا تختص بمنطقة دون

قــــــراءات جــــــديـدة

أخـرى، ومنهـا المشكلات الناجـمـة عن انتشار السلاح النووى وكيفية التخلص من النفايات النووية، ومشكلات نقص الماء والغذاء، ومشكلات البيئة وتلوثها، كيف يمكن حماية الإنسان والكوكب الأرضى ووضع القوانين التى تنظم الحياة فيه لدرء هذه المخاطر؟ هذا ما تجيب عنه دراسات الكتاب.

موسوعات ومعاجم

كتاب فلسطين فى القرن العشرين
أحمد عمر شاهين
فلسطين: المركز القومى للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠

موسوعة تضم عشرات المبدعين الذين أجبروا على الخروج من ديارهم فى فلسطين، وواصلوا إبداعهم خارجها، وآخرين استمروا يبدعون برغم ظروف الاحتلال القاسية، وبين هؤلاء: محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقان وإميل حبيب وإدوارد سعيد وغيرهم.

■■■

معجم ألفاظ الشخصية
أحمد محمد عبد الخالق
الكويت: مجلس النشر العلمى بجامعة الكويت، ٢٠٠٠

كالبصمة، لا تتكرر الشخصية، مكوناتها النفسية والثقافية والبيولوجية والبيئية، وجميعها تنعكس على فكر الشخصية وتصوراتها للكون والحياة، ولغتها التى هى وعاء هذا الفكر، هذا المعجم يبحث فى ألفاظ الشخصية الإنسانية وفق هذه الاختلافات، وهو الأول من نوعه فى العالم العربى.

■■■

موسوعة فن العمارة الإسلامية
جمعة قاجة
بيروت: دار الملتقى، ٢٠٠٠

ارتبطت فنون العمارة الإسلامية بالتاريخ الإسلامى على امتداده وبعواصم الخلافة والخلفاء أنفسهم، بحيث يمكن التمييز بين عمارة إسلامية فاطمية وأخرى أيوبية وثالثة عثمانية وهكذا، وإن جمعت بينها سمات مشتركة، فضلاً عن التأثير الجغرافى للعمارة الإسلامية، ويستعرض المؤلف هنا العمارة الإسلامية وتمايزاتها ومدارسها.

■■■

The Rider Encyclopedia of Eastern Philosophy and Religion
(موسوعة رايدر فى الأديان والفلسفات الشرقية)
Stephen Schumacher (editor)
Rider, 1999, 483PP., £14.99

تقدم مسحًا شاملاً للتعاليم وللمفاهيم التى تحتويها الأديان والفلسفات الشرق آسيوية مثل التاوية والهندوسية. كما تعرض تعاليم وأفكار أهم الصوفيين والمفكرين والفلاسفة فى شرق آسيا وسيرهم.

■■■

The Dictionary of Human Geography
(قاموس الجغرافيا البشرية)
Derek Gregory et.al (editors)
Blackwell Publishers, 2000, 969PP., £19.99

مرجع للجغرافيين ولدارسى العلوم الاجتماعية وللمجالات العابرة للتخصص. يحتوى على شرح للمفاهيم والمصطلحات والنظريات المستخدمة فى الجغرافيا البشرية.

■■■

York Dictionary of Phrasal Verbs and Their Idioms, English - English Arabic
(معجم يورك الأفعال العبارية، إنجليزى-إنجليزى-عربى)
Tom Mcarthur, Beryl, Atkins
Mohammed M.H. Heliel
Egyptian International Pub. Co. - Longman, 2000, 313PP., £28.00

مرجع مهم لكل المتعاملين مع نصوص إنجليزية خاصة المترجمين والصحفيين والدارسين. يختص بتقديم شرح للمعانى المختلفة للأفعال العبارية الإنجليزية، ويأتى بمقابلها العربى والإنجليزى.

نقد أدبى

الهجوم على الأدب
رينيه ويليك
ترجمة: حنا عبود
دمشق: الأهالى للنشر، ٢٠٠٠

هل يمكن أن يعيش الناس فى عصر الحضارة الإلكترونية وثورة الاتصالات والبرمجيات والصناعات الدقيقة والميكروسوفت دون أدب، ماذا لو انتهى الأدب وتوارى دوره ونُكست راية الخيال، كيف يمكن أن يكون شكل العالم؟

■■■

زمن للشعر والشعراء
فاروق شوشة
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف بالتحليل عددًا من أبرز شعراء العربية فى العصر الحديث من أمثال صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتى ومحمد الفيتورى وأدونيس وأحمد رامى وغيرهم ممن ينتمون إلى مدارس شعرية متمايزة، لكنها إجمالاً تكمل الصورة الشعرية فى عصرنا الحاضر.

■■■

لطفى جمعة فى الأدب والنقد
رابح لطفى جمعة
القاهرة: دار الكتب، ٢٠٠٠

دراسات أعدها باحثون عن الكاتب الرائد لطفى جمعة، ويتضمن مقالات كتبها فى الأدب والنقد ونشرت فى الصحف والمجلات العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومعروف أن لطفى جمعة واحد من الرواد الذين أثروا حياتنا الثقافية خلال نصف قرن، وإن لم يحظ بالشهرة التى تناسب عطاءه.

■■■



"نون"

الدورة الأوليمبية وثقافة الرياضة

تحتل ثقافة الرياضة فى حياة الشعوب، مساحة أوسع بكثير من المساحة التى تحتلها أنواع أخرى من الثقافات.. أدبية كانت أم سياسية أم اجتماعية، وقد لا تضاهيها فى ذلك غير ثقافة الغناء والموسيقى وفنون السينما والمسرح. وإن كانت ثقافة الرياضة تظل هى الأقرب إلى فطرة الإنسان وميوله، بحكم أنها تعبير عن محاولة الارتقاء بنزعات الفرد العدوانية المكبوتة، وصراعاته ومنافساته الحياتية اليومية، إلى مستوى أعلى من التنافس الرياضى. ولا يحتاج الإنسان مع هذا النوع من الثقافة الرياضية إلا لمستوى تعليمى متواضع، ومتابعة لفنون الحركة والأداء، والسرعة والإتقان فى مجالات التنافس الرياضى المختلفة، على المستوى الفردى أو الجماعى للعبة أيا كانت.

ومن هنا يأتى هذا الاهتمام الواسع الذى تحظى به دورة الألعاب الأوليمبية من جانب أعداد من المشاهدين تمثل ما يقرب من نصف سكان الكرة الأرضية، وقد تحظى بعض اللعبات بحماس الجماهير أكثر من بعضها الآخر، وتصل درجة التعصب والتشجيع لفريق بعينه دون فريق فى المباريات الرياضية، إلى حدود تتجاوز المنطق والعقل، وتتنافى مع السلوك السوى فى الانتماء والتشجيع.. وتمثل لعبة كرة القدم قمة الألعاب ذات الجماهيرية الشعبية الواسعة النطاق، والتى يمكن أن تعبئ مشاعر الملايين خلف فريق أو ضد فريق. كثيرًا ما ينتهى بها الأمر إلى حدوث انفجارات من العنف التلقائى غير المخطط.. تستوى فى ذلك شعوب أكثر الدول الأوروبية تقدمًا وشعوب أكثر الدول تخلفًا فى أفريقيا أو أمريكا اللاتينية. وهى ظواهر لا تحدث فى أى مجال من مجالات التنافس فى الثقافات الأخرى كالغناء والموسيقى، أو التنافس الأيديولوجى والعقائدى ذى الطابع السياسى أو الدينى. إذ يحتاج الأمر فى مثل هذه الحالات الأخيرة إلى مراحل متدرجة من التخطيط والتعبئة التى تسبق تفجير الصراع عند مستوى معين من مستويات العنف.

والأصل فى فكرة الألعاب الأوليمبية هو تفادى الصراعات الإنسانية التى تفضى إلى نشوب الحروب، والارتقاء بالمنافسات بين الشعوب إلى منافسات رياضية بين الأبطال والمتفوقين فى لعب مختلفة، تظهر القدرة على بلوغ أرقى درجة من درجات اللياقة البدنية والمهارة الحركية والسرعة. ولا يعرف التاريخ متى بدأت الألعاب الأوليمبية ولكن أول سجل لها فى التاريخ يرجع إلى ٧٧٦ ق.م. وكانت مقصورة على اليونانيين.. تعقد كل أربع سنوات ويجرى إعلان هدنة مقدسة وقت انعقادها، حتى يتاح للمشاركين فى المباريات السفر والانتقال دون تعريض حياتهم للخطر أو للأسر. ولم تكن الجائزة التى يحصل عليها الفائز تزيد على غصن أخضر من أغصان الزيتون.. تخلع عليه ألقاب البطولة وأناشيد المديح من الشعراء والموسيقيين، يتغنون بشجاعة البطل ومهارته، ولياقته البدنية وقدرته على التغلب على خصمه.



لم يعد الأمر كذلك الآن..

انتهى زمن الهواية، وأغرقت الرياضة فى الاحتراف.. ولم يعد الأمر مقصورًا على جمع أكبر عدد من الميداليات الذهبية أو الفضية، بل اقتحم التطور العلمى والتكنولوجى مجالات الرياضة المختلفة، ودخلت التجارة والبيزنس دنيا المسابقات، وتسللت العقاقير والمنشطات إلى أجسام الرياضيين، وطغت الاعتبارات السياسية على المبادئ الأخلاقية، وأصبح تحقيق الأرقام القياسية هو المعيار، ليس فقط على مستوى المتنافسين ولكن أيضًا على مستوى المدن والدول التى يقع الاختيار عليها لتنظيم الدورة الأوليمبية.. أيها يحقق أعلى درجة من النجاح فى التنظيم والإدارة وتأمين اللاعبين، ويحقق فى الوقت نفسه أعلى عائد من الدخل والرواج التجارى والمالى للبلد وأهله، ويستغل الزخم الإعلامى الهائل فى الدعاية والترويج السياسى والسياحى والاقتصادى.

وراء الثقافة الرياضية إذن يمتد عالم واسع، تتنافس الدول والشعوب على الإحاطة به وبأسراره وبتقنياته.. وهذا العالم هو الذى يصنع ما يمكن أن نسميه الثقافة الأوليمبية التى تحوى بين دفتيها ـ إلى جانب الثقافة الرياضية ـ أنواعًا مختلفة من المهارات والقدرات التنظيمية والإدارية والفنية والتكنولوچية.. وقبل كل شىء كفاءات بشرية، يمكن أن تعمل وتنتج فى ظل قوانين ونظم جماعية. لا يكفى أن تتوافر الملاعب والمنشآت وصالات الچيمنازيوم والمدرجات وأماكن الإقامة والمواصلات والاتصالات لعدة ألوف من اللاعبين والإداريين والإعلاميين، بل يحتاج الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك.. إلى ما يمكن أن نسميه «معايشة العصر»، والقدرة على الإبهار والابتكار والمنافسة الحضارية.

ولهذا السبب لم يحدث أن أقيمت دورة أوليمبية فى أية دولة عربية، ولن يحدث ذلك فى القريب.. على الرغم من ادعاءات دول عربية بأنها تتوافر لديها الإمكانيات المادية لإقامة المنشآت والملاعب، وشراء الكفاءات التى تقوم على شئون التنظيم والإدارة.. وربما تكون لديها بعض فرق رياضية متميزة فى لعبة أو لعبتين. ولكنها تفتقر إلى الروح الرياضية أو الثقافة الرياضية التى ترتقى بالألعاب الجماعية (مثل كرة القدم أو السلة) إلى ذرى الإتقان، الذى يسمح بتميز الفرد داخل إطار الجماعة أى الفريق، ويسمح بتفوق الفريق من خلال الاعتراف بالمهارة الفردية!

أما اللعبات الفردية التى تعتمد على تربية مهارات بدنية وعضلية ونفسية، يحركها الطموح الفردى المشروع، ويستجيب لها المجتمع بالحوافز المادية والتقدير الأدبى، فقلما ينجح فى المجتمعات العربية، التى عادة ما يذوب فيها الفرد تحت وطأة القبيلة أو الأسرة أو الجماعة أو النظام السياسى. وفى وقت من الأوقات تفوقت مصر أوليمبيا فى المصارعة ورفع الأثقال وسباحة المسافات الطويلة. ولكنها كانت أشبه بالاستثناء الذى يؤكد القاعدة. وقد ظهر أن كثيرًا من البطولات التى تحققت فى لعبات فردية فى ظل الأنظمة الشمولية، كانت تعتمد على المنشطات والعقاقير. واضطرت الصين فى الدورة الأوليمبية الراهنة إلى سحب أكثر من ٣٥ من أبطالها المتفوقين فى لعبات فردية مختلفة، فى ظل اشتداد الرقابة التى تفرضها اللجنة الأوليمبية للتأكد من عدم تناول اللاعبين لعقاقير غير مسموح بها.



لم تعد الثقافة الرياضية بمعناها الواسع أو الثقافة الأوليمبية بمعناها الأوسع، قصرًا على تربية الكفاءات الرياضية والكوادر الإدارية والتدريبية التى تكفل لها حصد الجوائز والميداليات الذهبية والفضية، وامتلاك المهارات القادرة على تنظيم الدورات الأوليمبية وجنى ثمارها.. ولكنها أصبحت تولى اهتمامًا مساويا للتعرف على سلوكيات الجماهير الواسعة من المشجعين بجميع درجاتهم، الذين تتصاعد لديهم مشاعر الحماس والتأييد إلى درجة التعصب، الذى يفضى إلى انفجار الطاقات المكبوتة فى أعمال عنف وشغب فى المدرجات والملاعب لكى تنتقل بعدها إلى الشوارع، بصورة تهدد الأمن والنظام.

وتمتلئ الأدبيات الخاصة بالأبحاث العلمية التى تجرى فى هذه المجالات، بدراسات عميقة، تتناول التغيرات والتحولات النفسية والجسمية والمزاجية التى تطرأ على مشجعى لعبة رياضية بعينها، أو فريق بعينه، أو بطل من الأبطال المتسابقين.

ولا تزال هذه الأبحاث فى بداياتها الأولى، بعد أن أدى انتشار الرياضة وتغلغلها فى مختلف الطبقات الشعبية، إلى ظواهر مرضية أو غير طبيعية لم تكن ملحوظة من قبل. وفى هذا الصدد تثور تساؤلات مثل: لماذا يرتبط شخص ما بفريق رياضى هذا الارتباط العميق؟ ولماذا تكون نتيجة مباراة فى لعبة ما مثار شعور بالفخر والاعتزاز وتقدير الذات، أو شعور بالهزيمة والإحباط والإذلال؟

هناك نظريات عديدة تفسر هذه السلوكيات، هى جزء من الثقافة الرياضية السائدة الآن، ويتم على أساسها مراعاة قواعد معينة فى تنظيم المباريات، ومواجهة الجماهير الزاحفة فى الملاعب الكبيرة التى تحتشد بعشرات الألوف من المشجعين دفعة واحدة، تفاديا لوقوع حوادث طارئة يصعب السيطرة عليها.

وبعض هذه النظريات يعود فى تحليله لسيكولوجية المشجعين إلى الجذور الأولى، عندما كانت التجمعات الإنسانية مجرد تجمعات قبلية، تعتمد فى حمايتها والدفاع عن أمنها ضد القبائل الأخرى والأخطار الخارجية، على عدد من المحاربين الأشداء. وهو ما يحدث الآن فى المجتمعات الحديثة المتحضرة، التى يمثل فيها الرياضيون الأبطال دور المحاربين القدماء ولكن فى ساحات الملاعب والصالات المغطاة.



ما نريد أن نخلص إليه هو أن الثقافة الرياضية أصبحت تشتمل على مجالات أوسع كثيرًا مما درج عليه المسئولون عن الرياضة فى بلادنا. وأن تنوع الثقافات لا يعنى فقط اختلاف الثقافات باختلاف الشعوب، ولكنه يعنى أيضًا أن لكل نشاط إنسانى ثقافته الخاصة به، وأن التفوق فى هذا النشاط الإنسانى ـ الرياضة فى هذه الحالة ـ يقتضى إلمامًا كاملاً وإحاطة شاملة بثقافة الرياضة. فالتفوق الذى تحرزه بعض الدول فى الدورات الأوليمبية أو المباريات الدولية لا يأتى من فراغ، وليس ضربة حظ أو رمية بغير رام. بل هو استنفار لكل ما فى الإنسان من مواهب ومميزات عقلية وجسدية ومهارات تكنولوچية ومعرفية.

سلامة أحمد سلامة

لأن الوقــــت من ذهــــب
نقــــدم لك خدمــات ذهبيـــة ..



برامــــج الإشتراك الشهري

يقدم كليك جولد برنامجيين مختلفين للإشتراك الشهري. برنامج سمارت الذي يصل معه الإشتراك إلى ٥٩ جنيه شهرياً والبرنامج الشخصي ذو الإشتراك الشهري الثابت ٦٥ جنيه.

SMS خدمـــة الرسائل القصيرة

تستـــطيع إرســـــال أيــــة رســــائل قصــيرة في أي وقـــت ولمـــن تريـــد.

CONFERENCE CALL

يمكنــــك التحـــدث إلى ٦ في وقــت واحـــد عن طريـــق الموبايـــل.

DIAL 2 TRAVEL CALL 2525

تستطيع الإتصـــال بـ ٢٥٢٥ وتســتمتع بكل خدمــات توماس كوك السياحية بأسـعار خاصة.

الخدمات الصوتية IVR

يمكنــك الآن سماع وإرســال أحـدث الأغاني. بالإضافة إلى معــرفة أسعار العمــلات وأسعــار الأسـهم في البورصــة المصـــرية.

CLICK OFFICE

يمكنـــك إرســـال وإســـتقبال الفاكســـات و المعلومـــــات أينمـــا كـــنت.

W@P

يمكنـك إستخدام الإنترنت المحمول ومعرفة كل الأخبـــار العالمـــية عن طريق شبكة الـ CNN.

تمتــع بأوســع تغطـــية مع شبـــكة كليـــك في ١٦٥ مدينة و٤٨ طــريق سفــر، بالإضــافة إلى جــودة شبكة كليــك وخدمة عمــلاء متميزة مدربـــة على تقديــم أرقــى مســـتوى من الخــدمة.



القمــة في مستوي الخدمــة